

توضیح : ج . و ل -



Bibliotheca Alexandrina



0125709

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مَعَالِمُ تَارِيخِ الْإِنْسَانِيَةِ

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة
جامعة القاهرة
مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

مكتبة

الإنتاج الفني

مكتبة

م.ج. ولز
مَعَالِمُ تَارِيخِ الْإِنْسَانِيَّةِ

ترجمه
عبد العزيز توفيق هاريس

المجلد الثاني
في تاريخ الإغريق والرومان ومن عاصروهما

الطبعة الرابعة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

هذه ترجمة لكتاب :

The Outline of History
Being A Plain History of Life and Mankind
From Primordial Life to NineteenSixty

By

H. G. WELLS

Revised by

RAYMOND POSTGATE

With Maps and Plans by

J. F. HORRABIN

- ١ - راجع الطبعتين الأوليين الأستاذ زكى على ، الأستاذ السابق للتاريخ القديم بجامعة القاهرة .
- ٢ - وعاود المترجم مراجعة هذه الطبعة الثالثة على طبعة ١٩٦٣ التى أشرف عليها الأستاذ راييموند پوستجيت الكاتب والصحفى الإنجليزى المعروف

معالم تاريخ الإنسانية

المجلد الثاني

ويحتوى الكتابين الرابع والخامس

الكتاب الرابع : بلاد اليهودية وبلاد الإغريق والهند

الكتاب الخامس : قيام الإمبراطورية الرومانية وانهارها

كلمة المترجم

هذا هو المجلد الثاني من « المعالم » ، أقدمه لقراء العربية راجياً أن يسود عليهم منه ما حفزني إلى ترجمته من نفع وفائدة . وسيجد فيه القراء ذكراً مفصلاً لمجتمعات ثلاثة مرت في مواكب التاريخ : أولها ذلك المجتمع الذي ابتدع لنفسه فكرة الوعد وأرض الميعاد ، واتخذ التوحيد والخلود له عقيدة ، وكتبه المقدسة رباطاً ومُحتشداً . وأعني به مجتمع السبرانيين الذين يسرفون باسم اليهود .

وأما المجتمع الثاني فمجتمع يونان الذي عرفت فيه الإنسانية أن لها عقلاً يفكر ، وأن هذا العقل ينبغي له أن يفكر وهو طليق من أغلال الماضي وتقاليده ، وأن ما لا يستقيم على صراط العقل وهم مبطل وخيال خائل . في ذلك المجتمع عرف الناس أنهم سواسية لا فرق بين حاكم ومحكوم إلا بحسن السيرة واحترام القانون ، وعرفوا أن الحاكم ليس ظلاً لله ، وأن مشيئته ليست كما زعم الأقدمون قبساً من إرادة الله ؛ وإنما يستمد الحاكم قوته من فوق الأرض ، من ذلك الشعب المحكوم الذي لا بد وأن تكون له إرادة وأن يكون له سلطان وأن تكون له أداة تنبّر عن تلك الإرادة وذلك السلطان ، وهي الديمقراطية التي اتخذها أولئك القوم مذهباً ومعتقداً ، وأورثوها من جاء بعدهم من القرون .

هناك قام أفلاطون ينشئ خيالا ويعبر للإنسانية عن أسانيه اللذاب فيما رسم لها في « جمهوريته » من خطط وما ارتضى لها من مثل ، وقام أرسطو منقباً في ضوء عقله ، باحثاً في طوايا نفسه وفي أسرار هذا العالم وخفائيه ، وذلك بعد أن تم لولون وضع القوانين التي تصون كرامة البشر وحقوقهم ،

(و)

وبعد أن جاء رجل الدولة بريكليس فوطد للديمقراطية أركانها بما آتاه الله من حصافة وحسن تدبير وتقديس للحرية .

أولئك قوم نعجب بهم لأنهم قاموا بما قاموا به من أعمال ، بل لأنهم كانوا - فيما يرى ولز - البادئين بمعالجتها السابقين إلى التفكير فيها دون من تقدمهم من أجيال الإنسانية جميعاً . تلك أمة قد خلت بعد أن خلقت للعالم تراثاً جليلاً ما أحوج العالم العربي وهو في إبان نهضته الحديثة إلى تدبره والتفكير فيه .

وقبل انبثاق تلك البحوث الفكرية التي امتاز بها ذلك المجتمع تولدت أساطير اليونان جميلة جذابة ساذجة ونشأت الرطازات حلوة عذبة ، تعبّر عن ذلك الخيال البدائي المبكر الحافل بالشاعرية الهادئة الرقيقة .

أما المجتمع الثالث فمجتمع روما الجامع بين النقيضين الوارث للضدين : جاهلية الإثرودين ومدينة الإغريق . ففي مجتمع روما اجتمع من أسباب الحضارة أرقاها ومن دلائل الحمجية أحطها وأدناها . وفي مجتمع روما تطور فن المال نافعاً وضاراً وتنوعت أساليب استعماله . وفي مجتمع روما ازدهر فن عمارة عظيم لا يزال الناس يعجبون به ويفيدون منه إلى يومنا هذا . وفي مجتمع روما تجمعت كل حضارة الغابرين وتكسدت ترف الأولين . وتمدت الطرق وأنشئت الجسور . وفيه بدأت أساليب التلاعب بالضعفاء ، وأحاييل العبث بإرادة الكثرة من الشعب وتزييف اتجاهاته . على أن مجتمع الرومان كان بين تجارب إنشاء الدولة العظيمة صورتها الأولى فتبدى فيها يتبدى فيه كل تجربي من نقص شائه لسنا نشعر أن الدنيا قد نضت عن نفسها حتى في عصرنا هذا على الرغم من تأخر الزمان وجهود المصلحين . وفي مجتمع روما الضخم عرف الناس أن في الإمكان أن يحكم المجتمع نفسه بنفسه مهما أوتى من الضخامة ومهما كثرت مدنه ودساكره .

وعن مجتمع روما أخذت أوروبا قانون الظفر والتّاب ، ألم تكن روما

(ح)

يومئذ من مشاكل وعواطف وشهوات ، لا يزال يعتلج في صدور الناس إلى وقتنا هذا . ولم يفت ولز ألا يقصر حديثه على الوقائع مجردة ، بل هو ينشئ للقارىء نسجاً محبوباً ، لحمته آراؤه ومذاهبه التي خلقها وآمن بها ، جاعلاً من أحداث التاريخ سدى لذلك النسيج . فأنت إذ تطالع الكتاب تتناول معه خناصر ثمينة ، منها ما يبثك الديمقراطية ، ومنها ما يدعوك إلى تقديس الحرية وصون الكرامة البشرية والتحلل من قيود التعصب أياً كان مبعثه ، ومنها ما يحفزك إلى تقدير الإنسان ووضعه في مرتبته الشريفة بين الكائنات بوصفه إنساناً : العالم موطنه والإنسانية قوميته وجنسيته .

* * *

ولا يفوتني أن أسجل مزيد اغتباطي للتقدير الكريم الذي لقيه المجلد الأول من الأوساط العلمية ومن كثير من أساتذة الجامعة المحترمين وكبار رجال وزارة المعارف وخاصة أستاذى المؤرخ الكبير محمد شفيق غربال بك الذى يعد بحق راعى الكتاب ونصيره - فقد تلقيت من حضراتهم من عبارات التشجيع ورسائل الرضاء ما لا يسعنى إلا أن أشكر الله عليه أجزل الشكر وأعظمه . ولقد أحسنت لجنة التأليف الموقرة كل الإحسان كدأبها إذ عنيت بمواصلة طبع هذا الكتاب وإذاعته في الناس فأسدت إلى المكتبة التاريخية في لغة الضاد فضلاً جديداً . ذلك أنى لست أعلم - وبشركنى في ذلك حضرة الأستاذ المراجع وهو الإحصائى الثقة - بأنه قد صدر في العربية كتاب في تاريخ الإغريق والرومان انطوى على ما ينطوى عليه هذا المجلد من الإحاطة والشمول مع الدقة العلمية وصحة المعلومات ولذلك أشعر بالسعادة إذ أقدمه للأمة العربية مشفوعاً بشكرى العظيم لحضرتى صاحبي العزة الأستاذ الجليل أحمد أمين بك رئيس اللجنة والأستاذ الدكتور أحمد عبد السلام الكردانى بك سكرتيرها العام وحضرات أعضائها المحترمين .

ولقد بذل حضرة المراجع الأستاذ زكى على أستاذ التاريخ

(ز)

قدوة الدول الغربية ومعلمتها الأولى فيما أخذت به هذه الدول من استعمار وأنانية واستغلال للشعوب المغلوبة وعدم اهتمام بمصالحها أو الأخذ بيدها إلى طريق النهوض والتقدم ؟ ولعل في أسطورة رومولوس منشي روما وأنه قد غذته ذئبة بلبانها ، انسجماً مع ما اتستت به هذه الدولة من جشع وغدر وذئبية . فلا عجب أن كانت الدول الاستعمارية في القرن التاسع عشر ، قرن ثورة الاستعمار وفورته تضع روما موضع التقدير والإعجاب بسياستها الغشوم ونظمها الاستنزافية .

إن العالم لم يلق من روما وضريراتها في العصر الحديث إلا كل شر ونكر ، ولكن الشرق العربي الناهض الذي لا يزال يصلى أساليب الاستعمار الجهنمية خليق بأن يقلب الرأي في تاريخ روما عله أن يستفيد من سالف التجارب في رد ما يلقى من المحن في حاضره ومستقبله .

» « «

والمؤلف لا يقتصر في هذا السفر بالبداية على التاريخ من الناحية السردية وحدها ، بل يتناوله من نواحيه الاجتماعية ثم الإنسانية ومن زاوية الحياة وتنظيماتها .

وإنك لا تدرى إذ تطالع هذا السفر من أى أقطاره يأخذك الإعجاب به وبمؤلفه ؛ بل إنك إن رمت التاريخ وجدت فيه ما يملك مشاعرك من أحداث وعبر ؛ وإن التمس السياسة أو الاجتماع ظفرت بكل رائع أخاذ ، في نهج علمي محكم وتناسق بين الأقسام فريد .

وها هو ذا المؤلف يحلل بين يديك مقومات تلك المجتمعات ثم لا يقف عند هذا الحد بل يتقدم إلى الموازنات فيعقد الواحدة منها تلو الأخرى بين تلك المجتمعات وبين ما يشاكلها أو يجافها في عصره ، فتخرج من كل ذلك بأن تلك المجتمعات إنما هي هيئات إنسانية مركبة ، تماثل أو — تكاد — معظم ما تنطوى عليه حياتنا العصرية من الظواهر . فإن ما كان يحرك عقول الرجال

محتويات الكتاب

صفحة

كلمة المترجم	٥
محتويات الكتاب	٦
فهرس الصور والخرائط	٧

الكتاب الرابع

بلاد اليهودية^(١) وبلاد الإغريق والهند

الفصل الثامن عشر : الكتب المنزلة العبرانية والأنبياء العبرانيون ...

١ - مركز الإسرائيليين في التاريخ	٢٨١
٢ - شاول وداود وسليمان	٣٩١
٣ - اليهود شعب مختلط الأصل	٢٩٨
٤ - أهمية الأنبياء العبرانيين	٣٠١

الفصل التاسع عشر : الشعوب الناطقة بالآرية في عصور ما قبل التاريخ

١ - انتشار الناطقين بالآرية	٣٠٥
٢ - من حياة الآريين الأصلية	٣١٠
٣ - العائلة الآرية	٣١٩

الفصل العشرون : الإغريق والفرس

١ - الشعوب الهلينية	٣٢٧
٢ - المظاهر المميزة للمدنية الهلينية	٣٣٠
٣ - الملكية والأرستقراطية والديمقراطية في بلاد الإغريق	٣٣٤
٤ - مملكة ليديا	٣٤٥
٥ - نهوض الفرس في الشرق	٣٤٧
٦ - قصة كرويسوس (قارون)	٣٥١

(١) اضطررنا الى وضع هذا الاسم تمشياً مع المؤلف والحقيقة أنها بلاد الكنعانيين والفلسطينيين وان كان المؤلف ينكر على الصهيونية في المجلد الرابع كل مدعياتها في فلسطين .

(ل)

الصفحة

- ٧ - دارا يحتاج روسيا ٣٥٧
 ٨ - معركة ماراتون ٣٦٤
 ٩ - ثرموبيلاي وسلاميس ٣٦٦
 ١٠ - پلاتايا وميكالي ٣٧٣

الفصل الحادى والعشرون : الفكر والأدب والفن عند الإغريق

- ١ - أثينا فى عصر بريكليس ٣٧٧
 ٢ - سقراط ٣٨٨
 ٣ - أفلاطون والأكاديمية ٣٩٠
 ٤ - أرسطاطاليس والليسيوم ٣٩٣
 ٥ - الفلسفة تصبح غير دينوية ٣٩٥
 ٦ - نوع الفكر الإغريق وتحديداته ٣٩٧
 ٧ - أول أدب خائلى عظيم ٤٠٤
 ٨ - الفن الإغريق ٤٠٩

الفصل الثانى والعشرون : سيرة الإسكندر الأكبر

- ١ - فيليب المقدون ٤١٣
 ٢ - مقتل الملك فيليب ٤٢٠
 ٣ - أول فتوح الإسكندر ٤٢٥
 ٤ - تحولات الإسكندر ٤٣٧
 ٥ - هل كان الإسكندر عظيما حقاً ؟ ٤٤٢
 ٦ - خلفاء الإسكندر ٤٤٧
 ٧ - برجامة ملاذا للثقافة ٤٤٩
 ٨ - الإسكندر كبشير وداعية للوحدة العالمية ٤٥١

الفصل الثالث والعشرون : العلم والدين فى الإسكندرية

- ١ - علم الإسكندرية ٤٥٤
 ٢ - فلسفة الإسكندرية ٤٦٣
 ٣ - الإسكندرية مصنعا للديانات ٤٦٤
 ٤ - الإسكندرية والهند ٤٦٩

الفصل الرابع والعشرون : قيام البوذية وانتشارها

- ١ - قصة جوتاما ٤٧١

(م)

صفحة

٤٧٨	٢ - التعاليم والأساطير في نزاع
٤٨٢	٣ - إنجيل جوتاما بوذا
٤٨٧	٤ - البوذية وأسوكا
٤٩٤	٥ - معلمان صينيان عظيمان
٥٠٠	٦ - مفسد البوذية
٥٠٢	٧ - مجال البوذية الحالي

الكتاب الخامس

قيام الإمبراطورية الرومانية وأهميتها

الفصل الخامس والعشرون : الجمهوريتان الغربيتان

٥٠٥	١ - بدايات اللاتين
٥١٤	٢ - نوع جديد من الدولة
٥٣١	٣ - جمهورية الأغنياء القرطاجية
٥٣٢	٤ - الحرب البونية (الفينيقية) الأولى
٥٣٨	٥ - كانتو الأكبر وروح كانتو
٥٤٣	٦ - الحرب البونية الثانية
٥٥٠	٧ - الحرب البونية الثالثة
٥٥٧	٨ - كيف فوضت الحروب البونية الحرية الرومانية
٥٥٩	٩ - مقارنة الجمهورية الرومانية بدولة عصرية

الفصل السادس والعشرون : من تيربوس جراكوس إلى الإمبراطور

المؤله في روما

٥٦٨	١ - منيع الوقوف في سبيل الرجل العادي
٥٧٣	٢ - المالية في الدولة الرومانية
٥٧٦	٣ - آخر العهد بالسياسة الجمهورية
٥٨٥	٤ - حقبة القواد المغامرين
٥٩٠	٥ - نهاية الجمهورية
٥٩٥	٦ - ظهور الزعيم أو الأمير الحاكم
٦٠٠	٧ - لماذا فشلت الجمهورية الرومانية

(ن)

الانصل السابع والعشرون : القياصرة بين البحر والوديان العظيمة

- ١ - ثبت موجز بالأباطرة ٦٠٧
- ٢ - المدنية الرومانية في أوجها ٦١٧
- ٣ - خصائص الفن في ظل الإمبراطورية الرومانية ٦٣٤
- ٤ - قدر معين من الركود في الخيال الروماني ٦٣٦
- ٥ - حركة السهول العظيمة ٦٤٠
- ٦ - الإمبراطورية الغربية (الرومانية الحقة) تتصدع ٦٥٤
- ٧ - الإمبراطورية الشرقية الهلينية المنعثة ٦٦٤
- فهرس أبجدى للكتاب ٦٧١
- التعريف بالمتراجم ٦٨٣

فهرس الصور والخرائط

صفحة

٢٨٢	٥٨ - خريطة بلاد العبرانيين
٣٠٧	٥٩ - خريطة توزيع الشعوب الناطقة بالآرية
٣١٨	٦٠ - القتال بين منيلوس وهكتور
٣٢٠	٦١ - صورة الخيول والعربات الحربية في عصر ما قبل التاريخ
٣٢٨	٦٢ - خريطة توزيع الشعوب الهلينية
٣٣٠	٦٣ - معركة بحرية إغريقية ٥٥٠ ق. م
٣٢٧	٦٤ - المجدفون يعملون في سفينة حربية حوالى سنة ٤٠٠ ق. م
٣٤٩	٦٥ - خريطة الإمبراطوريتين الميديّة والبابليّة الثانيّة
٣٥٠	٦٦ - الإسكليون كما يصورهم الفنانون الإغريق
٣٥٦	٦٧ - خريطة إمبراطورية دارا
٣٦٣	٦٨ - خريطة الحروب بين الإغريق والفرس
٣٦٥	٦٩ - جندي أثيني من المشاة
٣٦٨	٧٠ - جنديان من الحرس الفارسي
٣٧٥	٧١ - خريطة العالم في نظر هيرودوت
٣٧٧	٧٢ - بركليس
٣٨٦	٧٣ - تمثال الربة آثينا في البارثنون
٣٨٩	٧٤ - الإكروبوليس قديماً
٣٩١	٧٥ - أفلاطون
٣٩٤	٧٦ - أرسطاطاليس
٤١١	٧٧ - فينوس
٤١٢	٧٨ - آلهة يونانية
٤١٣	٧٩ - فيليب المقدوني
٤١٧	٨٠ - خريطة اتساع رقعة مقدونيا في حكم فيليب
٤٢٢	٨١ - مقاتل مقدوني في عهد فيليب
٤٢٦	٨٢ - الإسكندر الأكبر
٤٢٨	٨٣ - خريطة غزوات الإسكندر الأكبر وإمبراطوريته
٤٣٠	٨٤ - تفكك إمبراطورية الإسكندر (٣٠٠ ق. م)

(ع)

صفحة	
٤٤٨	٨٥ - سارقوس الأول
٤٤٨	٨٦ - بطليموس سوتر
٤٥٢	٨٧ - المرحلة الثانية لتفكك إمبراطورية الإسكندر
٤٥٦	٨٨ - خريطة العالم في نظر إراتوستينز
٤٥٩	٨٩ - « العالم المعروف حوالي ٢٥٠ ق . م »
٤٦٦	٩٠ - سيرابيس
٤٦٧	٩١ - إيزيس وحورس
٤٧٥	٩٢ - خريطة توضح ظهور اليهودية وانتشارها
٤٧٩	٩٣ - آلهة هندية فينشو - براهما - سيفا
٤٨٠	٩٤ - آلهة هندية كريشنا - كالي - جانيسا
٤٩٤	٩٥ - هاريتي
٤٩٥	٩٦ - صورة صينية لكوان يين
٥٠١	٩٧ - خريطة توضح انتشار البوذية
٥٠٧	٩٨ - « الخوض الغرق للبحر المتوسط »
٥٠٩	٩٩ - « اللاتيوم في عهده الأول »
٥١١	١٠٠ - إحراق الموق (احتفال اتروري)
٥٣٢	١٠١ - اتساع رقعة روما بعد الحروب السمنية
٥٣٣	١٠٢ - حملة رومانية للذكرى الانتصار
٥٣٤	١٠٣ - خريطة إيطاليا بعد ٢٧٥ ق . م
٥٣٥	١٠٤ - عطار
٥٣٨	١٠٥ - آس روماني
٥٤٠	١٠٦ - عملة قرطاجية
٥٤٣	١٠٧ - كاتو
٥٤٧	١٠٨ - سكيبيو الإفريقي
٥٥٣	١٠٩ - خريطة امتداد سلطان روما وأحلافها حوالي (١٥٠ ق . م)
٥٦٥	١١٠ - المجالدون
٥٨٦	١١١ - بومبي العظيم
٥٩٠	١١٢ - خريطة سلطان روما حوالي ٥٠ ق . م
٦٠١	١١٣ - « الإمبراطورية الرومانية عند وفاة أوغسطس ١٤ ميلادية »
٦١١	١١٤ - « في عصر تراجان »
٦٣٩	١١٥ - « آسيا ومعها أوروبا ، وهي توضح الأحوال العامة للحياة في العصر التاريخي »
٦٤٢	١١٦ - « وسط آسيا في القرنين الثاني ، والأول قبل الميلاد »
	١١٧ - « تبين الطرق المختلفة لهجرات الشعوب وغزواتها بين القرنين الأول والسابع بعد الميلاد »
٦٦٢	١١٨ - خريطة الإمبراطورية الرومانية الشرقية (٥٠٠ م)
٦٦٦	١١٩ - « تبين أهمية موقع القسطنطينية »

الكتاب الرابع

بلاد اليهودية وبلاد الإغريق والهند

الفصل الثالث عشر

الأسفار المقدسة العبرانية والأنبياء العبرانيون

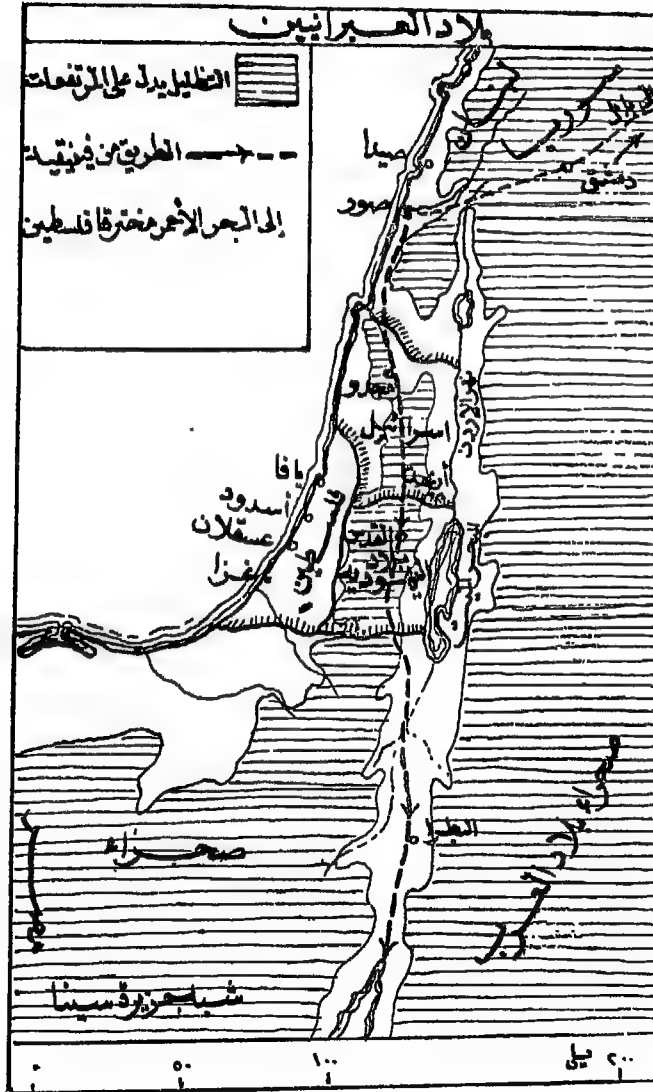
- ١ - مركز الإسرائيليين في التاريخ ٢ - شاول وداود وسليمان
٣ - اليهود شعب تلتط الأصل ٤ - أهمية الأنبياء العبرانيين

١ - مركز الإسرائيليين في التاريخ

في وسعنا الآن أن نضع الإسرائيليين ومعهم أعجب مجموعة من الوثائق القديمة في الموضع الصحيح اللائق بهم ، بالنسبة إلى هذه المعالم العامة التي تؤرخ للإنسانية . وأعني بهذه المجموعة تلك الوثائق التي تعرفها جميع الشعوب المسيحية باسم « العهد القديم » . وإنا لنجد في هذه الوثائق أكثر المستندات طرافة وأعلها قيمة في تبيان تطور المدنية ، كما نجد فيها أنصع الدلالات على انبثاق روح جديدة أخذت تتدسس إلى شئون البشرية أثناء المنازعات التي قامت بين مصر ومملكة آشور من أجل التسلط والسيطرة على العالم .

ولا شك أن جميع الأسفار التي يتكون منها العهد القديم كانت موجودة — وفي نفس صيغتها الحالية تقريباً — في سنة ١٠٠ ق. م. على أقصى تقدير . والراجح أن معظمها كان يعتبر كتابات مقدسة في عصر الإسكندر الأكبر (٣٣٠ ق. م.) ، وكانت هذه الأسفار هي الأدب المقدس للشعب اليهودي الذي نُقل قبل ذلك بزمان قصير — فيما عدا بقية صغيرة من الدهماء — من موطنه الأصلي إلى مملكة بابل عام ٥٨٧ ق. م. بأمر الملك الكلداني نبوخذ نصر الثاني .

وكانوا قد عادوا إلى مدينتهم «أورشليم» (بيت المقدس) ، وأعادوا بناء معبدهم هناك تحت رعاية قورش ، ذلك الفاتح الفارسي الذي خلع نابونيداس آخر الحكام الكلدانيين في بابل (٥٣٩ ق.م.) كما ذكرنا آنفاً . دام الأسر البابلي قرابة خمسين سنة . ويعتقد كثير من الأعلام الثقاة أن اليهود اختلطوا بالبابليين في أثناء هذه الفترة ، اختلاطاً عنصرياً وفكرياً عظيماً .



(ش ٥٨) - خريطة بلاد العبرانيين

ولا يخفى أن موقع أرض اليهودية^(١) وعاصمتها أورشليم فريد في بابه ، فهي بقعة مستطيلة الشكل تشبه الشريط يحدها البحر المتوسط غرباً والصحراء الواقعة فيما وراء الأردن شرقاً . ويمر خلالها الطريق الرئيسى الطبيعى الذى يصل بين الحثيين وسوريا وآشور وبابل شمالاً وبين مصر جنوباً . فكانت لذلك قطراً قدر له تاريخ مضطرب حافل بالأعاصير .

كانت هذه البلاد طريقاً لمصر وكل قطر عزيز الجانب إلى الشمال ، وكانت الجيوش الزاحفة للفتح والتوسع تخترقها ، كما يشنون على أهلها الحروب رغبة في شق طريق للتجارة . ولم يتوفر لها من سعة الرقعة ولا من القدرة الزراعية ولا الثروة المعدنية ما يكفل لها الأهمية . وقصة الشعب اليهودى التى حفظتها لنا تلك الأسفار المقدسة تجرى كأنها تعليق مسطر على هامش التاريخ الأعظم شأناً ، أعنى به تاريخ نظام الحضارة القائمين في الشمال والجنوب ومدنية الشعوب البحرية في الغرب .

وتتكون هذه الأسفار المقدسة من عدة عناصر مختلفة . وكان الناس من قديم الزمان ينظرون إلى الأسفار الخمسة الأولى (توراة موسى) باحترام خاص . وهى تبدأ على صورة تاريخ عام يروى قصة مزدوجة تتناول خلق العالم والبشرية والحياة الأولى للجنس البشرى ، كما تتحدث عن طوفان عظيم قضى على البشر جميعاً سوى بضع أفراد محظوظين . وقصة الطوفان هذه عظيمة الانتشار في الروايات القديمة . وقد تكون صدى لذلك الفيضان الذى اجتاح وادى البحر المتوسط والذى حدث في العصر الحجري الحديث (النيوليثي) من تاريخ الإنسان . ولعلها تعيد إلى الأذهان ذكرى إحدى الكوارث العظيمة التى حدثت ببلاد جورجيا وإقليم بحر قزوين . وقد عثر القائمون بالحفائر الحديثة على نصوص بابلية تروى كلا من قصتي الخليفة والطوفان ، وهى نصوص ترجع إلى زمن يسبق عودة اليهود إلى وطنهم . ومن ثم فإن نقاد الكتاب

(١) في هذا البيان التاريخي الدقيق الذى سطرته يد محايدة نزيهة ما يدحض كل مدعى الصهيونية وإسرائيل في أرض فلسطين العزيزة . فلم يكن اليهود فيها في يوم من الأيام إلا مقتصبين لأرض لا يملكونها . وإذا هم اليوم يقولون للجهلاء إنها كانت لهم مستقراً ملك عضود وموعد موعود .

المقدس يحاجون بأن اليهود استولوا في أثناء أسرهم على تلك الفصول الافتتاحية ،
وهي قوام الإصحاحات العشرة الأولى من سفر التكوين .

ويتلو ذلك تاريخ آباء الشعب العبراني ومؤسسيه : إبراهيم وإسحاق ويعقوب .
وهم يمثلون فيه على صورة رؤساء بدو يتبعون نظام الأبوة ويعيشون عيشة
الرعاة الرحل في المنطقة الممتدة بين بابل ومصر . ويقول النقاد إن قصة
التوراة الراهنة قد صيغت من نصوص عديدة سابقة . على أنه مهما يكن
شأن مصادر القصة ، فإنها بحالتها التي نجدها عليها اليوم مملأى بالحياة وقوة
التعبير . وكان ما يسمى اليوم باسم « فلسطين » يسمى في ذلك الحين « أرض
كنعان » ويسكنه قوم ساميون يسمون الكنعانيين ، وهم شعب وثيق القرى
بالفينيقيين الذين أسسوا صور وصيدا ، وبالعومريين الذين فتحوا بابل
وأسسوا الإمبراطورية البابلية الأولى بقيادة حمورابي .

وكان الكنعانيون شعباً عرف الإستقرار في زمن معاصر تقريباً لحكم
حمورابي - وقد مرت ببلادهم قطعان إبراهيم ورعيلانه . وتقول رواية للكتاب
المقدس إن رب إبراهيم وعده هو وأولاده بهذه الأرض البسامة ذات المدن
العامرة . وعلى القارئ أن يرجع إلى « سفر التكوين » فيقرأ كيف أن إبراهيم
الذي لم يكن له عقب قد ارتاب في هذا الوعد ، ثم يقرأ أخبار مولد اسماعيل
وإسحاق . وسيجد القارئ في « سفر التكوين » كذلك ترجمة حياة إسحاق
ويعقوب ، الذي تغير اسمه فأصبح إسرائيل ، وسيرة أبناء إسرائيل الاثني عشر
وكيف أنهم هبطوا مصر أيام قحط عظيم . وبهذا ينتهي « سفر التكوين »
أول الأسفار الخمسة الأولى ويختص الكتاب الثاني وهو سفر الخروج
بقصة موسى .

وقصة استقرار أبناء إسرائيل في مصر واستعبادهم بها قصة عسيرة
معقدة . وهناك سجل مصري يشير إلى نزول بعض الشعوب السامية بأرض
« جاسان Goshen » بأمر الفرعون رمسيس الثاني ، وجاء في هذا السجل
أنهم لحأوا إلى مصر بسبب افتقارهم إلى الطعام . ولكن ليس هناك قط أى سجل
مصري يتحدث عن حياة موسى وأعماله . ولم يصل إلينا أى بيان تاريخي

عن إصابة مصر بالطاعون ولا عن أى فرعون أغرق في البحر الأحمر .
وتحتوى قصة موسى على قدر كبير من شذى الأساطير . ومن أبرز الحوادث فيها ، حادثة تحنئة أمه له في تابوت من الخلفاء ، وهى قصة لها شبيه في أسطورة سومرية قديمة .

فالقصة السومرية المتحدثة عن سرجون الأول تجرى كما يأتى : « ها أنذا سرجون الملك القوى ملك أكاديا . كانت أمى فقيرة ، وما عرفت أبى قط ، وكان شقيق أبى يعيش بين الجبال ... وقد ولدتنى أمى الفقيرة سرّاً ، ووضعتنى فى سلة من القصب ، وأغلقت بابها بالقار ، ثم ألقتنى فى النهر ، فلم تبتلعنى بل حملتنى مياها حتى أوصلتنى إلى (أكى) الموكل بالرعى . وقد تلقانى أكى هذا فى طيب قلبه . وربانى أكى حتى أصبحت غلاماً يافعاً . وجعلنى أكى بستانياً . وأدخلت خدماتى كبستانى السرور على قلب (عشتار) وبذلك أصبحت ملكاً » .

إن هذا لأمر يحير اللب . ومما يزيدنا حيرة تلك اللوحة الطينية التى كشفت أخيراً والتي كتبها الولاة المصريون على إحدى مدن كنعان إلى فرعون « امنحوتب الرابع » أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة المتقدمة فى الزمن على رمسيس الثانى وفيها يذكرون اسم العبرانيين صراحة ويصرحون بأنهم يحتاجون أرض كنعان . فإذا كان العبرانيون يقومون بفتح كنعان فى زمن الأسرة الثامنة عشرة ، فليس من الممكن أن يأسرهم ويضطهدهم رمسيس الثانى من الأسرة التاسعة عشرة قبل أن يتموا فتح أرض كنعان . ومن الجلى أن قصة الخروج (Exodus) - وقد كتبت بعد الحوادث التى تروىها بزم طويل - ربما كانت تركيزاً وتبسيطاً ، أو لعلها تمثيل ورمز لما كان فى الحقيقة تاريخاً معقداً طويلاً لغزوات قبلية . ولعل كل ما فى الأمر أن إحدى القبائل العبرانية انحدرت إلى مصر وأصبحت مستعبدة ، على حين كانت القبائل الأخرى قد أخذت بالفعل تهاجم المدن الكنعانية

الثانية . بل إن في الإمكان ألا تكون مصر (واسمها بالعبرانية مصرام) هي أرض الأسر بل (مسريم) في شمال بلاد العرب ، على الجانب المقابل من البحر الأحمر . وقد بحثت هذه المسائل بحثاً مستفيضاً دقيقاً في « موسوعة الكتاب المقدس Encyclopoedia Biblica في مادتي موسى والخروج » ، فليرجع إليها القارئ المحب للاستطلاع إن شاء .

ويتناول كتابان آخران من الكتب الخمسة الأولى هما « سفر تثنية الاشتراع وسفر اللاويين » ، الشرائع والقواعد الكهنوتية . أما سفر الأعداد فيسرد تجولات بني إسرائيل في الصحراء وغزوهم كنعان .

ومهما تكن التفاصيل الدقيقة لغزو العبرانيين أرض كنعان ، فما لاريب فيه أن ذلك القطر الذي فتحوه تغير تغيراً عظيماً منذ أيام أسطورة « الميعاد » الذي وعد به إبراهيم قبل ذلك بقرون . ثم يصبح القطر من بعد ذلك - فيما بلوح - أرضاً سامية إلى حد كبير وتنشأ به كثير من المدن التجارية المزدهرة . على أن موجات كبيرة من شعوب غربية نزحت على طول شاطئه . ولقد ذكرنا من قبل كيف هوجمت الشعوب الأيبيرية البيضاء الداكنة أو شعوب البحر الأبيض القاطنة في إيطاليا وبلاد الإغريق ، وشعوب المدنية الإيجية التي بلغت الأوج في كنوسوس ، Conssos ، إذ هاجمتها موجة زاحفة جنوباً من أجناس ناطقة بالآرية من أمثال الإيطاليين والإغريق ، وأوضحنا كيف نهبت كنوسوس حوالي (١٤٠٠ ق. م) ، وكيف دمرت تدميراً تاماً حوالي (١٠٠٠ ق. م) . وبديهي أن سكان هذه الموانئ الإيجية كانوا يجتازون البحر فراراً من الأعداء وطلباً لمستقرات أكثر أمناً وسلاماً . لذلك غزوا الدلتا المصرية وما يليها غرباً من الشاطئ الإفريقي ، وأنشأوا أحلافاً بينهم وبين الحثيين وبعض الشعوب الآرية أو المصطبغة بصبغة آرية .

حدث هذا كله بعد عصر رمسيس الثاني أى في عهد رمسيس الثالث . وتسجل الآثار المصرية معارك بحرية عظيمة ، كما تمثل مسير هؤلاء القوم

إلى مصر على امتداد ساحل فلسطين . وكانت وسيلة النقل لديهم هي العربات التي تجرها الثيران وهي إحدى خصائص القبائل الآرية . ومن الواضح أن هؤلاء الكريتيين كانوا يعملون متحالفين مع بعض الغزاة الآريين الأول . ولم يتم بعد الوصول إلى صورة متصلة الحلقات لقصة هاته المنازعات التي استمرت بين ١٣٠٠ ق.م. و ١٠٠٠ ق.م. على أنه يتضح من رواية الكتاب المقدس أنه عند ما نهض العبرانيون تحت إمرة « يشوع » لمواصلة إخضاع أرض الميعاد ببطء اصطدموا بشعب جديد هم الفلسطينيون الذين كانوا يستقرون على امتداد الشاطئ في سلسلة من المدن أصبحت أهمها وأعظمها غزة وجت (جات) وأشدود وعسقلان وعقرون^(١). وكان هؤلاء الفلسطينيون في الحقيقة نازحين جدد كالعبرانيين تماماً . والراجح أنهم كانوا بوجه خاص هم أولئك الكريتيون اللاجئون من البحر والهابطون من الشمال . وعلى ذلك فإن الغزو الذي ابتدأ بشكل هجوم على الكنعانيين سرعان ما أصبح نزاعاً طويلاً لم يحالفه التوفيق التام ، نشب من أجل تلك الأرض الموعودة التي كانت مطمح الأنظار ، بينهم وبين هؤلاء الفلسطينيين النازحين الذين كانوا أكثر قوة وأشد بأساً .

ولا يستطيع أحد أن يقول إن أرض الميعاد وقعت يوماً في قبضة العبرانيين تماماً . ويلى الكتب الخمسة الأولى في الكتاب المقدس أسفار « يشوع » والقضاة وسفر راعوث (وهو استطراد عن سياق الموضوع) وصموئيل الأول والثاني والملوك أول وثان . مع سفر الأيام بجزيئه ، وهو يكرر في شيء من التنويع كثيراً من مادة سفر صموئيل الثاني وسفر الملوك . وينطوي الشطر الأكبر من هذا التاريخ المتأخر على ظل للحقيقة يزداد على اطراد الأيام ظهوراً . وفي هذه الأسفار نجد الفلسطينيين قد شددوا قبضتهم على ما امتلكوه من أراضي الجنوب المنخفضة الحصنة ، كما نجد الكنعانيين والفينيقيين صامدين في الشمال ضد أعدائهم الإسرائيليين . وليست انتصارات يشوع الأولى مكررة .

(١) ضببت هذه الأسماء وغيرها على ما ورد بالكتاب المقدس . (المترجم)

وكتاب القضاة إنما هو سرد محزن لسلسلة من الهزائم والنكبات يفقد القوم بسببها شجاعتهم ، ويتخلون عن عبادة ربهم الخاص « يَهْوَهْ » Jehovah ويعبدون بعلا وعشتورث ويختلطون بالفلسطينيين والحثيين وغيرهم حتى صاروا شعباً مختلط الجنس ، كما ظل هذا طابعهم فيما بعد . وكانوا يخوضون — وهم تحت إمرة سلسلة من الحكماء والأبطال — غمار حروب اتسمت بالفشل على وجه العموم ، ولم تتحد كلمتهم أثناءها قط . فقهرهم على التعاقب الموابيون (Moabites) والكنعانيون والمديانيون والفلسطينيون . ويتحدث سفر القضاة عن قصة هذه الحروب التي خاضها جدعون وشمشون وغيرهم من الأبطال الذين يلقون بين الفينة والفينة بصيصاً من أمل فيما كان يلم بإسرائيل من نكبات . ويروى سفر صموئيل الأول قصة الكارثة العظيمة التي حلت بهم عند حجر المعونة (Ebenezer) أيام أن كان « عالي » قاضياً .

كانت المعركة حرباً ضروساً أعد لها الطرفان عدتهما واشتبكت فيها جيوشهما برمتها وخسر فيها بنو إسرائيل ٣٠,٠٠٠ رجلاً (١) وكانوا قبل ذلك أصيبوا بهزيمة فادحة خسروا فيها ٤٠٠٠ رجلاً ، وعند ذلك أبرزوا أقدس رمز لديهم ، وهو تابوت عهد الرب (١) .

« وكان عند دخول تابوت عهد الرب إلى المحلة أن جميع إسرائيل هتفوا هتافاً عظيماً حتى ارتجت الأرض ، فسمع الفلسطينيون صوت الهتاف فقالوا : ما هو صوت هذا الهتاف العظيم في محلة العبرانيين ، وعلموا أن تابوت الرب جاء إلى المحلة . فخاف الفلسطينيون لأنهم قالوا قد جاء الله إلى المحلة . وقالوا ويل لنا لأنه لم يكن مثل هذا منذ أمس ولا ما قبله . ويل لنا من ينقلنا من يد هؤلاء الآلهة القادرين ؟ هؤلاء هم الآلهة الذين ضربوا مصر بجميع الضربات في البرية . تشددوا وكونوا رجالاً أيها الفلسطينيون لئلا تستعبدوا للعبرانيين كما استعبدوا هم لكم .

(١) الإصحاح السابع من صموئيل الأول من الكتاب المقدس .

« فحارب الفلسطينيون وانكسر إسرائيل ، وهربرا كل واحد إلى خيمته ، وكانت الضربة عظيمة جداً . وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف راجل ، وأخذ تابوت الله ومات ابنا على حفنى وفينجاس .

« فركض رجل من بنيامين من الصف وجاء إلى شيلوه فى ذلك اليوم وثيابه ممزقة وتراب على رأسه . ولما جاء فإذا على جالس على كرسي بجانب الطريق يراقب لأن قلبه كان مضطرباً لأجل تابوت الله . ولما جاء الرجل ليخبر فى المدينة صرخت المدينة كلها ، فسمع على صوت الصراخ فقال ما هو صوت الضجيج هذا ؟ فأسرع الرجل وجاء وأخبر على ، وكان على ابن ثمان وتسعين سنة وغامت عيناه ولم يقدر أن يبصر .

« فقال الرجل لعلى أنا جئت من الصف ، وأنا هربت اليوم من الصف . فقال كيف كان الأمر يا ابنى ؟ فأجاب المخبر وقال : هرب إسرائيل أمام الفلسطينيين ، وكانت أيضاً كسرة عظيمة فى الشعب ، ومات أيضاً ابنك حفنى وفينجاس وأخذ تابوت الله . وكان لما ذكر تابوت الله أنه سقط عن الكرسي إلى وراء إلى جانب الباب فانكسرت رقبته ومات ، لأنه كان رجلاً شيخاً ثقيلاً الجسم . وقد قضى لإسرائيل أربعين سنة .

« وكنته امرأة فينجاس كانت حبلى تكاد تلد ، فلما سمعت خبر أخذ تابوت الله وموت حميها ورجلها ركعت وولدت لأن مخاضها انقلب عليها ، وعند احتصارها قالت لها الواقفات عندها : « لاتخافى لأنك قد ولدت ابنا فلم تجب ولم يبال قلبها ، فدعت الصبي ليخابود قائلة « قد زال المجد من إسرائيل لأن تابوت الله قد أخذ ولأجل حميها ورجلها » .

وكان خلف (على) وآخر القضاة هو صموئيل ، وقد حدثت فى أواخر حكمه حادثة فى تاريخ بنى إسرائيل تتمشى مع مامر بالشعوب العظمى المحيطة بهم من تجارب ، بل هى التى أوحى بها لإلهم ، إذ نشأ بينهم ملك حكم فيهم .

وظهرت فيهم الملكية . وهم يقصون علينا بأوضح عبارة نبأ الصراع المحتدم بين طريقة الحكم العتيقة على يد الكهنة وبين الطريقة الأحدث منها في تصريف شئون البشر . ومن المستحيل علينا ألا نقتبس اقتباساً ثانياً ، فكم يبدو استياء الكاهن واضحاً جلياً في حديث الرب إلى صموئيل .

« فاجتمع كل شيوخ إسرائيل وجاءوا إلى صموئيل إلى الرامة ، وقالوا له : هو ذا أنت قد شخت وابناك لم يسيرا في طريقك ، فالآن اجعل لنا ملكاً يقضى لنا كسائر الشعوب .

« فساء الأمر في عيني صموئيل إذ قالوا : أعطنا ملكاً يقضى لنا . وصلى صموئيل إلى الرب . فقال الرب لصموئيل : اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك . لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياي رفضوا حتى لا أملك عليهم . وحسب كل أعمالهم التي عملوا من يوم أصعدتهم من مصر إلى هذا اليوم ، وتركوني وعبدوا آلهة أخرى . هكذا هم عاملون بك أيضاً . فالآن اسمع لصوتهم ، ولكن أشهدن عليهم وأخبرهم بقضاء الملك الذي يملك عليهم .

« فكلم صموئيل الشعب الذين طلبوا منه ملكاً بجميع كلام الرب وقال : « هذا يكون قضاء الملك الذي يملك عليكم : يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه ، لمراكبه وفرسانه . فيركضون أمام مراكبه ، ويجعلهم لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خمسين ، فيحرثون حراثته ، ويحصدون حصاده ، ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه . ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات . ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده . ويعشر زروعكم وكرومكم ويعطي الخصباناه وعبيده . ويأخذ عبيدكم وجواريتكم وشبانكم الحسان وجيركم ويستعملهم لشغله . ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيداً . فتصرخون في ذلك اليوم من وجه ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم . فلا يستجيب لكم الرب في ذلك اليوم . » فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا : لا بل يكون علينا ملك ، فنكون نحن أيضاً مثل سائر الشعوب

ويقضى لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا » . (صموئيل الأول الإصحاح الثامن) .

٢ - شاول وداود وسليمان

على أن طبيعة بلاد العبرانيين وموقعها كانت عوناً عليها . لذا لم يكن ملكهم الأول شاول أوفر حظاً في النجاح من القضاة ، هذا إلى أن المكاييد الطويلة التي كان يدبرها المغامر داود ضد شاول مسرودة في الجزء الباقي من سفر صموئيل الأول . وكانت خاتمة شاول هي الهزيمة المنكرة التي أصابته على جبل جلبوع (Gilboa) إذ قضت بسالة رماة السهام من الفلسطينيين على جيشه قضاء تاماً .

« وفي الغد لما جاء الفلسطينيون ليعروا القتلى وجدوا شاول وبنه الثلاثة ساقطين في جبل جلبوع . فقطعوا رأسه ونزعوا سلاحه وأرسلوا إلى أرض الفلسطينيين في كل جهة لأجل التبشير في بيت أصنامهم وفي الشعب ، ووضعوا سلاحه في بيت عَشْتُورَثَ وسمروا جسده على سور بيت شان . (صموئيل الأول الإصحاح ٣١) .

وكان داود (٩٩٠ ق.م. على وجه التقريب) أشد كياسة وأكثر نجاحاً من سلفه . ويلوح أنه وضع نفسه في حماية حيرام ملك صور . فثبتت هذه المحالفة الفينيقية ملكه ، وكانت العامل الجوهرى في عظمة ابنه سليمان . وقصة داود بما تجوى من قتل وسفك دماء واغتيالات متلاحقة يأخذ بعضها برقاب بعض^(١) ، أشبه بتاريخ أحد رؤساء المتوحشين منها بتاريخ ملك ممدّن . والقصة مسرودة بأسلوب رائع واضح في السفر الثانى من صموئيل^(١) .

ويبدأ سفر الملوك الأول بحكم الملك سليمان (٩٦٠ ق.م. على وجه التقريب) وأمتع ما في تلك القصة من وجهة نظر المؤرخ الذى يتناول التاريخ من الوجهة العامة ، علاقة سليمان بالديانة القومية والكهانة وتصرفاته إزاء

(١) الكتاب المقدس سفر الملوك الأول وصموئيل الثانى .

المهيكل والكاهن صادوق (Zadok) والنبي ناثان .

كانت بداية حكم سليمان مخضبة بالدماء كحكم أبيه سواء . وآخر ما سجل من حديث داود تدبيره لولده الوسيلة لقتل شيمعى (Shimei) ، وآخر ما سجل من كلماته هي « الدم » إذ يقول لابنه « وأحذر شيبته بالدم إلى الهاوية (١) » هكذا يقول مشيراً إلى أنه كان شيمعى الشيخ يحميه القسم الذى أخذه داود على نفسه للرب ما دام حياً ، فما من عهد يرتبط به سليمان فى هذا الشأن . ويغلو سليمان فيقتل أخاه ، الذى حاول أن يغتصب العرش ، ثم ما لبث أن تحاذل وقدم الطاعة . ومن ثم أخذ يتصرف بملء حرية فى أنصار أخيه . وإن ضعف سلطان الدين على العبرانيين المخلطة أجناسهم والمبللة فى ذلك الألوان عقولهم ، ليتضح من السهولة التى يستبدل بها سليمان برئيس الكهنة المعادى له نصيره صادوق ، كما يتضح ذلك بشكل أدعى للعجب من قتل يوبآب (Joab) فى الهيكل على يد بنيأهو أعظم صنائعه لإجراماً ، على حين لاذت الضحية بقدس حرم المعبد، واستمسكت بقرنى مذبح يهوه (Jehovah) . ثم شرع سليمان بعد ذلك يجدد فى العمل ، بأسلوب كان يعد بالنسبة لذلك الزمان ذا روح عصرية حققة . فعمد إلى صوغ ديانة شعبه فى قالب جديد . وقد استمر فى تحالفه مع حيرام ملك صور ، وطفق هذا يستخدم مملكة سليمان طريقاً عاماً يسلكه لينفذ بوساطته إلى البحر الأحمر فيبنى فيه السفن . ونتيجة لهذه الشراكة بينهما تكدست فى أورشليم ثروة لم يسمع بها من قبل .

وقد ظهرت فرق العمال عند بنى إسرائيل ، فكان سليمان يرسل أفواجاً من العمال تحل إحداها محل الأخرى لقطع أخشاب الأرز من لبنان فى عهد حيرام . كما أنه نظم فى أرجاء بلاده مجاميع من الحالين . (وفى هذا كله الكثير مما يذكر القارئ بعلاقات أحد الرؤساء فى أفريقيا الوسطى بهيئة تجارية أوربية) . وبعد ذلك بنى سليمان لنفسه قصراً ومعبداً ليهوه الرب لا يكاد يضارع قصره فى الضخامة . وكان تابوت عهد الرب — ذلك الرمز المقدس

(١) المصدر السابق .

لهؤلاء العبرانيين الأقدمين - قد استقر مقامه حتى ذلك الحين في فسطاط كبير . كان ينقل من مكان مرتفع إلى آخر ، وكانت تقدم القرابين لرب إسرائيل في عدد من الأماكن المرتفعة المختلفة . فالآن أدخل التابوت بين الروائع الذهبية الموجودة في حجرة داخلية من معبد كسيت جدرانها الحجرية بخشب الأرز ، ووضع بين تمثالين عظيمين لها أجنحة ، ومصنوعين من خشب الزيتون المذهب ، وتحتم منذ ذلك الحين ألا تقدم القرابين على غير المذبح الذي بين يديه .

وهذا التجديد المنطوي على المركزية الدينية يذكرنا بكل من أخناتون و نابونيداس . ولا يتم لمثل هذه الأمور نجاح إلا متى هوت إلى الدرك الأسفل سطوة هيئة الكهنوت ونفوذها وتقاليدها وعلمها .

« وأوقف حسب قضاء داود أبيه فرق الكهنة على خدمتهم واللاويين على حراستهم للتسييح والخدمة أمام الكهنة عمل كل يوم بيومه والبوابين حسب فرقهم على كل باب . لأنه هكذا هي وصية داود رجل الله . ولم يحددوا عن وصية الملك على الكهنة واللاويين في كل أمر وفي الخزائن » .

بيد أن إقامة سليمان لعبادة يهوه في أورشليم على هذا الأساس الجديد ، ورواياه لربه ومخادئته له في مستهل حكمه لم تحل دون ابتداعه في أواخر أيامه ضرباً من العبث بالأمور الدينية . فإنه أكثر من الزواج . وإن يكن ذلك لأسباب تنصل بالدولة وأبهة الملك . وكان يرفه عن زوجاته الكثيرات بتقديم الضحايا لآلهتهن القومية ، فهو يقدم القربان لربة صيدا « عَشْتُورَت » وكمُوش (وهو رب مؤاب) ومُولَك وهلم جر . والواقع أن وصف الكتاب المقدس لسليمان يصوره لنا ملكاً متقلباً كغيره من الملوك ، لا يفضل البتة أيّاً منهم في تمسكه بأهداب دينه ، كما يصور لنا في قومه شعباً معتقداً بالخرافات وذا عقلية مبيلة ككل شعوب العالم المحيط بهم .

وفي قصة سليمان ناحية ذات أهمية كبيرة جداً لأنها تسجل طوراً جديداً

في الشئون المصرية وهي زواجه من ابنة فرعون . ولا بد أن هذا الفرعون كان . أحد فراعنة الأسرة الحادية والعشرين . ففي أيام عظمة أمنحوتب الثالث ، كما تشهد بذلك رسائل تل العمارنة ، كان من الحائز أن يتنازل فرعون فيقبل في حريمه أميرة بابلية . ولكنه كان يرفض رفضاً باتاً أن يسمح لأميرة مصرية لها ما لها من قداسة ، أن تصبح زوجة لعاهل بابلي . ومما يدل على انحطاط مهابة مصر واطراد تدهورها أن يحدث الآن بعد انقضاء ثلاثة قرون ، أن ملكاً صغيراً كسليمان ، يستطيع أن يتزوج من أميرة مصرية على قدم المساواة . ومع ذلك فإن مصر نهضت من كبوتها إبان حكم الأسرة المصرية التالية (الثانية والعشرين) يوم اغتتم الفرعون شيشنق مؤسس تلك الأسرة فرصة الانشقاق بين إسرائيل ويهوذا (Judah) وهو الانشقاق الذي ظل ينمو طوال حكم كل من داود وسليمان — فاستولى على أورشليم ونهب كلا من مستودعي الأبهة والعظمة القصيرى الأجل وهما المعبد الحديد وقصر الملك .

ويبدو أن شيشنق استطاع كذلك أن يخضع فلسطين . وجدير بالذكر أن الفلسطينيين ذوت أهميتهم منذ ذلك التاريخ . فنجدهم قد فقدوا لغتهم الكريتية واتخذوا لغة الساميين الذين كانوا أخضعوهم . ومع أن مدائنهم ظلت مستقلة إلى حد ما ، فإنهم اندمجوا رويداً رويداً في نحر الحياة السامية العامة لفلسطين . وهناك من الشواهد ما يدل على أن قصة حكم سليمان الأصلية على صورتها البدائية الأولى المقبولة عقلاً ، وقصة ما أتاه من اغتيالات متنوعة ، وارتباطه بحيرام ، وابتنائه القصر والمعبد^(١) ، وذلك البذخ الذي أوهرن مملكته ثم مزقها آخر الأمر شطرين — قد تعرضت (أعني القصة) لحشو وإضافات على نطاق واسع على يد كاتب متأخر ، كان مشغولاً بالمبالغة في وصف رخاء عصر سليمان مولعاً بتمجيد حكمته . وليس هذا مجال معالجة موضوع نقد أصول الكتاب المقدس ومصادره ، وإن لم يتطلب الأمر منا إلا شيئاً عادياً

(١) الكتاب المقدس سفر الملوك الأول والأيام .

بسيطاً من الإدراك دون تفقه في العلم — لنذكر ما يتجلى في المادة الرئيسية لقصة داود وسليمان من حقيقة جلية وصدق واضح . وهي قصة يعمد كاتبها إلى الشرح والتوضيح آونة ، وإلى التبرير أخرى ، وإن كانت مع ذلك تسرد كل الحقائق مهما بلغ بعضها من القسوة ، على نحو لا يفعله إلا كاتب معاصر أو كاتب يكاد يكون معاصراً ، يقصها وهو مقتنع بأن لا سبيل إلى إخفائها . ثم يلاحظ الإنسان أيضاً ذلك التحول المفاجئ إلى الإطراء والثناء ساعة ظهور الفقرات التي أضيفت إلى القصة . ومما يشهد بقوة تأثير القول المكتوب وتغلبه على الحقائق الماثلة في أذهان الناس ، أن رواية الكتاب المقدس هذه استطاعت أن تحمل العالم المسيحي بل الإسلامي على الاعتقاد بأن الملك سليمان لم يكن من أشد الملوك عظمة وأبهة فحسب بل كان أيضاً من أحكم الرجال . فإن سفر الملوك الأول يسهب في الكتابة عن أقصى ما وصل إليه مجده من أبهة وفخامة ، وإذا قيسست هذه إلى حمال وعجائب المباني والتنظيمات التي قام بها عاهل عظيم كتحوتمس الثالث أو رمسيس الثاني أو نفر من الفراعين الآخر ، أو سرجون الثاني أو سردانا بالوس أو نبوخذ نصر العظيم ، فإنها تبدو من التواضع الهينات . كان بعد معبده من الداخل ، عشرين ذراعاً عرضاً أى ما يقرب من خمسة وثلاثين قدماً (وهذا لا يزيد عن عرض فيلا للسكنى العادية) ، وستين ذراعاً أى مئة قدم طولاً . وتختلف الأقوال في تقدير الذراع ، وهو على أكبر تقدير يعادل أربعاً وأربعين بوصة . وعلى هذا الاعتبار يتسع العرض فيصبح سبعين قدماً ليس غير ويصبح الطول مائتي قدم . فأما حكمته ومعرفته بأصول الحكم وتدبير السياسة ، فما القارئ محتاج أن يجاوز الكتاب المقدس^(١) لكي يعرف أن سليمان لم يتجاوز بالنسبة للملك التاجر حيرام منزلة معاون له على تحقيق خططه ومشروعاته الواسعة النطاق ، فأما مملكته فهي رهينة تتجاذبها مصر وفينيقيا . وترجع أهميتها في معظم أمرها إلى ضعف مصر الموقوت ،

(١) يستطيع القارئ إذا شاء استزادة أن يرجع إلى أسفار صموئيل والملوك الأول والأيام الثاني التي رجع إليها المؤلف من الكتاب المقدس . (المترجم)

ذلك الضعف الذى أثار طموح الفينيقيين وألزمهم باسترضاء القابض على مفتاح طريق آخر للتجارة إلى الشرق . كان سليمان فى عين شعبه ملكاً مبذراً جائراً ، وقد أخذت مملكته تتداعى قبل موته تداعياً ظاهراً وتتجزأ ببدأ . وينتهى بانتهاء حكم سليمان مجد العبرانيين القصير الأمد ، فإن القسم الشمالى من مملكته وهو الأكثر ثراء ، والذى طال تحمله عبء الضرائب المفروضة فى سبيل بذخه ، السلخ عن أورشليم وأصبح مملكة منفصلة هى إسرائيل . وقد فصح هذا الصدى تلك العلاقة التى كانت تربط بين صور وصيدا وبين البحر الأحمر ، وهى التى مهدت السبيل لومضة الثروة التى هبطت على سليمان فجأة . وليس هناك بعد ذلك أى ثراء فى التاريخ العبرانى . فأما أورشليم فإنها ظلت قصبة قبيلة واحدة هى قبيلة يهوذا ، وحاضرة أرض ملوؤها التلال المجذبة ، تحول فلسطين بينها وبين البحر ويحيط بها الأعداء من كل جانب . ويظل هذا القطر بعد ذلك ثلاثة قرون مسرحاً لحروب ومنازعات دينية واغتصابات واغتيالات وقتل الإخوة للإخوة طلباً للملك . وهى قصة سافرة فى همجيتها . فإن إسرائيل تحارب يهوذا وما جاورها من دول ، وتعقد المحالقات مع إحداها ثم تعقدها مع الأخرى ، وتبدأ قوة سوريا الآرامية فى الصعود كنجم يؤذن العبرانيين بالشر والأذى . ثم تنهض من خلفها القوة العظيمة النامية ، قوة الإمبراطورية الآشورية الأخيرة . لقد ظلت حياة العبرانيين طوال ثلاثة قرون شبيهة بحياة رجل أصر على العيش وسط سوق صاخب فكان مصيره أن تدممه سيارات الجمهور والبضائع .

وكان «فول» Pu (وواضح أنه تغلث فلاسير الثالث نفسه Tiglath Pileser) أول ملك آشورى فيما تقول رواية الكتاب المقدس ، ظهر فى أفق العبرانيين ، فدفع له مئتي ألف تالنتوم^(١) من الفضة (٧٣٨ ق.م.) ثمناً للخلاص البلاد منهم . على أن قوة آشور كانت تتجه آنذاك قدماً نحو أرض مصر التى شاخت وتدهورت . ويحترق طريق المغيرين أرض اليهودية ويعود تغلث

(١) نص عبارة الكتاب المقدس « فأعطاه ألف وزنة من الفضة » الملوك الثانى ١٥ : ٢٠ .

[المترجم] .

فَدَاسِرُ الثالث أدرأجه ويعقبه في الزحف شَلْمَنَاسَرُ فَيَتَأَمَّرُ ملك إسرائيل التماساً للعون مع مصر - تلك « القصبة المروضه » ، وفي ٧٢١ ق. م. اجتاحت مملكته كما ذكر آنفاً ووقعت في ربة العبودية وزالت من التاريخ تمام الزوال . وكانت يهوذا (Judah) عرضة لنفس المصير ولكنها نجت منه فترة من الزمان . ولقد ذكرنا لك من قبل مصير جيش الملك سَنَحَارِيب أيام حكم الملك حَزَقِيَّا^(١) (٧٠١ ق. م.) . وكيف قتله ابنه (سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٩ : ٣٧) . وليس في الكتب المقدسة أى إشارة لما يلي ذلك من إخضاع الآشوريين لمصر . على أنه من الواضح أنه قبل حكم سنحاريب ، كان الملك حزقيا يتبادل المراسلات السياسية مع بابل (٧٠٠ ق. م.) ، التي كانت ثائرة على سرجون الثاني ملك آشور . وتبع ذلك غزو آسَرَحَدُون لمصر ، ثم شغلت آشور فترة من الوقت بمشاكلها الداخلية . ذلك أن الاسكيذيين (الإشقوذيين) والميديين والفرس كانوا يهددونهم من الشمال ، وكانت بابل نهبا للفتن . وقد أسلفنا كيف أن مصر خف عنها الضغط الآشورى فترة من الزمان فأخذت تنهض من كبوتها . وكان هذا أول الأمر في عهد أَسْمَاتِيك ثم في عهد نَحَو الثاني .

وهناك خان التوفيق مرة أخرى القطر الصغير الواقع في الوسط فلم يحسن اختيار حلفائه . ولكن أين يجد العبرانيون السلامة وعلى كلا جانبيهم عدو ؟ فإن يوشيا (Josiah) وقف في وجه نَحَو فذبح في معركة مجدو (٦٠٨ ق. م.) وأصبح ملك يهوذا تابعا يدفع الجزية لمصر . ولكن عندما سقط نَحَو أمام نبوخذ ناصراً الثاني بعد أن توغل حتى وصل إلى الفرات سقطت يهوذا معه (٦٠٤ ق. م.) حتى إذا نصب نبوخذنا صر ثلاثة ملوك خاضعين له كالألعوبة ، ساق غالبية الشعب أسرى إلى بابل (٥٨٦ ق. م.) ، أما الباقون فقاموا بثورة ذبحوا منها الموظفين البابليين ، ثم لجأوا إلى مصر فراراً من انتقام كالدنيا .

« وجميع آتية بيت الله الكبيرة والصغيرة وخزائن بيت الرب وخزائن الملك وروؤسائه أتى بها جميعاً إلى بابل . وأحرقوا بيت الله وهدموا سور أورشليم

(١) حزقيا بوزن زكريا . [المترجم] .

وأحرقوا جميع قصورها بالنار وأهلكوا جميع آتيتها الثمينة . وسبى الذين بقوا من السيف إلى بابل فكانوا له ولبنيه عبيداً إلى أن ملكت مملكة فارس » .

(سفر الأيام الثاني لإصحاح ٣٦ : ١٨ ، ١٩ ، ٢٠) .

وهكذا انتهت القرون الأربعة التي عاشتها الملكية العبرانية وكانت من بدايتها إلى نهايتها مجرد حدث صغير على هامش أحداث تاريخ مصر وسوريا وآشور وفينيقي . ذلك التاريخ الأكثر سعة وعظماً . ولكن جرى القدر بأن تنشأ عنه إذ ذاك نتائج أخلاقية وعقلية ذات أهمية كبرى للبشرية كافة .

٣ - اليهود شعب مختلط الأصل

واليهود الذين عادوا بعد فترة تربي على الجليلين إلى أورشليم من بابل أيام الملك قورش كانوا شعباً مختلفاً جد الاختلاف عن أولئك المتقاتلين من عباد « بل » وعباد « يهوه » ، وعمن يقدمون القرابين في المرتفعات ، ومن كانوا يقدمون القرابين في أورشليم في مملكتي إسرائيل ويهوذا . والحقيقة المجردة المستخلصة من رواية الكتاب المقدس هي أن اليهود ذهبوا إلى بابل هرباً وعادوا منها ممدنين . خرجوا جمهوراً مختلطاً منقسماً على نفسه ، لا يربطه وعى ذاتى وطنى ، وعادوا بروح قومية شديدة وجنوح إلى الاعتزال ، جعلهم يناون بجانبهم عن عداهم ، ذهبوا وليس لهم أدب مشترك معروف بينهم كافة ، إذ لم يحدث إلا قبل الأسر بأربعين عاماً أن اكتشف الملك يوشيا كما يقال « سفر الشريعة » في المعبد (سفر الملوك الثاني الإصحاح ٢٢ : ٨) ، وفيما عدا ذلك فليست هناك أى إشارة في السجل إلى تلاوتهم أى كتاب ، وعادوا إلى وطنهم ومعهم الشطر الأكبر من مادة « العهد القديم » وواضح أن اليهود وقد تخلصوا من ملوكهم القتلة المتنازعين وحجبوا عن السياسة ، وعاشوا في ذلك الجو الباعث على النشاط الذهني في العالم البابلي ، فإن العقل اليهودي ما لبث في أثناء مدة الأسر أن خطا إلى الأمام خطوة عظيمة .

كان ذلك العصر في بابل عصر بحوث تاريخية ونهضة علمية ، وكانت المؤثرات البابلية التي حملت سردانا بالوس على اقتناء مكتبة عظيمة من مخطوطات قديمة في نينوى ، لا تزال تعمل عملها . ولقد أخبرناك من قبل كيف بلغ انشغال نابونيداس بالبحوث الخاصة بالآثار القديمة حدا جعله يهمل الدفاع عن مملكته ضد اعتداء قورش . ومن ثم كانت كل الظروف مما يحفز اليهود المبعدين على البحث في تاريخهم الخاص ، ثم لانهم وجدوا في نبيهم حزقيال زعيما يستنهض همهم . ومن أمثال تلك السجلات الخبأة والمنسية التي كانوا يحملونها معهم — ما بين تواريخ أنساب وتواريخ معاصرة تؤرخ لداود وسليمان وغيرهما من الملوك ، وما بين أساطير وتقاليد قديمة — صاغوا قصتهم وأطنبوا فيها ثم قصوها على بابل وعلى أنفسهم .

وقصة الخليقة والطوفان ، والكثير من قصة موسى ، والشئ الكثير من قصة شمشون قد جمع شتاتها من مصادر بابلية . وهناك نصان ، نص عن قصة الخليقة ، ونص آخر عن قصة عدن ، يلوح أنهما وإن كانا في أصلهما بابليين ، كانا معروفين للعبرانيين قبل النبي ، وعندما عاد اليهود إلى أورشليم ، لم يكن قد اكتمل لهم بين دفتي سفر واحد غير الأجزاء الخمسة الأولى المسماة بالبنتاتويك^(١) ، ولكن لم يكن مفر من أن يتلو ذلك تجميع سائر الكتب التاريخية .

ولقد ظل سائر أدبهم قروناً طويلة في صورة كتب منفصلة ، كانت تلقى من الاحترام قدراً متفاوتاً جداً . ولا ينكر أحد أن بعض الكتب المتأخرة قد ألف بعد الأسر . هذا وأضيفت إلى كل هذا الأدب أفكار رئيسية بأعيانها . فثمة فكرة كانت هذه الكتب نفسها تدحضها في تفصيلها ، وهي القول بأن كل الناس قاطبة أبناء إبراهيم الخالص الدماء . وثمة فكرة أخرى عن وعد قطعه يهوه لإبراهيم بأن يفضل الشعب اليهودي على جميع الأجناس الأخرى . وثم فكرة ثالثة هي ما كان يخالجهم قبل كل شئ من الاعتقاد في أن يهوه هو

(١) وهي المسماة بتوراة موسى كما أسلفناه . [المترجم]

- ٣٠٠ -

أعظم وأقوى آلهة القبائل طراً ، وأنه كان على ذلك رباً يعلو كل الأرباب ، وأخيراً أنه كان الرب الحق الوحيد . وانتهى الأمر بالشعب اليهودي بأن اقتنعوا - على بكرة أبيهم - بأنهم الشعب المختار للرب الأوحد للأرض قاطبة . وكانت هناك فكرة رابعة نشأت نشوءاً طبيعياً جداً من هاته الأفكار الثلاثة ، وهى القول بزعم منتظر ، مخلص للعالم ، ومسيح يحقق ما ترمى به الزمن من وعود ياهوه التى طال الأمد عليها .

ولا مرأ أن هذا الائتنام الذى ضم شتات اليهود فأصبحوا فى مدى هذه السنين السبعين شعباً تولى بينه تقاليد مكتوبة متواترة ، هو أول مثال فى التاريخ للقوة الجديدة الكامنة بين القرطاس والقلم فى شئون البشرية . كان ذلك الذى حدث تماسكاً عقلياً لم يقف أثره عند توحيد الشعب الذى عاد إلى أورشليم ، بل تجاوز ذلك كثيراً . وهذه الفكرة القائلة بالانتساب إلى شعب مختار قدرت له الرفعة من قبل ، كانت فكرة خلافة . واستولت هذه الفكرة أيضاً على لب اليهود الذين ظاوا فى بابل ووصل الأدب الخاص بها إلى اليهود الذين كانوا مستقرين فى مصر إذ ذاك ، كما أنها أثرت فى الشعب المختلط الذى أسكن السامرة ، (وهى العاصمة القديمة للملك إسرائيل) عندما أبعدت القبائل العشر إلى ميديا . وهى التى أوحى إلى عدد كبير من البابليين وغيرهم أن يدعوا فى إبراهيم أبائهم ، وأن يفرضوا أنفسهم على اليهود العائدين . وكذلك أصبح العمونيون (Ammonites) والموآبيون (Moabites) أنصاراً لهم . وسفر نحميا (Nehemiah) حافل بأخبار الحن التى نجمت عن انتحال هؤلاء المتطفلين لامتيازات الشعب المختار . كان اليهود من قبل شعباً متناثراً فى أقاليم ومدن كثيرة ، يوم توحدت عقولهم وأمانهم ، ثم أصبحوا شعباً ذا نزعة انزالية متباعداً عن عداه ، ولكن نزعتهم الانزالية كانت بادئ الرأى مجرد رغبة فى حفظ التعاليم والعبادة سليمة مصونة خشية تكرار أمثال تلك الكبوات المحزنة التى حدثت فى عهد الملك سليمان . وظلت العقيدة اليهودية زماناً

طويلاً فاتحة ذراعيها مرحبة بمقدم كل من ينضوى مخلصاً تحت لوائها من أبناء الشعوب الأخرى .

ولا بد أن الفينيقيين بعد سقوط صور وقرطاجة كانوا يرون الدخول في العقيدة اليهودية أمراً يمتاز بسهولة وجاذبية . وكانت لغتهم وثيقة القربى بالعبرانية . ومن المحتمل أن الغالبية العظمى ليهود أفريقيا وأسبانيا ، كانت في حقيقة الأمر ذات أرومة فينيقية . كذلك دخل العرب في زميرهم أفواجاً . وكما سنلاحظ فيما بعد ، كان في جنوب روسيا يهود من الجنس المغولي نفسه .

٤ - أهمية الأنبياء العبرانيين

والأسفار التاريخية من سفر التكوين إلى نحميا ، التي أقحمت عليها فيما بعد فكرة الوعد المقطوع للشعب المختار ، كانت ولا شك العمود الفقري الذي تقوم عليه الوحدة الفكرية ولكنها ليست البتة الفصل الختامي الذي يتم به الأدب العبراني ، الذي تكون منه الكتاب المقدس آخر الأمر . وما هذا بمجال الكتابة عن أسفار من أمثال سفر أيوب Job (الذي يقال إنه محاكاة للمأساة الإغريقية) هذا إلى نشيد الإنشاد لسليمان ، والمزامير ، والأمثال وغيرها ، على أن من الضروري معالجة الكتب المعروفة بأسفار الأنبياء في شيء من التوسع والاستيعاب . وذلك لأن هذه الأسفار تكاد تكون أقدم الشواهد ، بل هي ولا مرأى أفضل الدلائل على ظهور صنف جديد من الزعامة في شئون البشر ، هو زعامة الأنبياء .

وليس هؤلاء الأنبياء بطبقة جديدة في المجتمع ، وذلك لأنهم ينتمون إلى أصول وطبقات متباينة إلى أقصى حد . فكان حزقيال مثلاً من طائفة الكهنة ، وكان ذا عواطف كاهنية ، وكان عاموس (Amos) راعياً ، على أنهم يشتركون جميعاً في كونهم ييثون في الحياة قوة دينية خارج نطاق القرايين والشكليات المرعية لدى الكهانات والمعبد . ويبدو أن الأنبياء الأول أشد الناس شبهاً بالكهنة الأول ، فإنهم يستلهمون الوحي ويقدمون النصيح وربما لم يكن هناك في

البداية أى فارق كبير بين الكاهن والنبي إبان الأيام التى كانت العبادة فيها تقام على مرتفعات كثيرة فى البلاد ، والتى كانت الأفكار الدينية فى أثنائها غير مستقرة نسبياً .

وكان الأنبياء يرقصون فيما يلوح بطريقة تشبه إلى حد ما طريقة الدراويش ، وينطقون بالوحى . وكانوا يرتدون على وجه العموم رداء يميزهم مصنوعاً من جلد الماعز الخشن ، وكانوا يتبعون تقاليد البدو الرحل وينفرون من «بدع المستقرين الحديدية» . على أن طراز الأنبياء ظل بعد بناء المعابد وتنظيم الكهانات عاملاً آخر قائماً ومنعزلاً عن الخطة الدينية الرسمية . والراجح أن الكهان لم يبرحوا يتبرمون بالأنبياء تبرماً يتفاوت قدره . إذ أنهم أصبحوا الناصحين غير الرسميين للناس فى الشئون العامة ، والناعين عليهم الخطايا والتصرفات الغريبة ، وهم قوم «نصبوا أنفسهم بأنفسهم» إن جاز مثل هذا القول ، ولم يكن لهم من سند يستندون إليه إلا ما يحسون من نور باطنى . وفى الكتاب المقدس صيغة ثابتة هى (وعند ذلك جاءت كلمة الرب إلى فلان) .

وفى الأيام الأخيرة لمملكة يهوذا وهى أشد أيامها اضطراباً ، ويوم أطبقت مصر وشمال بلاد العرب ومملكة آشور ثم مملكة بابل لإطباق المنجلة على البلاد ، أصبح لهؤلاء الأنبياء شأن وقوة عظيمان ، وكانت دعوتهم موجهة إلى العقول القلقة الوجلة ، وقد ركزوا جل نصيحهم وترغيبهم فى بادئ الأمر على الندم خاصة وعلى هدم هذا المكان المرتفع أو ذاك وعلى إعادة العبادات إلى أورشليم وما شاكل ذلك . ولكن بعض نبوءاتهم كانت تحمل بين طياتها بالفعل نغمة تشابه النغمة التى تصدر فى أيامنا هذه عن نسميهم (بالمصلحين الاجتماعيين) . كقولهم «إن الأغنياء يسحقون وجوه الفقراء» ؛ وإن المترفين ليستنفدون خبز الأطفال ؛ وإن ذوى النفوذ والأثرياء ليقلدون بذخ الأجانب ورذائلهم ويضحون بالعامية على مذبح هذه البدع الحديدية ، وهذا ما لا يرضاه الإله «يهوه» ، ولا مرأ أنه منزل بالبلاد من أجله سخطه وعقابه .

ولكن اتساع أفق الأفكار الذى نجم عن الأسر ، أفضى إلى تغيير نعمة التنبؤ وتوسيع مجالاتها . فإن الوضاعة المشوبة بالحسد والتي كانت تشوه الصورة القبلية الأولى للإله . قد حلت محلها صورة جديدة تقول بإله كله بر وصلاح مطلق ، وواضح أن سلطان الأنبياء المتزايد لم يقتصر على الشعب اليهودى ، بل كان شيئاً يحدث فى تلك الأيام فى كافة أنحاء العالم السامى . فإن تفتيت الشعوب والممالك لتكوين إمبراطوريات ذلك العصر العظيمة الدائبة التغير ، وتحطيم النحل ونظم العبادات والكهانات . وما كان يجرى من تبادل التكذيب والتحجير بين المعبد والمعبد فى تنافسهما ومنازعاتهما ، كانت كلها مؤثرات تفك عقل أذهان الناس وتفتح أمامها آفاقاً أكثر سعة وأشد حرية فى النظرة الدينية . كانت المعابد تكدس كنوزاً عظيمة من المواعين الذهبية ولكنها فقدت سيطرتها على أخيلة الناس .

ومن العسير علينا أن نقدر ما إذا كانت الحياة فى ظلال هذه الحروب المستديمة قد صارت أقل استقراراً وسعادة مما كانت عليه من قبل ، ولكن مما لا سبيل إلى الشك فيه أن الناس أصبحوا أشد إدراكاً لما فيها من شقاوة وعدم اطمئنان . فلم يبق للناس إلا القليل من الارتياح والاطمئنان - اللهم إلا فى قلوب الضعفاء والنساء - إلى تلك القرابين والطقوس وإلى عبادات المعبد الشكلية . هكذا كان العالم الذى شرع أنبياء إسرائيل المتأخرون يحدثونه عن الرب الأوحد وعن الوعد بأنه لا بد أن يأتى يوم يسود العالم فيه السلام والوحدة والسعادة . وهذا الإله العظيم الذى شرع الناس إذ ذاك فى الكشف عنه كان يعيش فى معبد « لم تصنعه يد ، وهو سرمدى فى السموات » . ولا يخالجنا إلا القليل من الشك فى وجود مقدار كبير من أمثال هذه الأفكار وتلك القواعد فى مملكة بابل ومصر وفى كل أرجاء الشرق السامى . وأسفار الأنبياء فى الكتاب المقدس لا تعدو أن تكون نماذج لتنبؤات ذلك الزمان .

ولقد سبق أن وجهنا الأنظار إلى تسلل الكتابة والعرفان تدريجياً من

أفقهما المحدود المقصود على الكهنة وخدم المعابد وحرمها المقدس ، أعنى من تلك القوقعة التى نمت فيها وترعرعت أول الأمر . ولقد اتخذنا من هيرودوت نموذجاً شائعاً لما أطلقنا عليه اسم الذكاء الطليق للجنس البشرى . وها نحن أولاء نعالج تدفقاً جديداً لآراء وأفكار أخلاقية تنساب فى المجتمع العام . وإن فى ظهور الأنبياء العبرانيين ، وفى الانتشار المطرد الذى لقيته أفكارهم المتجهة إلى الاعتقاد بوجود رب واحد فى هذا العالم بأسره ، لتطوراً آخر مماثلاً لذلك ، تهباً لضمير البشرية الحر . ومنذ ذلك الزمان فصاعداً ، والفكر الإنسانى تخالجه — إما فى شيء من الضعف والخفاء ، وإما على حالة من التآزر وحشد القوى — فكرة تهدف إلى إقامة حكم واحد فى العالم ، وفكرة أمل ورجاء فى سلام فعال بديع وسعادة رائعة يسودان شئون البشر . بذلك تحولت الديانة العبرانية من ديانة معبد من الطراز القديم ، وأصبحت إلى حد كبير ديانة أنبياء خلافة من طراز جديد . ويتعاقب الأنبياء نبياً بعد نبى .

ثم ولد فيما تلا ذلك من أيام — كما سنذكر لك — نبى ذو قوة لم يسبق لها مثيل ، هو عيسى ، الذى أسس أتباعه تلك الديانة العالمية العظيمة ، وأعنى بها الديانة المسيحية ، وبعد ذلك ظهر أيضاً نبى آخر ، هو محمد ، وكان ظهوره فى بلاد العرب ، وقد أسس الإسلام ، وعلى الرغم من انفراد كل منهما بما له من خصائص مميزة ، فإن هذين المعلمين قد نشأ بطريقة ما على شاكلة هؤلاء الأنبياء اليهود . وليس من عمل المؤرخ أن يناقش صدق الدين أو كذبه ، وإنما يقتصر عمله على تسجيل ظهور الآراء والفكر البناءة العظيمة . فنذ ألفين وأربعمئة من السنين ، وبعد أن انقضت ستة أو سبعة أو ثمانية آلاف من السنين على بناء حوائط المدن السومرية الأولى ، ظهرت فى العالم فكرتا الوحدة الخلقية للبشرية والسلام العالمى .

الفصل التاسع عشر

الشعوب الناطقة بالآرية في عصور ما قبل التاريخ

- ١ - انتشار الناطقين بالآرية .
٢ - عن حياة الآريين الأصلية .
٣ - العائلة الآرية .

١ - انتشار الناطقين بالآرية

تكلمنا عن اللغة الآرية بوصفها لغة نشأت على الأرجح في إقليم الدانوب وجنوب روسيا ثم انتشرت من منطقتها الأصلية إلى مناطق أخرى . ونحن إنما نقول « على الأرجح » لأنه لم يثبت قط ثبوتاً محققاً أن ذلك الإقليم كان مركزها . ولقد أثبت حول هذا الموضوع مناقشات واسعة النطاق وحدث بصده اختلاف كبير في الرأي . لذا فنحن إنما نقدم إليك وجهة النظر السائدة . كانت تلك اللغة في الأصل لغة مجموعة من الشعوب النوردية الجنس . فلما أن انتشرت الآرية انتشاراً واسعاً أخذت في التفرع والانقسام إلى عدد من اللغات الثانوية . فالتقت في الغرب والجنوب بلغة « الباسك » التي كانت سائدة في أسبانيا ، ولعلها لقيت أيضاً لغات أخرى متنوعة على شواطئ البحر المتوسط .

وقبل انتشار الآريين من بلادهم الأصلية نحو الجنوب والغرب كان الجنس الأيبيري موزعاً بين بريطانيا العظمى وإيرلندا وفرنسا وأسبانيا وشمال أفريقيا وجنوب إيطاليا ، كما كان على حالة أكثر مدنية وتحضراً في بلاد الإغريق وآسيا الصغرى . وكانت بينه وبين المصريين صلات وثيقة . وإذا حكمنا عليه بآثاره الباقية في أوروبا ، قلنا إنه كان صغبر الحجم أو يكاد ، وكان بوجه عام يعضاوى الوجه مستطيل الرأس . وكان يذفن رؤساءه وذوى المكانة من أفرادهم في حجرات من الجندل^(١) مغطاة بروابي عظيمة من التراب .

(١) الجندل : هو الصخر الضخم . (المترجم)

ولما كانت هذه الروابي أكثر طولاً منها عرضاً ، فإنها تعرف بالقبور (١) المستطيلة ، وكان هؤلاء الأقوام يحتمون في بعض الأحيان في الكهوف ، كما كانوا أيضاً يدفنون بعض موتاهم فيها . ومن آثار العظام الإنسانية ، سواء المحترق منها والمهشم والمقطع ، بما في ذلك عظام الأطفال - نستنتج أنهم كانوا من أكلة لحوم البشر .

هذه القبائل الأيبيرية القصيرة الأجساد الداكنة اللون (يضاف إليهم الباسك إن كانوا جنساً مغايراً) قد دفعوا إلى الخلف جهة الغرب ، ثم هزموا واستبعدوا على أيدي موجات تتقدم وتبدأ من أولئك الناطقين بالآرية الأطول قامة والأشد شقرة الذين نزحوا نحو الجنوب والغرب عابرين أوروبا الوسطى ، وهم الذين نسميهم الكلت . ولم يقف في وجه ذلك اللسان الآري القاهر غير شعب الباسك وحده . وشرع أولئك الناطقون بالكلتية يتخذون طريقهم رويداً رويداً نحو المحيط الأطلسي . وكل ما يتبقى اليوم من أعقاب الأيبيريين مختلط بالسكان الكلتيين . أما مدى تأثير الغزو الكلتى في سكان أيرلندة فهو مثار جدل إلى وقتنا هذا . وربما كان الكلت في تلك الجزيرة مجرد طائفة من الغزاة فرضوا لغتهم على رعية من السكان أكثر عدداً . وربما صح مثل هذا القول عن أسبانيا . بل يشك بعض الناس فيما إذا كان شمال إنجلترا نوردي الدم أم يغلب عليه الدم السابق للكلتية . فإن بين أهل ويلز من هو قصير داكن البشرة ، كما أن بين الإيرلنديين طرقات مماثلة ، وكلاهما أيبيرى الجنس . والبرتغاليون العصريون يغلب عليهم كذلك الدم الأيبيرى .

وكان الكلت يتكلمون لغة هي الكلتيّة ، يقال عنها إنها كانت تجمع بين مفردات آرية ، وبين أجرومية البربر Berbers (أى الأيبيريين) ، وهى اللغة التى قدر لها أن تتفرع بدورها فتصبح لغة غالة واللغات (Galic) الويلزية والبريطونية (Briton) والاسكتلندية والإيرلندية الغيلية (Gaelic) والسنة أخرى . وكان الكلتيون يدفنون رماد رؤسائهم وعظماهم في قبور مستديرة . وعلى حين كان هؤلاء الكلتيون النورديون ينتشرون غرباً ، كانت هناك

(١) وقد أسيناها أيضاً في المجلد الأول باسم تلعات الدفن . (المترجم)



خريطة توزيع الشعوب الناطقة بالآرية - ٥٩ -

شعوب آرية نوردية أخرى تضغط جنوباً على شعب البحر المتوسط ذى اللون الأبيض الداكن فى أشباه الجزائر الإيطالية والإغريقية وتطور مجاميع الألسن اللاتينية والإغريقية . وثمة قبائل آرية معينة كانت تندفع نحو البلطيق وعبره حتى تدخل اسكنديناوة ، وهى تتكلم ضروباً من الآرية أصبحت النورسية القديمة — وهى أصل السويدية والدانمركية والنرويجية والإيسلندية — والقوطية والجرمانية العليا والسفلى^(١) .

وفى نفس الوقت الذى كان اللسان الآرى البدائى ينتشر فيه على هذا النحو ، وينقسم إلى لغات وليدة فى الغرب ، كان ينتشر ويتفرع فى الشرق كذلك . فإن القبائل الناطقة بالآرية كانت تستعمل فى شمال جبال الكربات والبحر الأسود لهجة تميزها تسمى السلافونية (الصقلبية) التى منها جاءت الروسية والصربية والبولندية والتشيكية وألسنة أخرى . وثمة لهجات أخرى للغة الآرية موزعة فى آسيا الصغرى وبلاد إيران ، تجسست ذاتيتها فى صورة الأرمنية « والهند وإيرانية » وهى أم اللغتين السنسكريتية والفارسية . ولقد أطلقنا فى هذا الكتاب كلمة الآرية على كل هذه المجموعة الضخمة من اللغات ، وإن كان اصطلاح « الهندوأوربية » مستعملاً فى بعض الأحيان للدلالة على العائلة بأسرها ، على حين اقتصر استعمال كلمة الآرية على حيز أضيق هو اللسان الهندوإيرانى ، ثم قدرت الأيام لهذا اللسان الهندوإيرانى أن يتشعب فيما بعد فيصبح عدداً من اللغات من بينها الفارسية والسنسكريتية ، والأخيرة إنما هى لغة قبائل بعينها من الناطقين بالآرية ذوى البشرة الشقراء ، زحفوا شرقاً ودخلوا الهند فى زمان ما بين ٣٠٠٠ و ١٠٠٠ ق.م . ، وتغلبوا على الشعوب الدرافيدية السمرء الذين كانت تلك الأرض فى أيديهم إذ ذاك .

ولقد انتشرت قبائل آرية أخرى من مجال جولانها الأصيل إلى شمال البحر الأسود وجنوبه ، كما سارت حول شمال وشرق بحر قزوين ملازمة شواطئ بحار تلك المنطقة أثناء انحسارها أمامهم وإفساحها الطريق لهم . وبذلك أخذت تنشب المنازعات فضلاً عن الاختلاطات بينهم وبين الشعوب المغولية من مجموعة الأورال آلتاى اللغوية ، وهم القوم الذين يربون الخيل فى سهوب

(١) أنظر اللغات البشرية ص ١٣٩ من المجلد الأول . (المترجم)

آسيا الوسطى المعشبة . ويلوح آن الآريين اكتسبوا طريقة استخدام الخيل في الركوب والحرب من هاته الشعوب المغولية . ولقد كانت هناك في عصر ما قبل التاريخ ثلاثة أو أربعة أنواع أو أجناس مختلفة من الخيل في أوروبا وآسيا . على أن أرض السهوب أو الأراضي شبه الصحراوية هي التي أعدت في مبدأ الأمر خيولا ذات بنية مهيأة لغاية أخرى غير الانتفاع بها كغذاء .

وليكن مفهوماً أن كل هذه الشعوب القاطنة في السهوب الروسية والآسيوية ، كانوا يغيرون مواطنهم بسرعة . ذلك أن تعاقب الفصول المتطرفة المناخ ربما قذف بهم مئات كثيرة من الأميال . ولذا فليس في ميسورنا اليوم أن نستدل على مضارب أقدامهم وتنقلاتهم إلا على سبيل الظن والاستدلال . فكانوا يزحون إلى الشمال في كل صيف ، ثم يعودون أدراجهم إلى الجنوب من جديد عند ما يحل الشتاء . وكان مدى هذا التأرجح السنوي يبلغ في بعض الأحيان مئات الأميال . ورغبة منا في التبسيط ، تمثل خرائطنا انتقالات الشعوب المترحلة بخط مستقيم ، وإن كانوا في حقيقة الأمر يتحركون في تأرجحات سنوية مثلهم في ذلك مثل خادم يكنس دهليزاً فتنتقل مكنته من جانب إلى جانب آخر وهو يخطو إلى الأمام في عمله . وكانت المنطقة الممتدة حول شمال البحر الأسود وربما كذلك شمال بحر قزوين ، والمبتدئة من مجال القبائل التيوتونية الأصلية القاطنة في أوروبا الوسطى وأوروبا الشمالية حتى منطقة الشعوب الإيرانية التي تفرعت إلى الميديين والفرس والهنود (الآريين) ، - كانت هذه المنطقة كلها هي أراضي الرعى التي تنتجها قبائل اختلط حابلها بنابلها اختلاط يجعل الإبهام لا الدقة بالنسبة لها أقرب إلى الحقيقة ، وهي قبائل من أمثال الكمريين ، والسرمايين وأولئك الإسكيذيين (الإشقوذين) الذين اشتركوا مع الميديين والفرس في الاتصال بالإمبراطورية الآشورية اتصالاً له أثره الفعال قرابة سنة ١٠٠٠ ق.م. أو قبلها .

وإلى الشرق والجنوب من البحر الأسود بين الدانوب وبين الميديين والفرس وإلى الشمال من الشعوب السامية وشعوب البحر المتوسط الساكنة على السواحل وفي أشباه الجزر ، استقرت سلسلة أخرى من قبائل

آرية لا تقل عن الأخرى في عدم تحديد مستقراتها ، وهى تنتقل تنقلا سهلا هيناً من مكان إلى آخر وتختلط اختلاطاً حراً ، وهو أمر يورث المؤرخين أعظم الحيرة والارتباك ، إذ يلوح مثلاً أنهم مزقوا الحضارة الحثية وتمثلوها ، وهى حضارة كانت على ما يرجح سابقة للآريين فى أصل نشأتها . وربما لم يكن هؤلاء الآريون الأخيرون قد وصلوا إلى نفس المرحلة العالية من حياة الترحل التى بلغها اسكيزيو السهول العظيمة .

٢ - عن حياة الآريين الأصلية

أى نوع من الحياة كان يعيشه هؤلاء الآريون فى عصر ما قبل التاريخ ؟ أولئك الآريون النورديون الذين هم أهم أسلاف معظم الأوربيين ومعظم الأمريكين البيض والمستعمرين الأوربيين فى أيامنا هذه ، كما هم أسلاف الفرس والطائفة العليا من الهندوك ، وربما كانوا أيضاً أسلاف الأرمينيين ، على أن هؤلاء الأخيرين كانوا على الأرجح شعباً غير آرى ، ولعلمهم شعب حتى تعلم لغة آرية .

ولدينا فى الإجابة عن هذا السؤال مصدر جديد من مصادر المعرفة يضاف إلى ما كشف عنه الحفر من الآثار والبقايا التى التزمنا أن نعتمد عليها فى حالة أسلاف الآريين ، لدينا ميدان اللغة نظرقه . ذلك أن دراسة اللغات الآرية دراسة عناية وتمحيص تبين أن من الممكن استنتاج طائفة من النتائج عن حياة هؤلاء الشعوب منذ ٥٠٠٠ أو ٤٠٠٠ سلفت من السنين .

فإن بين كل هاته اللغات مشابهة عامة ، فإن كلا منها كما سبق أن بينا تشق الكلمات المختلفة بإدخال تغييرات على عدد من الأصول أو (الجذور) المشتركة بينها . ففى وجدنا نفس أصل الكلمة وجذرها متداولاً فى كل هذه الألسن أو جلها بدا من المعقول أن نستنتج أن المعنى الذى يورث إليه أصل الكلمة هذا ، كان لاريب معروفاً للأجداد المشتركين . وبديهى ، أنه إن وجدت بلغاتهم نفس الكلمة بالضبط فربما اختلف الحال إذ أنها قد تكون اسماً جديداً دالاً على

شئ جديد أو فكرة جديدة انتشرت في العالم في زمان حديث جداً ، فكلمة « غاز » مثلاً لفظة صاغها « فان هلمونت » وهو كيمائى هولندى ، حوالى سنة ١٦٢٥ ، فانتشرت في معظم الألسن الممدنة ، وكلمة « التبغ » كذلك كلمة هندية أمريكية جاءت في أثر انتشار التدخين في كل مكان تقريباً . على أنه إذا وجدت نفس الكلمة في عدد من اللغات وإذا كانت تتبع في تصريفاتها خصائص التصريف في كل لغة على حدة جاز لنا أن نوقن أنها كانت في تلك اللغة ، وأنها ظلت جزءاً من تلك اللغة . ولنا لنعرف مثلاً أن الكلمتين الدالتين على العربة والعجلة تتداولان على هذا المنوال في جميع الألسن الآرية ، وبذلك نستطيع أن نستنتج أن الآريين البدائيين ، وأعني بهم الآريين النورديين الخالص ، كانت لديهم عربات ، وإن كان يبدو من عدم وجود أى كلمات مشتركة دالة على برائق العجلة وإطارها ومحورها ، أن عجلاتهم لم تكن من صنع صانع عجلات ولا كانت ذات برائق ، بل كانت تؤخذ من جذوع الشجر وتسوى فيما بين الأطراف ببليطة .

وكانت هذه العربات البدائية تجرها الثيران ، إذ لم يكن الآريون الأول ركبون أو يسوقون الخيل ولم يكن للخيل عندهم كبير منفعة . وكان مغول العصر الحجري الحديث شعباً من الفرسان راكبي الخيل ، على حين كان آريو نفس العصر الحجري الحديث شعباً يستخدم البقر ، فكانوا يأكلون لحم البقر ، لا لحم الخيل . وشرعوا بعد عصور كثيرة في استخدام الماشية في الجر ، وكانوا يقدرون الثراء بعدد الأبقار ، ويضربون بها في الأرض طلباً للمرعى ، ويحملون بضائعهم على عرباتهم التي تجرها الثيران كما يفعل بوير أفريقيا الجنوبية ، وإن كانت عرباتهم بطبيعة الحال أقيح شكلاً من أية عربة توجد الآن في العالم ، والراجح أنهم كانوا ينتقلون في مناطق فسيحة مترامية الأرجاء ، إذ كانوا شعباً نزوعاً إلى الهجرة ، ولكنه لا يدخل تحت المعنى الدقيق لكلمة « الرحل » لأن انتقالاتهم كانت أبطأ وأثقل وأقل مهارة من الشعوب التي أصبحت فيما بعد هي الشعوب المترحلة الأكثر تخصصاً . كانوا

قوم غابات أو أحراش خفيفة (Parklands) لا خيل عندهم ، وكانت حياتهم تتطور متجهة صوب الهجرة متحولة عن حياة العصر الحجري الحديث السابقة الأكثر استقراراً والمشتغلة بقطع الغابات . وقد تكون التغيرات المناخية التي كانت تحيل الغابات إلى مراعى ، وكذلك احتراق الغابات بالنار عرضاً ، من العوامل التي ساعدت على هذا التطور .

سبق أن وصفنا لك نوع البيت الذى يسكنه الآرى البدائى ، كما وصفنا لك حياته المنزلية بقدر ما سمحت لنا بقايا مساكن البحيرات السويسرية . وكانت بيوتهم فى معظم الأحوال رثة بالغة الضعف ، كما كانت مصنوعة من الطين وفروع الأشجار المتشابكة ، بحيث لم تقو على البقاء . ولعله كان يتركها لأنفه الأسباب ، راحلاً عنها بعرباته التي تجرها الأبقار ، وكانت الشعوب الآرية تحرق موتاهم . وهى عادة لا يزالون يرعونها فى الهند ، على أن أسلافهم أصحاب القبور المستطيلة وهم الأيبيريون ، كانوا يدفنون موتاهم راقدتين على جنوبهم فى هيئة الجالسين . وفى بعض ركام الدفن الآرية القديمة (وهى القبور المستديرة) كانت الأوعية المحتوية على رماد الراحلين مصنوعة على صورة المنازل ، وهذه تمثل أكوخاً مدورة لها سقوف من القش .

وكان انتجاع الآرى البدائى للمرعى أعظم أهمية لديه من الزراعة . وكان يزرع فى مبدأ الأمر بفأس خشبي بدائى ، ثم ما لبث حين اكتشف استخدام الماشية لأغراض الحر أن بدأ فى الحرثة الحقيقية بالثيران متخذاً محراثه فى مبدأ الأمر من فرع شجرة معوج اعوجاجاً ينى بحاجته . وزراعاته الأولى التي ظهرت قبل ذلك ، لاشك أنها كانت أقرب إلى صورة البساتين الصغيرة المجاورة لمباني المنازل منها إلى زراعة الحقول . وكانت معظم الأراضي التي تنزلها قبيلته أرضاً مشاعة ترعى فيها الماشية بعضها مع بعض .

وهو لم يستعمل الحجر قط فى بناء جدران المنازل حتى شارف حافة العصر التاريخي ذاتها . وكان يستعمل الحجر فى المواقد (أمثال ما يوجد فى جلاستونبرى Glastonbury ، كما كان يستعمل الحجر أحياناً فى الأجزاء

السفلى من المباني . على أنه قد شاد بالفعل نوعاً من البيت الحجري في وسط
الركام العظيمة التي كان يدفن فيها رماد النابهن من موتاه ، ولعله تعلم هذه
الأمم ، من بينهن ، وسابقه الأيبيريين ، فقد كان هؤلاء البيض الداكنون
أسلاف الثقافة الجذلية (١) ، وليس الآريون البدائيون هم أصحاب الفضل في
إنشاء ما كان من أقدام ستونج (Stonehenge) في ولتشير (Wiltshire)
وكانناك (Carnac) في بريتاني (Brittany) .

وما كان هؤلاء الآريون يحتشون في مدن ، ولكن في مناطق الرعي في
هيئة عشائر ومجتمعات قبلية ، ويؤلفون فيما بينهم أحلافاً مفككة هدفها التعاون
المتبادل بزعامة رؤساء مختارين . وكانت لهم مراكز يستطيعون أن يلجأوا إليها
مع ماشيتهم إن دهمهم خطر ، وكانوا يقيمون الخيمات المحوطة بالجدران
الطينية والسيجات . ولا يزال من الممكن تقصي آثارها في طبقات ما عني
عليه التاريخ من معالم البلاد الأوربية . والزعماء الذين كانوا يقودون
الناس في الحرب ، هم في غالب الأمر نفس الأشخاص الذين يقومون
بالتطهير من الرجس بتقديم القرابين ، وهم كهنتهم الأول .

وقد انتشرت معرفة الإنسان للبرونز في أوروبا في أوان متأخر . فإن
الأوربي النوردي ظل يسير في سبيل التقدم البطيء جيلاً بعد جيل مدة ترامت
إلى ٧٠٠٠ أو ٨٠٠٠ سنة قبل ظهور المعادن ، وكانت حياته الاجتماعية قد
تطورت في تلك الفترة حتى لقد كان هناك رجال ذوو حرف مختلفة فضلاً
عن رجال ونساء من مراتب مختلفة في المجتمع ، فكان هناك رجال يعملون
في الحشب والجلد ، وكان ثم الفخرايون والنحاتون . وكانت النساء يغزلن
وينسجن ويطرزن ، وكان هناك رؤساء عائلات تسنموا مراتب الزعامة
والنبالة .

وكان الرجل من أفراد القبيلة الآرية يذهب عن نفسه سامة حياة الرعي
والتجول بأن ينذر النذور وقيم الحفلات ابتهاجاً بالنصر ، وقيم الجنازات

(١) انظر ص ١٠٢ ، ١٠٧ من ج ١ (ط ٣) من المعالم (المترجم)
(٣ - عالم)

ويميز بين فصول السنة التقليدية بما يقيم من أعياد وولائم . ولقد مر بنا من قبل حديث اللحوم التي كان يتناولها . وكان شغوفاً بتناول المشروبات المسكرة يصنعها من الشهد ومن الشعير . ثم عاد فصنعها من العنب مع انتشار القبائل الناطقة بالآرية جنوباً . فإذا شربها تملكته نشوة السكر والمرح . ولسنا نعرف ما إذا كان قد عرف الخميرة واستخدمها لتجفيف خبزه ورفع أول تخمير مشروباته . وكان في ولائمه أفراد أوتوا موهبة المحبون والسخرية يعمدون إلى ذلك لاجرم للفوز بضحك إخوانهم ، على أنه كان هناك نوع آخر من الرجال أوتوا أهمية عظيمة في عصرهم وأهميتهم لدى المؤرخ أعظم وأكبر ، أولئك هم بعض المغنين الذين كانوا يرجعون الأغاني وينشدون القصص ، وهم المنشدون أو الشعراء المتجولون . وكان هؤلاء الشعراء يعيشون بين ظهراني كافة الشعوب الناطقة بالآرية . جاء ظهورهم نتيجة لذلك التطور الذي أصابته لغة الكلام بل هم عامل آخر مساعد في تطور تلك اللغة التي كانت رأس كل ما أصابه الإنسان من تقدم في العصور الحجرية الحديثة . وكانوا ينشدون أو يلقون أقاصيص عن الماضي ، أو أقاصيص عن رئيسهم الراهن وشعبه ، كما ينشدون أيضاً أقاصيص أخرى استحدثوها ، وكانوا يستظهرون النكات والقفشات . وهم الذين استحدثوا الأوزان والقوافي وتمسكوا بها وحسنوها كما وفقوا إلى السجع وجناس الحروف الأولى من الكلمات وما شابه ذلك ومما تبيأ في اللغة من احتمالات كامنة . والراجح أنهم بذلوا جهداً كبيراً في سبيل إحكام قواعد اللغة ووضعها على أسس ثابتة . وكانوا فيما يحتمل أول من أمتع الأذن من عطاء الفنانين على نحو ما كان مصورو الصخور الأورينيكيون فيما بعد أول عطاء الفنانين الذين نعمت بآثارهم الأيدي والعيون . ولا ريب أنهم كانوا يأتون بالكثير من الحركات والإشارات . والراجح أنهم كانوا يتعلمون الحركات والإشارات المناسبة وهم يحفظون أناشيدهم . على أن ترتيب اللغة وعدوبتها وقوتها كانت لا جرم شغلهم الشاغل . وهؤلاء الشعراء يؤذنون بخطوة جديدة خطتها إلى الأمام قوة العقل

الإنسانى وآفاقه . ولإلهم يرجع الفضل فى توجيه أذهان الناس إلى شعور جديد « بكائن » أعظم من أشخاصهم هو القبيلة ، وشعور آخر بحياة ترجع إلى الماضى البعيد . فلم يقتصروا على مجرد تذكير قومهم بتقديم الإحن والمعارك ، بل أخذوا يترنمون بذكرى المحالفات القديمة والتراث المشترك ، فبعثت على أيديهم جلائل أعمال السالفين من الأبطال . وبذا صار الآريون يعيشون بخيالهم قبل مولدهم وبعد انتهاء أجلهم .

وهذه التقاليد الشاعرية نمت فى مبدأ الأمر نمواً وثيداً ، ثم ما لبث نموها أن زاد سرعة كمعظم أمور الإنسان . حتى إذا حان الزمان الذى كان البرونز يدحل فيه إلى أوربا ، لم يكن هناك شعب آرى واحد لا يقوم فيه احترام الشعر وتدريب الشعراء . وعلى أيديهم أصبحت اللغة كأجل ما يمكن أن تكون فقد كان هؤلاء الشعراء كتباً حية ، وكانوا توارىخ فى صورة رجال ، وكانوا قوامين ومنشئين لتقاليد جديدة فى الحياة الإنسانية أشد قوة . وكان لكل شعب آرى سجله الشاعرى الطويل يتوارثونه على هذا الوجه نقلاً وسماعاً . فكان للألمان قصائد الساجا كما تسميها اللغة التيوتوتية ، وللإغريق ملاحمهم وللهنود الآريين شعرهم القصصى الفيدانتى بالسنسكريتية القديمة . وأقدم الشعوب الآرية كانوا فى جوهر أمرهم شعب صوت ، إذ يلوح أن الإلقاء كان متسلطاً على كل شئ حتى على تلك الرقصات الطقوسية والدرامية وعلى « ارتداء ثياب الماضى » وهى أمور كان لها أيضاً لدى معظم الشعوب الإنسانية الفضل فى نقل التقاليد من السلف إلى الخلف .

ولم تكن هناك فى ذلك الزمان كتابة . ولما أن تسرب فن الكتابة لأول عهده فى أوربا — كما ستقص عليك نبأه فيما بعد — فلا بد أن الناس رأوا فيه طريقة تسجيل أشد ما تكون بطلاً أو سماجة وجوداً ، حتى لأوشكوا أن يضمنوا على القرطاس بهذه الكنوز الوهاجة الحميلة التى تعيها ذاكرتهم . وقصرت الكتابة فى أول الأمر على الحسابات والحقائق الواقعية . وازدهر شأن الشعراء

والمُنشدين المتجولين ، حتى بعد إدخال الكتابة بزمان بعيد جداً ، بل الواقع أنهم بقوا في أوربا حتى العصور الوسطى في صورة المغنين المتجولين .
• Minstrels

ولم يكن لتقاليدهم لسوء الحظ ما للسجل المكتوب من ثبات . إذ أنهم كانوا لا ينفكون يصححون ويهدمون ويبنون ، وكانت لهم طرائقهم المتجددة وكانت لهم نواحي إهمالهم فترتب على ذلك أن لم يبق من ذلك الأدب غير المسطور لعصور ما قبل التاريخ غير آثار ضئيلة دخلها الشيء الكثير من التحوير والتنقيح . ومن أمتع توالييف الآريين قبل التاريخ وأحفلها بالمعلومات تلك الملحمة التي خلدها الإلياذة الإغريقية . ويرجح أن صيغة أولى من الإلياذة كانت تتلى على الناس إبان ١٠٠٠ ق.م. ولكن لعلها لم تدون حتى (٧٠٠ أو ٦٠٠ ق.م.) ولا بد أن لكثير من الرجال يدأ فيها ، إما مؤلفين أو محسنين منقحين . على أن ما عقب ذلك من متوارث التقاليد الإغريقية تنسبها إلى شاعر ضرير يدعى هوميروس ، كما ينحلونه كذلك الأوديسيا ، وهي مؤلف شديد الاختلاف عنها في الروح والنظرة . ويحتمل أن يكون بين الشعراء الآريين كثير من المكفوفين . والشعراء كما يقول الأستاذ ج . ل . مايرز Myres كانوا يُسلبون البصر لمنعهم من الشرود من القبيلة . ولقد رأى المستر ل . لويد في روديسيا موسيقاراً لدى جوقة ممن احترفوا الرقص من الأهالي ، وقد سلبه رئيسه بصره لهذا السبب عينه . وكان السلافي (الصقالبة) يسمون الشعراء باسم سليپاك Slipeae ، وهي الكلمة التي يطلقونها أيضاً على الرجل الضير .

ونص الإلياذة الأصلي الذي كان الناس يتلونه أقدم من الأوديسيا عهداً . ويقول الأستاذ جلبرت مري : « إن الإلياذة بوصفها أثراً شعرياً نص كامل أقدم من الأوديسيا عهداً ، وإن كانت مادة الأوديسيا (وهي إلى حد كبير من التراث الشعبي (Folk-lore) الذي لا يمكن تحديد تاريخه) أقدم من أية

مادة تاريخية في الإلياذة . ويرجح أن كلا من الملمحين كتبت مرة ثانية . ثم أعيدت كتابتها في تاريخ لاحق ، على نفس النحو الذى أعاد به لورد تينسون أمير شعراء الملكة فكتوريا في كتابه « أناشيد الملك » كتابة قصة « موت آرثر Morte d'Arthur » . وهى بذاتها التى أعاد كتابتها السير توماس مالورى قرابة ١٤٥٠ نقلا عن الأساطير السابقة لعصره ، وفيها جعل الأقوال والمشاعر والشخصيات أقرب إلى الاتساق مع عصره . على أن حوادث الإلياذة والأوديسيا ، وطريقة العيش التى تصفان ، وروح الأفعال المدونة فيهما ، تنتمى إلى القرون الختامية لعصر ما قبل التاريخ . ثم إن هاته الأشعار سواء منها الساجا والملاحم والقيدا تزودنا هى وعلم الآثار القديمة وعلم فقه اللغة بنبوع ثالث للإحاطة بأنباء هاته الأزمان الغابرة . ولإيكم مثالا فقرة الإلياذة الختامية ، وهى تصف على وجه الضبط طريقة إقامة القبر قبل التاريخ (١) :

أسرعوا جملة لشد البغال وقوى الثيران حول العجال
ثم ساروا هن فوراً وجدوا وإلى السور أقبلوا أسرابا
أنهراً تسعة بجمع الضرام لبشوا ثم عاشر الأيام
رفعوا الميت والعيون هوام
فوق ذاك الوقود ثم النارا أضرموها به توجب أوارا
ولهم حين لاح ورد بنان الـ فحجر من حوله أقاموا عصابا
حيث هبت لواهب النيران أخذوها بصرف خمر الدنان
ولفيف الإخوان والخلان

جمعوا كل أعظم الميت جمعا بكثيب الفؤاد يذرون دمعا
أودعوها من ثم حق بلجين وكسوه برفيرهم (٢) جلبابا

(١) اعتمد المؤلف في هذا الاقتباس على ترجمة تشابمان الشعرية للإلياذة مصححاً بعض الكلمات بمساعدة ترجمة لانج وليف ومايرز النثرية ونقلناه نحن عن ترجمة البستانى العربية لها ص ١١٤٨ (المترجم)

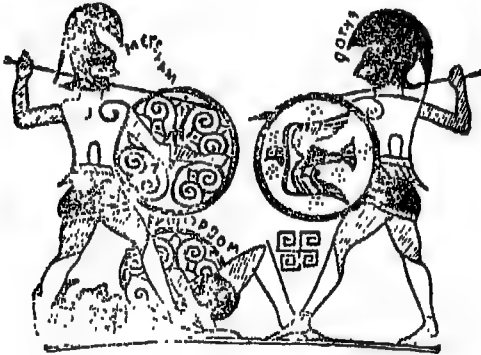
(٢) البرفير والفرفير ضرب من الأيا ان مركب من الأحمر والأزرق ، والثوب صبيغ . به ويعرف بالأرجوان . (المترجم)

- ٣١٨ -

أنزلوها في حفرة حضروها وبجلمود صخرهم طمروها
ثم شادوا الضريح إذ دفنوها
وحواليه أوقفوا الأرصادا من سراة السرى قروما شدادا
خشية من عدوهم أن يفاجى بغتة حين غفلة واحتسابا

وإذا القبر أكملوا وأتموا صرح ذاك المليك فريام أموا
حيث حوليه للغزاء انضموا

ولهم هيا المليك طعاماً كان في مآتم الفقيد ختاماً
ذاك ما كان من مناحة مكطو ر الذى روض الجياد الصلابا



٦٠ - القتال بين منيا س ومكتور

وماتزال هناك أيضاً ملحمة
انجليزية قديمة (ساجا) هي
بيوولف (Beowulf) وقد
صنفت قبل عبور الإنجليز من
ألمانيا إلى إنجلترا بزمن طويل .
وهي تختتم بوصف منظر للدفن
شبيه بذلك . وهي تبدأ بالحديث

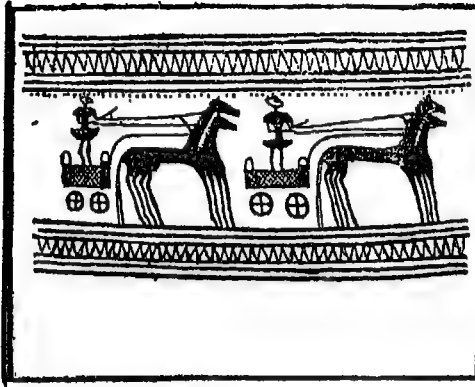
عن إعداد كومة الحطب للإحراق . وقد علفت من حولها التروس
والدروع ، وتحمل الحنطة وتوقد النار ، وبعد ذلك يدأب المحاربون عشرة
أيام على إقامة مقبرة ضخمة لكي يراها عن بعد كل مسافر بالبر أو البحر .
وملحمة بيوولف التي ظهرت بعد الإلياذة بألف سنة على الأقل شائعة
هي الأخرى ، وذلك لأن إحدى مغامراتها الكبرى تدور حول نهب كنوز
مقبرة قديمة ترجع إلى عهد أقدم من ذلك .

٣ - العائلة الآرية

والملاحم الإغريقية تصور لنا الإغريق الأول على غير علم بالحديد ، صفراً من كل معرفة بالكتابة ، كما تصورهم قبل أن يؤسسوا أى مدن إغريقية في تلك البلاد التى تدل كل الدلائل على حداثة عهدهم بفتحها . فأخذوا ينتشرون جنوباً من مواطن الآريين الأصليين ، وكانوا فيما يلوح قوماً من الشقر نازحين ، حديثي عهد ببلاد الإغريق أى حديثي العهد بأرض كان يملكها إلى ذلك الحين شعوب البحر المتوسط أو الشعوب الأيبيرية .

وتوخياً للوضوح وإن تعرضنا لشيء طفيف من التكرار في هذه المسألة بالذات ، نذكرك بأن الإلياذة لا تعطينا صورة حياة العصر الحجري الحديث البدائية بذلك الإقليم الآرى الأصلي ، بل تعرض علينا تلك الحياة وقد سارت حديثاً صوب حالة جديدة ، وكانت طريقة العيش الحجري الحديث قد انتشرت فيما بين ١٥٠٠٠ ، ٦٠٠٠ ق.م. بانتشار الغابات ووفرة النباتات في الحقبة المطيرة - فوق الجزء الأكبر من العالم القديم من نهر النيجر إلى نهر الهوانج هو ومن لارلندة إلى جنوب الهند . وبينما كان مناخ أجزاء عظيمة من الأرض يرتد من جديد إلى حالة أكثر جفافاً وأشدّ تعرياً من النبات ، كانت حياة العصر الحجري الحديث السابقة الأكثر بساطة تتطور في اتجاهين : أحدهما يؤدي بها إلى حياة أكثر تجوالاً وانتقالاً ، أى إلى حياة تنتهى آخر الأمر إلى أن تصبح حياة هجرة مستديمة بين مراعى الصيف والشتاء وهى ماتسمى باسم « حياة الترحل أو البداوة » ، والآخر يفضى بها في وديان لأنهار معينة تسطع عليها الشمس - إلى حياة رى يحتزنون فيها الماء . وهى التى تجمع فيها الناس فكوّنوا المدن الأولى وأقاموا المدينيات الأولى . ولقد أسلفنا وصف المدينيات الأولى وألطنا إلى تعرضها من وقت لآخر لغزوات الشعوب المترحلة ولحظنا من قبل أنه في خلال آلاف عديدة من السنين ظلت المدينيات تتعرض للغزوات يتردد عليها المترحلون تردداً يكاد يكون إيقاعياً كخفق الطبول .

وينبغي لنا أن نلاحظ أن الإغريق كما تصورهم لنا الإلياذة ليسوا مجرد رحل من العصر الحجري الحديث عارين من كل حضارة ولا هم بالقوم الممدنين ، وإنما هم بدو مترحلون في حالة انفعال واضطراب ، لأنهم كانوا التقوا من فورهم بمشهد الحضارة ورأوا فيه فرصاً للحرب والمغنم والسلب .



٦١ - صورة الخيول والعربات الحربية في
عصر ما قبل التاريخ

وإغريق الإلياذة الأوائل محاربون شديدا المراس ، ولكن يعوزهم النظام - وما معاركهم إلا فوضى قوامها الزال الفردى . ولديهم الخيل ولكن ليس لديهم فرسان ، وهم يستخدمون الحصان وهو حيوان عرفة الآريون في زمن حديث نسبياً ، يتخذونه لجر مركبة حربية

بدائية في ميادين القتال . وكان الحصان لا يزال في ذلك الزمان شيئاً جديداً حتى لقد كان في حد ذاته مبعثاً للرعب . فأما أغراض الجر العادية فكانت الثيران أنعامها ، كما رأينا من الاقتباس الذى قدمناه لك من الإلياذة .

ولم يكن لهؤلاء الآريين من كهنة سوى سدة المقاصير والأماكن المقدسة . ومن رؤساء العائلات من كان يقوم كذلك بتقديم القرابين ، ولكن لا يبدو أن ديانتهم تنطوى على خفايا كثيرة أو شعور بأسرار مقدسة . فعندما يخرج الإغريق للقتال ، يلتزم من هؤلاء الرؤوس والأكابر مجلس ينصبون عليهم فيه ملكاً ، يتمتع بسلطات فضفاضة . وليس لديهم قوانين بل لديهم العرف وحده دون أى معايير مضبوطة للسلوك والأخلاق .

وكانت الحياة الاجتماعية لدى الإغريق الأوائل تدور حول دوارات (١)

(١) الدوار كما هو معلوم هو دار الوجيه الرينى . (المترجم)

هوؤلاء الزعماء . وكان هناك ولا ريب أكواخ للقطعان وما شابهها ، ومبان « للعزب » منعزلة . على أن هو الرئيس كان مركزاً جامعاً يؤمه الناس لحضور الولائم وسماع الشعراء والأخذ بنصيبتهم من الألعاب والرياضة . وكان أرباب الحرف البدائيون يتجمعون هناك . وكانت من حوله حظائر البقر واسطبلات الخيل وما إلى ذلك من المرافق . وكان الدهماء من غير ذوى المكاينة ينامون فى أى مكان حول ذلك البهو على النحو الذى كان يفعله الخدم والأتباع فى قلاع القرون الوسطى ، وكما يفعل الناس حتى الآن فى الدورات الهندية . وفيما عدا وجود الممتلكات الشخصية البحتة كان لايزل يحيط بالقبيلة جو من الشيوعية القائمة على نظام الأبوة . فكانت القبيلة أو رئيس القبيلة يملك أرض المرعى ، وكانت الغابة والأنهار مشاعاً بين الجميع .

ويلوح أن النظام الاجتماعى الآرى - بل فى الحق كافة المجتمعات الأولى . لم يكن يقوم على المنازل الصغيرة المنفصلة التى تتكون منها فى الوقت الحاضر كتلة السكان فى أوروبا الغربية وأمريكا ، بل كانت القبيلة عائلة كبيرة . وكانت الأمة جماعة من العائلات القبلية . وكان الدوار كثيراً ما يضم مئات من الناس . وقد ابتدأ المجتمع البشرى أمره على نفس الشاكلة التى ابتدأ بها تكوين القطعان والأسراب بين الحيوانات ، وذلك بأن كانت العائلة تؤخر تفككها وانقسامها . وانك لتجد الأسود فى الوقت الحاضر فى شرق أفريقيا جانحة بشكل واضح لأن تصبح حيوانات اجتماعية من هذه الناحية ، وذلك فى ملازمة الصغار لأمهاتها بعد استكمالها لنموها ثم فى خروجها للصيد جماعة . وكان الأسد حتى حين أقرب شىء إلى حيوان منفرد . ولئن لم يتعلق الرجال والنساء بعائلاتهم فى الوقت الحاضر بالقدر الذى كانوا يتعلقون به فى الماضى ، فذلك لأن الدولة والمجتمع يزودان الناس بالطمأنينة والعون والتسهيلات التى كانت فى يوم ما فى متناول جماعة العائلة دون غيرها .

ومجتمع الهندوك فى الوقت الحاضر لا يزال يحتوى تلك الدورات

الكبيرة التي كانت في المراحل الأولى للجماعة البشرية . وقد وصف (المستر بهو پندراناس) من أمد قريب دوارا هندوكياً طرازياً ، هو دوار آرى تهذب وتلطف بمرور آلاف من سنى المدنية . بيد أن تكوينه الاجتماعى هو عين تكوين الدورات التي تتحدث عنها الملاحم الآرية .

قال : « إن نظام العائلة المشتركة قد وصل إلينا من أزمان سحيقة في القدم ، ولا يزال النظام الأبوى الآرى القديم مسيطراً في الهند . وهو على قدمه لا يزال زاخراً بالحياة . والعائلات المشتركة إنما هي هيئة تعاونية فيها للرجال والنساء منزلة محددة المعالم ، وعلى رأس تلك الهيئة أرشد أعضاء العائلة ، وهو في العادة أكبر الذكور سنّاً ، غير أنه كثيراً ما تتسلم مقاليد السلطة أرشد النساء في حالة غيابه (راجع قصة پنيلوب Penelope في الأوديسيا) .

« وعلى جميع القادرين جثمانياً من الأعضاء أن يكرسوا جهودهم وكسبهم إلى الحصلة العامة سواء أكان ذلك عن طريق المهارة الشخصية أو الزراعة والتجارة . فأما الضعفاء والأيامى واليتامى وذوو القربى المعوزون ، فقد كان لزاماً أن تعولهم العائلة جميعاً وتعينهم ، وكان لزاماً أن يعامل الأبناء وأبناء الإخوة والإخوة وأبناء العم جميعاً على قدم المساواة ، إذ أن أى تفضيل لا محل له ربما أفضى إلى تفكك العائلة . وليس لدينا (في الهند) أى كلمة للدلالة على أبناء العمومة . فهم إما إخوة أو أخوات . وليس في مصطلحنا لفظ يدل على أبناء العمومة الذين يبعدون في قرابتهم لنا درجتين ، فإن أولاد ابن عمك لحاً^(١) إنما هم أبناء وبنات أخيك ، مثلهم كمثل أولاد إخوتك أو أخواتك تماماً . والرجل لا يستطيع أن يتزوج من ابنة عمه أو خاله مهما بعدت قرابتها منه إلا بقدر ما يستطيع الزوج من أخته لحاً ، اللهم إلا في أجزاء بعينها من « مدراس » ، حيث يستطيع الرجل أن يتزوج ابنة خاله . والعواطف العائلية والروابط العائلية قوية جداً بينهم على الدوام . ولذلك كانت المحافظة على معايير المساواة بين هذا العدد الكبير من الأعضاء ، لا تبلغ من الصعوبة ما تبدو عليه لأول وهلة . زد على ذلك أن الحياة هناك

(١) ورد في الوسيط : لحق القرابة بيننا لحاً ، دنت ولصقت . [المترجم]

جد بسيطة ، فلم يكن استعمال الأحذية حتى زمن قريب شائعاً داخل المنازل ، وإنما كانوا يستعملون الخفاف أى الصنادل غير ذات الشسوع الجلدية . وإني لأعرف عائلة ميسورة الحال من الطبقة الوسطى مكونة من عدد من الإخوة وأبناء العمومة ، ولها زوجان أو ثلاثة من الأحذية الجلدية تتناوب استعمالها . إذ أن تلك الأحذية لا تستعمل إلا إذا حدث ما يستدعى خروجهم ، ولا تزال تلك الطريقة عينها مرعية في حالة الثياب الغالية الثمن أمثال الشيلان التى تبقى أجيالا عدة ، والتي تلقى مع تقادم العهد بها عناية ملؤها التجلة لسابق استعمالها على يد أجداد كريمي الذكري .

« وتبقى العائلة المشتركة أحيانا متجمعة مدة أجيال عدة ، حتى تصبح كبيرة الحرم ثقيلة العبء عسيرة القيادة فتتجزأ إلى عائلات أصغر منها . وإنك لترى على هذا النحو قرى بأكملها مأهولة بأعضاء عشيرة واحدة . قلت إن العائلة هي جماعة تعاونية ، وربما أمكن تشبيهها بدويلة ، ويحتفظ لها بأوضاعها وبمكائنها نظامها القوي القائم على المحبة والطاعة ، وإنك لترى في كل يوم تقريباً أفراد العائلة الصغار ، يتقدمون إلى كبيرها « ويأخذون تراب قدميه » علامة على التبرك ، وكلما انطلقوا في مشروع لهم استأذنوه فيه وتقبلوا بركاته ... ! وهناك روابط كثيرة تربط العائلة بعضها ببعض : أولها رابطة التعاطف والمسرات المشتركة والأحزان المشتركة . فعندما تحدث في العائلة وفاة يشمل الحداد كل أفرادها ، وإذا ولد مولود أو تزوج فرد عمت الأفراح كل العائلة . وهناك فوق كل شيء إله العائلة وهو تمثال لقشنو (Vishnu) الحافظ ، وله حجرة خاصة ، تعرف عادة باسم حجرة الرب . على أن بعض العائلات الميسرة الحال تخصص له معبداً ملحقاتاً بالمنزل تؤدى فيه العائلة عبادتها اليومية ، وترتبط العائلة بتمثال الرب بنوع من المحبة الشخصية ، لأن التمثال ينحدر على العموم من الأجيال السابقة ، وكثيراً ما يكون أحد الأجداد الأتقياء قد حصل عليه بمعجزة من المعجزات في بعض الأزمان السحيقة ... وكاهن

العائلة وثيق الارتباط برب العائلة . والكاهن الهندوكى جزء من حياة أتباعه العائلية لا يتجزأ ، وقد دامت الرابطة بينها وبين شخصه مدة أجيال كثيرة . وليس الكاهن عادة رجلاً واسع العلم ، وهو على كل حال ملم بتقاليد عقيدته . وليس الكاهن بالعبء الثقيل على العائلة إذ هو يرضى بالقليل . فإن ملء حفنات قليلة من الأرز لتكفيه ، وإن عدداً قليلاً من أصابع الموز أو الخضر المزروعة فى المنزل ، وإن قليلاً من السكر غير المكرر المصنوع فى القرية ، وإن قليلاً من قطع العملة النحاسية تعطى له فى بعض الأحيان - لى كل ما يلزمه .

« وكل صورة لحياتنا العائلية لا تناول بالحديث خدم الدوار تكون صورة براء . فالخادم الأنثى تعرف فى البنغال باسم « جهى » أى الابنة ، فهى كاتبة البيت ، وهى تدعو رب البيت وربته أباً وأماً ، وتدعو شبان وفتيات العائلة إخوة وأخوات ، وهى تقاسم العائلة حياتها ، وتذهب إلى الأماكن المقدسة مع سيدتها ، إذ أنها لا تستطيع الذهاب بمفردها ، وهى على العموم تقضى حياتها مع العائلة التى تبنتها ، وتعنى العائلة بأطفال الخادمة . والخدم الرجال يلقون معاملة مماثلة لهذه تماماً . وهؤلاء الخدم الرجال منهم والنساء هم فى العادة قوم من طوائف أدنى مرتبة . على أن شعوراً بالتعلق الشخصى ينمو بينهم وبين أفراد العائلة ، وحين تتقدم بهم السن يسميهم الصغار من أفراد العائلة - فى حنان ومحبة - إخوة كباراً وأعماماً وخالات .

« ولكل بيت ميسر الحال مدرس مقيم على الدوام ، يعلم أطفال العائلة كما يعلم أولاداً آخرين من أبناء القرية وليست مباني المدارس كثيرة النفقة ، فإن فى أية شرفة « قراندة » أو مظلة فى الفناء متسعاً للأطفال ومعلمهم ، ويقبل أبناء الطوائف الدنيا فى هذه المدرسة مجاناً . فهذه المدارس الأهلية لم تبلغ يوماً مرتبة عالية جداً . بيد أنها كانت مركزاً لتعليم الجماهير لم يتيسر مثله فى أى قطر آخر .

« ويرتبط بالحياة الهندوكية واجب الكرم الذى تحتمه التقاليد ، فإن واجب صاحب الدار يقضى عليه بأن يقدم الطعام لأى غريب يحضر قبل الظهيرة ، وإن ربة البيت تمتنع عن تناول طعامها حتى يتناولها كل أفراد العائلة - وإذ أن طعامها يكون فى بعض الأحيان هو كل ما تبقى فى المنزل ، فإنها لاتتناول غداءها إلا بعد وقت الظهيرة بزمان كاف خشية أن يأتى غريب جائع ويطلب الغداء » .

لقد استمرأنا الاقتباس من المستر باسو فى شىء من الإسهاب ، لأننا بهذا نصل فعلاً إلى شىء يشبه الفهم الحى لطراز الدورات التى عمت المجتمعات البشرية منذ العصر الحجري الحديث ، والتى لا تفنأ تعم اليوم الهند والصين والشرق الأقصى . والتى أخذت فى الغرب تخلى مكانها سريعاً لنظام للتعليم تقوم به الدولة ومجالس البلديات ، ولنظام « تصنيع » واسع النطاق يتيسر فيهما من استقلال الفرد وحرية قدر لم تعرفه قط تلك الدورات الكبيرة . ولنعد الآن إلى التاريخ الذى تحفظه لنا الملاحم الآرية .

تنبئنا الملاحم السنسكريتية بقصة شديدة الشبه بتلك القصة التى تنطوى عليها الإلياذة . وهى قصة شعب أشقر يأكل لحم البقر - فلمهم لم يصبحوا نباتيين إلا فى زمن لاحق - ينحدر من بلاد الفرس إلى سهل الهند الشمالى ويشق طريقه فى مهل إلى نهر السند . ومن السند ينتشرون فى أنحاء الهند ولكن بينا هم فى انتشارهم تراهم يقتبسون الشىء الكثير من الدرافيديين السمر الذين غزوا بلادهم ، ويبدو أنهم فقدوا تقاليدهم الشاعرية . ويقول المستر باسو : « إن الأشعار القديمة كانت تتناقل على الأخص فى الدورات على ألسنة النساء » .

أما أدب الشعوب الكلتية الشفوى المحفوظ ، وهم الذين اتجهوا غرباً ، فلم يبق سليماً كما بقى أدب الإغريق والهنود ، وذلك لأنه سطر بعد انقضاء قرون عديدة ، ولذلك فإنه - شأن ملحمة البيوولف (Peowulf) الإنجليزية البدائية - قد فقد كل شاهد واضح يشهد بوجود فترة هجرة إلى أراضى

شعب سالف . ولئن ظهر فيه أثر لمن سبقوا الآريين ، فإنهم إنما يظهرون فقط ظهور (الفيرى^(١) Fairy) في القصص الإيرلندية . وظلت لإرلندة - وهي أشد المجتمعات الناطقة بالكلتية انقطاعاً عن العالم - محتفظة بحياتها البدائية إلى أحدث الأزمان . وقصة التين (Tain) وهي الإلياذة الإيرلندية تصف حياة قوم ربون الماشية ولا يزالون يستخدمون العربات الخربية كما تزال كلاب الحرب مستعملة لديهم ، وتحمل رؤوس القتلى معلقة حول رقاب الخيول . « والتين » إنما هي قصة غارة لسرقة الماشية ، وفيها أيضاً يبدو النظام الاجتماعي على نحو ما شوهد في الإلياذة . فإن الرؤساء يجلسون في قاعات عظيمة رحيبة ، ذلك أنهم يشيدون لأنفسهم القاعات ويقيمون فيها الولائم . وهناك ترفع أصوات الشعراء بالغناء وقص الأقاصيص على حين تدور الكأس بالشراب وينتشي الحاضرون . وليس هناك ما يدل دلالة واضحة على وجود كهنة ، بيد أن هناك نوعاً من الطيب الساحر حارس التعاويذ والتنبؤات .

(١) الفير - كائن أو روح خيالي كثير الورد في القصص الأوروبية ، له صورة إنسانية وقامته أقصر من الإنسان وله قدرة على عمل أشياء كثيرة خارقة لا يستطيع الإنسان عملها . (المترجم)

الفصل العشرون

الإغريق والفرس

- ١ - اشعرب الهيلينية .
- ٢ - المظاهر المميزة للمدينة الهلينية .
- ٣ - الملكية والأرستقراطية والديمقراطية في بلاد الإغريق .
- ٤ - مملكة ليديا .
- ٥ - نهوض الفرس في الشرق .
- ٦ - قصة كرويس (قارون) .
- ٧ - دار يجتاج الروسيا .
- ٨ - معركة ماراثون .
- ٩ - ثيرموبيلا وسالاميس .
- ١٠ - بلاتايا وميكال .

١ - الشعوب الهلينية

يظهر الإغريق لأول مرة في ذلك الضوء المعتم السابق لفجر التاريخ (قبل عام ١٥٠٠ ق.م. على التقريب) بوصفهم أحد الشعوب الآرية الجواله غير الكاملة الترحل . وكانوا يوسعون نطاق رعيهم شيئاً فشيئاً نحو الجنوب متغلين في شبه جزيرة البلقان ، ويقاثلون شعوب تلك المدينة الإيجية السابقة التي كانت مدينة كنوسوس تاجاً على مفرقها ، ويختلطون بها .

وتنبئنا الأشعار الهوميرية بأن هذه القبائل الإغريقية تتكلم لساناً واحداً مشتركاً ، وأن تقاليدها المشتركة التي تدعها أشعار الملاحم تشدهم بعضهم إلى بعض في وحدة مفككة الأوصال . وهم يسمون قبائلهم المختلفة باسم مشترك هو الهلينيون . ولعلمهم نزحوا على موجات متعاقبة ، إذ يميز العلماء في لغة الإغريق القديمة ثلاث لهجات رئيسية : هي الأيونية Ionic والإيولية Aeolic والدورية Doric . على أن لديهم أيضاً أضراباً كثيرة من اللهجات المتنوعة . ويلوح أن الأيونيين سبقوا من عداهم من الإغريق إلى الميدان ، واختلطوا اختلاطاً وثيقاً بالشعوب المتحضرة التي غلبوها على أمرها . وقد يكون سكان مدن من أمثال أثينا وميليتوس من ناحية



ش ٦٢ - توزيع الشعوب الفلسطينية

الجنس أقل نوردية وأقرب إلى سكان البحر المتوسط . والظاهر أن الدورين هم قوام آخر موجات الهجرة وأقواها مُنة وأقلها تمدنياً . فهاته القبائل الهلينية غزت المدينة الإيجية ودمرتها إلى حد كبير وهي المدينة التي سبقت وصولهم ، وبني الفاتحون على أنقاضها حضارة خاصة بهم . وهفت نفوسهم إلى البحر وعبروه إلى آسيا الصغرى بطريق الجزر . وبعد أن ركبوا السفن متحرقين الدردنيل والبسفور ، نشروا مواطنهم ومستقراتهم على امتداد سواحل البحر الأسود الجنوبية . ثم ما لبثوا أن مدوها على امتداد سواحل الشمالية . كذلك انتشروا في جنوب إيطاليا ، التي أطلقوا عليها آخر الأمر ماجنا جرايكا M gna Graeca أى بلاد الإغريق .

العظمى) ، ثم انتشروا حول الشاطئ الشمالى للبحر المتوسط وأسسوا مدينة مرسيليا محل مستعمرة فينيقية قديمة . ثم أخذوا ينشئون لأنفسهم فى صقلية المستقرات (المستعمرات) منافسين بذلك القرطاجيين فى زمان يرجع إلى ٧٣٥ ق.م .

وجاء فى أعقاب الإغريق الخلفاء أقاربهم المقدونيون والترقيون وعلى جناحهم الأيسر عبر الفريجيون البوسفور إلى آسيا الصغرى .

ولما لنجد هذا التوزيع كله يتم للإغريق قبل بواكير التاريخ المكتوب . حتى إذا حل القرن السابع ق.م. أعنى إبان الأسر البابلى لليهود ، كانت قد زالت من الوجود كل المعالم الدالة على العالم القديم عالم المدينة السابقة للهيلينية فى أوربا . ألا ترى إلى تيرينز (Tiryng) وكنوسوس (Cnossus) كيف صارتا مواقع غير ذات بال ، وإلى مسيناي (Mycenae) وطراودة (Troy) كيف لا تعيشان إلا فى عالم الأساطير ؟ فأما المدن العظيمة فى هذا العالم الإغريقى الحديد فهى أثينا واسبرطة (عاصمة لاكيدايمون) وكورنثة وطيبة وساموس وميليتوس . ومن ثم يكون العالم الذى كان أجدادنا يسمونه باسم « بلاد الإغريق القديمة » قد قام على أطلال منسية تنتمى لبلاد إغريق أشد إمعاناً فى القدم من تلك ، كما أنها تضارعها فى تمدنيها وتقدمها الفنى من كثير من الوجوه . بل إننا اليوم لم نكد نتجاوز المرحلة الأولى فى تعرف تلك المدينة السحيقة القدم تعرفاً يرجع الفضل فيه إلى جهود المنقبين عن الآثار .

بيد أن بلاد الإغريق القديمة هذه الأحداث من السالفة ، التى نحن الآن بصدد الحديث عنها لا تزال تعيش عيشاً ناصعاً رائعاً فى أخيلة الرجال ونظمهم ، لأنها كانت تنطق بلسان آرى جميل أشد ما يكون بياناً ، قريب الصلة باللغة الإنجليزية ، ولأنها تناولت الأبجدية المستعملة عند شعوب البحر المتوسط وبلغت بها مرتبة الكمال باضافة حروف الحركة إليها ، وبذا أصبحت القراءة والكتابة عند ذاك فنين يسيرين يسهل تعلمهما وممارستهما ، وبصار فى ميسور عدد كبير من الناس إتقانها ووضع سجل خالد للأجيال المقبلة .



س ٦٢ - معركة بحرية إغريقية ٥٥٠ ق.م.

٢ - المظاهر المميزة للمدينة الهلينية

إن هذه المدينة الإغريقية التي نراها تدرج في جنوب إيطاليا وبلاد الإغريق وآسيا الصغرى في القرن السابع ق.م. ، إنما هي مدينة تحالف من أوجه كثيرة هامة كلا من المدينتين العظيمتين اللتين قفونا نموهما من قبل ، وهما مدينة النيل ومدينة رافدى أرض الجزيرة . نمت هاتان المدينتان حيث هما خلال عصور طويلة . نشأتا على مهل حول حياة مركزها المعبد ، دارجتين عن زراعة بدائية . ثم قام الملوك الكهنة والملوك الآلهة يجمعون شمل دول المدن الأولى تلك^(١) . في إمبراطوريات . على أن رعاة الإغريق المتبربرين شقوا طريقهم جنوباً مغيرين على عالم كانت مدينته قد أصبحت قصة طال بها العهد ، إذ كانت الملاحة والزراعة وإقامة المدن المسورة والكتابة أموراً معروفة بها من قبل . فلم ينشئ الإغريق مدينة خاصة بهم ، بل سطموا مدينة وأقاموا من أنقاضها وعلى أطلالها مدينة أخرى .

وذلك هو السبب الذى يرجع إليه عدم وجود مرحلة دولة معبد في سجل الإغريق^(٢) ولا مرحلة الملوك الكهنة ، بل وصل الإغريق مباشرة إلى نظام المدينة التي لم تنبت في الشرق إلا حول المعبد ، فعزفوا من الشرق

(١) دولة المدينة city state ويسمى بعض المؤرخين المدينة الحكومية . (المترجم)

(٢) دولة المعبد Temple State : دولة مركزها أحد المعابد ويرأسها الكهنة . (المترجم)

فكرة ارتباط المعبد بالمدينة وتسلموها منه لقمة سائغة . ولعل أشد ما أثر فيهم من مظاهر المدينة أسوارها . ولما لى ريب من أنهم جنحوا من فورهم إلى حياة المدينة ومقتضيات المواطنة . فكانوا في بادئ أمرهم يعيشون في قرى مفتوحة طلقة خارج أطلال المدن التي حطموها ، ولكن النموذج كان مثلاً أمام أعينهم لا يبرح يوحى إليهم ويذكرهم . وطبعاً أنهم فكروا في المدينة في بادئ الأمر كموضع أمين لهم في زمان حافل بالمنازعات . كما فكروا في المعبد في غير فحص ولا تمحيص ، بوصفه مظهرأ طبيعياً للمدينة . انتقل إليهم هذا الميراث الذي ورثوه عن حضارة سابقة بينما لا تبرح ذكريات الآجام وتقاليدها قوية ماثلة بقوة في أذهانهم . واستولى على زمام البلاد النظام الاجتماعي القائم على الأبطال والذي تمجد الإلياذة ذكره . ولم يلبث أن تكيف ليوفق بين نفسه وبين ما يحوطه من ظروف جديدة . وبمرور الأيام أصبح الإغريق أكثر تديناً وأشد اعتقاداً في الخرافات على حين استمرت عقائد المغلوبين حية وإن توارت عن الأنظار .

ولقد ذكرنا آنفاً أن التركيب الاجتماعي للآريين البدائيين كان نظاماً ذا طبقتين مكوناً من النبلاء والعامّة ، ولم تكن الطبقتان منفصلتين انفصالاً شديداً إحداهما عن الأخرى . كان يقودهما في الحرب ملك لم يكن إلا كبير إحدى العائلات النobile وهو الزعيم المقدم بين نظرائه *Primus inter pares* . وبانتصار الإغريق على السكان الأصليين وابتنائهم البلدان أضيف إلى هذا التنظيم الاجتماعي البسيط المزدوج الطبقات ، طبقة دنيا من عمال المزارع وحذاق الصناعات وغير حذاقهم ، وهى في جل أمرها من العبيد . على أن المجتمعات الإغريقية لم تكن بجأجمعها من هذا الطراز القائم على الفتح . فكان بعضها مدناً من « اللاجئين » تضم وتمثل مجتمعات محطمة خاضعة ، ولم يكن بهذه المدن الأخيرة أية واحدة من الطبقات الدنيا المكونة من السكان الأصليين .

وفى كثير من الحالات السابقة كان من تبقى من السكان الأقدمين

يكونون طبقة محكومة تتمثل في رقيق الدولة بوجه عام كما هو الحال في طائفة الهيلوطيين في إسبرطة ، وأصبح النبلاء والعامّة أصحاب الأراضي وأعيان الزراع . وكانوا هم المديرين لحركة بناء السفن والمشتغلين بالتجارة . على أن بعض المواطنين الأحرار الأشد فقراً احترفوا الفنون والصناعات الآلية ، وكانوا - كما سبق أن لاحظنا - لا يأثفون حتى الاشتغال بالتجديف في إحدى السفن مقابل أجر معلوم . أما أولئك الكهنة الذين كانوا في العالم الإغريقي فهم إما سدنة للمقاصير المقدسة والمعابد أو موظفون يقومون بتقديم القرابين . واعتبرهم أرسطو في كتابه « السياسة - Politics » قسماً فرعياً محضاً في طبقة الموظفين . وكان المواطن يشتغل في شبابه محارباً وفي كهولته حاكماً وفي شيخوخته كاهناً . وكانت طبقة الكهان بالمقارنة إلى الطبقة المعادلة لها في مصر وبابل صغيرة لا يعتد بها .

أما آلهة الإغريق الخلتص الأبطال فكانوا كما أسلفنا كائنات بشرية مجمدة ، كما كانوا يعاملون في غير كثير خوف أو رهبة . ولكن كان يستتر وراء آلهة الغزاة الأحرار آلهة أخرى للشعوب المقهورة تجدد من يتبعونها خلصة بين الأرقاء والنساء . ولم يكن منتظراً من الآلهة الآرية الأصلية أن تأتى بالمعجزات ، أو أن تتصرف في حياة الناس ، بيد أن بلاد الإغريق كانت شديدة التعلق باستشارة مهابط الوحي (Oracles) أو العرافين ، شأنهم في ذلك شأن معظم العالم الشرقي في السنوات الألف السابقة للميلاد . وكانت دلفي (Delphi) شهيرة بنبوءاتها على وجه خاص . وفي ذلك يقول جلبرت مري : « عند ما يعجز أسن شيوخ القبيلة عن إخبارك وإرشادك بما يجدر بك أن تعمله ، فإنك تذهب إلى الأموات الميامين ، إن مهابط النبوءات خبيعتها عند قبور الأبطال ، فهم يطلعونك على المقدور (Themis)^(١) وما يجدر بك أن تعمله ، ويكشفون لك عن إرادة الله على حد قول رجال الدين اليوم » .

(١) Themis كلمة يونانية معناها القانون الوضعي أو العرف أو المقدور . (المترجم)

ولم يكن كهنة هذه المعابد وكاهناتها يكونون طبقة واحدة ، كما أنهم كطبقة لم يكونوا يمارسون أية سلطة في البلاد إذ الواقع أن قوام الدولة الإغريقية كله هو النبلاء والعامة الأحرار ، وهما طبقتان اندمجتا في بعض الحالات في هيئة واحدة مشتركة من المواطنين . وفي كثير من الحالات وبخاصة في دول المدن الكبرى ، كان عدد العبيد الأرقاء وعدد الغرباء غير المتمتعين بالحقوق يفوق عدد المواطنين الأحرار إلى حد كبير . على أن الدولة في نظرهم لم تكن لتقوم إلا عن تفضل منهم وتكرم ، إذ هي موجودة من الناحية القانونية من أجل الهيئة المختارة ، هيئة المواطنين الأحرار وحدهم ، وهي حرة في أن تتسامح أو لا تتسامح مع الدخيل والزقبق . ولكن لم يكن لهؤلاء أى صوت قانوني في نوع المعاملة التي يلقون ، الأمر الذي يجعل معاملتهم لا تفرق عما لو كانوا يعيشون في ظل أى نظام استبدادي .

وغنى عن البيان أن هذا تكوين اجتماعي يختلف اختلافاً بعيداً عنه في النظم الملكية الشرقية . والأهمية الكبرى التي كان ينفرد بها المواطن الإغريق الحر تذكرنا بعض الشيء بالأهمية الماحقة الساحقة التي كان يستمتع بها « أبناء إسرائيل » في الدولة اليهودية الأخيرة . بيد أن الجانب الإغريقي خلو من كل معادل للأنبياء والكهان ، ومن فكرة وجود إله واحد مثل « يهوه » له السيطرة والسلطان على كل شيء .

وهناك وجه آخر للتباين بين الدول الإغريقية وبين أى من المجتمعات الإنسانية التي وجهنا إليها اهتمامنا حتى الآن ، هو انقسامها المستمر الذي أستعصى علاجه . ومدنيات مصر وسومر والصين ومعها دون ريب مدينة شمال الهند أيضاً ابتدأت كلها في شكل عدد من دول المدن المستقلة ، كل واحدة منها تتكون من مدينة يحيط بها بضعة أميال من القرى الزراعية التابعة ومن الأراضي والمزارع . ولكنها خرجت من هذا الطور عن سبيل عملية تماسك التأمّت بها أجزاءها فأصبحت ممالك وإمبراطوريات . ولكن

الإغريق لم يتحدثوا قط حتى انصرم تاريخهم المستقل بأكمله ؛ ويرجع هذا بوجه عام إلى الظروف الجغرافية التي كانوا يعيشون فيها . فإن بلاد الإغريق قطر مجزأ إلى عدد كبير من الوديان ، تقطعت أوصاله بفعل كتل جبلية وخلجان من البحر جعلت الاتصال فيما بينها أمراً صعباً المنال . بل لقد بلغ من عسر الاتصال أنه قل من المدن من استطاعت أن تحتفظ بكثير من المدن الأخرى تحت سيطرتها أى مدة من الزمان . وفضلاً عن ذلك فإن الكثير من المدن الإغريقية كانت تقع في جزائر ، وكانت متناثرة على امتداد سواحل شاسعة . وظلت أكبر دول المدن الإغريقية حتى النهاية أصغر من كثير من المقاطعات الإنجليزية . وكانت مساحة بعضها لا تتجاوز بضعة أميال مربعة . وأثينا وهى واحدة من أكبر المدن الإغريقية كان فيها من السكان فى أوج عزها عدد ربما يبلغ ثلث المليون . وقل من المدن الإغريقية الأخرى من تخطى سكانه الخمسين ألفاً . وكان نصف هذا العدد أو ما يتجاوز النصف من الرقيق والغرباء ، وكان ثلثا هيئة الأحرار من النساء والأطفال .

٣ - الملكية والأرستقراطية والديمقراطية فى بلاد الإغريق

كانت حكومة دول المدن هذه تختلف فى طبيعتها اختلافاً بيناً . فإن الإغريق عند ما استقروا بعد فتوحاتهم احتفظوا إلى حين بحكم ملوكهم ، ولكن هذه الممالك ما لبثت أن عادت رويداً رويداً إلى حكم الطبقة الأرستقراطية . وفى إسبرطة أى (لاكيدايمون) كان الملوك لايزالون متمتعين بمنزلة رفيعة فى القرن السادس ق.م. وكان لأهل لاكيدايمون نظام غريب فى بابه ينطوى على ملكية ثنائية ، إذ يولون عليهم ملكين من أسرتين ملكيتين مختلفتين يحكمان معاً .

على أن معظم دول المدن الإغريقية أصبحت جمهوريات أرستقراطية قبل حلول القرن السادس بزمان بعيد . ومهما يكن من شئ ، فإن غالب العائلات التى تتولى الحكم بالوراثة يتجلى فيها على الدوام نزوع إلى التوائى وعدم الكفاية

ومصيرها هو التدهور والزوال طال بها الزمن أو قصر . ولما أن خرج الإغريق إلى البحر وأسسوا المستقرات وانتشرت تجارتهم ، برزت بينهم عائلات غنية جديدة ، فحزحت العائلات القديمة عن مكانتها وتسلمت مقاليد الأمور شخصيات جديدة . وأصبح هؤلاء الأغنياء الحديثو الثراء أعضاء في طبقة حاكمة كبيرة أقامت ضرباً من الحكومة يعرف بالأوليجركية - تميزاً له من الأرستقراطية - وإن كان المعنى الدقيق للفظ الأوليجركية (وهو حكومة الأقلية) يجب أن يشمل الأرستقراطية الوراثة كحالة خاصة .

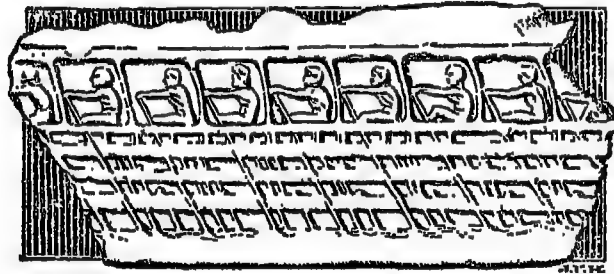
وفي كثير من المدن كان أشخاص من ذوى النشاط الفذ ينتهزون فرصة حدوث شيء من النزاع الاجتماعى ، أو وقوع شيء من المظالم على بعض الطبقات ويقبضون على زمام سلطة ذات طابع استثنائى إلى حد ما بالفعل في الدولة ، وهذا المزج بين الشخصية والفرصة قد حدث بالفعل في الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال ، حيث يسمى الرجال الذين يمارسون أنواعاً مختلفة من السلطات غير الرسمية باسم « الرؤساء Bosses » وكان أمثال هؤلاء يسمون في بلاد الإغريق باسم « الطغاة Tyrants » على أن الطاغية يوشك أن يكون أكثر من الرئيس نفوذاً وسلطاناً ، فقد كان يعترف به ملكاً ، كما أنه كان يطالب بسلطات الملك . ثم إن الرئيس في العصر الحديث يستتر وراء بعض الأوضاع القانونية التى « استحوذ عليها » ، ويستخدمها في أغراضه الخاصة . وكان الناس يفرقون بين الطغاة والملوك الذين كانوا يدعون لأنفسهم بعض الحقوق ، أعنى ضرباً من الأسبقية العائلية في أمور من أمثال تولي الحكم . وربما ناصر هؤلاء الطغاة الطبقات الفقيرة المظلومة . مثال ذلك أن بيزستراتوس الذى كان طاغية من طغاة أثينا وتولى الحكم مدة تتخللها فترتان نفي أثناءهما ما بين ٥٦٠ ، ٥٢٧ ق. م . ، كان يؤيده الأثينيون من سكان التلال الذين أضناهم الفقر ، وربما حدث في بعض الأحيان كما حصل في صقلية الإغريقية أن وقف الطغاة في صف الأغنياء ضد الفقراء . وعند ما أخذ

الفرس فيما بعد في إخضاع المدن الإغريقية بآسيا الصغرى أقاموا عليها طغاة بناصروهم .

وكان أرسطو المعلم الفيلسوف العظيم - وقد ولد أيام الملكية الوراثية المقدونية ، وقضى بضع سنين مربياً لابن الملك ، - يفرق في كتابه « السياسة » بين الملوك الذين يحكمون بحق طبيعي مسلم به ، كملك مقدونيا الذي كان يعمل في خدمته ، وبين الطغاة الذين يحكمون بغير رضا المحكومين . والواقع أن من العسير علينا أن نتصور وجود طاغية يحكم بغير رضا الكثير من رعاياه ودون مشاركة العدد الجوهري منهم المشاركة الفعالة ، وإن لإخلاص « ملوكهم الحقيقيين » ونكرانهم الذات ، قد عرفا بأنهما يشيران الامتناع والتشكك . وقد استطاع أرسطو أيضاً أن يقول إنه بينما يحكم الملك من أجل خير الدولة ، كان الطاغية يحكم لمصلحته الخاصة . وكان أرسطو في هذا الموضوع ، كما كان في قدرته على اعتبار الرق أمراً طبيعياً واعتبار النساء غير جدرات بالحرية والحقوق السياسية - متسقاً مع سير الحوادث حوله .

وكان الشكل الثالث للحكومة التي انتشرت في بلاد الإغريق انتشاراً متزايداً في القرون السادس والخامس والرابع ق. م. معروفاً باسم الديمقراطية . ولما كان العالم المعاصر في هذه الأيام لا يفتأ يتكلم عن الديمقراطية ، وإذ أن الفكرة الحديثة عن الديمقراطية إنما هي شيء يختلف اختلافاً بيناً عن ديموقراطية دول المدن الإغريقية . فمن الخير إذن أن نعود إلى أشد الوضوح في معنى الديمقراطية في بلاد الإغريق ، فقد كانت الديمقراطية عند ذاك حكومة تديرها العامة ، وهم الديموس (Demos) . وكانت حكومة تديرها هيئة المواطنين جمعاء وتديرها الكثرة تمييزاً لها عن القلة . ولكن على القارئ العصري أن يلحظ كلمة (مواطن) هذه فقد كان الرقيق مستبعداً منها ، وكان الرجل المعتوق « المحرر » مستبعداً منها ، وكذلك الغريب ، وحتى الإغريق المولود في المدينة والذي نزع أبوه إليها من مسافة ثمانية أو عشرة أميال عن المدينة التي تقع وراء أحد الرؤوس الممتدة

في البحر ، كان يستبعد من عداد المواطنين . وكانت الديمقراطية الأولى (وإن لم تكن كلها) تشترط في المواطن^(١) مؤهلاً من الملكية العقارية ، وكان قوام الملكية العقارية في تلك الأيام هو الأرض . على أنهم ما لبثوا فيما بعد أن تسامحوا في هذا الشرط . بيد أن القارئ المعاصر سوف يدرك أنه يلمس هاهنا شيئاً مختلفاً جداً عن الديمقراطية الحديثة . وفي نهاية القرن الخامس ق. م. كان هذا المؤهل العقاري قد أُلغى في أثينا مثلاً . على أن بريكليس وهو السياسي الأثيني العظيم ، الذي سوف نتكلم فيما بعد عنه في شيء من الإسهاب - سن قانوناً (٤٥١ ق. م.) يقصر حق المواطنة على أولئك الذين يستطيعون أن يثبتوا لأنفسهم الانحدار من أبوين أثينيين خالصين . ومن ثم يكون حال هؤلاء المواطنين الأحرار في الديمقراطيات الإغريقية كحالهم في الأوليجرقيات تماماً ، إذ يؤلفون « هيئة مناسكة » تتولى أحياناً - كما في حالة أثينا في أيام عظمتها - حكم عدد كبير من السكان الأرقاء والغرباء .



ش - ٦٤ - المجدفون يعملون في سفينة - بية أثينية - إلى سنة ٤٠٠ ق. م.
(قطعة من نقش غائر عثر عليه في الأكروبولي)

فلو أن سياسياً عصرياً عامر الذهن بفكرة الديمقراطية على وجهها الحديث المختلف تماماً والقائلة بأن الديمقراطية في أكمل أوضاعها معناها أن لكل رجل بالغ وامرأة بالغة صوتاً في الحكومة ، لو أنه رد فجأة إلى الديمقراطية الإغريقية المتطرفة لعلها ضرباً من الأوليجركية . والفرق الحقيقي الوحيد بين الأوليجركية الإغريقية والديمقراطية الإغريقية هو

(١) المواطن **Citizen** هو كل حر يستمتع بالمواطنة أى الحقوق والواجبات المدنية كاملة . وإن كان الأولى أن يسمى بالمواطن نظراً لطبيعة أوطان الإغريق المكوفة من مدن .
(المترجم)

أنه في الأولى لم يكن للمواطنين الأحرار الأفقرين والأقل أهمية صوت في الحكومة ، بينما كان لكل مواطن حر في الثانية صوت . وبين أرسطو في كتابه « السياسة » بغاية الجلاء النتيجة العملية لهذا الفارق . إذ كانت الضرائب خفيفة العبء على الأغنياء في الأوليجركيات . بينما كانت الديمقراطيات من الناحية الأخرى تفرض الضرائب على الأغنياء وتدفع في العادة للمواطن الحر المعدم ما يقيم أوده من غذاء وكساء وغير ذلك من نفقات خاصة . وفي أثينا كان للمواطنين الأحرار جعل يدفع لهم ، حتى على حضور مجلس العامة . على أن العامة والدماء ممن هم خارج نطاق الطائفة السعيدة المحدودة من المواطنين الأحرار ، كانوا يكدهون ويصدعون بما يؤثرون . فإن رغب أحدهم في حماية القانون ، كان عليه أن يبحث عن مواطن حر يتولى الدفاع عنه . إذ لم يكن لغير المواطنين الأحرار أى كيان أو حق في الالتجاء إلى المحاكم . أما الفكرة العصرية القائلة بأن أى فرد في الدولة يجب أن يكون مواطناً حراً فلو أنها عرضت على الديمقراطيين ذرى الامتيازات في أثينا لأزعجتهم كل الإزعاج .

وقد نشأت عن جعل الدولة حكراً موقوفاً على المواطنين لطبقة الأحرار نتيجة بيئة واحدة ، هي أن وطنية هؤلاء القوم الممتازين اتخذت شكلاً حاداً ضيقاً . فكانوا يكونون الأحلاف مع « دول مدن » أخرى ، ولكنهم لم يندمجوا أبداً بعضهم مع بعض ، إذ كان في ذلك قضاء على كل امتياز يستمتعون به كما أن الحدود الجغرافية الضيقة لتلك الدول الإغريقية الصغيرة زادت شعورهم حدة وإرهاقاً . وكان مما يشد من أزر حب الرجل لوطنه حبه لبلدته وهي مسقط رأسه ، ولدينه وبيته ، إذ كانت هذه جميعاً أمراً واحداً . وبديهي أن الأرقاء لم يكونوا يشاطرونهم تلك المشاعر . وفي الولايات الأوليجركية كانت الطبقة المهيضة المحرومة في الكثير الغالب تتغاضى عن كراهيتها للأجانب لشدة كراهيتها للطبقة التي تسومها العذاب في أرض الوطن . ولكن الوطنية الإغريقية في صميمها كانت

عاطفة شخصية ذات حدة خطيرة تبعث الإلهام ، فهي كالحب المرفوض ، سهلة التحول إلى شيء أقرب ما يكون إلى الكراهية . والمنفى الإغريقي كان على شاكلة المهاجر الفرنسي أو الروسي في استعداده لمعاملة بلاده المحبوبة معاملة لا تخلو من الحشونة لكي يقيها شر شياطين الإنس الذين تملكوها وأخرجوه هو من ربوعها .

وقد نظمت أثينا في القرن الخامس ق. م. علاقاتها بعدد من دول المدن الإغريقية الأخرى فأنشأت بذلك نظاماً ، كثيراً ما يتحدث عنه المؤرخون باسم الإمبراطورية الأثينية . على أن دول المدن الأخرى احتفظت جميعاً بحكوماتها الخاصة . وهناك « حقيقة جديدة » أضافها هذه الإمبراطورية الأثينية ، وهي القضاء المبرم على القرصنة ، وثمة حقيقة أخرى وهي إقامة نظام هو ضرب من القانون الدولي . نعم كان القانون في واقع الأمر هو القانون الأثيني ، ولكن سهل فضله إقامة القضايا ونشر لواء العدالة بين مواطنين ينتمون إلى دول الحلف المختلفة . وبديهي أن هذا أمر لم يكن ميسوراً من قبل .

كانت الإمبراطورية الأثينية في حقيقة الأمر وليدة حلف دفاع مشترك ضد فارس ، وكانت قاعدته في الأصل جزيرة ديلوس . وقد ساهم الحلفاء في رصيد مالى مشترك أودعوه خزانة في تلك الجزيرة ، ثم نقل رصيد ديلوس إلى أثينا لأنه كان هناك عرضة للغارات القارسية المحتملة الوقوع . وسرعان ما تقدمت مدينة في إثر الأخرى تعرض دفعات من المال عوضاً عن الخدمة العسكرية مما أفضى إلى أن أصبحت أثينا آخر الأمر تقوم بعبء العمل كله تقريباً ، وتتلقى المسال منهم جميعاً تقريباً ، ويعينها في النهوض بذلك العبء جزيرة أو اثنتان من كبريات الجزر . وبهذه الطريقة تحول « الحلف » بالتدريج إلى إمبراطورية . على أن مواطني الدول المتحالفة — اللهم إلا حيث كانت هناك معاهدات خاصة تنظم تبادل الزواج وما شابهه — لبثوا من الناحية العملية أجناب بعضهم عن البعض . وقد وقع على كواهل أفقر المواطنين بوجه خاص في أثينا معظم أعباء

هذه الإمبراطورية بما كانوا يبذلون من جهود جبارة وخدمات شخصية متواصلة . وكان كل مواطن عرضة للخدمة العسكرية داخل موطنه أو خارجه بين سن الثامنة عشرة والستين . وكان يطلب آونة للذود عن موطنه في شئون أثينية محضة ، ويتصدى آنا آخر للذب عن مدن الإمبراطورية التي افتدى مواطنوها أنفسهم بالمال . ولم يكن هناك على الراجح بين أفراد مجلس الأحرار الأثيني رجل واحد تزيد سنه على الخامسة والعشرين لم يتمرس بالحرب في حملات عديدة في نواح مختلفة من البحر المتوسط أو البحر الأسود ، ولم يكن يتوقع أن يعود إلى الخدمة العسكرية ثانية . وخصوم الاستعمار العصري يأخذون عليه أنه استغلال الأغنياء للعالم ، على أن الاستعمار الأثيني كان استغلال العالم على يد المواطنين من فقراء الأثينيين .

و ثم فارق آخر عن الأحوال والظروف السائدة في العصر الحديث ، يرجع إلى حجم دول المدن الإغريقية الصغير ، وهو أنه كان لكل مواطن في النظام الديمقراطي الحق في حضور مجلس الأحرار والتكلم والتصويت فيه . وكان فحوى هذا أن يلتزم لحل المدن جمع لا يضم سوى بضع مئات من الناس . فلم يكن عددهم في أكبرها يزيد على بضع آلاف من المواطنين . وليس شيء من هذا القبيل بممكن في ديمقراطية عصرية فيها من الأصوات ما قد يصل عدده إلى ملايين عديدة . ويلاحظ أن صوت المواطن العصري في الشئون العامة مفصّل على حقه في التصويت لواحد أو لآخر من مرشحي الأحزاب الذين يقدمون إليه . ومفروض عند ذاك « موافقة » الناخب أو الناختبة على الحكومة التي يتمخض عنها ذلك الانتخاب . وهذا أرسطو الذي لو أنه عاصرنا لأثلجت فوائده الأساليب الانتخابية التي تستخدمها ديمقراطياتنا العصرية ، يوضح بطريقة جد بارعة ، كيف أن طبقة المواطنين من الفلاحين الذين نأت مساكنهم يمكن في الديمقراطية القديمة أن يحرموا حرماناً فعلياً من حقوقهم المدنية بسبب الإكثار

من دعوة مجلس الأحرار دعوة متداركة متكررة لا يستطيعون معها أن يحضروا الجلسات بانتظام . وفي الديمقراطيات الإغريقية المتأخرة (في القرن الخامس) كان تعيين الموظفين العموميين ، فيما عدا القواد الذين يجب أن تتوافر فيهم دراية خاصة جداً ، يتم بالقرعة ورمى القداح ، إذ كان المفروض أن في هذه الوسيلة ضماناً بنبى الهيئة العامة للمواطنين أرباب الامتيازات من دوام تسلط الأغنياء وذوى النفوذ والمبرزين من أهل الكفاية .

كان لدى بعض الديمقراطيات (مثل أثينا وميليتوس) نظام يسمى النفي السياسى (Ostracism) وهى كلمة مشتقة من أوستراكون (Ostrakon) ومعناها الشقفة إذ كان الناخب يستطيع إبان المنازعات والأزمات أن يكتب اسم أحد المواطنين على قطعة من الشقافة أو المحار فيصدر طبقاً لذلك قرار إما بإبعاد ذلك المواطن لمدة عشر سنوات أو عدم إبعاده . وقد يبدو هذا للقارئ العصري نظاماً قائماً على الحسد ، على أن الحسد لم يكن صفة الجهورية . إذ الواقع فيما يقول جلبرت مرى أنه كان وسيلة للوصول إلى قرار حاسم فى مسألة انقسام الشعور السياسى بضددها انقساماً ينذر بوقوع أزمة سياسية لا سبيل إلى حلها . وكان فى الديمقراطيات الإغريقية أحزاب وزعماء أحزاب ، ولكن لم يكن لديهم حكومة منتظمة بيدها مقاليد الحكم . ولم تكن لديهم معارضة منتظمة ، فلم يكن هنالك إذن أية وسيلة لتنفيذ سياسة ما ، وإن كانت هى السياسة التى تروق فى نظر الشعب — إذا انبرى زعيم قوى أو جماعة قوية لمناهضتها . على أن النفي السياسى كان يلزم أقل الزعماء الكبار منزلة فى قلوب الشعب وأقلهم استمئاعاً بثقته أن ينسحب من الميدان إلى حين دون أن يلحق أى ضرر بشرفه أو ممتلكاته .

وقد خلد نظام النفي السياسى هذا اسم عضو خامل من أعضاء الديمقراطية الأثينية يكاد يكون أمياً ؛ ذلك أن شخصاً اسمه أريستيديس قد ذاع صيته فى المحاكم لاستقامته ولمناصرته العدل والقانون — حدث ذات مرة أن نشب بينه

وبين ثيموستوكليس نزاع بشأن موضوع يتعلق بالسياسة البحرية ، إذ كان أريستيديس من أنصار تقوية الجيش على حين كان ثيموستوكليس من أنصار النهوض بالبحرية ، فكان الجو مندرأً بخطب فادح ، وكان أن لحأت المدينة إلى النفي السياسى لحسم هذا النزاع بينهما . ويقص علينا بلوتارك أنه بينما كان أريستيديس يتجول في شوارع المدينة ساعة التصويت ، استوقفه مواطن غريب من الأصقاع الزراعية المحيطة بالمدينة لا يعرف فن الكتابة وطلب إليه أن يكتب اسمه هو نفسه على قطعة من الشقافة قدمها إليه .

فسأله أريستيديس قائلاً : « ولماذا ؟ فهل حدث قط أن أساء إليك أريستيديس ؟ » .

فقال المواطن : « كلا ، كلا ، فإن عيني لم تقعا عليه أبداً ولكننى مع الأسف برمت جداً بما وصل إلى سمعى من أنه يدعى أريستيديس العادل » .

وعند ذلك كما يقول بلوتارك - كتب أريستيديس ما أشار به الرجل دون أن يطيل عليه الكلام .

ومنى فهم المرء المغزى الحقيقى لهذه الدساتير الإغريقية وفهم بوجه خاص مسألة حصر جميع السلطات سواء أكان ذلك فى الديمقراطيات أم الأوليجركيات فى يد طبقة ذات امتياز محلى ، أدرك كيف كان من المحال قيام أى اتحاد فعال بين مئات المدن الإغريقية المتناثرة حول إقليم البحر المتوسط ، أو حتى وجود أى تعاون منتج بينها يرمى إلى غاية مشتركة . فإن كل مدينة كانت فى قبضة فئة قليلة أو بضع مئات من الرجال الذين كان أهم ما يعنون به ويحرصون على تحقيقه فى حياتهم هو أن تظل مدينتهم منفصلة عن المدن الأخرى . ولم تكن فى العالم قوة تستطيع أن توحد الإغريق غير الغزو الخارجى . ولم تتحقق لهم أى وحدة سياسية حتى غزيت بلاد الإغريق ، فلما أن غزيت بلادهم آخر الأمر ، كان غزوها كاملاً بحيث لم تجعل لوحدهم أدنى قيمة حتى لهم أنفسهم ، إذ اجتمعوا على وحدة الاستسلام والخضوع .

ومع ذلك فقد كان هناك على الدوام مقومات لوحدة بين الإغريق كافة في بعض التقاليد السائدة بينهم ، دعامتها لغة مشتركة وكتابة مشتركة وراث مشترك من ملاحم الأبطال ، هذا إلى اختلاطهم المتواصل الذى يسره موقع دولهم من البحر ، عدا روابط دينية بأعيانها كانت تدعو إلى توحيد البلاد . ولو تأملت بعض المقاصير المقدسة - كمقصورة الإله أبولو بجزيرة ديلوس ومعبد دلفى مثلاً - لرأيت أن ما كانت تلقاه من تأييد وعون لم يقتصر أمره على دول بمفردها بل تجاوز ذلك إلى اتحادات من الدول « أو أمفكتيونات Amphictyonies » (والأمفكتيون هو حلف الجيران) ، وهي اتحادات أمتت واسعة النطاق جداً في حالة « حلف دلفى » وما مثله من أحلاف . وكان الحلف يحمى المقصورة المقدسة ويحافظ على سلامة من يؤمها من حجاج ويصون الطرق المؤدية إليها ويحفظ السلام إبان الأعياد الخاصة ، ويسن قواعد معينة للحد من لجوء أعضائه إلى الحرب . كما أن اتحاد ديلوس كان له بوجه خاص فضل القضاء على القرصنة . وثمة رابطة أخرى للاتحاد الهليني أكثر أهمية مما سلف وهي الألعاب الأولمبية ، التي كانت تعقد في أولمبيا كل أربع سنوات . وكان سباق الجرى والملاكمة والمصارعة وقذف الرمح وقذف القرص والقفز وسباق المركبات والخيول أهم الألعاب . وكانوا يحتفظون بسجل للفائزين وللزوار الممتازين ، وظلت هذه الألعاب منذ ٧٧٦ ق.م. تقام بانتظام مدة تربي على ألف سنة . وكان أثرها كبيراً في الاحتفاظ بذلك الإحساس بوجود حياة اغريقية مشتركة ذات طابع هلىنى عام ، يسمو على السياسات الضيقة التي تجرى على سنتها دول المدن . وتعتبر ٧٧٦ ق.م. وهي أول سنة عقدت فيها الألعاب الأولمبية نقطة بداية قيمة في حساب التاريخ الإغريق .

على أن أمثال تلك الروابط القائمة على العواطف وروح التآلف كانت قليلة الحدوى لإزاء « الروح الانفصالية » الحادة التي ترجع إلى النظم السياسية

الاعنقة . وفي طوق طالب العلم أن يحس لدى مطالعته « تاريخ هيرودوت » بمبلغ الحدة والعنف والإصرار واللجاجة في المنازعات التي ألفت بالعالم الإغريقي في غمرة حرب مزمنة . وفي الأيام الخوالي (أى حتى القرن السادس ق . م . على وجه التقريب) كانت تسود بلاد الإغريق عائلات كبيرة نوعاً ما احتفظت بشيء من نظام الدورات الآرى القديم بكل ما يلزمه من شعور قوى واعتداد بالعشيرة . ومن قدرة على مداومة الاحتفاظ بالمنازعات وإن طال بها الأمد . ويدور تاريخ أثينا مدى سنين عديدة حول منازعات حدثت بين عائلتين عظيمتين هما عائلتا الألكمايونيين (Alcmaeonidae) والبيزسترايين (Peisistratidae) والأخيرة تعادل الأولى في الأرستقراطية . بيد أنها أسست صرح قوتها على مساندة الطبقة الفقيرة من الشعب وعلى استغلالها لما يحل بهم من الحيف والمظالم . وفيما عقب ذلك من الزمان أى في القرنين السادس والخامس أدى تحديد النسل ونقص أفراد العائلات إلى إثنين أو ثلاثة (وهى عملية لحظها أرسطو وإن لم يدرك لها سبباً) - إلى اختفاء العشائر الأرستقراطية القديمة . وكانت الحروب التي وقعت بعد ذلك راجعة إلى المنافسات التجارية وإلى بعض المظالم التي سببها وأثارها بضع نفر من المغامرين أكثر منها إلى الأحقاد العائلية وروح الأخذ بالتأثر .

ومن اليسير علينا الآن أن نفهم في ضوء هذه الروح الانفصالية الحادة لدى الإغريق ، كيف سهل وقوع الأيونيين بآسيا وبالجزيرة تحت سلطة مملكة ليديا أول الأمر ثم سلطان الفرس عند ما قام قورش بخلع كرويسوس ملك ليديا عن عرشه . ثم هب الأيونيون ثأرين وكأنهم لم يثوروا إلا لكي يعود إليهم الفرس ثانية بالبطش والإخضاع ثم جاء دور بلاد الإغريق الأوربية فكان مما يدعو إلى الدهشة ، بل مما دهش له الإغريق أنفسهم أن وجدوا أن بلاد الإغريق نفسها لم تقع تحت سلطان الفرس ، أولئك الآريين المتبررين قاهرى المدن القديمة وسادتها في آسيا الغربية . على أننا قبل أن نتحدث عن هذا الكفاح نرى لزماً علينا أن نلقى نظرة إلى هؤلاء الآسيويين الذين

صمد الإغريق أمامهم ووقفوا لهم بالمرصاد وعلى الأخص للميديين والفرس ، الذين ما كادت تحل بهم سنة ٥٣٨ ق.م. حتى كانوا قد استولوا بالفعل على حضارتى آشور وبابل القديمتين وكانوا على وشك أن يقهروا مصر .

٤ - مملكة ليديا

سنحت لنا فيما سلف الفرصة لذكر مملكة ليديا وربما كان من المستحسن أن ندلى إليك هاهنا ببثينة موجزة عن الليديين قبل أن نواصل الحديث في قصتنا . وربما كان السكان الأصليون في معظم أجزاء آسيا الصغرى يمتون بالقرابة إلى السكان الأصليين ببلاد الإغريق وكريت ؛ فإن كان الحال كذلك فلقد كانوا من جنس البحر المتوسط ولعلمهم فرع آخر من أولئك القوم الضاريين إلى السمرة الذين هم أعم انتشاراً وأقدم عهداً وأقرب إلى الجنس الأساسى ، والذين نشأ منهم جنس البحر المتوسط في الغرب ، والجنس الدرافيدى في الشرق . وهناك بقايا من نفس نوع الفن الذى امتازت به كنوسوس وميكيناي وجدت متناثرة في نواحي آسيا الصغرى . ولكن كما أن الإغريق النورديين انسابوا جنوباً إلى بلاد الإغريق فغزوها واختلطوا بالسكان الأصليين ، فإن قبائل أخرى نوردية تمت إليها بصلة القربى فعلت ذلك سواء بسواء فتدفقت عبر البوسفور إلى آسيا الصغرى . وقد تغلبت هذه الشعوب الآرية على بعض المناطق تماماً وصارت تكون الشطر الأكبر من السكان مع احتفاظها بلغتها الآرية ، ذلك شأن الفريجيين وهم شعب لغته تكاد تكون شديدة الصلة بلغة الإغريق ، شدة صلة اللغة المقدونية بالإغريقية . على أن بعض المناطق الأخرى لم يعمها الآريون إلى مثل هذا الحد : ففي ليديا حافظ الجنس الأصلى على نفسه وعلى لغته ، فلم يهن ولم يخضع . وكان الليديون شعباً غير آرى يتكلمون لغة غير آرية ، لا يعرف منها في الوقت الحاضر سوى بضع كلمات قليلة . وكانت سارديس (Sardis) عاصمتهم .

وكانت ديانتهم غير آرية كذلك . فلأنهم كانوا يعبدون إلهة أنثى هي الأم العظيمة . وكذلك الفريجيون ، فلأنهم وإن احتفظوا بلغتهم شبه الإغريقية ، انتقلت إليهم عدوى الديانة الغامضة ذات الأسرار الخفية . والواقع أن قدراً كبيراً من الديانات ذات الأسرار الخفية والطقوس السرية التي عمت أثينا في تاريخ تال ، كانت فريجية (إن لم تكن تراقية) في أصلها .

وقد احتفظ الليديون بادئ الأمر بساحل آسيا الصغرى الغربى ، ولكنهم طردوا منه نتيجة لرسوخ قدم الإغريق الأيونيين الذين جاءوا بطريق البحر وأسسوا المدن . ومع ذلك فإن هذه المدن الأيونية الإغريقية أخضعها فيما بعد الملوك الليديون .

وتاريخ بلاد ليديا هذه ما يزال غامضاً غير معروف معرفة واضحة ، ولو أنه كان معروفاً بالفعل لما بلغت أهميته قدراً يجعله جديراً بأن يذكر في هذه المعالم التاريخية . على أن القرن الثامن ق. م. يظهر لنا اسم ملك جدير بالذكر يدعى جيغيس . فإن البلاد تعرضت في أيامه لغزو آرى آخر ، ذلك أن قبائل مريحة تسمى الكمرين جاءت تتدفق عبر آسيا الصغرى ، فردهم جيغيس وابنه وحفيده بغاية الجهد والمشقة . واستولى هؤلاء البرابرة الهمج على مدينة سارديس وأحرقوها مرتين . ويذكر التاريخ أن جيغيس دفع الجزية لساردانا بالوس (Sardanapalus) . وهذا أمر يربط ما بينه وبين فكرتنا العامة عن تاريخ مملكة آشور ربى إسرائيل ومصر . ثم ثار جيغيس فيما بعد ضد مملكة آشور ، وأرسل الجنود لمساعدة أيسماتيك الأول في تحرير مصر من عبوديتها القصيرة الأجل للآشوريين .

وإلى ألياتيس (Alyattes) حفيد جيغيس يرجع الفضل في جعل ليديا قوة يعتد بها . وقد ظل في الملك سبع سنين ، وهو الذى أخضع غالبية المدن الأيونية في آسيا الصغرى لحكمه . وأصبحت البلاد مركزاً لتجارة عظيمة بين آسيا وأوروبا وكانت على الدوام بلداً منتجة غنية بالذهب . واشتهر الملك

الليدى بأنه أغنى ملوك آسيا . وكان هناك بين البحرين الأسود والمتوسط وبين الشرق والغرب حركة غدو ورواح لا تنقطع . واشتهرت ليديا بأنها أولى أقطار العالم في إنتاج النقود المسكوكة ، وفي إعداد الخانات (الفنادق) للمسافرين والتجار ، ينزلون بها ويجدون وسائل الراحة والاستجمام . ويلوح أن الأسرة المالكة الليدية كانت أسرة تجارية من طراز أسرة مينوس في كريت وقد بلغ نظام المصارف (البنوك) والمالية فيها شأواً لا بأس به . وفي هذا القدر الكفاية من أخبار ليديا نقدمه على سبيل التوطئة للقسم التالى .

٥ - نهوض الفرس فى الشرق

وعلى حين كانت سلسلة من الغزاة الناطقين بالآرية تدرج وتنتشر ، على الشاكلة التى وصفناها ، فى بلاد الإغريق الأصلية وبلاد الإغريق العظمى (أى جنوب إيطاليا) وما حول شواطئ البحر الأسود ، فإن هناك سلسلة أخرى من الشعوب الناطقة بالآرية ربما كان دمها النوردى الأصلى مختلطاً من قبل بأحد العناصر المغولية ، قد أخذت تستقر وتنتشر فى شمال وشرق الإمبراطوريات الآشورية والبابلية .

ولقد أسلفنا الكلام عن تشبث الشعوب النوردية الآرية على صورة تشابه شكل القوس فى شمال البحر الأسود وبحر قزوين . والراجع أن هذا الطريق هو الذى ملكته الأجناس الهندية الفارسية الناطقة بالآرية فى نزولها التدريجى إلى ما يكون الآن بلاد فارس ، وانتشرت شرقاً إلى الهند من ناحية (من نحو ٢٠٠٠ إلى ١٠٠٠ ق.م.) وازدادت من الناحية الأخرى وتكاثرت فى المرتفعات الفارسية حتى بلغت من القوة حداً جعلها تهاجم مملكة آشور بادئ الأمر (٦٥٠ ق.م.) ثم بابل (٥٣٨ ق.م.) .

ويحيط الغموض الكثير بتغيرات المناخ التى كانت تحدث فى أوروبا وآسيا خلال العشرة الآلاف السنة الأخيرة . فإن ثلج العصر الجليدى الأخير تراجع تراجعاً تدريجياً ، وبذلك تحول سهل أوروبا العظيم طوال فترة مديدة إلى

سهوب وأحوال شبيهة بالبرارى . ومنذ اثني عشر ألفاً أو عشرة آلاف من السنين تقريباً كما يقدرّون اليوم ، كانت هذه الحالة آخذة في الزوال لتحل محلها الغابات والآجام . ولقد ذكرنا آنفاً كيف حدث نتيجة لهذه التغيرات ، أن أخلى صيادو الحصان السولبوتريون (Solutreans) مكانهم لصائدى السمك المجدلينين ^(١) (Magdalenians) ولصائدى غزال الغابات ، كما أخلى هؤلاء أيضاً مكانهم بدورهم لرعاة العصر الحجري الحديث وزراعه . ويلوح أن المناخ الأوربي لبث بضع آلاف من السنين أدفاً منه الآن . وكان هناك بحر عظيم يمتد من ساحل شبه جزيرة البلقان متوغلاً في آسيا الوسطى ، ويصل امتداده شمالاً إلى وسط روسيا . وكان انحسار ذلك البحر وانكماشه وما نجم عن ذلك من اشتداد المناخ وقسوته في جنوب روسيا وآسيا الوسطى ، معاصراً تماماً لقيام المدينيات الأولى في وديان الأنهار و متمشياً مع تطورها . ويبدو أن هناك حقائق كثيرة توىء إلى وجود مناخ أكثر اعتدالاً في أوزبا وآسيا الغربية ، وتشير أيضاً بشكل أقوى إلى ازدهار في حياة النبات والخضروات منذ أربعة آلاف أو ثلاثة سنة خلت يفوق ما نشهده الآن . كانت هناك آنذاك غابات في آسيا الجنوبية وفي القطر الذى هو الآن التركستان الغربية ، حيث تعم اليوم السهوب والصحارى . ومن ناحية أخرى كانت منطقة أورال وقزوين منذ مدة تتراوح بين ١٥٠٠ سنة و ٢٠٠٠ سنة أجف فيما يرجع ، كما كان هذان البحران أصغر منهما في الوقت الحاضر .

ونلاحظ في هذا الصدد أن تحتمس الثالث (في القرن الخامس عشر قم على وجه التقريب) صاد في حملته التي امتدت إلى ما وراء الفرات قطعاً مكوناً من مئة وعشرين فيلاً في ذلك الإقليم ، وعيدا ذلك فثمة خنجر إيجي من ميكناي يرجع تاريخه إلى حوالي (٢٠٠٠ قم) وعليه صورة منظر صيد أسد يحمل الصائدون فيه تروساً كبيرة ويقفون في صفوف ، الواحد منهم

(١) راجع المجلد الأول ص ٨٩ ، ٩٣ الطبعة الثالثة .



ش ٦٥ - خريطة الإمبراطوريتين الميديّة والبابليّة الثانية

تلو الآخر ، فيقطعن الرجل الأول الأسد بحرثته ، فإذا وثب الوحش الجريح عليه ، ارغمي الرجل على الأرض متوقياً بترسه الكبير ، تاركاً للرجل الذي يليه أن يكرر طعنته ، وهكذا حتى يُقضى على الأسد . وما برح شعب الماساي^(١) (Masai) يمارس إلى اليوم طريقة الصيد هذه ، على أنها لا تصلح إلا في أرض كثيرة الأسود . ولكن كثرة الأسود تشير ضمناً إلى كثرة القنائص ، وهذا بدوره ينم عن وجود وفرة من النوات . وكان اشتداد المناخ حوالى ٢٠٠٠ ق.م. في الأجزاء الوسطى من العالم القديم ، وهو الذى سبق أن أشرنا إليه ، مدعاة لتغير اتجاه الشعوب الآرية المرحلة فجعلها تتجه جنوباً نحو الحقول والغابات بين الشعوب الأكثر استقراراً وتمدناً .

ومما هو جدير بالذكر أن الأسود بقيت في شبه جزيرة البلقان حتى قرابة القرن الرابع ق.م. إن لم يكن بعد ذلك . وربما كانت الفيلة اختفت من

(١) هم شعب ذو أرومة حامية شبه زنجية يسكن في كينيا وتنجانيقا . (المترجم)

آسيا الغربية قبيل القرن الثامن ق.م. ولكن الأسد - وكان أضخم من الأسد الحالى جثة - ظل فى جنوب ألمانيا حتى العصر الحجرى الحديث (النيوليثى) . ولبت النمر الأرقط (Panther) يسكن بلاد الإغريق وجنوب إيطاليا وأسبانيا الجنوبية حتى بداية الحقبة التاريخية (قرابة ١٠٠٠ ق.م.) .

وتنحدر الشعوب الآرية إلى التاريخ من الأقاليم القزوينية الشرقية قرابة الوقت الذى كانت فيه طروادة وميكيناى وكنوسوس تسقط فى يد الإغريق . ومن الصعب فصل القبائل والأجناس المختلفة وتمييزها بعضها عن بعض . وهى تظهر تحت حشد كبير من الأسماء فى السجلات والمخطوطات التى تسجل أول ظهورهم . على أنه من حسن الطالع أنه ليست بنا حاجة إلى هذه الفروق المميزة فى « معالم » أولية كهذا الكتاب . ويظهر شعب يسمى الكمريين فى ناحية بحيرتى أوروميا (Urumiya) وفان (Van) . وبعد ذلك بوقت قصير ينتشر الآريون من أرمينيا إلى عيلام (Elam) . وفى القرن التاسع ق.م. تذكر المخطوطات الآشورية اسم شعب يسمى الميديين Medes وثيق اللحمة بالفرس يظهرون إلى الشرق منهم ، ويدعى كل من تغلث فلاسر الثالث وسرجون الثانى وهما اسمان غير جديدين على أسماعنا فى هذه القصة ، أنهما ألزماههم دفع الجزية . والمخطوطات تشير إليهم بأنهم « الميديون الخطرون » ، وهم - بعد - شعب قبلى لم يتحد تحت لواء ملك واحد .



٦٦ - الإسكديون كما يصورهم الفنانون الإغريق

وقرابة القرن السابع ق.م. يتوارى من سجل التاريخ فجأة عيلام والعيلاميون الذين كانت عاصمتهم سوسا وهم شعب له تقاليد ومدنية لا تقل عن تقاليد السومريين ومدنيتهم من حيث القدم . ولسنا ندرى ما حدث لهم . ويلوح

أن الغزاة اجتاحتوا السكان وامتصوهم ووقعت سوسا في قبضة الفرس .
 وثمة شعب رابع يمت بصلة إلى هذه القبائل الآرية ، يظهر في هذا الزمان
 في رواية هيرودوت ، وهو الاسكيديون أو الأشقوديون (Scythians) .
 فإن ملوك دولة آشور يوقعون الشحنة طرفاً من الزمان بين مختلف هذه
 الشعوب ذوات القرى ويغرون الكمرين والميديين والفرس والاسكيديين
 بعضهم ببعض وتزوج أميرات آشوريات (بينهن بنت أسرحدون
 Esarhaddon مثلاً) من رؤساء إسكيديين . ومن جهة أخرى نرى نبوخذ
 ناصر العظيم يتزوج من ابنة كياكسارس (Cyaxares) الذي أضحي ملكاً
 على الميديين كافة ، والآريون الإسكيديون يتجهون نحو الآشوريين الساميين ،
 على حين ينزع الميديون الآريون صوب البابليين الساميين . وكياكسارس
 هذا هو الذي فتح نينوى عاصمة آشور (٦٠٦ ق.م.) وبذا خلص بابل
 من النير الآشوري . وبذا تأسست الإمبراطورية البابلية الثانية تحت الحكم
 الكلداني . ثم يعود أحلاف دولة آشور الاسكيديون فيسقطون من القصة
 بعد هذا ويواصلون عيشهم في مكان بعيد في الشمال دون كثير تدخل في
 شئون الشعوب التي في الجنوب ، وإن نظرة إلى خريطة ذلك العصر لتريك
 كيف أنه خلال ثلثي قرن من الزمان استقرت الإمبراطورية البابلية الثانية
 استقرار الحمل بين ذراعي الأسد الميدي .

ولن نتدخل في معترك المنازعات الداخلية بين الميديين والفرس ، وهي
 التي انتهت آخر الأمر باعتلاء قورش (Cyrus) « الفارسي » عرش كياكسارس
 الميدي عام ٥٥٠ ق.م. ففي تلك السنة كان قورش يحكم إمبراطورية تمتد
 من حدود ليديا إلى فارس وربما وصلت إلى الهند . على حين كان نابونيداس
 آخر الحكام البابليين ، كما ذكرنا آنفاً يحفر منقباً عن السجلات القديمة ويبني
 المعابد في مملكة بابل (بابلونيا) .

٦ - قصة كرويسوس Croesus (قارون)

على أن هناك ملكاً واحداً في العالم تنبه لخطر تلك القوة الجديدة المجتمعة

بين يدي قورش ذلك هو كرويسوس ملك ليديا . وقد قُتل ابنه بطريقة محرنة جداً ذكرها هيرودوت ولكننا لن نتعرض هنا لوصفها ؛ قال هيرودوت :

« أقام كرويسوس بعد ذلك الحادث مدة سنتين في حداد عميق لفقد ولده ، ولكن راعه بعد تلك الفترة ما رآه من خلع قورش لابن كياسارس من الحكم ومن تزايد الفرس عظمة وسلطاناً ، فأقلع كرويسوس عن أحزانه ، وأخذ يعمل بكل ما أوتي من وسيلة على تقويض قوة الفرس وهي ما تزال في طور النمو وقبل أن تبلغ غاية العظمة . وعند ذلك أخذ يجرب مهابط الوحي المتنوعة .

وقد كلف كرويسوس الليديين الذين كان عليهم أن يحملوا العطايا إلى المعابد ، بأن يسألوا الوحي هذا السؤال : « هل يهاجم كرويسوس الفرس ، وإن كان الحال كذلك ، فهل يجب عليه أن يضم إليه أى جيش من الرجال بوصفهم أصدقاء ؟ » ولما أن وصل الليديون إلى الأماكن التي بعثوا إليها ووزعوا العطايا وقدموا النذور استفسروا من الوحي قائلين : « إن كرويسوس ملك الليديين والشعوب الأخرى ، إذ يعد هذه هي مهابط الوحي الصادقة الوحيدة بين الناس ، يقدم لكم من العطايا ما يستحقه كشفكم أستار الغيب ، ويسألكم الآن مرة أخرى هل قدر له أن يسيّر جنده على الفرس ، وإن كان الأمر كذلك ، فهل كتب عليه أن يضم أى جيش من الرجال بوصفهم أحراراً ؟ » هكذا استفسروا ، وانفقت لإجابات كل من مهبطي الوحي على أمر واحد ، وهو تأكيدهم لكرويسوس بأنه إن زحف على الفرس فإنه سيحطم إمبراطورية عظيمة . وعلى ذلك لما نقلت الإجابة إلى الملك كرويسوس وبلغت مسامعه ، سره الوحي ، ولتوقعه أنه لابد مدمر مملكة قورش ، أرسل ثانية إلى بيثو (Pytho) وأهدى إلى رجال دلفي كافة ، بعد أن استوثق من عددهم ، قطعتين من الذهب لكل رجل منهم ، (قيمة الواحدة منهما ستاتير^(١) Stater) . وفي مقابل هذا أعطى الدلفيون كرويسوس

(١) ستاتير : عملة قديمة وهي أكبر عملة ذهبية كانت تستخدم قديماً ببلاد الإغريق . (المترجم)

والليديين حق الأسبقية في استشارة الوحي والإعفاء من كل الرسوم وحق الجلوس في المقاعد الأمامية في حفلات الألعاب ، مع منحهم امتيازاً آخر يبقى لهم على مر الزمان : وهو أن يسمح لكل من يرغب منهم بأن يكون له حق المواطن الحر في دلتى .

ومن ثم عقد محالفة دفاعية مع كل من اللاكيديمونيين (Lacedemonians) والمصريين . ثم يستطرد هيرودوت فيقول : « وبينما كان كرويسوس يتأهب للمسير على الفرس ، نصح له أحد الليديين وكان من قبل هذا الزمان معروفاً بالحكمة والحصافة ، على أن هذه النصيحة زادته شهرة على شهرته بالعقل والحكمة بين الليديين - نصح الملك بما يلي ، قال « أيها الملك ، إنك تستعد للهجوم على رجال يرتدون سراويل من الجلد ، وسائر ثيابهم من الجلد كذلك ، وهم يأكلون طعاماً ليس مما يشتهونه ، وإنما مما يستطيعون الحصول عليه ويعيشون في أرض وعرة ، وفضلاً عن ذلك فإنهم لا يتناولون النبيذ بل يشربون الماء ، وليس لديهم من التين ما يتخذونه حلواً بعد طعامهم ، ولا أى غذاء طيب آخر . فمن ناحية ، إن كانت الغلبة لك عليهم فإذا أنت أخذ منهم وليس لديهم شيء يستلب ؟ ومن جهة أخرى إن غلبوك فتأمل كم من الأشياء الطيبة تذهب عنك حين ذاك . فإنهم لو ذاقوا خيراتنا لأول مرة تشبثوا بها لا محالة ، ولن يستطيع بعد ذلك إقصاؤهم عنا . وأنا عن نفسي أشعر بالشكر للآلهة لأنهم لم يبتثوا في عقول الفرس أن يزحفوا على الليديين » . هكذا تكلم من غير أن يقنع كرويسوس ، لأنه من المحقق أنه لم يكن لدى الفرس - قبل أن يخضعوا الليديين - شيء من وسائل الترف ولا من الطيبات » .

واقتل كرويسوس وقورش في معركة غير فاصلة في پتيريا (Pteria) تراجع منها كرويسوس ، وتبعه قورش فالتحما في معركة خارج عاصمته سارديس ، وكانت قوة الليديين تنحصر في فرسانهم ، إذ أنهم كانوا فرساناً ممتازين ، وإن كانوا غير منظمين ، يقاتلون برماح طويلة .

« أما قورش فإنه لما أن رأى الليديين مصطفين للقتال وخشى فرسانهم

أقدم على ما يأتى تنفيذاً لمشورة هارپاجوس (Harpagos) أحد الميدين :
 فقد جمع فى صف واحد كل الجمال التى كانت فى مؤخرة جيوشه تحمل
 المؤن والمتاع ، ورفع عنها أحمالها وأقام عليها رجالاً مزودين بعتاد الفرسان ،
 وبعد أن أعد عدتهم على هذه الشاكلة ، أمرهم أن يكونوا فى مقدمة
 سائر الجيوش وأن يتجهوا صوب فرسان كرويسوس ، ومن خلف فصيلة
 الجمال ، أمر المشاة أن يتبعوهم ، ومن خلف المشاة وضع قوة فرسانه بأكملها ،
 وعندما عبأ رجاله كلا فى مكانه الخاص أمرهم ألا يتركوا فرداً واحداً
 من اللبيين الآخرين حياً ، وأن يذبحوا كل من قد يقف فى سبيلهم ،
 على أنهم لم يكونوا ليدبحوا كرويسوس نفسه ، وإن أبدى المقاومة ساعة
 القبض عليه . تلك كانت أوامره وقد وضع الجمال ضد الخيل لهذا السبب :
 وهو أن الخيل تخاف الإبل ولا تستطيع أن تطبق رؤيتها أولاً أن تشم رائحتها .
 فلهذا السبب إذن دبرت الحيلة ، حتى تصبح فرسان كرويسوس عديمة
 الجدوى . وهى القوة نفسها التى كان يتوقع منها الملك اللبى كل التفوق
 والتبريز . وبينما الخانبان يتقدمان للالتحام فى المعركة ، وبمجرد أن اشتمت
 الخيل رائحة الجمال ورأتها دارت على أعقابها وانهارت آمال كرويسوس
 على الفور .

وهوجت سارديس طوال أربعة عشر يوماً ووقع كرويسوس فى
 الأسر

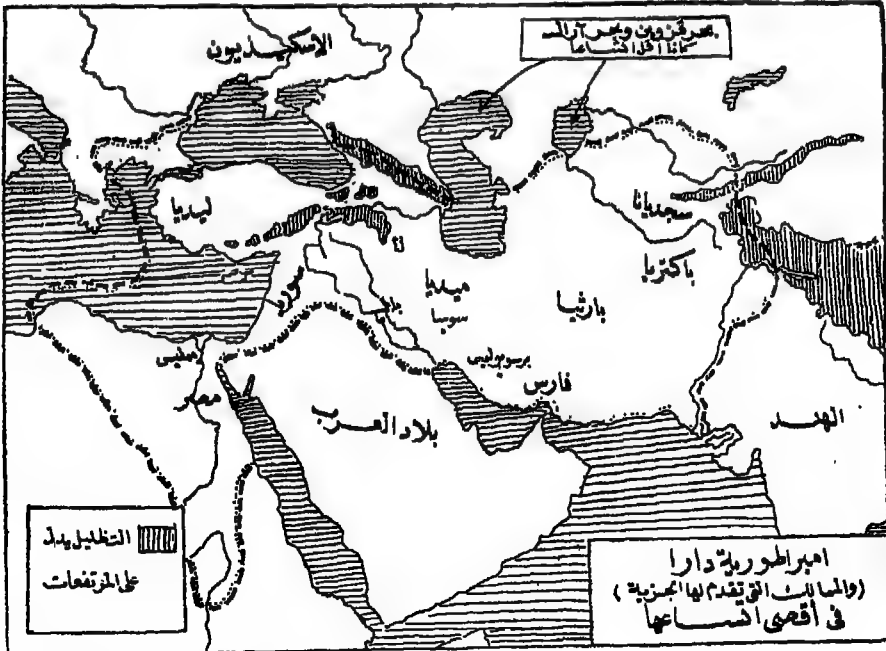
« ولما أن ظفر به الفرس قدموه بين يدى قورش ، فجمع الملك كومة
 عظيمة من الحطب وأمر فجعل كرويسوس من فوقها مشدود الوثاق ، كما
 جعل معه أربعة عشر من أبناء اللبيين ، فهل كان يقصد أن يقدم هذا
 القربان ثمرة أولى لنصره إلى أحد لأرباب ؟ أو هل كان يبغي تحقيق الوفاء
 بنذر قطعه على نفسه ؟ أو أنه سمع أن كرويسوس رجل يخشى الله ،
 فأمر به أن يوضع من فوق قمة الحطب ، لأنه أراد أن يعرف هل
 ستنفذه إحدى القوى الإلهية فلا يحرق حياً ؟ فى قولهم إنه فعل ذلك ابتغاء
 تلك الغاية .

على أن كرويسوس ، وهو واقف على كومة الحطب هبطت عليه على

الرغم مما كان فيه من سوء الحال ذكرى حكمة سولون (Solon) حين قال
 بوحى من الآلهة : إنه ليس بين الأحياء من يدعى بالسعيد ، فلما خطر ذلك
 الخطر بباله ، قالوا إنه تأوه تأوهاً عميقاً وأن أيننا عالياً ، بعد أن ظل صامتاً
 زماناً طويلاً ، ثم هتف باسم سولون ثلاثاً . فلما أن سمع قورش ذلك أمر
 المترجمين أن يسألوا كرويسوس عما يكون ذلك الشخص الذى يناديه ،
 فاقربوا منه وسألوه ، ويقال إن كرويسوس لزم الصمت زماناً عند ما
 سئل فى هذا ، ولكنهم لما ألحوا عليه بعد ذلك قال « إنه رجل وددت وإن
 فقدت فى سبيل ذلك ثروة طائلة — لو أنه تحدث إلى كل الملوك » . وعند
 ذلك لما كانت كلماته ذات مضمون مبهم ، سألوه من جديد عما قال ،
 وإذا كانوا ملحقين لا يعطونه أى سلام أو راحة ، أخبرهم كيف أن
 سولون — وهو فرد آثينى — قد جاءه ، وبعد أن فحص كل ثروته استخف
 بها بكلمات كيت وكيت ، وكيف أن كل ما حدث له جاء مطابقاً لما قاله
 سولون ، وهو لم يكن يتكلم البتة بالنسبة إلى كرويسوس نفسه بوجه خاص
 ولكن بالنسبة إلى الجنس البشرى أجمع ، وخاصة إلى أولئك الذين يخالون
 أنفسهم رجالاً سعداء . وبينما كان كرويسوس يقص هذه الأمور ، كانت
 النار أضرمت فى كومة الحطب وكانت حوافها قد انتقدت من كل
 النواحي . وعند ذلك يقال أن قورش عند ما سمع من المترجمين ما قاله
 كرويسوس ، غير عزمه وأيقن أنه هو نفسه إن هو إلا إنسان ، وأنه يقدم
 رجلاً آخر لا يقل عنه سعادة ؛ ليكون وقوداً للنار وهو حى ، فضلاً عن
 ذلك فقد خشى القصاص ، ورأى أنه لا أمان لشيء مما علكه الناس ، ولذلك
 يقولون إنه أمرهم أن يطفئوا بأسرع ما استطاع تلك النار التى كانت تتلظى
 وأن ينقذوا كرويسوس ومن معه من فوق كومة الاحطاب ، وإذا أخذوا
 يبدلون الجهود لم يستطيعوا إذ ذاك أن يتغلبوا على لهيب النار . ثم يقص الليديون
 بعد ذلك أن كرويسوس ، وقد علم كيف عدل قورش عن رأيه ورأى
 كل إنسان جاهداً فى إطفاء النار ، وأنهم لم يعودوا قادرين على الحد من

امتدادها صاح متوسلا إلى أبولون (Apollo) : إذا كنت يوما قدمت هدية
تقبلها الإله أبولون ، فإنه سيهب لنجدتي وسينقذني من الشر الذي هو الآن
يحيق بي . هكذا تضرع إلى الرب والدمع ملء عينيه . وفجأة كما يقولون ،
وبعد أن كانت السماء مصحبة والحوهادثاً مستقرأ ، تجمع الغمام وانفجرت
العاصفة ، وأمطرت السماء وابلا مدراراً فأطفئت نار الخطب .

» ثم لما أدرك قورش أن كرويسوس محب للآلهة ورجل خير أمر به
فأنزل من فوق كومة الخطب وسأله كما يأتي : « أخبرني يا كرويسوس
من الناس قاطبة أغراك بأن تزحف على أرضي وتصبح عدواً لي بدل
أن تكون صديقاً ودوداً ؟ فقال له : « أيها الملك لقد فعلت ذلك فكان فيه
سعادتك وجر على شقاوتي ، والسبب في ذلك هو رب الهلينيين الذي
حرصني على الزحف بجيشي ، إذ ما من فرد بلغت به الحفاقة حداً يجعله يختار
بمحض إرادته الحرب دون السلم ، لأن الأبناء يوارون آباءهم التراب في أوان



السلم ، على حين يوارى الآباء أبناءهم في زمن الحرب . على أنى أعتقد أنه كان مما يسر القوى الإلهية أن تقع هذه الحوادث على هذا النحو . » .

على أن هيرودوت رفيق شائق جذاب يغرى من يكتب معالم التاريخ بالإسهاب في الاقتباس منه ، ولذا فإن بقية حياة كرويسوس وكيف أخذ يقدم إلى قورش نصائح حكيمة ، يجب أن تقرأ على صفحات هيرودوت الزاحزة .

ولما أن أخضعت ليديا ، وجه قورش التفاته إلى نابونيداس في بابل ، فقهر الجيش البابلي تحت قيادة بِلْشَاصَّر (Belshazzar) خارج أسوار بابل ، ومن ثم ألقى الحصار على المدينة فدخلها عام ٥٣٨ ق.م. ، والراجح أن ذلك الفتح تم كما سبق أن أشرنا برضاء كهنة بعل وإغضائهم .

٧ - دارا يحتاج الروسية

خلف قورش على الملك ابنه قمبيز ، الذى اقتاد جيشاً دخل به مصر (٥٢٥ ق.م.) ، وحدثت معركة على أرض الدلتا اقتتل فيها مرتزقة من الإغريق في كل من الجانبين . ويصرح هيرودوت أنه رأى عظام القتلى وهى ما تزال في الميدان بعد ذلك بخمسين أو ستين سنة . وهو يشير إلى صغر حجم الجماجم الفارسية نسبياً . ذلك أن هيرودوت لم يخفف قط من دعايته ضد الفرس . واستولى قمبيز بعد هاته المعركة على منف ومعظم أجزاء مصر .

ويقال إن قمبيز أصيب بمس من الجنون في مصر . فاستباح المعابد المصرية أيما استباحة وظل في ممفيس « ينبش المقابر القديمة ويفحص جثث الموتى » . وكان قمبيز قد اغتال قبل وصوله إلى مصر كلا من كرويسوس ملك ليديا السابق وشقيقه نفسه سميرديس (Smerdis) . ثم مات في سوريا أثناء عودته إلى سوسا متأثراً بجرح عارض ولم يترك عقباً يخلفه على

العرش فخلفه في الحال دارا الميدي (٥٢١ ق. م.) وهو ابن هيستاسپس (Hystaspes) أحد كبار مستشاري قورش .

وكانت إمبراطورية دارا الأول أعظم من جميع الإمبراطوريات السابقة التي تبعتها فيما سلف نموها ، فهي تضم كل آسيا الصغرى وسوريا ، أو بعبارة أخرى الإمبراطوريتين الليدية والحثية القديمتين ، وكل الإمبراطوريات الآشورية والبابلية القديمة ومصر وبلاد القوقاز وإقليم قزوين وميديا وبلاد الفرس ، ولعلها امتدت في الهند حتى نهر السند . دانت كل هذه البلاد لحكم دارا فأقام عليها حكماً إقليمياً (ينبت الواحد منهم باسم ساتراپ) ، ولم ينج من دفع الجزية للساتراپ الفارسي إلا العرب الرحل وحدهم دون سائر شعوب ما يسمى الآن باسم الشرق الأدنى التابعين لدارا . ويلوح أن تنظيم هذه الإمبراطورية العظيمة كان على مستوى من الكفاية أعلى كثيراً مما كان في الإمبراطوريات التي سبقتها . فكانت الطرق الرئيسية العظيمة تصل الولاية بالولاية ، وكان هناك نظام للبريد الملكي ، وكانت خيول البريد تقف على مسافات مقررة وهي مستعدة على الدوام لحمل رسل الحكومة أو لحمل المسافرين إن كان لديه تصريح من الحكومة - إلى المرحلة الثانية من مراحل رحلته . ويلوح أن الحثيين رصفوا الطرق الكبرى الممتدة عبر بلادهم في زمن أبكر من هذا بكثير . على أن هذا أول تنظيم للبريد معروف لدينا ، وفيها خلا مسألة حق الحكومة المركزية في استخدام الطرق الإمبراطورية والاستيلاء على الجزية ، فقد كانت الحكومات المحلية تستمتع بقدر جسيم جداً من الحرية المحلية ، وأفضت تبعيتهم للحكومة المركزية إلى الحيلولة دون وقوع نزاع داخلي قتال بينهم وهو أمر عاد عليهم جميعاً بالخير العميم . وفي أول الأمر كانت المدن الإغريقية الواقعة في القارة الآسيوية تدفع الجزية وتشترك في الاستمتاع بهذا « السلم الفارسي » .

وقد استحث دارا على مهاجمة الإغريق في أوروبا طيبب لإغريق في بلاطه

وكان يحن إلى وطنه ، ويريد أن يعود إلى بلاد الإغريق بأى ثمن . وكان دارا قد رسم من قبل الخطط لحملة على أوربا وليس على بلاد الإغريق . بل على ما هو في شمال الإغريق عبر البوسفور والدانوب (الطونة) ، كان يريد أن يضرب جنوب روسيا التى كان يعتقد أنها موطن الإسكيزيين المترحلين الذين يهددونه على حدوده الشمالية الشرقية . على أنه أعار مستحثه أذنًا مصغية وأرسل الرسل إلى بلاد الإغريق .

وهذه الحملة العظيمة التى قام بها دارا توسع رحاب نظرتنا في هذا التاريخ . فهى ترفع الستار عن بلاد البلقان من خلف بلاد الإغريق ، وهذه أول مرة نذكر لك فيها البلقان . وهى تحملنا إلى الدانوب وما وراء الدانوب . سارت نواة جيشه من سوسا وهى تجمع الأحلاف وفرق الجند المساعدة أثناء تقدمها إلى البوسفور ، وهنا كان حلفاء دارا من الإغريق « وهم الإغريق الأيونيون في آسيا » قد أقاموا جسراً من الزوارق عبر الجيش عليه ، على حين واصل حلفاؤه الإغريق رحلتهم بسفنهم إلى نهر الدانوب ، ثم رسوا على مسيرة يومين من مصبه ونصبوا جسراً طافياً آخر على حين كان دارا يتقدم بجيوشه بإزاء الساحل الذى نسميه الآن بلغاريا ، والذى كان يسمى حينذاك تراقيا ، فعبروا نهر الدانوب وأخذوا يستعدون لمنازلة الجيش الإسكيزي والاستيلاء على مدن الإسكيزيين .

على أن الإسكيزيين لم تكن لهم مدن ، كما أنهم تجنبوا الالتحام معه في أية موقعة . وتحولت الحرب إلى عملية طراد مضنية مؤتة قوامها اقتفاء أثر أعداء أكثر سرعة وأخف حركة . وكان المترحلون يطعمون الآبار ويدمرون المراعى . وكان فرسان الإسكيزيين يغيرون على أطراف الجيش المكون في معظمه من جنود من المشاة ، فيتصيدون الشاردين منهم ويحولون دون المرعى وجمع الأعلاف . وبذلوا كل ما في مقدورهم لحمل الإغريق الأيونيين - الذين أقاموا الجسر عبر الدانوب وقاموا على حراسته - على أن يفكوا الجسر ،

وبذلك يضمّنون تدمير « دارا » تدميراً محققاً لا ريب فيه . على أن إخلاص حلفاء دارا من الإغريق ظل ثابتاً لا يتزعزع ما داموا يرونه يتابع تقدمه .

ولكن ضروب الحرمان والتعب والمرض نالت من الجيش الفارسي وأعجزته عن التقدم ، وفقد دارا عدداً كبيراً من الرجال ممن شردوا عن جيشه ، واستنفدت كل مؤنه ثم ساوره أخيراً خاطر أليم بأن التراجع عبر الدانوب كان أمراً ضرورياً لإنقاذه من أعباء وهزيمة كاملين .

ولكى يجد مخرجاً ينقذه من ورطته عول على أن يبدأ تراجعه بالتضحية بالمرضى والجرحى من رجاله . فأخبرهم بأنه يتأهب لمهاجمة الإسكيزيين في أثناء الليل ، وتسلسل من المعسكر تحت هذه الدعوى مع نخبة من جنوده المختارين وانطلق جنوباً تاركاً نيران المعسكر متقدة فضلاً عن الضوضاء والحركة العادية . وفي اليوم التالي أدرك الرجال المخلفون في المعسكر الحيلة التي لعبها ملكهم عليهم ، فسلموا أنفسهم إلى رحمة الإسكيزيين ، ولكن دارا كان حصل على ما يشتهي ، فاستطاع أن يصل إلى جسر الزوارق قبل أن يلحق به مطاردوه . على أنهم كانوا أسرع من عسكره حركة ، لولا أنهم ضلوا عن قنيصتهم في الظلام . وعند النهر « بلغ الخوف بالفرس المتراجعين أقصى غايته » إذ وجدوا بعض أجزاء الجسر قد انهارت ولم يجدوا أثراً لنهايته الشمالية .

وفي هذه المرحلة يدوى في آذاننا صوت يتردد من القرون الخوالية . فهؤلاء جماعة من الفرس الوجليين يقفون حول الملك العظيم على شاطئ النهر المتدفق وهذه كتل الجيوش المتوقفة عن المسير وقد أنهكتها الجوع وأضنتها الحرب وهذا ذيل طويل من السفن المحطمة يمتد نحو الأفق الذي قد يظهر عليه في أي وقت جنود مقدمة المتعقبين وليست هناك ضوضاء كبيرة على الرغم من الجمع الحاشد ، بل يسودهم صمت القلق المتوجس . وكانت بقية من جسر الزوارق تمتد امتداد المرساة على الجانب

الآخر من مجرى النهر العظيم ، وكأنما هي لغز لا سبيل إلى حله . ولسنا نستطيع أن نميز هل هناك رجال عنده أم لا ، فإن سفائن الإغريق الأيونيين تلوح كأنما لا تزال تُسحب على الشاطئ الآخر ، ولكن كان كل شيء بعيداً بعداً صحيحاً . « وكان مع دارا إذ ذاك رجل مصرى له صوت أجهر من صوت أى رجل على الأرض . وقد أمر دارا ذلك الرجل أن يتخذ موقفه على شاطئ إيستر Ister (أى الدانوب) وأن ينادى هستيايوس الميليطى (Histiaeus of Miletus) .

وإذا بهذا المبجل الذى كان موضع التكریم - وسيأتى يوم تُحمل فيه رأسه إلى دارا فى سوسا كما سنفصل ذلك من ثونا - يظهر عبر النهر مقرباً رويداً رويداً فى قارب .

ويدور حديث يتبين منه أن « كل شيء على ما يرام » .

والتفسير الذى قدمه هستيايوس عن الأمر تفسير معقد ، ذلك أن بعض الإسكيذيين حضروا ثم انصرفوا ، وربما كان هؤلاء من الطلائع الكشفية . ويبدو أنه جرت مناقشة بين الإسكيذيين والإغريق ، وكانوا يطلبون إليهم تحطيم الجسر ويتعهدون لهم بأن يهلكوا عند ذلك الجيش الفارسى ويقضوا على دارا وإمبراطوريته . وعندئذ يستطيع لإغريق آسيا الأيونيون تحرير مدنها ثانية . وكان ملتياذيس الأثينى يدعو إلى قبول هذا المقترح ، على أن هستيايوس كان أشد منه دهاء . فإنه قال إنه يفضل ألا يتخلى عن الفرس تماماً إلا بعد أن يراهم وقد دمروا تدميراً . فهل يوافق الإسكيذيون أن يعودوا أدراجهم ويدمروا قوة الفرس ليطمئن إليهم الإغريق ، على حين يقوم الإغريق من ناحيتهم بتدمير الجسر ؟ ومهما يكن الجانب الذى انحاز إليه الإغريق آخر الأمر ، فقد كان من الواضح الحلى لهم أن من حسن التدبير تدمير نهاية الجسر الشمالية . فإن لم يفعلوا ذلك فإن الإسكيذيين قد يحتاجونه . والواقع أنه حتى حين كان الطرفان يتفاوضان ، شرع الإغريق فى العمل بأسرع ما استطاع على (٦ - معالم)

وبذلك يضمّنون تدمير « دارا » تدميراً محققاً لا ريب فيه . على أن إخلاص حلفاء دارا من الإغريق ظل ثابتاً لا يتزعزع ما داموا يرونه يتابع تقدمه .

ولكن ضروب الحرمان والتعب والمرض نالت من الجيش الفارسي وأعجزته عن التقدم ، وفقد دارا عدداً كبيراً من الرجال ممن شردوا عن جيشه ، واستنفدت كل مؤنثه ثم ساوره أخيراً خاطر أليم بأن التراجع عبر الدانوب كان أمراً ضرورياً لإنقاذه من أعياء وهزيمة كاملين .

ولكى يجد مخرجاً ينقذه من ورطته عول على أن يبدأ تراجعه بالتضحية بالمرضى والجرحى من رجاله . فأخبرهم بأنه يتأهب لمهاجمة الإسكيثيين في أثناء الليل ، وتسلسل من المعسكر تحت هذه الدعوى مع نخبة من جنوده المختارين وانطلق جنوباً تاركاً نيران المعسكر متقدة فضلاً عن الضوضاء والحركة العادية . وفي اليوم التالي أدرك الرجال الخلفون في المعسكر الحيلة التي لعبها ملكهم عليهم ، فسلموا أنفسهم إلى رحمة الإسكيثيين ، ولكن دارا كان حصل على ما يشتهي ، فاستطاع أن يصل إلى جسر الزوارق قبل أن يلحق به مطاردوه . على أنهم كانوا أسرع من عسكره حركة ، لولا أنهم ضلوا عن قنيصتهم في الظلام . وعند النهر « بلغ الخوف بالفرس المتراجعين أقصى غايته » إذ وجدوا بعض أجزاء الجسر قد انهارت ولم يجدوا أثراً لنهايته الشمالية .

وفي هذه المرحلة يدوى في آذاننا صوت يتردد من القرون الخوالية . فهؤلاء جماعة من الفرسان الوجليين يقفون حول الملك العظيم على شاطئ النهر المتدفق وهذه كتل الجيوش المتوقفة عن المسير وقد أنهكها الجوع وأضنتها الحرب وهذا ذيل طويل من السفن المحطمة يمتد نحو الأفق الذي قد يظهر عليه في أي وقت جنود مقدمة المتعقبين وليست هناك ضوضاء كبيرة على الرغم من الجمع الحاشد ، بل يسودهم صمت القلق المتوجس . وكانت بقية من جسر الزوارق تمتد امتداد المرساة على الجانب

الآخر من مجرى النهر العظيم ، وكأنما هي لغز لا سبيل إلى حله . ولسنا نستطيع أن نميز هل هناك رجال عنده أم لا ، فإن سفائن الإغريق الأيونيين تلوح كأنما لا تزال تُسحب على الشاطئ الآخر ، ولكن كان كل شيء بعيداً بعداً سحيقاً . « وكان مع دارا إذ ذاك رجل مصرى له صوت أجهر من صوت أى رجل على الأرض . وقد أمر دارا ذلك الرجل أن يتخذ موقفه على شاطئ إيستر Ister (أى الدانوب) وأن ينادى هستياثيوس الميليطي . (Histiaeus of Miletus) .

وإذا بهذا المبجل الذى كان موضع التكریم - وسيأتى يوم تُحمل فيه رأسه إلى دارا فى سوسا كما سنفصل ذلك من توتنا - يظهر عبر النهر مقرباً رويداً رويداً فى قارب .

ويدور حديث يتبين منه أن « كل شيء على ما يرام » .

والتفسير الذى قدمه هستياثيوس عن الأمر تفسير معقد ، ذلك أن بعض الإسكيزيين حضروا ثم انصرفوا ، وربما كان هؤلاء من الطلائع الكشفية . ويبدو أنه جرت مناقشة بين الإسكيزيين والإغريق ، وكانوا يطلبون إليهم تحطيم الجسر ويتعهدون لهم بأن يهلكوا عند ذلك الجيش الفارسى ويقضوا على دارا وإمبراطوريته . وعندئذ يستطيع إغريق آسيا الأيونيون تحرير مدنهم ثانية . وكان ملتياديس الأثينى يدعو إلى قبول هذا المقترح ، على أن هستياثيوس كان أشد منه دهاء . فإنه قال إنه يفضل ألا يتخلى عن الفرس تماماً إلا بعد أن يراهم وقد دمروا تدميراً . فهل يوافق الإسكيزيون أن يعودوا أدراجهم ويدمروا قوة الفرس ليطمئن إليهم الإغريق ، على حين يقوم الإغريق من ناحيتهم بتدمير الجسر ؟ ومهما يكن الجانب الذى انحاز إليه الإغريق آخر الأمر ، فقد كان من الواضح الجلى لهم أن من حسن التدبير تدمير نهاية الجسر الشمالية . فإن لم يفعلوا ذلك فإن الإسكيزيين قد يحتاجونه . والواقع أنه حتى حين كان الطرفان يتفاوضان ، شرع الإغريق فى العمل بأسرع ما استطاع على

(٦ - معالم)

هدم الطرف الذى كان يربطهم بالإسكيديين . ثم انطلق الإسكيديون
بخبولهم باحثين عن الفرس ، وبذا تركوا الإغريق مطمئنين على كلا الحالين .
فإن فرّ دارا ونجا ، استطاعوا أن يكونوا إلى جانبه ، وإن دمر لم يكن
للإسكيديين موضع للشكوى .

ولم يعرض هستياثيوس الأمر على دارا على نفس هذه الصورة ، ولكنه
حافظ على الأقل على السفائن وعلى معظم الجسر . كما أظهر نفسه بمظهر
صديق فارس المخلص . ولم يكن دارا ميالا إلى شدة النقد والتدقيق .
وجاءت السفائن الأيونية . وسرعان ما أخذت بقية الفرس المجهدة المكدودة
تنظر من خلفها بشعور ارتياح لا حد له إلى بلحج الدانوب الفولاذية القاسية
وهى تناسب مترامية وفاصلة بينهم وبين متعقيهم .

وزال عن نفس دارا كل سروره واهتمامه بالحملة الأوربية . فعاد إلى
سوسا تاركاً في تراقيا جيشاً تحت إمرة قائد أمين هو ميجابازوس (Megabazus)
فأخذ ميجابازوس هذا على نفسه إخضاع تراقيا . ومن بين الدول الأخرى
التي أذعنّت لدارا مكرهة مملكة تظهر في تاريخنا الآن لأول مرة ، وهى
مملكة مقدونيا . وهى بلاد يسكنها شعب وثيق الصلة بالإغريق إلى حد أن
أحد أمراءها أذن له من قبل ذلك بأن ينبارى في الألعاب الأولمبية ويحصه على
جائزة فيها .

وكان دارا ميالا إلى مكافأة هستياثيوس بالسماح له بأن يبنى لنفسه مدينة
في تراقيا ، لولا أن ميجابازوس كان له رأى مغاير لهذا في جدارة هستياثيوس
بالثقة . فحمل الملك على أخذه إلى سوسا ، وأن يحتفظ به هناك أسيراً يحمل
لقب مستشار . ولقد غر هذا المنصب في البلاط هستياثيوس بادئ ذي بدء ،
ثم أدرك حقيقة مغزاه ، فأضجره البلاط الفارسى وأخذ يحن إلى موطنه
ميليئوس فنصب نفسه لعمل الشر واستطاع أن يقيم ثورة على الفرس
بين الأيونيين من الإغريق في آسيا الصغرى . ولهذا القصة ملابس ملتوية

ولقد أقحمت قبرص والجزر الإغريقية في هذا النزاع الذى أثاره هستيائوس واشتبكت فيه أثينا آخر الأمر . وأدرك دارا الغلطة التى وقع فيها حين اتجه يمينا بدل أن يعرج يسارا عند ما عبر البوسفور ، ومن ثم نصب نفسه لغزو كل بلاد الإغريق فبدأ بالجزر .

وكانت صور وصيدا المدينتان التجاريتان الساميتان العظيمتان خاضعتين للفرس . ومن ثم انضمت سفائن الفينيقيين والأيونيين من الإغريق إلى الفرس ، فصار لهم أسطول استطاعوا به إخضاع الجزر الإغريقية الواحدة تلو الأخرى .

٨ - معركة ماراتون (Marathon)

شن الفرس أول هجوم لهم على بلاد الإغريق نفسها عام (٤٩٠ ق.م.) وكان هجوماً بحرياً على أثينا بقوة دربت بعناية تدريباً طويلاً لتلك الغاية . وكان الأسطول مزوداً بنقلات بنيت خصيصاً لراحه الخيول . وقد نزلت هذه الحملة العسكرية قرب ماراتون في أتيكا^(١) (Attica) . وأرشد الفرس إلى ماراتون رجل إغريق من الخونة هو هيباس ابن بيزستراتوس الذى كان طاغية على أثينا. واتفق المتآمرون أنه إذا سقطت أثينا ، يصبح هيباس طاغية لها تحت حماية الفرس . وفى الوقت ذاته تمكن من نفوس القوم شعور بأن شئون هيلاس أخذت تستحكم فيها أزمة حرجة - تمكناً جعل رسولا من العدائين ينطلق من أثينا إلى إسبرطة ناسياً كل العداوات القديمة بين البلدين ، لكى يقول لأهلها : « أيتها اللاكيديمونيون إن الأثينيين ليهيئون بكم أن تهبوا خفافاً لمساعدتهم ، وألا تسمحوا لمدينة أقدم ما تكون بين الهلنيين بأن تقع فى ربة العبودية على أيدي الحمج البرابرة^(٢) . ولا تنسوا أن إرتريا (Eretria) مستعبدة فى يومنا هذا مما أضعف قوة هيلاس بفقد هذه المدينة الشهيرة » .

(١) إحدى ولايات بلاد الإغريق القديمة وكانت عاصمتها آثينا . (المترجم)

(٢) البرابرة (أو الحمج) اصطلاح فى التاريخ اليونانى أطلقه اليونان على كل من عداهم من الشعوب تحقيراً لشأنهم . (المترجم)

قطع هذا الرجل واسمه «فيديبيدس Pheidippides» المسافة من أثينا إلى إسبرطة وهى قرابة مئة ميل ، سالكاً كالغراب خطأً مستقيماً ، بل أقصر منه — إذا أدخلنا فى حسابنا ما بالطريق من التعرجات والمنعطفات — قطعها فيما يقل عن أربعين وثمانية من الساعات .
على أنه قبل أن يستطيع الإسبرطيون الوصول إلى المكان ، كان الفريقان قد التحما . فهاجم الأثينيون العدو وقتلوه « بطريقة جذيرة بالخلود لأنهم فيما نعرف كانوا أول من تقدم من الهلنيين لمهاجمة العدو جرياً ، كما كانوا كذلك أولهم فى الصبر على تحمل النظر إلى ثياب الميدين وملاقة الرجال الذين يرتدونها ، حين كان مجرد اسم الميدين حتى ذلك الزمان مما يرعب الهلنيين سماعه » .



وتزعزع جناحاً الفرس أمام ذلك الهجوم العنيف ولكن القلب صمد . على أن الأثينيين كانوا مع ذلك هادئى الروح مثلما كانوا أشداء . فحملوا الجناحين على الفرار . ثم أطبقوا على جانبي القلب . وعند ذلك فرت كتلة الفرس الرئيسية إلى السفن . وسقطت سبع سفن فى أيدي الأثينيين ولاذت البقية بالفرار . وبعد أن قامت السفن بمجهود فاشل تروم به التقدم إلى أثينا والاستيلاء على المدينة قبل أن يعود إليها الجيش الإغريق ، تراجع الأسطول إلى آسيا .

ولندع هيرودوت يختم القصة بفقرة تلقى إلينا ضوءاً ساطعاً على مهابة الميدين الهائلة فى ذلك الزمان .

« ومن اللاكيديمونيين حضر إلى أثينا ألفان بعد تمام القمر وبعد أن أسرعوا سرعة عظيمة ليصلوا فى الأوان ، حتى وصلوا إلى أتيكا فى اليوم الثالث لخرجهم من إسبرطة . وهم وإن حضروا بعد فوات فرصة المعركة بزمان طويل ، إلا أنهم كانوا يرغبون فى مشاهدة الميدين . فذهبوا وفقاً لهذا إلى ماراتون وشاهدوا جثث القتلى ،

ثم رحلوا بعد ذلك إلى وطنهم ، وهم يشنون على الأثينيين وعلى العمل الذى أتوه .

٩ - ثرموبيلاي وسالاميس

بذلك الفوز العظيم أحرزت بلاد الإغريق - وقد وحد الخوف كلمتها ردحاً من الزمان - أول نصر لها على فارس . وترامت الأنباء بذلك إلى دارا فى نفس الوقت الذى وصلت إليه فيه أخبار شبوب فتنة فى مصر . ولكنه مات قبل أن يجمع رأيه على الاتجاه الذى ينبغى عليه أن يسلكه . واتجه ابنه وخلفه اجزرسييس (Xerxes) فى بادئ الأمر إلى مصر فولى عليها والياً (ساتراب) فارسياً ثم استمر أربع سنوات يعد العدة لهجوم ثان على بلاد الإغريق . ويقول هيرودوت - وينبغى ألا يغيب عن بالنا أنه كان إغريقياً وطنى النزعة - فى مؤلفه التاريخى الذى أخذ يسمو آن ذاك إلى أوج الروعة والبهاء :

« فأى شعب لم يخرج به لاجزرسييس من آسيا على هيلاس ؟ ! وأى ماء لم ينضب معينه حين ينهال عليه جيشه شرباً ، اللهم إلا الأنهار العظيمة دون سواها ؟ لقد كان بعض هذه الشعوب يزوده بالسفن كما كان بعضها مكلفاً بالخدمة فى الجيش البرى . وكان على بعضها أن يقدم الفرسان كما تعن على البعض الآخر أن يقدم سفناً تحمل الخيل . على حين كانوا هم أنفسهم يشتغلون كذلك فى الحملة ، وكان أن أمر آخرون بتقديم سفن حربية للجسور ، وأمر آخرون كذلك بتقديم سفن محملة بالمؤن » .

عبر لاجزرسييس إلى أوروبا ، لا عند معبرة البوسفور التى عرضها نصف ميل كما فعل « دارا » ، بل عند الهلسبونت (Hellespont : الدردنيل) . وهيرودوت فى وصفه لتجمع ذلك الجيش العرمرم ومسيره من سارديس إلى الهلسبونت ، إنما تغلب نزعة الشاعر فيه على المؤرخ . ويمر الجحفل العظيم الحرار بكل أبهته بمدينة طروادة (Troy) واجزرسييس وإن كان فارسياً

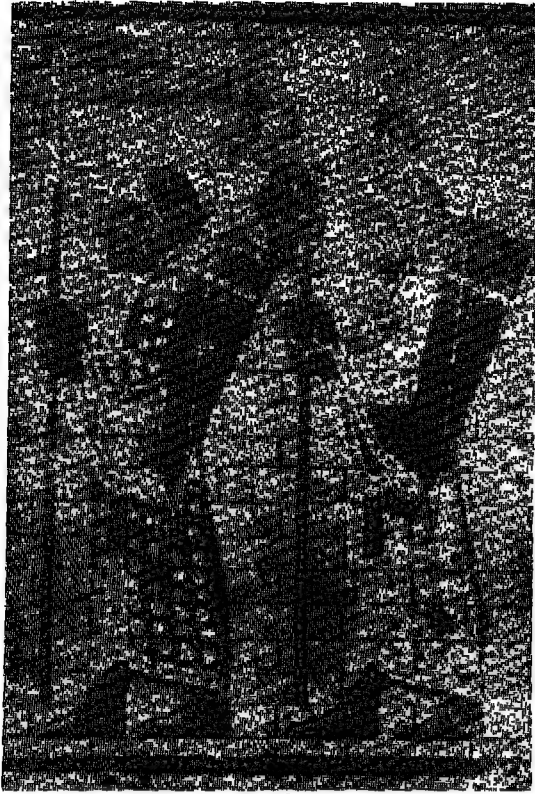
ومن الهمج إلا أنه يلوح في زى المتأدين بأدب القداى فهو يُعرج على تلك المدينة ، كما يقول مؤرخنا ، لزيارة قلعة بريام (Priam) ، وقد أقيم الحسر على الهلسبونت عند أبيدوس ، وأقيم على قمة أحد التلال عرش من الرخام ليشرف منه اجزرسيس على عرض جيشه بأجمعه .

« حتى إذا نظر فرأى الهلسبونت تغطيه السفائن ورأى كل شواطئ سهول أبيدوس غاصة بالرجال ، قال عن نفسه إنه لسعيد ، وما لبث بعد ذلك أن هملت عيناه بالدموع . فلما أن رآه عمه أرطبانوس (Artabanus) على تلك الحال - وهو نفسه الذى صرح برأيه بادئ الأمر فى جرأة ناصحاً لاجزرسيس بأن لا يزحف على هيلاس ، - أقول إن هذا الرجل عند ما لاحظ أن اجزرسيس كان يبكى ، سأله كما يأتى : أيها الملك ، ما أبعد الشقة بين الأمرين اللذين أتيتهما الآن وقبل الآن برهة وجيزة ، فإنك وقد دعوت نفسك رجلاً سعيداً ، تذرف الدمع الآن : فأجاب الملك : أجل لى بعد أن أحصيتهم عدداً دار بخلدى إحساس الإشفاق والحسرة لتذكرى كم حياة الإنسان كلها قصيرة . لعلمى أنه من بين هذا الجمع الحاشد لن يكون واحد حياً بعد أن تمضى مائة من السنين . »

وربما لم يكن هذا من التاريخ الدقيق فى شيء ولكنه على كل حال شعر رائع عظيم . إذ الواقع أنه يحوى من الروعة ما تحويه ملحمة « الديناست »^(١) الدرامية « (The Dynasts) » .

ورافق الأسطول الفارسى هذا الحشد البرى منتقلاً بحذاء الساحل من رأس إلى رأس . على أن عاصفة هوجاء أنزلت بالأسطول أضراراً عظيمة ، فأغرقت أربعمئة سفينة بينها الكثير من جاملات القمح . وسار الهلينيون بادئ الأمر وقد توحدت صفوفهم للملاقاة الغزاة فى وادى تمبي (Tempe) فى الشمال قرب جبل أوليمپوس ، ولكنهم تراجعوا بعد ذلك مخترقين تساليا ، واختاروا آخر الأمر أن ينتظروا الفرس المتقدمين عند مكان يدعى « ترموبيلاي » (Thermopylae) ، حيث كانت هناك فى ذلك الوقت صخرة عظيمة يقع البحر

(١) الديناست ملحمة شعرية درامية لـ ماس هاردى . وتصف الحروب النابوليونية . (المترجم)



٧٠ - جنديان من الحرس الفارسي

التكافؤ بين الفريقين في العدد . وهناك التحم الفرس بهم في معركة في أحد أيام صيف ٤٨٠ ق.م .

صد الإغريق هذا الجيش العظيم ثلاثة أيام ، وأنزلوا بهم خسائر بليغة لقاء خسارة طفيفة نالتهم ؛ ثم ظهرت في اليوم الثالث فصيلة من الفرس في مؤخرة الإغريق ، بعد أن أرشدها فلاح إلى طريق فوق الجبل . وسرعان ما اشتد الجدل والخلاف بين الإغريق ، فكان البعض يدعو إلى الانسحاب ، والبعض يدعو إلى الثبات . وكان ليونيداس (Leonidas) قائد القوة جمعاء يرى وجوب الصمود ، على أن يستبقى معه ثلاثمائة إسبرطي وفي الوقت نفسه يستطيع سائر الجيش الإغريق أن يتقهقر إلى الممر الثاني الذي يمكن الدفاع

إلى الشرق منها ، وبينهما ممر ضيق لا يكاد يتسع لمركبة واحدة إلا بشق الأنفس - وقد غيرت الألفان والأربعمئة من السنين التي انصرمت معالم كل شيء في تلك البقعة . والميزة العظيمة التي كانت للإغريق من هذا الموقع في ثرموبيلاي هي أنه كان يمنع أعداءهم من استخدام كل من سلاح الفرسان والمركبات . وكان الممر يضيق جبهة المعركة إلى حد يقلل من شأن عدم

عنه . ومع ذلك فإن الفرقة الثسبية (Thespian) وعددها سبعمائة رفضوا أن يتراجعوا مفضلين البقاء مع الإسبرطيين . وبقيت كذلك فرقة أخرى من أربعمائة محارب من طيبة . ولما كانت طيبة انحازت فيما بعد إلى الفرس . فإن هناك قصة تقول بأن الطيبين أكرهوا على البقاء في هذا الموضع قسراً ورغم إرادتهم ، وهو أمر ليس له ما يرجحه من أسس عسكرية أو تاريخية . وقد ثبت هؤلاء الألف والأربعمائة وذبحوا على بكرة أبيهم بعد قتال تجلت فيه البطولة والبسالة . واتفق أن تخلف رجلا من الإسبرطيين لإصابتهما بالرمد . فلما أن سمعا الخبر ، كان أحدهما على خالة شديدة من المرض لا يستطيع معها حراكاً ، وأمر ثانيهما عبده (helot) أن يقوده إلى مكان المعركة ، وهناك أخذ يضرب ضرب العميان حتى قتل . وأخذ الإسبرطي الحى أرستوديموس (Aristodemus) مع الحيوش المترجعة وأعيد إلى إسبرطة حيث لم تنزل به أية عقوبة على سلوكه ، ولكنه عرف باسم المتقهقر (Tresas) . وكان ذلك كافياً لتمييزه عن سائر الإسبرطيين ، وما لبث أن عمل على أن يقتل في معركة بلاتايا بعد ذلك بسنة ، بعد أن أبدى ضروراً عجيبة من شجاعة المستهين بالموت ... ظلت تلك الفئة القليلة قابضة على الممر يوماً كاملاً ، يهاجمها من الأمام والخلف قوة الفرس بأجمعها . فاستطاعت أن تغطي تراجع الجيش الإغريق الرئيسى ، وأنزلت بالغزاة خسائر فادحة ورفعت مهابة المحاربين الإغريق على مهابة الميديين رفعاً يعلو بها عما فعله النصر في معركة ماراثون (Marathon) .

وأخذت فرسان الفرس ومركباتهم تنساب انسياً بطيئاً خلال ممر ثرموبيلاي الضيق ، وتقدمت نحو أثينا بينما كانت تدور في البحر سلسلة من الالتحامات البحرية . وتراجع الأسطول الهليني أمام تقدم العمارة الفارسية ، التي أصيبت بخسارة فادحة بسبب جهلها النسبي بالسواحل المعقدة الكثيرة التعاريج وبتقلبات الخيو المحلى . على أن ضخامة العدد هي التي حلت الجيش الفارسي قُدماً نحو أثينا ،

والآن وقد ضاع ممر ثرموبيلاي ، لم يبق هناك من خط دفاع أقرب من برزخ كورينثة ، وكان معنى هذا هو التسليم في كل الأراضي الواقعة بين منطقتي ثرموبيلاي وكورينثة بما في ذلك مدينة أثينا ، وهذا معناه أنه لم يبق أمام السكان إلا أن يختاروا بين أمرين لا ثالث لهما : فإما أن يفروا وإما أن يستسلموا للفرس . خضعت طيبة ومعها بوعوتيا بأجمعها (Boeotia) ، وأرغمت على الانضواء إلى الجيش الفارسي فيما عدا بلدة واحدة هي پلاتايا (plataea) التي فر سكانها إلى أثينا . وجاء دور أثينا بعد ذلك ، وبذل الفرس جهوداً عظيمة لإقناعها بالتسليم لهم . ولكن جميع السكان أصروا على التضحية بكل شيء والنزول إلى السفن . فحمل النساء وغير المحاربين إلى سالاميس (Salamis) والجزر المختلفة المجاورة . ولم يبق في المدينة غير عدد قليل من الناس ممن أقعدتهم السن عن الحركة أو ممن خالفوا الإجماع ، فاحتلها الفرس وأحرقوها . فأما الأشياء المقدسة والتماثيل التي أحرقت في هذه المرة فلأنها دفنت فيما بعد في الأكروبول إذ تولى دفنها الأثينيون العائدون ، وعثر عليها في عصرنا هذا وبها آثار الحريق ظاهرة . وأرسل لجزر سيس إلى سوسا رسولا راكباً يحمل البشري ودعا أبناء پيزستراتوس (Peisistratus) الذين كانوا معه ، أن يعودوا إلى تراثهم وأن يقدموا الضحايا من فوق الأكروبول جرياً على الطريقة الآثينية .

وفي نفس الوقت كان الأسطول الهليني الموحد انتقل إلى سالاميس وهناك انقسمت الآراء انقساماً مريراً بين أعضاء مجلس الحرب . وكانت كورينثة ، والدول التي وراء البرزخ تطلب أن يتراجع الأسطول إلى ذلك المركز ، أي إلى كورينثة تاركاً مدن ميغارا (Megara) وآيچينا لرحمة القدر . ولكن ثيمستوكليس (Themistocles) أصر بكل قواه على القتال في مضيق سالاميس . وظلت الغالبية تميل إلى التقهقر ، حتى جاءت الأخبار فجأة بأن خط التراجع قد قطع . فإن الفرس أبحروا حول سالاميس وقبضوا على ناصية البحر من الجهة الأخرى .

وقد حمل هذه الأخبار أريستيديس العادل الذى أسلفنا عليك أمر نفيه من أثينا ، وأبليت رجاحة عقله وفصاحته أحسن بلاء فى معاونة ثميستوكليس على تشجيع القواد المترددين . كان هذان الرجلان عدوين لدودين فيما سلف ولكنهما إزاء الخطر العام تناسيا شحناهما فى تسامح نادر فى تلك الأيام . وخرجت السفن الإغريقية للقتال عند الضجر .

وكان الأسطول الآخر أكثر تخليطاً وأقل اتحاداً وانسجماً من أسطولهم . غير أنه كان يبلغ ثلاثة أضعاف أسطولهم تقريباً . وكان الفينيقيون فى أحد جناحيه ، والإغريق الأيونيون من سكان آسيا والجزر فى الجناح الآخر . فحارب بعض هؤلاء الأخيرين حرب العتاة . على حين تذكر الآخرون أنهم هم كذلك من الإغريق . وكانت سفن الإغريق فى الناحية الأخرى يديرها فى غالب الأمر رجال من الأحرار يقاتلون من أجل أوطانهم . واحتدمت المعركة فى ساعاتها الأولى احتداماً اختلط فيه الحابل بالنابل . ثم اتضح لإجزرسييس وهو يراقب النضال أن أسطولهم كان يحاول الفرار . وتحول الفرار إلى كارثة .

وكان لإجزرسييس اتخذ مجلساً فى مكان يرقب منه المعركة ، فرأى سفنه تدفقا حيازيم السفن الأخرى الحادة ؛ ورأى رجاله المحاربين يصرعون ، ورأى الأعداء ينزلون فى سفنه . وكانت طريقة حرب البحر الغالبة فى تلك الأيام هى الصك والمصادمة . فكانت السفن الكبيرة تثقب السفن المعادية لها وتغرقها لتفوقها عليها فى قوة الصدمة أو كانت تهشم مجاديفها وبذلك تقضى على مقدراتها على المداورة ، وتتركها قعيدة مغلوبة على أمرها . ثم ما لبث لإجزرسييس أن رأى بعض سفنه المكسورة تسلم للأعداء . وكان يستطيع أن يرى فى الماء رؤوس الإغريق وهم يسبحون إلى البر ؛ « فأما رجاله البرابرة فقد هلك العدد الأكبر منهم فى البحر لجهلهم السباحة » . ثم بذل الصف الأول من الأسطول الفارسى وهو محصور مضيق عليه جهداً تعوزه المهارة ليتزحزح عن مكانه قليلاً فأفضى

ذلك إلى ارتباك لا سبيل إلى وصفه ، فاصطكت بعضها بالسفن الفارسية الواقفة خلفها . وكانت هذه السفن القديمة أصنافاً ضعيفة هزيلة لا تصلح للبحر إذا قيست إلى أى صنف حديث من السفن . وكانت الرياح الغربية تهب ، وكان كثير من سفن إجزر سيس المهشمة تسوقها الرياح حتى تتوارى عن مجال بصره وتحطم على أحد الشواطئ البعيدة . وذلك بينما الإغريق يسحبون بعضها الآخر إلى سالاميس على حين شرع البعض الآخر المصاب إصابة أقل وما يزال كامل عدة القتال ، ينسحب نحو السواحل القريبة من الملك لكي يصبح في حماية الجيش . وهناك أخذت السفن تتقابل متناثرة على الجزء البعيد من البحر فيما وراء الرؤوس ، وهى بعيدة غير واضحة المعالم لائذة بالفرار — تطاردها السفن الإغريقية . وقد أخذت الكارثة تتجلى لناظرى الملك — فى بطء — إذ يظهر له منها حدث بعد حدث . وإنا لنستطيع أن نتصور الحال وقد أخذ الرسل يغدون ويروحون ويصدر الملك أوامر عاجلة لا غناء فيها ويغير الخطط طيلة نهاره . وكان إجزر سيس قد خرج فى الصباح مزوداً بالمنصات لكي يلحظ من فوقها أحسن قواده بلاء فى القتال فيكافئه على حسن بلائه ، ولكنه رأى وذهب الأصيل يملأ السماء — قوة فارس البحرية تذهب بدداً بين غريقة ومحطمة ، ورأى الأسطول الإغريق سليماً مظفراً أمام سالاميس ، وهو ينظم صفوفه ، كأنما لا يزال غير مصدق بما أصاب من نصر .

ظل الجيش الفارسى عدة أيام على مقربة من مكان المعركة البحرية ، كأنما لم يستقر على رأى ، ثم أخذ يتراجع إلى تساليا ، حيث أشار بعض الناس على الملك أن يقضى الشتاء ثم يواصل الحملة . بيد أن إجزر سيس شأنه شأن دارا الأول من قبله تملكه السأم والضيق من الحملات الأوربية ، وخشى تدمير جسر الزوارق ، فواصل المسير مع جزء من جيشه حتى الهلسبونت (الدردنيل) تاركاً القوة الكبرى فى تساليا تحت قيادة قائد اسمه ماردونيوس (Mardonius) . ويروى لنا المؤرخ قصة تراجعه على النحو الآتى :

«لأنهم أبان ساروا ، وحيثما جلوا عند أى من الشعوب يأخذون حاصلات ذلك الشعب ، ويستعملونها فى مؤونتهم ، فلن لم يجدوا حاصلات ، أخذوا الكلاء النابت فى الأرض ، وكم كانوا يسلبون الأشجار الحاءها ، ويسقطون أوراقها ويلتهمونها ، لا تميز فى ذلك عندهم بين الأشجار المزروعة والأشجار التى تنمو برية . وكانوا لا يتركون شيئاً من ورائهم ، وقد فعلوا ذلك بسبب المجاعة . ثم فشا فيهم فضلا عن ذلك الطاعون والدوسنتاريا التى أهلكتهم أثناء الطريق ، والبعض منهم أيضاً - وكان مريضاً - تركه الملك من ورائه مكلفاً المدن التى قد يحدث أن يمر بها آنذاك أثناء مسيره بأن تعنى بهم وتعولهم ، وترك بعض هؤلاء فى تساليا ، وبعضهم فى سيريس (Siris) الواقعة فى پايونيا (Paionia) وترك البعض فى مقدونيا وبعد أن اخترقوا تراقيا وصلوا إلى مضيق الهلسبونت فعبروه فى سرعة إلى أبيدوس بالسفن ، إذ أنهم لم يجدوا الجسر الطاقى ممتداً عبر البحر ، لأن إحدى العواصف حطمته . وأقام الجند هناك حيناً وزعت عليهم فيه جراية من الطعام أكثر مما كانوا ينالون فى الطريق . فمات كثير من رجال الجيش الذين ظلوا سالمين حتى ذلك الحين ، نتيجة لإشباعهم نهمهم بغير حساب وكذلك من تغيير الماء ، ووصل الباقون مع لجزر سيس إلى سارديس .»

١٠ - پلاتايا وميكال

ظل سائر الجيش الفارسى فى تساليا تحت قيادة ماردونيوس ، الذى استمر سنة بأكملها يقوم بالحملات العدوانية على الإغريق . ثم هزم آخر الأمر وقتل عام ٤٧٩ ق . م فى معركة أعد لها الطرفان عدتهما فى پلاتايا . وفى نفس ذلك اليوم أصيب أسطول الفرس وأحد جيوشهم البرية بكارثة مزدوجة تحت ظلال جبل ميكالى على أرض آسيا الصغرى بين إفيسوس (Ephesus) وميليتوس . ذلك بأن الفرس غلبهم الخوف على سفنهم من الإغريق فسحبوها إلى الشاطئ وبنوا من حولها جداراً . ولكن الإغريق نزلوا إلى البر واقتحموا تلك الحظيرة

عنوة ، ثم أفلعوا إلى الهلّسبونت ليدمروا ما تبقى من جسر الزوارق حتى لقد اضطر من فر عقيب ذلك من الفرس الهاربين من پلاتايا أن يعبروا بالسفن عند البوسفور مكابدين في ذلك أكبر مشقة .

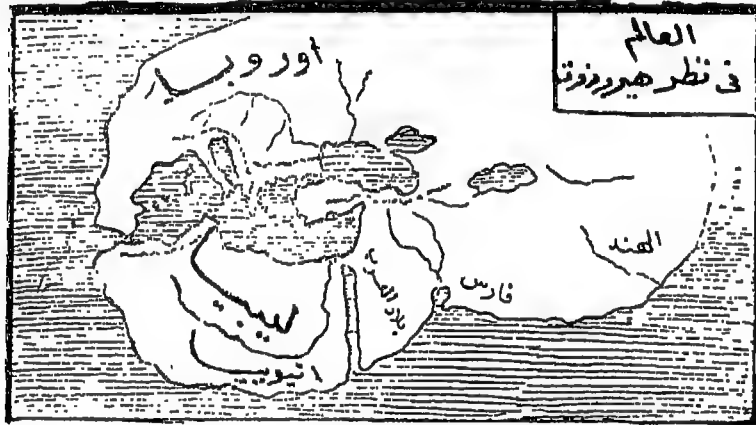
ويقول هيرودوت إن المدن الأيونية في آسيا شجعتها تلك الكوارث التي أصابت قوة الإمبراطورية ، فظهرت فيها للمرة الثانية بوادر العصيان ضد الفرس .

وهذا ينتهي الكتاب التاسع من تاريخ هيرودوت الذي كان مولده قرابة (٤٨٤ ق . م) . فهو إبان معركة پلاتايا كان طفلاً يناهز الخامسة . والكثير من مادة تاريخه قد جمعه هو بنفسه واستقاه ممن حضروا بأنفسهم وشهدوا بأعينهم الأحداث العظيمة التي يقصها . واستمرت الحرب تجر أذيالها زماناً طويلاً . فلن الإغريق ناصروا ثورة شبت ضد الحكم الفارسي في مصر ، وحاولوا أن يستولوا على قبرص فلم يوفقوا . ولم تنته الحرب إلا حوالى سنة ٤٤٩ ق م . ثم أصبحت سواحل آسيا الصغرى الإغريقية والمدن الإغريقية في البحر الأسود حرة بوجه عام ، على أن قبرص ومصر استمرت تحت الحكم الفارسي ، فأما هيرودوت الذي ولد رعية فارسية في مدينة هاليكارناسوس الأيونية ، فكان يبلغ عند ذاك الخامسة والثلاثين ، ولا بد أنه انتهز أول فرصة بعد ذلك السلم بين بلاده وبين الفرس ليزور بابل وفارس . والراجح أنه ذهب إلى أثينا ومعه تاريخه معداً للإلقاء حوالى (٤٣٨ ق م) .

ولم تكن فكرة إيجاد اتحاد عظيم للإغريق هدفه مهاجمة فارس ، فكرة غريبة كل الغرابة على هيرودوت . ويظن بعض قارئيه أنه كتب مؤلفه التاريخي لتقوية تلك الفكرة ورفع شأنها . ولا شك أن جو ذلك الزمان كان مشبعا بعبير تلك الفكرة . وهوينسب إلى أرسطاجوراس ، زوج ابنة هيستيايوس أنه عرض على الاسبرطين « لوحة من البرونز حفرت عليها خريطة العالم أجمع بما فيه من بحار وأنهار » وهو يحكى على لسان أرسطاجوراس قوله :

« إن هؤلاء البرابرة ليسوا شجعاناً في القتال ، وأنتم من الناحية الأخرى ، قد وصلتم إلى أقصى درجات المهارة في الحرب ، وهم محاربون بالقسي والسهام وبالحرية القصيرة ، ويدخلون المعارك مرتدين السراويل وقد وضعوا الكمامات (أى القلائنس) على رؤوسهم ، وأنتم قد استكملتم عدة قتالكم وأسلحتكم ونظامكم ، فهم قريبو الغلبة هيتوها ، وليس لدى كل شعوب العالم ما يملكونه من الذهب والفضة والبرونز والأثواب المطرزة والحيوانات والعبيد فكل هذا ربما تختارونه لأنفسكم لو أنكم شئتم ذلك » .

وانقضت مائة عام قبل أن توثق هذه الآراء ثمارها .



٣١ - خريطة

ثم قتل إيجزرسيس في قصره حوالى (٤٦٥ ق م) ، ومن بعدها لم تقم فارس بأية محاولة أخرى للغزو في أوروبا . وليس لدينا من العلم بما كان يجري في إمبراطورية الملك العظيم من أحداث قدر ما لدينا عن أحداث الدول الصغيرة ببلاد الإغريق الوسطى ، فقد شرعت بلاد الإغريق فجأة في إنتاج الأدب . وخلدت نفسها في سجل التاريخ على شاكلة لم يأتها من قبل أى شعب حتى ذلك الزمان . ويبدو أنه بعد (٤٧٩ ق م) (أى عام معركة بلاتايا) أخذت روح النشاط تفارق حكومة الميديين والفرس ، ثم دخلت إمبراطورية الملك العظيم بعدها في فترة شيخوخة وتحلل ، ويمر عبر المسرح أرتنجزرسيس

ثم لجزرسيس ثان ثم دارا جديد . وتحدث الفن في مصر وسوريا ، ويشور الميديون ، ويقتل على الملك . أرتجزرسيس آخر وقورش آخر وهما شقيقان . ويكاد هذا التاريخ أن يماثل تاريخ بابل وآشور ومصر في قديم الأيام ، فهو صورة الأوتوقراطية ، وقد عادت سيرتها الطبيعية الأولى من جرائم القصور والأبهة الملوثة بالدماء والفسوق والأرجاس الأخلاقية . على أن هذا الكفاح بين الشقيقتين أنتج درة إغريقية يتيمة ، لأن هذا الملك المسمى قورش الثاني جمع جيشاً من مرتزقة الإغريق دخل به مملكة بابل . وهناك لقي مصرعه في ساعة نصره على أخيه أرتجزرسيس الثاني ، وعند ذلك أصبح عشرة الآلاف لإغريقى فوضى ولا سيد لهم يستخدمهم ، فتراجعوا إلى ساحل البحر ثانية (٤٠١ ق م) وقد خلد هذا التراجع كتاب من أوائل ما سطر في صفة الحرب وسير أبطالها هو كتاب الصعود^(١) الذى ألفه قائدهم زينوفون .

وتوالى جرائم القتل والثورات وحوادث القمع والتأديب ، وتعاقبت المحالقات الخبيثة والحيلانات الوضيعة . ومن أسف أن الأيام لم تتح لنا مؤرخاً عظيماً كهيرودوت يسجل أحداثها . ذلكم هو نسيج التاريخ الفارسى ! ! ! وجاءت حقبة من الزمن ازدهر فيها ازدهاراً معتماً ضعيفاً حكم ملك آخر هو أرتجزرسيس الثالث الملقب بالدماء . « ويقال إن أرتجزرسيس الثالث قد قتله باجواس وولى على العرش مكانه أرسيس أصغر أبناء الملك لكى يقتله بدوره عندما أظهر شيئاً من الاستقلال فى التصرف .

على هذا النهج تسير الأمور . فأما أثينا فلإنها بعد أن أخذت بأسباب التقدم حيناً من الزمان عقيب صد الفرس ، ألم بها الطاعون الذى مات فيه پريكليس أعظم حكامها (٤٢٩ ق م) . ولكن تنهض فى غمرة هذه الفوضى حقيقة جديرة بالتنويه : فإن عشرة الآلاف الذين قادهم زينوفون كانوا يتناثرون آن ذاك بين ظهرانى المدن الإغريقية ، مكررين على الأسماع ما لمسوه بأنفسهم من صدق ما أعلنه أرسناجوراس من أن الإمبراطورية الفارسية إنما هى فوضى شاملة تخالطها الغنى والثراء ، وأن أمر غزوها من السهولة بمكان على ذوى العزم من الرجال .

(١) الصعود (Anabasis) - وهى كلمة يونانية معناها التوغل والزحف من شاطئ البحر إلى هضبة آسيا الصغرى ، والكتاب يمتاز بأسلوبه السهل البسيط . (المترجم)

الفصل الحادى والعشرون

الفكر والأدب والفن عند الإغريق

- ١ - أثينا فى عصر پريكليس .
- ٢ - سقراط .
- ٣ - أفلاطون ، الأكاديمية .
- ٤ - أرسطاطاليس والليسيوم .
- ٥ - الفلسفة تصبح غير دنيوية .
- ٦ - نوع الفكر الإغريقى وتحديداته .
- ٧ - أول أدب خائل عظيم .
- ٨ - الفن الإغريقى .

١ - أثينا فى عصر پريكليس



إن تاريخ الإغريق فى الأربعين سنة التالية لمعركتى پلاتايا وميكالى إنما هو قصة سلم وهدوء نسبين . نعم نشبت الحروب ، ولكنها لم تكن حروباً ضروساً . وتهايت لفريق من الموسرين فى أثينا الفرص وأسباب الفراغ إبان فترة قصيرة من الزمان . فكان لهذه الفرص وهذا الفراغ أبعد النتائج أثراً وأطولها عمراً بسبب تفاعل الحوادث وتجمعها بعضها مع بعض والمسلك الذى سلكته فئة قليلة من الناس .

وكان لوصولهم إلى طريقة للكتابة تستطيع أن تنقل الأصوات وتحمل

دقائق لغة الكلام ، أثر جعل نشوء الأدب أمراً ممكناً ، فنتج الكثير من الأدب الجميل الرائع ، وازدهرت فنون التشكيل ، وثبتت دعائم العلم الحديث التى

سبق أن وضعها من قبل فلاسفة المدن الإغريقية الأيونية الأول . ثم انقضت فترة امتدت خمسين عاماً أو تزيد . انفجرت على أثرها العداوة التي ظلت نيرانها تسرى تحت الرماد بين أثينا وإسبرطة ، فأصبحت حرباً عبوساً موهنة للقوى ، امتصت آخر الأمر كل حيوية هذه الحركة الإنشائية الخلاقة .

وتعرف هذه الحرب باسم حرب البيلوبونيز ، وقد استمرت قرابة ثلاثين عاماً . واستنفدت كل قوى بلاد الإغريق . وقد سطع نجم أثينا في بادئ الأمر ثم تألق حظ إسبرطة . ثم قامت طيبة — وهي مدينة ثقل المسافة بينها وبين أثينا عن خمسين ميلاً — تنافس إسبرطة وتبزاها . وعادت أثينا مرة ثانية إلى الطليعة بوصفها رئيسة لاتحاد عقده بين المدن . تلك قصة منافسات ليس لها من سبب معقول يبررها ، وكانت حرية أن يتناساها الناس منك أمد طويل ، لولا أن الإغريق دونوها وصوروها في أدب رفيع .

وتبدو فارس طوال هذا الزمان تم تختفى ثم تعود فتبدو من جديد حليفة لهذه العصبة أو لتلك . ثم يداخل بلاد الإغريق عند قرابة منتصف القرن الرابع ق . م شعور بوجود موثر جديد في شئونها ، وهو فيليب ملك مقدونيا . فلان مقدونيا تنهض بالفعل في خلفية^(١) بلاد الإغريق التي أعيا انقسامها من يداويه — نهضة الميديين والفرس من قبل خلف الإمبراطورية الكلدانية . ثم يأتي زمان يولى فيه العقل الإغريقي ظهوره لمنازعاته (إن حق لنا استعمال هذا التعبير) ، ويحذق ببصره شاخصاً إلى ذلك المقدوني وقد شمله منه فزع عام .

لا شك أن المنازعات الارتجالية الإجرامية تظل كذلك مهما قيل من أن ثوسيديدس^(٢) قام بقص القصة بحذافيرها على أسماعنا ، ولن يزيد لها إلا معاناً

(١) الخلفية (Back-ground) كلمة وضعها المجمع اللغوي لتدل على ما يظهر في مقبرة أية صورة . (المترجم)

(٢) ثوسيديدس سياسى وزعيم أثينى معارض لبريكليس ؛ أعظم مؤرخى الإغريق كافة ؛ ألف كتاب تاريخ حرب البيلوبونيز . وهو سفر يمتاز بالدقة والتمحيص ؛ كاتبه شاهد عيان مستقل محايد غير متحيز ؛ وجيز النسيج بارع السبك ؛ يتصف أسلوبه بالتدق والبساطة ، رائع الخطاب . ولد ٤٦٠ ق.م. تقريباً ، وأصبح قائداً بحرياً في حرب البيلوبونيز ونفى ٢٠ عاماً وعاد وقتل ٣٩٥ ق.م. (المترجم)

في الإجماع والارتجال - أنها انتهت إلى ما انتهت إليه من تحطيم بدايات عظيمة للحضارات جديدة بسبب ما تمخضت عنه من شامل القوضى . ولسنا بمستطيعين في هذه المعالم العامة أن نفسح المجال لتفاصيل هذه المنازعات الداخلية وهذه الحروب والهزائم التي كثيراً ما أطاحت إلى عنان السماء بواحدة من المسدّن الإغريقية أولاً ثم بأخرى ثانياً وهي تتأجج ناراً وتتسعر لهيباً . ولو تأملنا بلاد الإغريق لما وجدناها تعادل بالقياس إلى كرة أرضية مصغرة قطرها قدما^(١) إلا ذرة صغيرة لا تكاد العين تميزها لدقتها . كما أن كتاباً موجزاً في تاريخ الإنسانية لابد أن يخفت فيه ضجيج هذا القرن المليء بالانقسامات الذي يمتد بين أيام سالاميس وپلاتايا وبين ظهور الملك فيليب ، فيصبح وسوسة خفيضة لا تكاد تسمع لها نامة ، أو يُصبح مجرد هيمنة عابرة على صفحة الفرصة السانحة التي مرت سريعاً بالشعوب والرجال على السواء .

على أن الشيء الذي لا تتناقص أهميته لأنه امتزج بثقافة الأمم اللاحقة كلها ، ولأنه جزء من دعامتنا العقلية لا يمكن فصله عنها - ذلك الشيء هو الأدب الذي أنتجته بلاد الإغريق في أثناء فترات قصيرة من السلام ولحات بارقة من الهدوء والطمأنينة التي أتاحتها تلك الأيام .

يقول الأستاذ جلبرت موراي :

« الواقع أن تاريخهم السياسي الخارجي كتاريخ كل الشعوب الأخرى ملئ بالحروب والديبلوماسية وبالقساوة والخداع . وإنما العظيم حقاً هو التاريخ الداخلي ، تاريخ الفكر والشعور والخلق . كانت أمامهم بعض صعاب يناضلونها ، وهي صعاب لا تكاد اليوم تعرض لنا . ولم تكن لديهم في الواقع أية خبرة ولا مرانة ، بل كانوا يجربون كل شيء لأول مرة . وكانوا في غاية الضعف في مواردهم المادية ، وكان ما يعتلج في نفوسهم من عواطف ورغبات ومخاوف وغضبات أشد جموحاً فيما يرجح مما لدينا . ومع ذلك فإنهم أنتجوا أثينا وپريكليس وأفلاطون » .

(١) يشير الكاتب بهذا إلى الصورة التي تصورها للكون في الجزء الأول من المعالم ص ١٧ .

(المترجم)

إن هذه الذرة العجيبة التي تسنمها قوى العقل الإغريقي الخلاقة التي ظلت زماناً طويلاً تتجمع والتي ظلت عشرين وثلاثة من القرون نبزاً منيراً من الماضي لذوى الألباب من الرجال يرشدهم ويبث فيهم الإلهام ، قد ثارت حُمياها بعد معركة ماراتون وسالاميس ، وجعلت من أثينا بلداً حراً لا يخشى شيئاً ، وهيأت لها السيادة والسلطان في عالمها وإن لم يتح لها تفوقها العسكري والمادى ما يبرر تلك العظمة . كان ذلك عمل فئة قليلة جداً من الرجال تعد على الأصابع . فإن بضع نفر من مواطنيها قضوا معظم جيلهم في ظروف كانت ولا تزال في جميع العصور تبعث الرجال على أن ينتجوا من الأعمال كل ما هو جميل وخير . كانوا في أمانة وكانوا أحراراً ، وكانت بهم كبرياء . وما كانوا يعرفون ذلك الإغراء الذي يصاحب كل ذى سلطان ظاهر غير منازع ، والذي يحملنا جميعاً على إيقاع الأذى بإخواننا . ولما أن ضاق صدر الحياة السياسية مرة ثانية فهوت إلى دركات الفساد والضياع التي يقتل فيها الأخ أخاه — كما تجلى ذلك في الحرب مع إسبرطة — كان هناك لهيب متقد للنشاط الذهني بلغ من قوته واتساع رحابه وحسن تغذيته أن استمر على كل المحن العاصفة في تلك الحرب ، وأن جاوز حياة الإسكندر الأكبر الوجيزة الأمد ، فدام بذلك فترة من الزمان مجموعها الكلى يربى على مائة سنة منذ بداية الحروب .

وإذا كان أهل أثينا قد ملأهم النصر حمية ، وتشبعت نفوسهم بشعور الحرية التي ظفروا بها عن جدارة فلانهم لبثوا يرقون مراقى النبل والعزة ردهاً من الزمان . وعندما كانوا تحت قيادة الديماجوج^(١) العظيم بريكليس كبير موظفي الجمعية العمومية الأثينية ، وهو رجل دولة وسياسي خطير ، يكاد يقارب جلادستون أو لنكولن في التاريخ العصري — هفت أنفُسهم للقيام بواجب

(١) الديماجوج ومماها زعيم الأحرار وهي مشتقة من ديموس Demos بمعنى الشعب وأجوجوس Agogos بمعنى قائد ومرشد . وكانت في البداية تدل على الزعيم المسيطر على الجماهير ثم عرفت فيما بعد فقدت نعب عن زعيم القوضى والتبريج . (المترجم)

إعادة بناء مدينتهم وتوسيع تجارتهم . وانقضت فترة من الزمان تها لهم أثناءها أن يتبعوا في سماحة زعيما كريم النفس مساحاً . وحباهم القدر بذلك الزعيم في شخص پريكليس . وكان يجمع بشكل نادر المثال بين المقدرة السياسية والإحساسات الحية نحو كل ما هو عميق ورفيع رائع ، وظل قابضاً على ناصية الحكم ما يربى على الثلاثين عاماً . وقد أوتى قوة خارقة وحرية فكر تفوق ما ألفه الناس . فطبع زمانه بطابع تلك الصفات . وقد نوه وينكلر بأن « وجه پريكليس وطابعه » ظلاً حيناً من الدهر مطبوعين على الديمقراطية الأثينية . وكان پريكليس يعتمد على صداقة ربما كانت نبيلة سامية ، عقدت أواصرها بينه وبين اسبازيا . وهى امرأة من ميليتوس عالية الروح ممتازة التربية . وكان لا يستطيع الزواج منها بسبب القانون الذى يقصر حق المواطنة الأثينية على المولودين فى أرضها ، ولكنها كانت فى الواقع زوجة له . لعبت اسبازيا دوراً عظيماً فى أن تجمع من حوله رجالاً لهم مواهب غير عادية . فكان يعرفها كل عظماء الكتاب فى زمانها . وأثنى الكثير منهم على حكمتها . حقاً إن پلوتارك يتهمها بإضرار حرب خطيرة مروعة ضد ساموس وإن انتهت بالنصر ولكن الأمر كما بينه هو نفسه فيما بعد ، كان أمراً تحتمة العداوة البحرية التى أظهرها أهل ساموس والتى كانت تهدد تجارة أثينا فيما وراء البحار ، وكان يتوقف عليها كل رخاء الجمهورية ورفاهيتها .

وأطاع الرجال عرضة على الدوام أن تعكس صورة المعايير التى عليها قرناؤهم وخطاؤهم . فقد كان پريكليس قانعاً على كل حال . بأن يخدم أثينا زعيماً عن أن يتسلط عليها طاغية . وبارشاده وتديره عقدت المحالفات وتأسست مستعمرات جديدة ومحطات تجارية من إيطاليا إلى البحر الأسود . ونقلت كنوز الحلف من ديلوس إلى أثينا . ولما كان پريكليس واثقاً من منعته وعصمته من خطر فارس ، فإنه أنفق مدخرات الحلفاء لحرب فارس فى تجميل مدينته . ولم يكن هذا تصرفاً قوياً إذا قيس بمعايير عصرنا هذا . على أنه لم يكن تصرفاً

وضيعاً أو قائماً على الطمع ، فإن أثينا تحملت بمفردها ما كان على حلف ديلوس من أعباء ، أفليس العامل جديراً بنيل أجره ؟ فاستيلاؤه على هذا المال هياً له فرصاً استثنائية لاستخدام مهندسى العمارة والفنانين . وما كان البارثينون (Parthenon) الأثينى الذى ما تزال على خرائبه مسحة الروعة والجمال . إلا الإكليل الذى توج مجد أثينا التى أعاد بناءها بريكليس . وإن أمثال تلك النحات والتمائيل التى تركها فيدياس (Phidias) ومايرون (Myron) وبوليكليتوس (Polyclitus) والتى ما تزال موجودة ، لتشهد بعظمة الفن فى ذلك الزمن .

وعلى القارئ أن يتذكر تلك الملاحظة المشرقة التى أوضح بها وينكلر أن أثينا هذه المنبعثة بعثاً جديداً ظلت حيناً من الدهر تحمل طابع وجه بريكليس . فإن عبقرية هذا الرجل الفذة والحو الزاكى المحيط به هما اللذان أطلقا نبوغ من حوله من الرجال من عقاله ، واجتذب إلى أثينا رجالاً ذوى عقليات جبارة . وقد تثلثت أثينا بوجهه فترة من الزمان ، كما يرتدى المرء أحد الأقنعة ، ثم داخلها الضجر وأرادت التخلص منه . وما كانت نفس الأثينى العادى تنطوى على مثقال ذرة من العظمة والسماحة . ولقد عرضنا عليك من قبل نموذجاً لروح الآثينى الحر أثناء الاستفتاء فى نبي أريستيدس نفيماً سياسياً . ويصرح لويدي فى كتابه « عصر بريكليس » بأن الآثينيين لم يكونوا يطبقون سماع اسم ملتبادس مقروناً بمعركة ماراتون . وسرعان ما دفع الاعتزاز الشديد بالكرامة عامة الناحيين إلى الثورة على تلك المبادئ الأنيقة التى ترتفع أمام أنظارهم إلى عنان السماء ، وعلى ما كان يلقاه أمثال فيدياس من المثاليين من حظوة وتكريم يفوقان ما يناله نظراؤهم فى الصنعة المحبوبون من الشعب ، وعلى المنح التى كانت تعطى لأجنبي محض مثل هيرودوت الهاليكارناسى ، وعلى خدش بريكليس لكرامتهم بإيثاره لصحبة امرأة ميليطية وتفضيله حديثها . وكانت

حياة بريكليس العامة منظمة تنظيماً ملحوظاً أدى برجل الشارع أن يظن في حياته الخاصة الفساد الشديد والرشوة . على أن الدلائل كلها تنبئ أن بريكليس كان ممتازاً مترفعاً في سلوكه . وقد أظهر في بعض الأوقات احتقاره للمواطنين الذين كان يسهر على رعاية مصالحهم .

« ولم يوهب بريكليس فقط سموّاً في العاطفة ورفعة وتنزيهاً لأسلوبه يرفعه تماماً عن تعبير السوق الوضع ، بل كان كذلك وقوراً عبوساً لا يلين ، ولا يجنح إلى ضحك أو تبسم ، كما كانت نبرات صوته ثابتة متزنة ، وسلوكه هيناً سهلاً ، وكان ذوقه في الثياب سليماً فلم يؤثر عنه قط أنه تخلى عن حسن هندامه لحدة في الحديث ، فهذه الأشياء وغيرها مما يماثلها في طبيعتها ، قد استثارت إعجاب كل من رآه ، وعلى هذه الشاكلة كان خلقه وسلوكه عندما ظل أحد الأوغاد يلاحقه يوماً كاملاً بألوان التفرغ والسباب . فتحمل الأذى بالصمت والصبر ، واستمر يرسل الرسل أمام الملأ في بعض الشئون الماسة ، ثم سار في المساء إلى منزله في هدوء يتبعه ذلك التعس الوقح ، وهو يهينه أثناء الطريق بأقذع لغات السباب . ولما كان الظلام قد خيم عندما وصل إلى باب داره ، فإنه أمر أحد خدمه بأن يأخذ مشعلاً يضئ به للرجل الطريق حتى يعود إلى منزله . ومع ذلك يقول الشاعر أيون (Ion) ، إنه كان متكبراً ومترفعاً في حديثه ، ويخالط وقاره وعزة نفسه قدر عظيم من الغرور والاحتقار لمن سواه ، فكان لا يبدو في الشوارع إلا ساعة ذهابه إلى الفوروم (سوق المدينة^(١)) أو دار الشيوخ^(٢) . وكان يرفض دعوات أصدقائه ، ويمتنع عن

(١) الفوروم (Forum) هو سوق المدينة عند الرومان ، أما عند اليونان فيسمى ذلك السوق باسم الأجورا (Agora) . (المترجم)

(٢) هو مجلس المشورة (Bonlé) عند اليونان ويقابله تقريباً السناتو عند الرومان . (المترجم)

كل حفلات السمر والزهايات الاجتماعية إلى حد أنه إبان توليته السلطة — وهو أمد طويل — لم يذهب قط ليتعشى مع أى صديق من أصدقائه إلا مرة واحدة ، وذلك يوم زواج ابن أخيه يوريطلميوس (Euryptolemus) ولم يلبث هناك إلا ريثما انتهى طقس صب النبيذ المقدس ، وكان ممن يعتقدون أن حرية السمر تزيل كل جلاء الوظيفة ووقارها ، وأن الكرامة لا تستقيم مع رفع الكلفة » .

ولم يكن هناك حتى ذلك الحين أية صحافة وضيفة تظهر العالم على دنيا الخاصة المبرزين والعلبة الموفقين وخستهم . على أن الرجل العاى كان لما يدخله من الغرور والاعتداد بالنفس ، يجد قدراً كبيراً من السلوى فى فن الملهاة (الكوميديا) التى ازدهرت أيما ازدهار . وأشبع كتاب الكوميديا تلهف العامة الشديد الذى يكاد يشملهم جميعاً على الخط من قدر أولئك الذين تجرح عظمتهم الظاهرة حب الناس لأنفسهم . لذا لم يكفوا البتة عن رمى بريكليل وأصدقائه بكل نقیصة دنسة . وحدث ذات يوم أن صور أحد المثالين بريكليل وعلى رأسه خوذة ، فأصبحت إشارة إليه ورمزاً تهكمياً عليه ، ولعله ألم بطرف من تلك القصة . وأثارت قصة الخوذة مرحاً ومزاحاً لا نهاية له عندما اقترح بعضهم الاستعاضة عن الرأس ببصلة مشوهة تشويهاً خفيفاً . وكانت « حركات أسبازيا وسكناتها » بالطبع كرامة مثمرة تنهشها تحرصات رجل الشارع .

ولطالما تمت النفوس الحاملة حين تضيق ذرعاً بوضاعة زماننا هذا وانحطاطه لو نقلت إلى عصر بريكليل الرفيع . على أنهم لو قذفوا إلى أثينا المشتهاة تلك ، لوجدوا أنفسهم فى نفس الجو الوضع الذى تتمرغ فيه الحياة فى أدنى أنواع صالات الموسيقى العصرية ، والذى يتجلى فى الصحف الشعبية تجلياً كبيراً ، ولوجدوا أفحش لفحات السباب والقذف العلنى الصاحب للاذع ولهبت عليهم نفس التهم الدنسة والوطنية الشرهة والوضاعة العامة ، ولظلت

النغمة العصرية تتقن آثارهم . حتى إذا اضمخت ذكريات پلاتانا وسالاميس ، وألفت عيون الناظرين المباني الحديدية ، أخذ پريكليس وفخامة أثينا يثيران ثائرة الجمهور وتفككه الوضع شيئاً فشيئاً . أجل لم يحدث قط أنه نفي من أثينا نفيّاً سياسياً . لأن مكانته لدى المواطنين الأكثر اتزاناً وقته غائلة ذلك . بيد أنه لبث عرضة لهجمات تزايد على الأيام جرأة وإصراراً . وقد عاش ومات رجلاً فقيراً . ولعله أظهر وأنزه ديماجوج بين زعماء العامة . على أن هذا لم ينقله من تهمة اختلاس الأموال فقدم من أجلها إلى محاكمة شوهاء عقيمة . فلما فشل أعداؤه في ذلك لجأوا إلى وسيلة أكثر ضلالة والتواء ، فأخذوا يقصون عنه أصدقاءه .

والتعصب الديني والتهمة الأخلاقية إنما هي الأسلحة الطبيعية لمن أكل الحسد قلوبهم غيظاً . من زعماء الرجال . فنفى صديقه دامون نفيّاً سياسياً من المجتمع الأثيني . وهو جم فيدياس بتهمة عدم التقوى . فإن فيدياس اجترأ أن يضع على درع التمثال العظيم للربة أثينا صوراً له ولپريكليس أضافها إلى صورة تمثل المتحاربين في قتال بين الإغريق والأمازون . وكانت عاقبة ذلك أن مات فيدياس في السجن . وهذا أناكساجوراس ذلك الأجنبي الذي رحب پريكليس بمقدمه إلى أثينا — يوم كان فيها عدد وفير من نزهاء الرجال فأقام فيها وهو على أتم الاستعداد لإشباع كل ما يخالج محبي الاستطلاع من رغبات كريمة — كان يقول أعجب الأشياء عن الشمس والنجوم ويلمح تلميحاً لا خفاء فيه أنه لا وجود للآلهة ، وإنما توجد في العالم روح تبعث الحياة هي نوس^(١) . عند ذلك تبين كتاب الكوميديا على حين فجأة أن لهم مشاعر دينية عميقة ، يمكن أن تنزعج انزعاجاً شديداً ، بل تنزعج بشكل خطر !! ، ومن ثم فرأناكساجوراس مما كان يحاك من تدبير لمحاكمته . ثم جاء دور أسبازيا وتجلي في أثينا التصميم على طردها من المدينة . وكان پريكليس

(١) نوس (nous) ، هي كلمة يونانية معناها العقل أو المواهب . (المترجم)

موزعاً بين المرأة التي يهواها فؤاده وبين المدينة الناكرة للجميل والتي أنقذها ودافع عنها وجعلها أجمل شكلاً وأخلد ذكراً من أية مدينة أخرى في التاريخ . فوقف يدافع عن أسبازيا حتى غلبته عاصفة من العواطف الإنسانية الحقة . فانهلت الدموع من عينيه وهو يتكلم . وأنقذت عبراته أسبازيا إلى حين .

وقنع الأثينيون بما لحق بريكليس من إذلال . بيد أنه كان قد أسدى إليهم من الخدمات ما طال به الأمد حتى لم يعد في إمكانهم الاستغناء عنه .



إذ مضى عليه وهو في مقام
عامتهم ثلث قرن .

وفي (٤٣١ ق . م) نشبت
الحرب ضد إسبرطة . ويتهم
فلوتارك بريكليس بأنه عمل على
إشعالها ، إذ أنه شعر أن حب
الجمهور له قد ذوى بسرعة
فأشبت الحرب لئلا يمسك به
الناس . قال :

« ولما كان هو نفسه قد أصبح
لديهم بغضاً بسبب ما كان من
فيدياس وكان يخشى أن يستدعى
ليستجوب ، فإنه عجل بالحرب
وكانت حتى ذلك الوقت أمراً
غير محقق . فنفخ بذلك في اللهب
الساکن تحت الرماد ، وكان
يأمل أن يزيل عن نفسه بهذه
الوسيلة التهم التي كانت تهدده ،

وأن يخفف من ثورة الحاقدين عليه ، ذلك أنه بلغ من مهابته وسلطانه ، أنه كلما اعتري الجمهورية خطب عظيم ، أو تعرضت لخطر فادح كانت تودع كل ثقتها فيه دون سواه » .

على أن الحرب كانت حرباً بطيئة مخطرة حتى عيل صبر الشعب الأثيني . ونهض رجل طموح يدعى كليون (Cleon) يريد أن ينحى بريكليس عن زعامته . وقامت في المدينة ضجة تدعو إلى إنهاء الحرب عاجلاً . وبذل كليون جهداً لينسب إلى نفسه أنه صاحب الفضل في كسب الحرب . وأخذ الشعراء المحبون إلى الشعب يلعبون على هذه النغمة وينشدون :

« وأنت يا ملك الساتير^(١) ... لماذا تفأخر بشجاعتك ؟

ومع ذلك فأنت ترجف فرقاً لدى سماعك صليل السيوف المشحودة ، أعن غلّ ذلك منك على كليون المتوقد ؟ » .

وفشلت إحدى الحملات تحت قيادة بريكليس ، فانتهاز كليون الفرصة وطالب بمحاكمته وأوقف بريكليس عن مباشرة عمله في القيادة وحكم عليه بالغرامة . وتقول القصة بعد ذلك بأن أكبر أبنائه - ولم يكن هذا ابن أسبازيا ، بل من زوجة سابقة - تنكر له وأخذ يكيل له اتهامات دنيئة لا يصدقها العقل . ثم قضى الطاعون على هذا الفتى ، ثم ماتت شقيقة بريكليس ثم آخر أبنائه الشرعيين ، وبينما هو يضع - على عادة ذلك الزمان - أكاليل الخنازة على جثمان ذلك الغلام أعول بالبكاء وسرعان ما انتقلت العدوى إليه هو نفسه فمات (٤٢٩ ق.م.) .

والحقائق البارزة في هذه الخلاصة الوجيزة تساعدنا على تبيان مبلغ تنافر بريكليس وعدم انسجامه مع الشيء الكثير من حياة مدينته . على أن النهضة الذهنية والفنية التي غمرت أثينا كانت تساعدنا ولا شك الظروف السائدة

(١) الساتير (Satyr) : طبقة من الكائنات الالهة طازية (الميثولوجية) الإغريقية ، التي ترتبط بعبادة الإله ديونيسوس وتمثل هذه الطبقة قوى الطبيعة الحيوية الوافرة . وتبدو الساتير بشعر خشن وأنف مستدير وأذن مدببة كآذان الحيوان وقرنين صغيرين وذنب وراقين كساق الماعز . وهي تمثل دائماً وبجانب الكأس (إيماء إلى حبه للنبيذ والميلذات الحسية) أو راقصة رقصاً تهتكياً أو بمسكة بإحدى الآلات الموسيقية ، وكان الناس يخشون شرها . (المترجم)

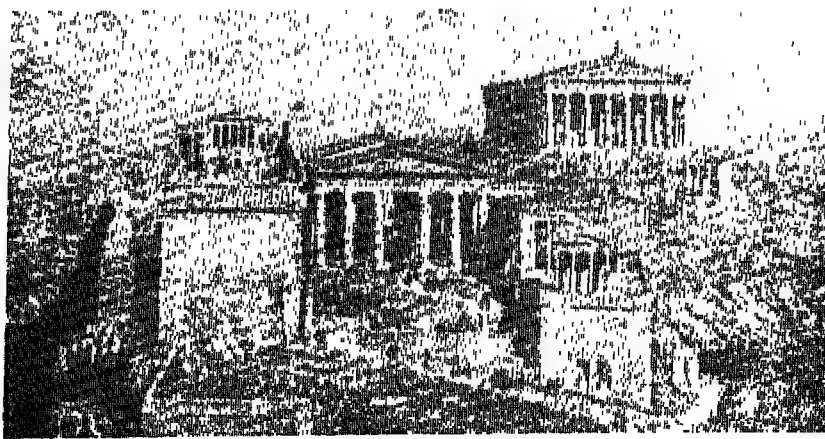
فى ذلك الزمان . وهى لم تكن حركة عامة ولكنها ترجع كذلك فى بعض نواحيها إلى ظهور بعض الشخصيات الفذة ممن أتاحت لهم فرص استثنائية وأوتوا مواهب فريدة .

٢ - سقراط

ومن الشخصيات القيادية الأخرى البارزة فى أثينا فى هذه النهضة الأثينية رجل اسمه سقراط ، وهو شخص أشد من بريكليلس عدم انسجام مع حياة عصره كما أنه يعدله فى كونه مصدرأً اشتهر بالأصالة والابتكار . وكان عاملاً منهاً له أثره فى عظمة عصره الخالدة . وهو ابن أحد البنائين . ولد بعد هيرودوت بنحو ستة عشر عاماً . وكان صيته آخذاً فى الازدياد قرب الوقت الذى مات فيه بريكليلس . وهو نفسه لم يكتب شيئاً . على أن عاداته جرت أن يتكلم فى الأماكن العامة . وكان يدور فى تلك الأيام بحث عظيم عن الحكمة وكان بالبلاد جمهور مخلط من المعلمين يسمى السفسطائيين ، كانوا يفكرون فى الصدق والجمال والحياة الصائبة . ويلقنون العلم عقول الشباب المستطلعة وأخيلتهم النامية . وكان هؤلاء يضطلعون بذلك العمل حيث لم تكن بالبلاد مدارس عظيمة الشأن يقوم عليها الكهنة . وإلى حلبة هذه المناقشات دخل هذا الرجل بسماحته وقبح منظره وثقاله وحفاء قدميه فالتف من حوله حلقة من المعجبين والتلاميذ .

وكانت طريقته طريقة التشكيك العميق . وكان يرى أن الفضيلة الوحيدة الممكنة إنما هى المعرفة الحقة . فهو لا يسمح بأى معتقد . ولا يجيز أى أمل لا يستطيع أن يصمد للامتحان النهائى المرير . وكان معنى ذلك فى نظره هو الفضيلة ، على أن ذلك كان معناه فى عين الكثيرين من أتباعه الضعاف النفوس ضياع المعتقدات والعادات الأخلاقية التى كانت تحدد نزعاتهم ودوافعهم الجاهمة . وقد أصبح هؤلاء الضعاف النفوس أنذالا يتلمسون لأخطائهم المعاذير وينغمسون فى الملذات . وكان من بين خلطائه الشبان أفلاطون ، الذى خلد بعد ذلك

طريقة أستاذه في سلسلة من المحاورات الفلسفية رأسس المدرسة الفلسفية « الأكاديمية » . التي استدامت تسعئة سنة . وكان أحدهم زينوفون قائد العشرة آلاف الذي دبح وصفاً لموته سقراط . ومن بينهم كذلك إيزوقراط (Isocrates) وهو من أحصف المفكرين السياسيين عند الإغريق وأرجحهم عقلاً . ولكن كان منهم كذلك كريتياس (Critias) الذي أصبح عند ما هزمت إسبرطة أثينا هزيمة نهائية - زعيماً على الطغاة الثلاثين الذين عينهم الإسبرطيون ليمرغوا المدينة المقهورة في حمأة الحضيض الأدنى من المذلة وليدمروا نظامها التعليمي . ومنهم خارميديس (Charmides) الذي قتل إلى جانب كريتياس عندما خلع الثلاثون وغلبوا على أمرهم . وألسيبيايس . وهو خائن عريق في الخيانة وقاد الذهن خبيث الطوية قام بدور كبير في دفع أثينا إلى القيام بالحملة على سيراكوزة . تلك الحملة الخاسرة التي انتهت بتحطيم قواها ، فخاها عند ذلك وانضم إلى الإسبرطيين . ثم اغتيل آخر الأمر وهو في طريقه إلى البلاط الفارسي حيث كان ينبغي أن يدبر الشر لبلاد الإغريق . ولم يكن هؤلاء النلاميذ الأخيرون هم الشبان الوحيدين الذين لاح عليهم من الدلائل ما يبشر بمستقبل حسن . والذين قضى سقراط على عقيدتهم السوقية ووطنيتهم



— ٣٩٠ —

وترك مكانها شاغراً في نفوسهم . وكان ألد خصومة أنيتوس وهو شخص أصبح ابنه وهو تلميذ مخلص لسقراط ، سكيراً مدمناً لا يرجى صلاحه ، فسعى أنيتوس جاهداً حتى قدم سقراط آخر الأمر إلى المحاكمة بتهمة إفساد شباب أثينا ، وقضى عليه بالإعدام بشرب جرعة سامة مستخرجة من نبات الشوكران (٣٩٩ ق.م.) .

وفي محاوراة أفلاطون المسماة باسم فيدون (Phaedo) وصف لوفاته بالغ درجة عالية من الروعة والجمال .

٣ — أفلاطون والأكاديمية

ولد أفلاطون في (٤٢٧ ق.م.) وعمر ثمانين عاماً . وكان يخالف سقراط تماماً من حيث المزاج الفكري . فقد كان كاتباً أشد الكتاب رقة وجمال ذوق ، على حين لم يكن سقراط ليستطيع أن يكتب شيئاً متصل الحلقات . وكان يعنى بالحميل من الأشياء على حين كان سقراط يزدرى الجمال . وكان يعنى عناية فائقة بتنظيم الشئون العامة ، ويتدبر الحطط لإقامة علاقات جديدة بين الناس تفضل ما في العالم ، على حين كان سقراط يركز ذهنه وهو ساكن النفس في إماعة حجب الخداع والأوهام عن العقول غير آبه بحر أو قر ولا برأى من يحيط به من الناس . كان سقراط يقول بأن الحياة خداع ، وأن الروح وحدها هي التي تعيش . وكان أفلاطون شديد التعلق بهذا المعلم الهرم الجاف الطبع . وقد وجد طريقته ذات قيمة قصوى في تنقية الآراء وتخليصها من التعقيد ، فجعله الشخص الذي تدور عليه محاوراته الخالدة . على أن أفكاره ونزعاته الخاصة نأت به كثيراً عن الاتجاهات المتشككة التي عليها سقراط . ومن ثم يكون الصوت والاسم لسقراط ولكن الفكر هو فكر أفلاطون .

كان أفلاطون يعيش في زمان شك وتساؤل يدوران حول كل ما بين الناس من علاقات . والظاهر أن الناس في أثينا في أيام بريكليس العظيمة قبل



٧٥ - أفلاطون

(٤٥٠ ق . م) كان يخامرهم شعور الرضا التام عن النظم الاجتماعية والسياسية ولم يكن يبدو أى سبب للتشكك حين ذلك . إذ كان الرجال يشعرون بأنهم أحرار . وكان المجتمع فى رخاء . وكان الحسد أهم ما يشكو منه الناس . ولا يكاد تاريخ هيرودوت ينم عن شىء من عدم الرضا عن النظم السياسية الأثينية .

ولكن أفلاطون الذى ولد قرابة الزمان الذى مات فيه هيرودوت ، والذى ترعرع فى جو عسير تكاثرت فيه المحن ما بين حرب طاحنة وملات اجتماعية شديدة وارتباكات عظيمة ، واجه منذ نعومة أظفاره ما بين الإنسانية من تنافر وما بين النظم الإنسانية من عدم تجانس . وكان أن استجاب عقله لذلك التحدى . ومن ثم نجد فى أول مؤلفاته وآخرها مناقشات جريئة نفاذة تستهدف إدخال التحسين على العلاقات الاجتماعية . وكان سقراط علمه ألا يقبل شيئاً مسلماً به ، حتى ولا العلاقات المشتركة : علاقات الزوج والزوجة والوالد والولد . وكتابه « الجمهورية » وهو أول الكتب التى تبحث فى اليوتوبيا^(١) إنما هو بحث فى المدينة التى يحلم بها خيال الشباب ، وفيها تنظم الحياة الإنسانية على أساس خطة جديدة تفضل ما سلفها . ومؤلفه الأخير الذى لم يتمه وعنوانه « القوانين » ، هو مناقشة تستهدف وضع قواعد يوتوبية أخرى شبيهة بتلك . وإن هناك لفتراً كبيراً من آراء أفلاطون لا نستطيع هنا أن نلقى إليه حتى مجرد نظرة عابرة ، غير أنه - لا جرم - يمثل ركناً من الأركان الأساسية فى تاريخنا هذا ، ذلك أن ظهور فكرة فى عادة تشكيل ظروف مجتمعنا البشرى وصياغتها صياغة كاملة تتجلى فيها الإرادة والقصد ، كان شيئاً جديداً فى تطور الإنسانية . فكان البشر حتى ذلك الحين يعيشون بالتقاليد

(١) اليوتوبيا (utopia) أو الطوبى : كتاب يدعو إلى المدينة المثالية الفاضلة . (المترجم)

المتوارثة في خشية من الآلهة . وها نحن الآن حيال رجل يقول للناس في جرأة ، وكأنما قوله هذا أمر طبيعي معقول : « تناولوا حياتكم بالبحث فإنكم تستطيعون أن تجتنبوا معظم تلك الأشياء التي تؤلمكم وإنكم لتستطيعون أن تلقوا عن كواهلكم نير معظم الأشياء التي تتسلط عليكم ، بل وإنكم لتستطيعون أن تفعلوا بها ما تشاءون » .

وهناك شيء آخر ربما كان له — بالإضافة إلى منازعات ذلك العصر — الفضل في استثارة عقل أفلاطون في ذلك الاتجاه . فإن أثينا كانت أسست في أيام بريكليس مستقرات كثيرة وراء البحار ، وكانت إقامة هذه المستقرات مما قرب إلى أذهان الناس كافة الفكرة القائلة بأنه لا حاجة بالاجتماع إلى النمو ، بل إن في الإمكان خلقه وصنعه بأيدينا .

وكان بين خلطاء أفلاطون المقربين في أحدث منه سناً . أدار فيما بعد مدرسة في أثينا ، وعاش عمراً يكاد يربى على عمره . هذا الفتي هو إيزوقراطيس (إيزوقراط) . وفي استطاعتنا أن نعد إيزوقراطيس هذا صحفياً وأن نعتبره كاتباً أكثر منه خطيباً . وقد اختص بمنصرة فكرة هيرودوت التي تنادى بتوحيد بلاد الإغريق ضد الإمبراطورية الفارسية واتخاذ ذلك علاجاً لما تفشى في شئونها السياسية من اتضاع وفوضى ، ولما منيت به من الخسارة من جراء الحروب الطاحنة . وكان أفقه السياسي أرحب من بعض النواحي من أفق أفلاطون . وكان يتطلع في سنيه الأخيرة إلى الملكية ، وعلى الأخص ملكية فيليب المقدوني ، بوصفها وسيلة للحكومة أكثر توحيداً للشعب أو أكثر انساعاً من ديمقراطيات المدن . وكذلك اتجهت نفس زينوفون صاحب كتاب « الصعود » إلى التفكير في الملكية . وكتب زينوفون وقد علت به السن قصة « الكيروبيديا Cyropeadia » وهو دفاع وتزكية نظرية وعملية تدعّمها البراهين للملكية المطلقة التي تتجلى في تنظيم الإمبراطورية الفارسية » .

(١) « الكيروبيديا » كتاب من تصنيف زينوفون كتبه على شكل قصة سياسية اعتمد فيها على تاريخ ملك الفرس قورش . (المترجم) .

٤ - أرسطاطاليس والليسيوم

كان أفلاطون يعلم الناس في الأكاديمية وقد وفد عليه وهو في سن عالية فنى وسيم الطلعة قدم من استاجيرا في مقدونيا ، هو أرسطاطاليس (أرسطو) ابن طبيب ملك مقدونيا ، وهو رجل له عقلية صيغت من معدن مختلف جداً عن عقلية ذلك الأثينى العظيم أفلاطون. وكان بطبعه ذا شكوك في الإرادة التخيلية . وكان يكن عظيم الاحترام والفهم للحقائق الثابتة . وقد أنشأ بعد وفاة أفلاطون مدرسة في الليسيوم^(١) بأثينا ، وأخذ يعلم الناس منتقداً أفلاطون وسقراط في شيء من العنف . وبينما هو يلقي تعاليمه كان شبح الإسكندر الأكبر يلقي ظلاله نحياً على حرية بلاد الإغريق . وكان يجذب وجود الرق ونظام الملوك الدستوريين . ذلك أنه اشتغل حيناً من الدهر قبل ذلك مربياً للإسكندر في بلاط فيليب المقدوني .

وكان الجزع قد استولى على النابهين من الرجال في تلك الأيام ، إذ أن إيمانهم بقدرة الناس على صوغ ظروفهم الخاصة في الحياة أخذ يتناقص ويفتر . فلم تعد تظهر بين ظهرانيهم أية يوتوبيا . وتبين لهم بجلاء أن اندفاع الحوادث وتتابعها كان من القوة بحيث لا تستطيع أن تصده تلك الجهود المنظمة التي كان في الوسع أن ينفعها حينذاك ذوو الذكاء الممتاز من الرجال . فقد كان من المستطاع التفكير في إعادة صوغ الجماعة البشرية حين كانت الجماعة البشرية مدينة صغيرة تضم بضع آلاف من المواطنين . على أن ما كان يحدث من حولهم من أحداث كان طوفاناً عظيماً لا سبيل إلى دفعه ، هدفه صوغ شئون العالم المعروف كله في قالب سياسى ومعها شئون جمهور من الناس لا بد أن عدده بلغ حتى في تلك الأيام جداً يتراوح بين الخمسين والمئة مليون . وكانت عملية إعادة الصوغ هذه على مقياس لم يكن أى عقل إنسانى مهتماً بعد لإدراكه . فكانت من ثم تدفع الفكر أدراجه إلى فكرة « القضاء والقدر » الهائل المخوم . وصار الناس يحاولون التشبث بكل ما يخالفونه عامل ترابط واستقرار . فقد كانت الملكية مثلاً رغم ما يشوبها من رذائل

(١) أو اللوقيون : كما وردت في الموسوعة العربية الميسرة . (الترجم)



٧٦ - أرسطاطاليس

ظاهرة - نظاماً للحكم في وسع الملايين قبوله عقلاً . وكثيراً ما وضعت من قبل موضع التنفيذ والاختبار إلى مدى معين . كانت تفرض إرادة حاکمة ، حيث تتجلى استحالة وجود الإرادة الحشدية (الجماعية) . فهذا التغير الذي لحق مزاج الناس الفكري عامة . كان يتسق مع احترام أرسطو الطبيعي للحقائق القائمة . فلئن جعله من ناحية يستصوب الملكية والرق وإخضاع النساء بوصفها كلها نظماً معقولة . فإنه جعله من الناحية الأخرى توافاً إلى فهم الحقيقة

والحصول على طرف من المعرفة المنظمة عن هذه الحقائق ، حقائق الطبيعة والقطرة البشرية التي كانت آنذاك في حالة انتصار بين على ما ساور الخيل من أحلام خلاقه .

وأرسطو سليم العقل ناصع الذهن واضح إلى حد رهيب . وتعوزه الحماسة المضحية بالنفس إعوازاً رهيباً . فهو يناقش أفلاطون منكرأ عليه دأبه على استبعاد الشعراء من مدينته الفاضلة اليوتوبيا ، ذلك أن الشعر قوة . وهو يوجه كل قوته في اتجاه يضاد على خط مستقيم تحقير سقراط لشخص أناكساغوراس . وكأني به توقعاً يمهّد السبيل لبأكون (Bicon) والحركة العلمية العصرية ويبشر بهما في إدراكه لأهمية المعرفة المنظمة . ذلك أنه نصب نفسه للقيام بواجب جمع المعرفة وتدوينها ، فكان أول عالم بالتاريخ الطبيعي . أجل إن رجالاً آخرين من قبله طالما أمعنوا النظر في طبيعة الأشياء . على أنه هو وكل شاب استطاع ضمه إليه أخذوا أنفسهم بتصنيف الأشياء ومقارنتها .

أجل إن أفلاطون يقول « فلنتناول الحياة ولنصنعها في قالب جديد ». أما خليفته هذا الأثبت جنائاً فيقول « علينا قبل كل شيء أن نزيد في معرفتنا بالحياة وعلينا في الوقت نفسه أن نخدم الملك وننتفع به ». ولم يكن في ذلك القول مناقضة منه لأستاذه قدر ما كان تحديداً شديداً لآرائه .

تمكن أرسطو بفضل العلاقة الخاصة بينه وبين الإسكندر الأكبر من الحصول على موارد مالية لعمله لم تنهياً بعد ذلك لباحث علمي مدى عصور طويلة . إذ كان تحت تصرفه مئآت من التالينات الذهبية (والتالنت يقارب في القيمة ٢٤٠ جنيهاً) - يستطيع أن ينفقها في أغراضه الخاصة . وجاء زمان كان تحت تصرفه ألف رجل متناثرين في أرجاء آسيا وبلاد الإغريق يجمعون المواد لتاريخه الطبيعي . وبدى أنهم كانوا مشاهدين تعوزهم الدربة تماماً ، بل كانوا جامعي أقاصيص أكثر منهم مشاهدين ، ولكن أحداً لم يحاول قبله على مدى الدهر شيئاً من هذا القبيل ، بل لم يفكر فيه قبل زمانه أحد قط ، على قدر ما وصل إليه علمنا . وابتدأ علم السياسة كما ابتدأ علم التاريخ الطبيعي . فان طلاب الليسيوم قاموا تحت إشرافه بتحليل مئة وثمانية وخمسين دستوراً سياسياً .

وكان هذا أول بارقة للبحث العلمي المنظم في العالم . ولكن تلك الهبات ذات النطاق الضخم قضت عليها لمدة ألفين من السنين وفاة الإسكندر المبكرة وتقسيم إمبراطوريته وهي بعد في المهد . ولم يتواصل البحث العلمي إلا في مصر بمتحف الإسكندرية^(١) ، ولم يستمر هذا إلا بضعة أجيال قليلة وسنحدثك عن ذلك من فورنا . ولم تمض على وفاة أرسطو خمسون سنة حتى تضاءلت الليسيوم وأصبحت غير ذات شأن .

٥ - الفلسفة تصبح غير دنيوية

لم يكن الاتجاه العام للحركة الفكرية في السنين التي ختم بها القرن الرابع ق . م يسار أرسطو ، ولا كان يهدف إلى التجميع الضروري المتواصل

(١) ذلك المتحف الأكاديمية المشهورة . (المترجم)

للمعرفة المنظمة . وربما لم يتهيأ لأرسطو أن يكون لنفسه غير شخصية ضئيلة في التاريخ الفكرى لولا تلك الهبات التى كان يتلقاها من الملك . فإنه استطاع بفضلها أن يبرز ذكائه الباهر فى صورة مادية ويجعل له أثراً محسوساً . فالرجل العادى يفضل الطرق السهلة ما دام فى استطاعته سلوكها ، وهو لا يكاد يأبه متعمداً بما تنتهى به تلك الطرق آخر الأمر حتى ولو أدت به إلى طريق مغلق . ولما أن وجد عامة معلمى الفلسفة أن تيار الحوادث أقوى من أن يستطيعوا ضبطه على الفور ، انصرفوا فى تلك الأيام عن إعداد خطط المدن النموذجية وتخطيط المناهج الجديدة للحياة ، وتحولوا إلى إتقان أساليب التهريب الجميلة التى تبعث العزاء والسلوى إلى النفوس .

وربما كان فى هذا القول ضرب من وضع الأشياء فى صورة خشنة فيها شيء من التجنى . والأولى أن نترك المجال للأستاذ جليبرت موراى ليحدثنا عن هذا الموضوع .

« لم يكن الكليبيون يعنون إلا بالفضيلة وعلاقة الروح بالرب . وكان العالم وعلومه ، ومراتب الشرف فيه فى نظرهم خبيثاً . وكان الرواقيون والأبيقوريون ، وإن تباعدت الشقة بينهما لأول نظرة ، متشابهين جد التشابه فى غايتهم القصوى ، وكان ما يعنيان به حقاً هو علم الأخلاق . وكان سوءهما العملى : كيف يجب أن ينظم الإنسان حياته ؟ وكلاهما ، لا جرم ، قد انصرف إلى بعض العلوم — فأتجه الأبيقوريون إلى الفوزيقى أو علم الطبيعة ، واتجه الرواقيون إلى المنطق وعلم البيان والبلاغة — ولكن بوصفها وسيلة توصل إلى غاية . وحاول الرواقيون أن يفوزوا بقلوب الناس واقتناعهم بمحض اللباقة فى الجدل المجرد والتسامى البراق المتألق بالفكرة والعبارة . ووطد الأبيقوريون العزم على أن يتركوا الإنسانية تشق طريقها دون الزلقى لآلهة متقلبة الأهواء ودون التضحية بالإرادة الحرة . ويلخص أبيقور إنجيله فى مبادئ أربعة : « لا يجوز الخوف من الله . لا يمكن الشعور بالموت . يمكن الفوز بالخير . يمكن احتمال كل ما نخشاه والتغلب عليه » .

وفى نفس الوقت كان تيار الحوادث ينساب فى مجراه مبادلا الفلسفة عدم اهتمام بعدم اهتمام .

٦ - نوع الفكر الإغريقى وتحديداته

إذا أريد للدراسات الإغريقية القديمة أن تقرأ فى العصر الحديث قراءة مجدية ، وجب أن تقرأ بوصفها من تصنيف رجال يماثلوننا . وينبغى لنا أن نضع موضع الاعتبار تقاليدهم والفرص التى هيئت لهم والقيود التى حدثت من جهودهم . ذلك أن الفطرة الإنسانية تنزع دوماً إلى المبالغة فى كل شعور بالإعجاب . ومعظم النصوص القديمة لدينا مهترأة مشوهة إلى حد كبير ، وكلها فى الأصل من عمل مخلوقات إنسانية اكتشفتها المصاعب وكانت تعيش فى زمان يحوطها فيه من ظلمات الأفق وضيق حدوده ما يجعل زماننا بالقياس إليه زماناً وضاء يكاد سنا ضيائه يخطف الأبصار . فكل ما سنفقد من احترامنا لهم فيما سنشهد وشيكا من معالجة خالية من الكلفة ، سنعوضه بالعطف على تلك المجموعة من العقول المضطربة القلقة العصرية الروح . ذلك أن الكتاب الأثينيين كانوا — لا جرم — أول الرجال العصريين . فكانوا يتناقشون فى مسائل يزال تتناقش فيها ، وهم الذين شرعوا يجاهدون فى معالجة المشاكل الكبرى التى تواجهنا اليوم ، وما كتاباتهم إلا مطلع فجر نهارنا .

ويجيد يونج (Jung) فى كتابه « علم نفس اللاشعور Psychology of the Unconscious » خير إجابة ، حين يتكلم عن الفروق بين الفكر القديم (قبل الأثينى) والفكر الحديث . وهو يسمى الأول باسم « التفكير غير الموجه » ويسمى الثانى باسم « التفكير الموجه » وكان الأول تفكيراً بالأخيلة شبيهاً بالأحلام ، بينما الآخر تفكير بالكلمات . وما العلم إلا تنظيم للتفكير الموجه . فأما الروح العتيقة (أعنى قبل المفكرين الإغريق) فقد خلقت الأساطير والرطازات (الميثولوجيا) لا العلم . وكان عالم الإنسان القديم عالم خيالات ذاتية (subjective) يشبه عالم الأطفال والشبان غير المتعلمين فى أيامنا

هذه ، كما يشبه عالم المتوحشين ودنيا الأحلام . وأفكار الطفولة وأحلامها إنما هى ترديد لصدى طرق التفكير عند المتوحشين فى عصر ما قبل التاريخ . ثم يقول يونج : « إن الرطازات هى كتلة الأحلام المتجمعة عند الشعوب ، وإن الأحلام هى رطازات الأفراد . ولقد وجهنا نظر القارئ من قبل إلى التشابه بين آلهة الحضارة الأولى وبين أوهام الأطفال وخيالاتهم الغريبة . وغنى عن البيان أن التفكير الشديد المنظم بواسطة الكلمات والجمل المخلة تحليل عناية ، ذلك التفكير الذى بدأه المفكرون الإغريق ، واستأنف العمل فيه الفلاسفة الذين اشتغلوا بالدرس والتحصيل فى القرون الوسطى — كان تمهيداً ضرورياً لتطور العلم الحديث » .

بدأ الفلاسفة الإغريق البحث بيد أنهم لم يصلوا إلى أية حلول . ولسنا بمستطيعين أن ندعى اليوم أننا وصلنا إلى حلول لمعظم المسائل التى أثاروها . فإن عقل العبرانيين كما أوضحنا آنفاً ، تنبه فجأة إلى التعاسات والاضطرابات اللانهائية التى تنغمس فيها الحياة ، ورأى أن تلك التعاسات والاضطرابات كانت فى معظم أمرها نتيجة للأعمال غير المشروعة التى يأتيتها البشر ، فاستنتجوا أن الخلاص لا يمكن أن يجيء عن غير طريق إخضاعنا أنفسنا لخدمة الرب الأحد الذى يحكم السموات والأرض . فأما الإغريق فإنه وقد ارتفع إلى نفس المستوى الفكرى ووصل إلى نفس ذلك الإدراك — لم يكن مزوداً بنفس فكرة الألوهية الأبوية ، لأنه كان يعيش فى عالم لم يكن فيه إله واحد بل كان فيه آلهة . فإن حدث أن أحس أن الآلهة أنفسهم كانوا محدودين ، فإنه فكر عند ذلك فى القضاء والقدر يقف من ورائهم جامداً لا يميز بين شخص وآخر . ومن ثم فإنه وضع مشكلته فى صورة بحث عن ماهية العيش الصائب ، دون أى ارتباط محدود بين الرجل الذى يعيش عيشة صائبة وبين إرادة الإله .

وعندى وأنا أنظر إلى الأمر من زاوية تاريخية بحثة ، أن فى الإمكان عرض هذه المشكلة العامة على صورة مزدوجة — خدمة للأغراض التاريخية —

تكون شاملة للطريقتين اللتين صاغها فيهما كل من العبرانيين والإغريق على السواء . فلقد رأينا جنسنا البشرى ينهض من حالة عدم الوعي التى عليها الحيوانات إلى حالة مستمرة من شعور بشرى بالإحساس بالذات ، ويدرك التعاسة التى تعود على البشرية بسبب تعدد أغراضها الأھوج ، ويعرف ما لابد من حدوثه من مأساة انصراف الفرد إلى الجرى وراء نفسه ومصالحه ، وهو يتحسس طريقه فى عماية نحو فكرة ما يرتبط بها الناس ولها يخضعون : فكرة يأمل أن تنقذه من الآلام والحوادث المترتبة على الفردية المحضة . فمن هذه الأفكار التى ادعت لنفسها الحق فى ولاء الناس لها وظفرت به إلى حين فكرة الآلهة والملك الرب وفكرة القبيلة وفكرة دولة المدينة ، وهى أفكار فقدوا من جرائها أنانيتهم الفردية شيئاً ما ، ولكنهم أفلتوا بفضلها وفروا إلى إدراك حياة أكثر استدامة واستقراراً . ومع ذلك فكما تشهد حروبنا وكوارثنا بأجلى بيان ، ما من واحدة من تلك الأفكار العظيمة بلغت حتى اليوم حد العظم الذى يكفل للناس الوقاية . فان الآلهة فشلت فى حمايتها لهم ، وأثبتت القبيلة على نفسها الدناءة والقساوة ، ونفت دولة المدينة خير أبنائها وأخلص أصدقائها نفياً سياسياً ، وجعل الملك الرب من نفسه وحشاً .

ونحن إذ نقرأ الأدب^(١) التأملى (أعنى الفلسفة) فى هذا العصر العظيم للإغريق ، نلمس ثلاثة حواجز أقيمت من حول العقل الإغريقى ، ولم يكد ينجو منها إلا فى النادر ، وإن كنا الآن فيما يحتمل موشكين على الخلاص منها . فأول هذه القيود هو تشبع العقل الإغريقى بفكرة أن المدينة هى الغاية القصوى للدولة . ففى عالم تعاقبت فيه إمبراطورية إثر إمبراطورية ، وكانت الواحدة منها أعظم من سابقتها ، وفى عالم كان الناس والفكرات يزدادون تحوراً وتفككاً عرى وحرية سراح يوماً بعد يوم ، وفى عالم نزعة التوحيد فيه ظاهرة للعيان حتى فى ذلك الزمان السحيق ، كان الإغريق بسبب ما يكتشفهم من

(١) لفظة الأدب هنا مستعملة بمعناها العام الذى يعبر عما ظهر فى اللغة من مؤلفات بوجه

عام . (المترجم)

ظروف جغرافية وسياسية خاصة لا يزالون يحملون بذلك الحلم المستحيل الذى يأمل فى وجود « دولة مدينة » متماسكة لا تتطرق إليها المؤثرات الخارجية ، وهى آمنة فى شجاعة من العالم أجمع . وتقدير أفلاطون لعدد المواطنين الأحرار فى الدولة المثلى قد تراوح بين ألف فى كتابه « الجمهورية » وبين ٥٠٤٠ فى كتاب « القوانين » . ويقول أرسطو فى كتابه « السياسة » : « إنه من أجل إقامة العدل إقامة صحيحة ومن أجل توزيع السلطة ، يجب أن يتعرف كل مواطن أخلاق أخيه ، بحيث أنه إذا تعذر تنفيذ هذا فى مكان ما ، نجم عنه الشيء الكثير من الضرر والشر فى ناحيتى مباشرة السلطات وتوزيع العدالة . فليس من العدل أن نفصل فى الأمور بطريقة تعسفية . وهو الوضع الذى لا مفر منه فى حالة وجود العدد الوفير من السكان » . فهذا النوع من الدولة المحصورة النطاق التى فصلنا معالمها على هذه الشاكلة كان عليها أن تخوض الحرب وأن تحافظ على كيائها من غائلة المدائن الأخرى التى فى مثل حجمها . وكان هذا كله ولما يمض غير جيلين اثنين على اجتياز جموع لإجزر سيس معبرة الهلسبوننت .

وكانى هؤلاء الإغريق وقد زعموا أن أيام الإمبراطوريات العالمية ولت إلى الأبد . على حين لم تكن تلك الإمبراطوريات بعد إلا فى مرحلة الابتداء وأقصى ما وصلت إليه أذهانهم هو المحالفات والأحلاف . ولا مرأ أن بلاط لإجزر سيس كان به رجال يتجاوز تفكيرهم إلى أبعد حد دائرة هذه الأفكار الصغيرة المحصورة فى نطاق الحور الصخرى أو الجزيرة المنعزلة أو الوادى المحوط بالجبال . على أن الحاجة إلى الاتحاد ضد القوى العظمى التى كانت تتحرك خارج نطاق العالم الناطق بالإغريقية ، قد تجاهلها العقل الإغريق عمداً . فإن هؤلاء الأجانب كانوا فى نظرهم برابرة وهمجاً ، لا يجوز التفكير فيهم تفكيراً ليس إليه ضرورة . وها قد حال الآن بينهم وبين بلاد الإغريق حاجز أبدى لا يزول . فكان الواحد منهم يقبل النقود الفارسية ، بل كان الجميع يقبلون تناول تلك النقود الفارسية . فأى ضمير فى ذلك ؟ أو

ينضوى ربحاً من الزمان تحت لواء جيوشهم (كما فعل زينوفون) مؤملاً أن يسعده الحظ باصطياد أسير غنى . وتدخلت أثينا في الشئون المصرية فناصرت مصر ، وأشبّهت نار حروب قليلة الأهمية ضد فارس . ولكن لم تكن هناك فكرة تدعو إلى سياسة موحدة ، أو تهدف إلى مستقبل مشترك لبلاد الإغريق

حتى أخذ صوت يصيح في أثينا آخر الأمر قائلاً : « مقدونيا ! » وأن يُجلب إجلاب الكلاب صائحاً : « مقدونيا ! » . وكان هذا صوت الخطيب والديماجوج ديموستينيس . وهو يقذف بالتحذيرات والتهديدات ، وينهال بالتهم على فيليب ملك مقدونيا الذي تعلم سياسته لا من أفلاطون وأرسطو فحسب ، بل من إيزوقراط وزينوفون كذلك ، ومن بابل وسوسا ، والذي كان يعد أهبته في هدوء ومقدرة وثبات للسيطرة على كل بلاد الإغريق ، وليستطيع بواسطة الإغريق أن يغزو العالم المعروف .

وثمة أمر آخر شل العقل الإغريقي وهو نظام الرق المنزلى ، إذ كان الاسترقاق أمراً مسلماً به متغلغلاً في الحياة الإغريقية .

فلم يكن الناس يستطيعون أن يتصوروا الراحة أو الكرامة والمهابة من غير وجود الرقيق . على أن الرق يحول دون عطف الإنسان ، لا عن طبقة من إخوانه في الوطن فحسب ، بل يضع مالك الرقيق في طبقة وهيئة مضادة لكل غريب ، وذلك لشعور الفرد بأنه من قبيلة مختارة . ولو أن أفلاطون استجاب لما يدفعه إليه ذهنه الصافي وسلامة روحه النبيلة من تجاوز أوضاع حاضره ، لألقى الرق . وكان الشيء الكثير من شعور الرأى العام وألوان الكوميديا الحديدية معادياً للرق . وكان الرواقيون والأبيقوريون ، وجلهم من العبدان يتهمون الرق بأنه نظام غير طبيعي . على أنهم لما أن وجدوه من القوة بحيث لا يستطيعون القضاء عليه ، قالوا إنه لا يؤثر في الروح وأن في الإمكان تجاهله وأن العاقل لا يفرق بين من هو مقيد ومن هو حر . فأما أرسطو الواقعي ومعظم

الرجال العاملين فيما يرجح ، فكانوا يرون أن إلغائه أمر لا يمكن تصوره .
ولذا صرحوا بأن من الناس من هو « عبد بالفطرة » .

وأخيراً كان يعوق الفكر الإغريقي افتقاره إلى المعرفة افتقاراً لا نكاد نتصوره اليوم . إذ لم يكن لدى الإغريق أية معرفة البتة بماضى البشرية .
وهم قوم كان كل ما لديهم في أحسن الأحوال بضع تخمينات تم عن فكر صائب . ولم تكن معرفتهم بالجغرافيا تتعدى دائرة حوض البحر المتوسط وحدود فارس . ونحن ندرى اليوم ما كان يجرى في سوسا وپرسبوليس وبابل ومفيس أيام پريكليس أكثر بكثير مما كان يعرفه الإغريق نفسه . وكانت آراؤهم الفلكية ما تزال في حالة تأملات وتخمينات بدائية . ولقد كان أناكساجوراس عظيم الجرأة حين زعم أن الشمس والقمر كرتان هائلتان ، يبلغ من ضخامتهما أن الشمس كانت فيما يرجح « قدر الپيلوپونيز^(١) بأجمعها حجماً » . وكانت آراؤهم في الفوزيقى والكيمياء نتيجة للتأمل العميق . ومن عجب أنه كانت لهم بالفعل تخمينات عن التركيب الذرى .

ولا بد للإنسان أن يتذكر إعوازم الشديد في الأجهزة التجريبية . وقد لونوا الزجاج للزينة ، ولكنه ليس بالزجاج الصافى . وليس لديهم وسيلة دقيقة لقياس فترات الزمن الصغرى ، ولا أى ترقيم عددى يتسم بالكفاية الحقة ، ولا أى مقاييس شديدة الضبط ، ولا أى مبادئ أولية للتلسكوب أو الميكروسكوب . فلو دفع عالم عصرى إلى أثينا في زمن پريكليس لوجد أقصى الصعوبة في شرح عناصر علمه مهما عمدا إلى التبسيط للرجال الذين كان يلتقى بهم هناك ، فعندئذ يضطره الحال إذن أن يعد أبسط الأجهزة في ظروف غير ملائمة تماماً . على حين يتصدى سقراط لتبيان مبلغ سخافة البحث عن « الحقيقة » بقطع من الخشب والخيط والمعدن أمثال تلك التى يستعملها

(١) الپيلوپونيز : هى شبه الجزيرة اليونانية المكونة من عدة أشباه جزائر تتخللها الخلجان والمساءة في التاريخ الحديث باسم شبه جزيرة المورة ، وتنسب إليها تلك الحرب الطاحنة التى نشبت ٤٣١ - ٤٠٤ ق.م. بين إسپرطة وأثينا . (المترجم)

الصغار فى صيد السمك . والفيلسوف يترفع عن الصانع ترفعاً أبعد يده من أن تصل إلى أى جهاز . وما كان أى سيد لإغريقى ليقبل أن يدق فى الزجاج أو المعدن . ولم يكن بد لأستاذ العلوم العصرى المذكور من التعرض للمحاكمة بتهمة الزندقة والإلحاد . فلم تكن ديمقراطية أثينا لتسامح مع « دارون » إلا بالقدر الضئيل الذى تسامحت به معه ديمقراطية مقاطعة تنسى (Tennessee) (بالولايات المتحدة) .

وينتهل عالمنا اليوم من أكّداس هائلة نسبياً من المعرفة بالحقائق . فأما فى أيام بريكلّيس فإن الحجر الأول من صرحنا العلمى الهائل نسبياً — ذلك الصرح المشيد من مواد مدونة ومثبتة بالبرهان — لم يكّد يوضع فى مكانه بعد . فلماذا تأملنا هذا الفارق ، لم يعد عجباً لدينا أن الإغريق مع كل ميلهم للتأمل السياسى كانوا صمّاً وعمياناً عن تقلقل مدنيّتهم وعدم أمتّتها من الخارج والداخل ، وعن ضرورة الاتحاد بطريقة فعالة وعن اندفاع الحوادث السريع الذى كان مقدراً له أن يأتى على هذه الحريات الأولى التى نعم بها العقل الإنسانى فترة قصيرة الأمد ويحرمه منها عصوراً طويلة .

ولست قيمة هذه الجماعة من متحدثى الإغريق وكتّابهم فى النتائج التى حصلوا عليها ، ولكن فى المحاولات التى قاموا بها . وليس فضلهم فى أنهم أجابوا عن الأسئلة ، بل فى أنهم اجترأوا على توجيهها . إذ لم يحدث قط من قبل ، أن تحدى الإنسان عالمه وأسلوب معيشته التى أوجده فيها مولده . ولم يحدث من قبل أنه قال إنه يستطيع أن يغير الظروف المحيطة به ، لأن التقاليد والضرورة كما تبدو له — ربطته بالحياة كما وجدها مشددة العود متمركزة فى قبيلته منذ أزمان سميقة القدم . ولقد كان حتى ذلك الحين يتقبل العالم ، كما لا يزال الأطفال يتقبلون المنازل والعادات التى يُنشأون عليها .

هكذا تبين لنا بغاية الوضوح إبان القرنين الخامس والرابع ق . م بأرض اليهودية (Judea) وأثينا — وإن لم يقتصر الأمر على هذين المركزين بأى

حال - بدايات لعملية خلقية وفكرية عند الجنس البشرى قوامها مناشدة الناس البر والصلاح ، ومناشدتهم الصدق والحق ، والإقلاع عن الشهوات والارتباكات وعن المظاهر المباشرة للوجود . وكأنى بذلك عملية بزوغ فجر الشعور بالمسئولية فى صدر أحد الشبان حين يكتشف فجأة أن الحياة لا هى باليسيرة ولا هى بالخالية من الهدف . فالجنس البشرى فى تقدم مستمر ، وظلت خيوط بقية التاريخ على مر عشرين وثلاثة من القرون تنتسج سدى ولحمة بانتشار تلك الفكرات الأساسية المسيطرة ووضعها فى القالب الأوضح بياناً والأشد تأثيراً . أخذ الناس على مهل يفهمون شيئاً فشيئاً حقيقة الأخوة الإنسانية ، وأن لا داعى للحرب والقساوت والتعسف ، ويفهمون ما يكمن وراء الهدف المشترك من إمكانيات بالنسبة لكل جنسنا البشرى . وإنك لتشهد فى كل جيل جاء بعد ذلك ما يدل على وجود رجال ينددون ذلك النظام الأفضل الذى يشعرون أنه لا بد لعالمنا من الوصول إليه

على أنك لو تأملت الناس فى كل مكان وحيثما تملكت الأفكار البناءة العظيمة زمام أى إنسان ، لشهدت المطاعم الحادة والحسد والريبة والشبهات والخزع التى تنضح بها طبيعة كل فرد منا - فى نضال وكفاح ضد ما يجيش فى صدورنا من السعى إلى تحقيق غايات وأهداف أكبر وأوسع مدى . وكأن القرون الثلاثة والعشرين الأخيرة من التاريخ مجهود فرد غلغل متعجل يروم استباق الحوادث ، ويريد أن يفكر تفكيراً صافياً ويعيش عيشاً صالحاً . ويعقب الزلل الزلل ، وتنتهى البدايات المبشرة بالخير بخيبات أمل شوهاء تدعو إلى السخرية ، بينما ينابيع ماء الحياة يسممها الكوب الذى يحملها إلى شفاه الجنس البشرى المتلهفة عطشاً . بيد أن أمل الرجال لا يلبث أن ينتعش ثانية آخر الأمر لإثر كل كارثة ملمة ...

٧ - أول أدب خائل عظيم

سبق أن أشرنا فى هذه « المعالم » إلى أن تطور الأدب كان لا بد له من

انتظار تطور طريقة للكتابة تبلغ من المرونة حداً يؤهلها لنقل اتجاهات التعبير ومراميها وجمال الأصوات . وما كان الأدب المكتوب ليستطيع قبل هذا الزمان أن ينقل غير المعاني . فإن الشعوب الآرية الأولى ، كان لها كما أسلفنا ، أدب شعري موزون محفوظ في الصدور قبل أن عرفت الكتابة . فكانت لهم أغنيات المنشدين والشعراء المتجولين وأقاصيصهم وتواريخهم ونواميسهم الأخلاقية تحفظها طبقة اجتماعية خاصة ، هي الشعراء . ولم تصبح هذه المقتنيات المتواترة ثابتة حتى دوت في أثبات^(١) . ويبدو أن الملحميتين الإغريقيتين الرئيسيتين وهما « الإلياذة والأوديسيا » دونتا في ثبوت مكتوب حوالى سنة ٧٠٠ ق . م ، وكلتاهما مكتوبة باللغة الإغريقية ذات اللهجة الأيونية . ويقال إن « بيزستراتوس » هو الذى بدأ في جمع القصائد الهوميرية ، وكان لهذه الملحمة روايات متنوعة كثيرة . ولم يستقر النص الموجود الآن إلا في القرن الثاني ق . م ، وهناك ملاحم أخرى لا تخرج عن ذبول وإطنابات « للإلياذة والأوديسيا » . هذا إلى قصص مغامرات منفصلة كادت اليوم أن تبيد تماماً .

وكان الإغريق عامة مجمعين على أن « الإلياذة والأوديسيا » من عمل شاعر واحد هو « هوميروس » . وهو رجل تقول الروايات إنه ولد في سبع مدن مختلفة ، وفي تواريخ متباينة تراوح بين ١١٠٠ ، ٨٠٠ ق . م ولا يجمع التواتر إلا على حقيقة واحدة فقط ، هي أنه كان ضريباً . وكانت هاتان الملحمتان تنزلان من قلوب الإغريق منزلة الحب والاحترام إلى حد أنه لم يحدث حتى القرن الثاني ق . م ، أن واحداً من الإغريق لاحظ الحقيقة الظاهرة ، حتى في الترجمات نفسها ، وهي أن هذين المؤلفين العظيمين مختلفان تماماً في الروح والأسلوب والنوع ، اختلاف صوت البوق عن صوت الناي . ولكن كما كان من المقبول لديهم عقلاً أن يولد هوميروس في أمكنة متعددة على مثل هذا الحال المتباعد ويمثل هذا المدى الزمني المديد ، لم يكن في امتلاكه

(١) الأثبات جمع ثبت وهو السجل الذى يدون فيه . (المترجم)

لعقلين وصوتين في وقت معاً ما يزيد ماله من تفرد بالعجائب والمعجزات إلا قليلاً ! هذه مباحث تخص دارس الأدب القديم . فهو وحده الذى يستطيع أن يقدر هذه المؤلفات حق قدرها . وهو يؤكد لنا أن لها من الروعة والجمال والحكمة وحسن النغم والإيقاع ما لا تستطيع أن تنقله إلينا أية ترجمة . وما من ترجمة يمكن أن تنقل شيئاً ببرر نشوة العلماء وطربهم لهذه الدرر النفيسة الأولى فى الأدب الأوروبى . فإن ضرباً معيناً من الإملال يتسرب إلى عمل كل مترجم كما يتسلل إليه ضرب معين من التفاهة ، بل إن الألحان الإغريقية الرائعة البهجة لتبدو للأذن حين يرتلها عشاقها المتحمسون لها على مسامع غير المثقفين من المتشككين المرتابين سقيمة الجرس نابية النغم تذكرنا بتلك الأصوات الكريهة التى تصدر عن أجهزة الماء الساخن المختلة . ومع كل هذا فإن هذه الملاحم تحوى الشيء الكثير من الجمال والإمتاع . وهى مشوبة بشيء لذيذ من الروح الصيبانية ، وفيها لمحات بارقة بأشدّ المشاعر حدة ، وأشدّ الملاحظات نصوعاً وإشراقاً . ومن الأسف أن الدارسين المعجبين الدين يتحدثون عنها بأنها شيء رفيع سام لا يلحق ولا يدانى وما إلى ذلك من قول ، يسرفون فى القول إسرافاً مضحكاً جلب عليها إهمال القارئ العادى الذى أرهبه الفزع منها .

وإلى جوار اسم هوميروس يذكر التاريخ اسم هسيود الذى كان على الأرجح شخصاً حقيقياً . وتاريخ ميلاده معروف فى مدى قرنين هما القرن التاسع والسابع ق . م . وملحمته وهما « الأعمال والأيام » ثم « البحث فى منشأ الآلهة » تخلد إحداهما الشيء الكثير من حياة الفلاح البؤس وكدحه ، وتبقى لنا الأخرى ما تواتر من الأخبار الجارية عن أصول آلهة الإغريق ، وعلاقتها بعضها ببعض .

وكان شعر الملاحم فى بلاد الإغريق أساس كل ضروب الشعر الأخرى ، وانقضت قرون عدة لم يكن القوم يعنون أثناءها إلا بهذا الشعر . فهو الشعر الآرى الأصلى ، ثم ظهرت أنواع أخرى بأعيانها . فكان هناك شعر المراتى

وهو لطيف رقيق ، ويغنى بمصاحبة موسيقى الناي اللبدي ، والشعر الغنائى وهو يغنى إلى الكنّارة ذات السبعة الأوتار . ومن المستحيل التوسع في الكلام عن هذه الأشكال والضروب هاهنا . ومن العيب أيضاً أن نسرّد لك أسماء الشعراء دون بعض الإشارة إلى طبيعة أشعارهم وكنهها . ولا يمكن أن يكون لاسمىّ پندار (Pindar) وسيمونيدس (Simonides) معنى إلا عند أولئك الذين يستطيعون أن يخصصوا قدرًا كافيًا من وقتهم إلى ما يزال في متناول الأيدي من مؤلفاتهما . وربما جاز لنا أن نذكر الآن أن من بين أعظم شعراء الغزل الأولين ببلاد الإغريق امرأة هي سافو (Sappho) من أهل لسبوس . وقد ابتدأت الدراما^(١) المكتوبة مثلما ابتدأ الشعر المكتوب في العالم الإغريق . فنشأت المسرحية بوصفها جزءاً من الاحتفال الدورى لديونيسوس (Dionysus) إله الخمر . وكان الاحتفال في الأصل أغنية جماعية يرتلها جوقة تشيد بأعمال الإله . ثم يتقدم قائد الجوقة وهو (الكوريفيوس) (corypheus) وينشد وحده وتحييه الجوقة . ثم أدخل إيسكيلوس (Aeschylus) (المولود سنة ٥٢٥ ق.م) ممثلاً ثانياً ، كان يتقدم عن الجماعة ويحجب الأول . وأخيراً جاء الممثل الثالث على يد سوفوكليس (Sophocles) (المولود في ٤٩٥ ق.م) . وتطور الحوار والتمثيل وأصبحت الجوقة في المحل الثانى من التمثيل . وكانت المسرحيات حتى ذلك الحين تمثل من فوق منصات خشبية . ولكن أخذت دور المسارح تبنى في القرن السادس . وفي هذا القدر الكفاية في « معالم تاريخية » كهذه . كذلك يسجل التاريخ أنه لم يكد يمضى قرن واحد ، حتى ظهرت أعظم أيام (الدراما) الإغريقية . وأسماء إيسكيلوس وسوفوكليس ويوريبيدس (Euripides) (المولود سنة ٤٨٠ ق.م) ، هي الأسماء التي بلغت الذروة بالمأساة الإغريقية . ولكنها ليست إلا أسماء مجردة هنا ، لا يمكن أن يكون لها أى مغزى عند القارئ الذى لا يبحث عن مؤلفاتهم — إما في الأصل أو في الترجمات الشهيرة الموثوق بها — والذى لا يحاول أن يشهد تمثيل مسرحياتهم .

(١) يقصد بالدراما الأدب المسرحى بجميع أنواعه . (المترجم) .

وكان يدارج تطور المأساة وهى الناحية الحدية فى عبادة ديونيسوس شكل آخر للتمثيل أكثر سخرًا وتسليية هو الملهة (الكوميديا) . وكانت الملهة منذ البداية أكثر مرونة من المأساة . وكانت تمسخ المأساة وتهزأ بها فى بعض الأحيان ، ولكنها فى البعض الآخر ، كانت تتحول إلى صور (إسكتشات) صريحة لطباع الناس وللنواحي المسلية من مظاهر الحياة . وقد ابتدع أرسطوفانيس (Aristophanes) فى القرن الخامس ق . م . خليطاً بهيجاً من الخيال والتهكم السياسى . وكان ميناندر (Menander) بعد ذلك بمئة سنة . الأستاذ المبرز فى الكوميديا الأخلاقية . وكانت المأساة الإغريقية لوناً موقوتاً ذا طابع شكلى ، وقد تطورت حتى وصلت إلى أقصى إمكاناتها فيما يتجاوز القرن بقليل . على أن الكوميديا لازمة للجاعات البشرية ولا غنى لها عنها . وإنك لتجد التهكم والمحاكاة والكوميديا أنى اجتمع اثنان أو ثلاثة من بنى الإنسان منذ أن ابتدأ ظهور الجاعات الإنسانية . ولم يحدث قط أن وقف بالفعل تيار الكوميديا المكتوبة فى العالم ، منذ أن أمكن تدوين أول محاورة . ولم تبدأ القصة المكتوبة أن تنافس الكوميديا منزلتها من قلوب الناس إلا مع انتشار فن الكتابة . وكانت هناك فى بلاد الإغريق مجموعات من « القصص الصالحة » وما إليها . على أن تطور فن القصة والرواية (Fiction) بوصفها فناً عظيماً كان ينتظر جمهوراً واسع القراءة وينتظر تكاثر الكتب وانتشارها السريع . ومن سوء الطالع أن العدد الأكبر من كل من صنى التراچيديا والكوميديا الإغريقية باد من العالم مرة أخرى .

وابتدا الأدب الثرى لأول عهده على صورة التاريخ والمناقشة الحدية . ولعلك تذكر ما أسلفناه عن هيرودوت وما اقتبسناه من مؤلفه فى أول هذا الكتاب . وسوف يلحظ القارئ أن « أبا التاريخ » زار أثينا زمن پريكليس وأنه عندما كان يصنف كتابه ، كانت المأساة الأثينية قد تجاوزت من قبل أوج ذروتها . ثم تكلم ثوسيديدس (Thucydides) بعد ذلك التاريخ فروى

قصة حرب البيلوبونيز . كذلك أشرنا إلى زينوفون ، وكتابه « الصعود » (Anabasis) . وهناك شق هام آخر من الأدب الإغريقى ما يزال باقياً لنا ، وهو الخطب التى دونت عن مختلف الخطباء المفوهين النابهين . وأخيراً يجب أن نشير إلى البيانات الثرية الجدية والجدل الثرى الذى يتجلى فى الأدب العلمى على نحو ما دونه أرسطو ، وأن نلاحظ تحوله إلى حوار مسرحى فى محاورات أفلاطون . . .

وعلى هذا النحو من الاختصار نسجل هنا ألوان أول أدب عظيم فى العالم . وهذا كبل ما نستطيع أن نعمله فى النطاق الذى تحت تصرفنا . فمن رغب من قراء الإنجليزية فى المزيد فليطلبه ومعه قدر وفير من الاقتباسات الموصولة به وصلاً يدل على المهارة فى كتاب « الإغريق والبرابرة » تأليف ج . ا . ك . تومسون (J.A.K. Thomson) . على أن الطريقة المثلى للإحاطة بالحقة بأى أدب ، إنما هى فى القراءة الدقيقة لكتب خاصة فيه ومؤلفين معينين .

٨ - الفن الإغريقى

لبث العالم الحديث بين عصر النهضة ونهاية القرن التاسع عشر أى قبل اكتشاف فن الشعوب الإيجية السابق على الفن الإغريقى ، وقبل المعرفة بالإنتاج الفنى الهائل لدى الإمبراطوريات الأولى - يولى فن التشكيل^(١) الإغريقى تقديراً لا يتناسب وما أنتجه ذلك الفن . فكان يرسم وحده فى أخيلة الناس ، كأنما هو شىء قفز إلى الوجود من العدم ، وكأنما كان كل ما جاء قبله قبيحاً مرذولاً ، وكل شىء جاء بعده سوقياً وضيعاً . ولكم ولّد ذلك الفن فى عقول المثقفين طرباً ، يملؤنا اليوم بالعجب أكثر مما يشيع فى أنفسنا العطف .

ولنا لنعرف الآن أنه بينما تدل مبتكرات الإغريقى الأدبية والفكرية على

(١) فن التشكيل (plastic art) هو فن صوغ الأشكال ويطلق على النحت وماشابهه من فنون تميزاً لها عن التصوير أو الدهان (Painting) وما إليه من فنون الرسم . (المترجم)
(٩ - معالم)

بداية مظهر جديد يميز من مظاهر الخبرة الإنسانية ، فإن فن النحت الإغريقى لا يخرج عن كونه حلقة فى تطور المدنيات التى مضت قبله . ذلك أن صوغ الذهب والجواهر والأختام والدى الصغيرة والزهريات وما إليها مما صنعه الإغريقى فى هذا العصر المحيد يضارع تلك التى صنعها السكان الإيحيون السابقون وتلك الخاصة بالأسرة الثامنة عشرة فى مصر وإن لم يتفوق عليهما . وإن فى فنهم المعمارى لرشاقة وإتقاناً اختص بهما . والظاهرة الغالبة فيه هى مجاميع الأعمدة (Colonade) فى شكلها الوقور النبيل بإكليلها (Capital) الدورى الضخم (Doric) أو منظرها الرشيق بإكليلها الأيونى (Ionic) أو هيئتها الزهرية بإكليلها الكورنثى (Corinthian) . وأصبح العمود الكورنثى بشعبه وتفرعاته فى الأزمنة الرومانية وحدة عالمية فى فن العمارة ، وهى وحدة كانت ولا تزال تنبت فى ذلك الفن كالعشب الطفيل حيثما وجدت فروع المصارف أو الفنادق الفاخرة .

ومهما يكن من شىء ، فإن فن النحت الإغريقى هو وحده الذى كان علماً على ما يمتاز به ذلك العصر من إبداع . كان فى بادئ الأمر شكلياً متكلفاً ، ثم وصل فيما بين عهدى بيزستراتوس وبريكليس إلى حالة من الحرية والمطابقة للطبيعة لم يسبق لها مثيل . وفى أيام أخناتون اتخذ النحت المصرى اتجاهها وتحولاً نحو اليسر والمسابقة للواقع ، ولكن الناس لم يبلغوا فى فن النحت قبل ذلك درجة يمكن أن تقارن بما بلغه الفن الإغريقى من حرية انطلق فيها سراحه . ويحدثوننا أن معظم النحات الإغريقية كانت مصبوغة بالأصباغ . فذلك الجمال الخاص الأبيض الصارم الذى أضفت عليه لمسة الموت والكمال نبلا ، والذى يملك علينا الآن مشاعرنا عند ما يواجهنا خير ما تبقى من الإنتاج الإغريقى ، لم يكن جزءاً من غاية الفنان . وكذلك المعابد فإنها على ما بها من خرائب ذات سحر رائع يشبه سحر ضياء القمر ، كما أن لها إبداعاً سماوياً كان ينقصها ولا ريب إبان شبابها الغض البهيج .



٧٧ - ثينوس

ولسنا نعرف عن فن الرسم والتصوير الإغريق إلا القليل الطفيف . أجل ورد ذكر دررهم اليتيمة ، بيد أنها فنيت جميعها . لذا فلسنا نستطيع أن نقضى فيه برأى إلا بسبيل ما نلقاه باقياً منه أيام روما في عصر الإمبراطورية في صور تعتبر استمراراً لتيار التقاليد الفنية المتدهور والتصوير الملون في مدينتي بومبيي (Pompeii) وهركولانيوم (Herculaneum) بهيج ممتع تتجلى فيه المهارة ، وهو أقرب إلى الطبيعة والوثوق بالنفس ، إلى درجة لا تسمح بمقارنته إلى أى من الإنتاج المصرى أو البابلى .

وكانت موسيقى ذلك الزمان عاملاً ثانوياً وتابعاً مساعداً للأغنية ، وكان

يعوزها الانسجام اللحني (الهارموني) . ويتحدث السير و . ه . هادو (Hadow) عن « قبح نماذج الموسيقى الإغريقية التي ظلت محفوظة وأمكن استجلاء كنهها » .

- ۴۱۲ -

۷۸-۱۵-۱۵۱۵



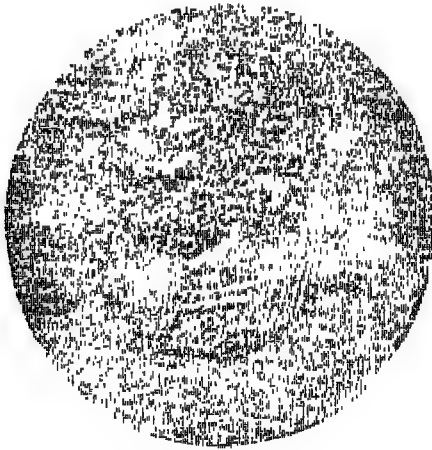
الفصل الثاني والعشرون

سيرة الإسكندر الأكبر

- ١ - فيليب المقدوني .
- ٢ - منفل الملك ملبس .
- ٣ - أول فتوح الإسكندر .
- ٤ - تحولات الإسكندر .
- ٥ - أكان الإسكندر عظيماً حقاً ؟
- ٦ - خلفاء الإسكندر .
- ٧ - برجاموم ملاذا للثقافة .
- ٨ - الإسكندر كبشير وداعي للوحدة العالمية .

١ - فيليب المقدوني

ليس البطل الحقيقي في قصة الإسكندر ، بالإسكندر نفسه قدر ما هو



أبوه فيليب. فإن مؤلف التمثيلية لا يتألق في ضياء المسرح تألق الممثل . ففيليب هو الذي دبر الشيء الكثير من العظمة التي بلغها ابنه ، فهو الذي وضع أسسها وصاغ وسائلها وأدواتها وهو الذي أعد في الحق العدة للبدء في الحملة الفارسية قبيل وفاته . ولا ريب في أن فيليب كان واحداً من أعظم الملوك

٧٩ - فيليب المقدوني

الذين شهدهم العالم على كر العصور . وكان رجلاً على أقصى غايات الذكاء والكفاية . فأما مجال أفكاره فيتجاوز دائرة زمانه تجاوزاً بعيداً فاتخذ من أرسطو صديقاً له . ولا بد أنه تناقش وإياه في تلك الخطط المرسومة لتنظيم المعرفة الحقبة التي قدّر للفيلسوف أن يحققها فيما بعد بواسطة هبات الإسكندر . ويبدو أن فيليب على قدر ما نستطيع أن نجزم ، كان « أمير » أرسطو ومولاه ،

وإليه كان يشخص أرسطو ببصره كما يرفع الرجال بصرهم إلى مقام أولئك الذين يعجبون بهم وينقون . وإلى فيليب أيضاً لجأ إيزوقراط بوصفه القائد العظيم الذى كان ينبغي عليه أن يوحد الوطن الإغريق وأن يسمو بالحياة العامة لدى الإغريق بعد إذ شملتها الفوضى .

ويذكر الكثير من الكتب أن فيليب كان رجلاً اتصف بالاستخفاف إلى درجة لا يصدقها العقل . وكان على شهوات لا ضابط لها . حقاً إنه فى الولائم شأنه شأن كل معاصريه من المقدونيين ، كان يكثر من الشراب ، وكان يغدو فى بعض الأحيان مخموراً ثملاً — إذ الراجح أن عدم الإكثار من الشراب فى الولائم كان يعد أمراً غير ودى . ولكن لم يقد دليل ثابت على التهم الأخرى الموجهة إليه . وليس بين أيدينا دليل عليها إلا قدح خصومه من أمثال ديموسثينز (Demosthines) ، الديماجوج والخطيب الأثينى ، وهورجل ذوبيان لا يأبه بالعواقب . وقد يساعدنا اقتباس فقرة أو ما إليها على تبين إلى أى حد كانت غصبة ديموسثينز الوطنية تحمله . فهو ينفس عن نفسه فى إحدى « فيليبياته » — كما تسمى تنديداته بفيليب — على هذا الأسلوب .

« وفيليب ، ذلك الرجل الذى لا يقتصر أمره على أنه ليس إغريقياً ، ولا يمت بحال ما بصلة إلى الإغريق ، بل ليس هو حتى همجياً من قطر محترم — كلا ، وإنما هو شخص فاسد من مقدونيا ، ذلك القطر الذى لا نستطيع قط أن نحصل منه حتى على عبد لائق » . إلى غير ذلك من المثالب . ونحن نعرف على وجه التحقيق أن المقدونيين كانوا شعباً آرياً شديد القراية للإغريق ، وأن فيليب كان فيما يرجح أوسع رجال زمانه علماً . ولكن كانت هذه هى الروح التى كتبت بها القصص المعادية لفيليب .

ولما آل إلى فيليب ملك مقدونيا (٣٥٩ ق.م.) ، كانت بلاده قطراً صغيراً ليس فيه مرفأ على البحر ولا أية مدينة هامة . وكان سكانها جميعاً من الفلاحين ، وتكاد لغتهم أن تكون إغريقية ، هذا إلى أنهم على أتم استعداد

لأن يكونوا إغريقاً في عواطفهم وميولهم ، ولكنهم خلتص في دهمم النوردى أكثر من أى شعب يقع إلى الجنوب منهم . ولقد حوّل فيليب هذه الدولة الهمجية الصغيرة إلى دولة عظيمة . وأنشأ أكفأ وأفضل نظام عسكري رآه العالم حتى ذلك الحين ، وتمكن قبيل وفاته أن يضم شمل غالب بلاد الإغريق في عصبة واحدة بقيادته . على أن قوة تفكيره التى سما بها عن مألوف أفكار زمانه وما اتسم به من صفات خارقة للعادة ، لا تتجلى في تلك الأمور العظيمة قدر ما تتجلى في العناية التى جعل المربين يدرّبون بها ولده حتى يواصل من بعده السياسة التى ابتدئها . فهو واحد من أولئك الملوك القليلين في التاريخ الذين عنوا بخلفهم . وكان الإسكندر — على صورة لم يصل إليها غير عدد قليل من الملوك في الدهر كله — ملكاً قد تربى تربية خاصة تؤهله لتولى شئون إمبراطورية . ولم يكن أرسطو غير واحد من بين كثير من المربين الأكفاء الذين اختارهم أبوه له . وقد استودعه فيليب سياسته وولاه الإمرة والحكم عندما بلغ السادسة عشرة ، فقاد الفرسان في موقعة خيرونيا (Chaeronea) تحت بصر أبيه فهو قد درب على السلطة تدريباً كريماً لا تشوبه شبهة أورية . ويتضح لكل من يقرأ تاريخ حياته بعناية ، أن الإسكندر تولى عمله مزوداً بعدة من التدريب ومن الأفكار القيمة التى لم يسبق لها نظير . فلما أن تجاوز حد الحكمة التى أهلته لها تربيته ، أخذ يقع في الزلل ويظهر ألواناً من سوء السلوك — مع حماقة مروعة في بعض الأحيان . وتبدت غلبة نقائصه الخلقية على تربيته قبل وفاته بزمان بعيد .

كان فيليب ملكاً من الطراز القديم ، أى ملكاً قائداً ، وهو المقدم على نبلائه ذوى الطراز النوردى القديم . وكان الجيش الذى أوجده في مقدونيا يأتلف من حشد عام من الجند المشاة ، وطبقة نبيلة من الفرسان تسمى « بالرفقاء » . وكان الشعب فلاحين وصيادين ، ألفوا بعض الشئ تناول الشراب ، على أنهم كانوا على استعداد لقبول النظام وتعلم استخدام وسائل

القتال الحسنة . ولئن كان القوم على الفطرة وفيهم سذاجة ، فلقد عُرِفَت
الحكومة بالفطنة واليقظة . وظلت لغة البلاط عدة أجيال هي الإغريقية ذات
اللهجة الأتيكية (أى الأثينية) . وبلغ من حضارة البلاط أن كان يؤوى
ويرحب بشخصيات عظيمة من أمثال يوربيديس الذى مات هناك (٤٠٦ ق.م) ،
وزيوكسيس (Zeuxis) الفنان . وفضلا عن ذلك فإن فيليب قبل ارتقائه
العرش ، أقام بضع سنين رهينة فى بلاد الإغريق . وقد نال من التربية والتعليم
خير ما يمكن أن تقدمه إليه بلاد الإغريق فى ذلك الزمان ، فكان لذلك ملكاً
كل الإمام بما نستطيع أن نسميه فكرة إيزوقراط — وهى فكرة إنشاء اتحاد
عظيم للدول الإغريقية فى أوروبا للسيطرة على العالم الشرقى . وكان يعرف
أيضاً مبلغ عجز الديمقراطية الأثينية بسبب دستورها وتقاليدها عن انتهاز
الفرصة الماثلة بين يديها . إذ أنها فرصة لا بد له من الإسهام فيها . فأما
مغزها لدى الأثينيين أو الإسبرطيين فهو السماح « لعدد جم من الأجانب »
بالتمتع بمزايا المواطنة . وإن فى هذا لتحقيراً لأنفسهم وإنزالهم إلى
حد المساواة والزمالة مع المقدونيين — « وهم شعب لا نحصل منه حتى
على عبد لائق » .

ولم تكن هناك أية وسيلة للحصول على إجماع الإغريق على ذلك المشروع
الذى أزمع عمله إلا بوساطة القيام بعمل سياسى ثورى . ولم يكن حب
السلام هو الذى يمنع الإغريق عن مثل هذه المغامرة ، بل هو تفرقهم
وانقسامهم السياسى . وكانت موارد الدول العديدة مستنفدة فى سلسلة من
الحروب الطاحنة فيما بينها ، وهى حروب طالما نشبت لأتفه الأسباب ،
وزادت الخطب الزنانة فى تلهب أوارها . مثال ذلك أن حراثة الفوكيين
(Phocians) لبعض الأرض المقدسة بالقرب من دلتى ، كانت ذريعة
انتحلت لإشباب نار حرب دموية مقدسة .

وكرس فيليب سنى حكمه الأولى لتنظيم جيشه . وحتى ذلك الحين ، كان
القتال الرئيسى فى أية موقعة يقوم بمعظمه فى أرجاء العالم قاطبة جند المشاة



ش (٨٠) اتساع رقعة مقدونيا في حكم فيليب

وهم منتظمون في تشكيلات . وإنا لثرى في المعارك السومرية السحيقة القدم ، حاملي الرماح في نظام متراص مكونين كتلة الجيش الرئيسى على نحو ما كان المشاة يفعلون في جيوش الزولو في القرن التاسع عشر . وكانت الجيوش الإغريقية في زمان فيليب لا تزال تحارب على نفس ذلك الأسلوب . وكان الفيلق الطبيكى كتلة من المشاة حاملى الرماح تطعن الصفوف الخلفية منها العدو برماح أطول تحترق الصفوف الأمامية . وكانت مثل هذه التشكيلة نستطيع أن تحترق كل ما يعترضها من جيش يكون أقل منها تنظيماً . وكان الفرسان من الناشبة (حاملى القسى) يستطيعون طبعاً أن ينزلوا خسائر جسيمة

يمثل هاته الكتلة من الرجال ، فلما أن استخدم الحصان في الحرب ظهر الراكبة على كلا الجانبين بوصفهم عاملاً ثانوياً مساعداً لهذا الجيش الرئيسى . ويجدر بالقارئ أن يتذكر أن الحصان لم يستخدم بطريقة فعالة تماماً في حروب الفريين حتى قيام الآشوريين ، ولم يتجاوز استخدامه في مبدأ الأمر جر المركبات . وكانت المركبة تطعن بنفسها وبكل قوتها كتلة المشاة محاولة لمحيطيها وكان التفوق حليف المركبات ما لم يكن نظام كتلة المشاة قوياً متيناً . والقتال الذى يصفه شعر هومروس قتال مركبات . ولا يبدأ ظهور الفرسان كقوة متميزة عن جنود المركبات وقائمة بدور خاص في خوض المعارك والحروب إلا في ألف السنة السابقة على الميلاد . ويبدو أنهم كانوا يقاتلون في مبدأ الأمر متناثرين ، إذ يبلى كل رجل بمفرده أحسن ما يستطيع من بلاء . هكذا حارب الليديون قورش . ولكن يلوح أن فيليب كان أول من استحدث هجوم الفرسان فأمر « رفقاءه » أن يتدربوا على الهجوم حاشدين . كذلك قوى فيلقه بتزويد الرجال في الصفوف الأخيرة برماح أطول مما كان بأيديهم حتى آنذاك . وبذلك زاد في عدد صفوف فيلقه ولم يكن الفيلق المقدونى إلا مجرد صورة للفيلق الطبيقى أقوى تماسكاً وأشد صلابة ترادف . وإن واحدة من تشكيلات المشاة المحشودة هذه ، لم تكن مرنة مرونة تجعلها تصمد أمام هجوم من الجناح أو الخلف ، فإن قوتها على المداورة (المناورة) طفيفة جداً . ومن ثم كانت انتصارات فيليب وابنه ثمرة اتباعهما — مع شيء من التغيير والتعديل — خطة عامة من التعاون بين هذين السلاحين فيتعلم الفيلق في الوسط ويشتبك مع جيش العدو الرئيسى . وتجرب هجمات الراكبة على أحد الجناحين أو الآخر راكبة الأعداء أمامها ، ثم تدور فتتنقض على جناح فيلق العدو ومؤخرته ، بينما يكون الفيلق المقدونى قد أنزل من قبل ضربته على مقدمته . وعند ذلك تتحطم قوى جند العدو الرئيسى وتعمل فيها السيوف عملها . ولما ازدادت خبرة الإسكندر العسكرية ، أضاف كذلك استعمال

المجانيق في الميدان ، وهى أداة كبيرة تقذف الأحجار لتمزيق مشاة العدو . وكانت المجانيق قبل زمانه تستعمل في الحصار ولكنها لم تستعمل في المعارك أبداً . فهو إذن أول من استحدث عملية « التمهيد بالمدفعية » .

حتى إذا أيقن فيليب من جدارة هذا الجيش الحديد شرع في استخدامه ، فاتجه بنظره بادئ بدء إلى شمال مقدونيا . فأنفذ الحملات العسكرية إلى إليريا (Illyria) وإلى الدانوب ومد سلطانة أيضاً على طول الشاطئ حتى الملسبون واستولى على ميناء أمفيبوليس (Amphipolis) وبعض مناجم الذهب المجاورة لها . وبعد أن قام بحملات عديدة في تراقيا أخذ يوجه اهتمامه الجددى نحو الجنوب . فنصر قضية الحلف (الأمفكتيونى) الدلى ضد أولئك الفوكيين الذين انتهكوا حرمة معبد دلى وبذلك ظهر بمظهر راعى الديانة الهلينية .

ويجدر بنا أن نتذكر أن فريقاً قوياً من الإغريق كان ينادى بالكتلة الهلينية التى تلم شمل الجميع ، مؤيداً زعامة فيليب للإغريق . وكان رأس كتاب هذه الحركة الداعية للكتلة الهلينية الشاملة هو إيزوقراط . وكانت أثينا من الناحية الأخرى ، على رأس جبهة المعارضة لفيليب وشيعته . وكانت تربطها بفارس صلات المودة الصريحة ، حتى لقد أرسلت البعوث إلى « الملك العظيم » تحذره الخطر المحدق به من اتحاد بلاد الإغريق . وليس لنا في هذا المجال الضيق من سبيل إلى سرد قصة الغدوات والروحوات التى دامت زهاء اثنتى عشرة سنة . وفى ٣٣٨ ق.م. وصل النزاع بين دعاة الانقسام ودعاة الكتلة الهلينية إلى نتيجة حاسمة يوم أوقع فيليب بأثينا وحلفائها هزيمة منكرة بمعركة خيرونيا . ثم عقد مع أثينا صلحاً منحها شروطاً سخية يبعث على الدهشة . فأظهر نفسه بمظهر العازم عزمياً أكيداً على إرضاء تلك المدينة التليدة . وفى ٣٣٨ ق.م. اعترف به مؤتمر من الدول الإغريقية قائداً عاماً فى الحرب ضد فارس .

وكان عند ذلك قد بلغ السابعة والأربعين . وكأنما كان العالم مطروحاً

تحت قدميه . إذ جعل مملكته الصغيرة الدولة المترعمة في اتحاد مقدوني إغريق شامل وطيد ، وقدر لهذا التوحيد أن يكون مقدمة لتوحيد آخر أعظم منه ، هو توحيد العالم الغربي والإمبراطورية الفارسية في دولة عالمية واحدة تضم كل الشعوب المعروفة . فن ذا يستطيع أن يرتاب في أن هذا الحلم كان يخالج فؤاده ؟ وكتابات إيزوقراط تقنعنا بأنه كان يملأ جوانب نفسه . ومن ذا يستطيع أن ينكر أنه ربما تمكن من تحقيقه ؟ وقد يخالجه أمل معقول في أن تتساح له فسحة من الأجل لعلها تبلغ ربع قرن أخرى من الزمن المليء بالنشاط . وفي ٣٣٦ ق.م. عبرت جنوده الأمامية إلى آسيا . على أنه لم يلحق بها لا هو ولا كتلة قواته الرئيسية ؛ إذ أنه قتل غيلة .

٣- مقتل الملك فيليب

من الضروري الآن أن نلم بطرف من حياة الملك فيليب المنزلية . فإن حياة كل من فيليب وابنه ، كانت تخالطها شخصية امرأة قلقة شريرة لا يستقر لها قرار هي أوليمپياس (Olympias) أم الإسكندر . كانت ابنة ملك إبيروس (Epirus) القطر الواقع إلى الغرب من مقدونيا ، وهو كقدونيا أرض شبه إغريقية . التقت بفيليب أو لعلها قذفت في طريقه في أحد الاجتماعات الدينية في ساموثرافيا (Samotharce) . ويصرح بلوتارك بأن هذا الزواج كان يقوم على الحب المتبادل . ويبدو أن هذه على الأقل إحدى المآخذ على فيليب ، وهي أنه شأن الكثيرين من الرجال ذوى النشاط الجرم والخيال الرحب كان ميالا إلى هوائج الحب الجامح . تزوجها بعد أن اعتلى العرش ، وولد له الإسكندر بعد ذلك بثلاث سنوات . ولم يمض طويل زمن حتى دب الخلاف بين فيليب وأوليمپياس عنيفاً مريراً . فلأنها كانت تغار منه ، ولكن كان هناك مصدر ثان للمتاعب أشد خطورة من هذا ، هو شغفها الشديد بالأسرار الدينية ذات الطقوس الخفية . ولقد بينا من قبل أن ديانة الإغريق النوردية الممتازة ذات النطاق المحدود ،

كانت البلاد غاصة من دونها بنحل وعبادات من نوع أقم وأقدم ، وهي عقائد أصيلة في البلاد لها أسرار ومراسم يلقنّها من يمارسها ولها حفلات تهتكية خلية وكثيراً ما تصحبها طقوس قاسية فاحشة . فعقائد الأشباح هذه ، وما كان يمارسه النساء والفلاحون والعبيد من أمور ، هي المصدر الذي تستقي منه بلاد الإغريق معتقداتها الأورفية^(١) (Orphic) والديونيسية^(٢) (Dionysiac) والديمترية^(٣) (Demeter) . وهي قد كمنّت في ثنايا تقاليد أوربا حتى ما يداني أزماننا هذه ، وما أعمال السحر في القرون الوسطى وما بها من لجوء إلى دم الأطفال وإلى أجزاء من أجسام المحرّمين المحكوم عليهم بالإعدام والرق والتعاويد السحرية إلا المظاهر المتخلفة عن تلك الاحتفالات الدينية لدى البيض الداكنين . وكانت أوليمپياس حاذقة في هذه الأمور ، خبيرة بها ومتحمسة لها . ويذكر بلوتارك أنها حازت شهرة واسعة لاستخدام الثعابين المستأنسة في هذه الممارسات والطقوس الورعة !!! وكانت الحيات تبحث جناحها المنزلى . ولم يوضح لنا التاريخ هل كان فيليب يجد فيها مادة تثير سخطه أو تبعث فيه الرهبة الدينية ؟ !!! ... ولا بد أن أعمال زوجة فيليب هذه كانت مصدر مضايقة خطيرة له ، لأن الشعب المقدوني كان لا يزال في تلك المرحلة الحاسمة من مراحل التطور الاجتماعى التي لا يستحب فيها التحمس في الورع والإفراط في التدين ولا الزوجات العسيرات القياد .

(١) أوردفوس : شخصية خرافية لشاعر قبل هوميروس عاش في تراقيا وصحب الأرجونوتس وهم البحارة الأبطال الذين أبحروا للبحث عن الجزيرة الذهبية (راجع المجلد الأول) . وهب أبولو قيثاره وعلمته آلهة الفن التاسوعية Muses كيف يلعب عليها وسحرت لسامع الحيوانات والأشجار والصخور وكانت تتحرك من أماكنها لتستمع إلى قيثارته الذهبية . (المترجم)

(٢) ديونيسوس : إله شاب بهي لطلعة متخث ، كان يعتبر إله الخمر ويسمى أيضاً باكخوس وهو ابن زيوس . وينسب إلى هذا الإله أنه هو الذى علم الإنسان صناعة النبيذ ؛ والخمر هي رمز فنوته . (المترجم)

(٣) ديمتر : هي إحدى الرباب العظيمة عند الإغريق هي حامية الزراعة وما نخرجه الأرض من ثمار . ويقال إن مخزوع المحراث ومن عرف القمح المبذور هو من أحب الناس إليها . وهي ابنة أخت زيوس . (المترجم)



(٨١)

مقاتل مقدوني

في عهد فيليب

(عن صورة محفورة من بيل)

وإن الدلائل على وجود عداوة مريرة بين الوالدة والوالد ، لتبدو لنا من خلال الكثير من الأشياء الصغيرة في كتب التاريخ . وواضح أنها كانت تغار من فتوح فيليب . إذ كانت تكره له ذبوع الصيت . وهناك من الشواهد كثير عن أن أولمبياس كانت تبذل قصارى جهدها لتنفّر ابنها من أبيه وتضمه إلى جانبها ضماً كاملاً . ويروى لنا كتاب (السير لبلوتارك) قصة تقول بأنه كلما وردت الأنباء بانتصار لفيليب مثل فتح مدينة أو الفوز في بعض المعارك الكبيرة ، لم يكن يبدو على الإسكندر أى فرح عظيم لسماعها ، بل كان على العكس يقول للداته وأترابه « سيحصل أبى على كل شيء مقدماً يا صبيان . ولن يترك أى عمل عظيم أشرككم معى فيه » .

وليس أمراً طبيعياً أن يحسد ولد أباه على هذه الشاكلة دون بعض الإحباء . وكأنى بهذه العبارة ترن في الأذن رنين الصدى المردّد .

ولقد أوضحنا من قبل كم كان تدبير فيليب لمسألة توليه الإسكندر من بعده أمراً يبنياً جلياً للعيان ، وإلى أى حد كان تواقاً إلى جلب الشهرة والسلطان إلى يد الغلام . فكان الأب دائب التفكير في البناء السياسى الذى يعمل على تشييده - ولكن الأم كانت تفكر فيما تصيبه تلك السيدة العجيبة ، أولمبياس ، من مجد وكبرياء . ولكنها أخفت كرهها لزوجها وأحاطته بستر من قلق الأم على مستقبل ابنها . ولما تزوج فيليب ٣٣٧ ق . م . - على عادة الملوك وأسلوبهم في تلك الأيام - زوجة ثانية مقدونية الأصل اسمها كليوبطرة « وكان يحبها حباً شديداً » أثارت أولمبياس شيئاً كثيراً من المتاعب .

ويحدثنا بلوتارك عن منظر محزن حدث في حفل زواج فيليب من كليوبطرة فلقد عاقر القوم الخمر في الوليمة ما شاءوا . وإذ كان أталوس (Attalus) والد

العروس قد ثمل من الشراب ، فإنه كشف النقاب عن تلك العداوة التي كان يكنها الناس عامة لأوليمپياس وإيپروس بقوله : « إنه يأمل أن ينتج ذلك الزواج طفلاً يكون وارثاً مقدونياً قحاً للعرش » . وعندها صاح الإسكندر : « وكان متوثب النفس سائر الأعصاب لمثل هذه الإهانة » فهاذا أنا إذن ؟ ثم قذف أتالوس بكأسه . ونهض فيليب وقد ثارت ثأرته ، ويقول بلموتارك إنه جرد سيفه ولكنه عثر ووقع . وقام الإسكندر وقد أعماه الحنق والحسد فغير أباه وأهانته بقوله : « أيها المقدونيون ، انظروا هاهنا إلى القائد الذي يريد أن يزحف من أوروبا إلى آسيا ، كيف ؟ ! ... إنه لا يستطيع أن ينتقل من منضدة إلى أخرى ! » .

فكم لا يزال هذا المنظر حياً عالقاً بالأذهان ، من ارتقاء الملك على الأرض والوجوه المحمرة انفعالا وسكراً ، وصوت الغلام الغاضب . وفي اليوم التالي رحل الإسكندر مع أمه — ولم يحاول فيليب منعهما . وذهبت أوليمپياس إلى وطنها إيپروس — ورحل الإسكندر إلى الليريا ومن هناك أقنعه فيليب بالعودة . ثم لم يلبث أن نشب بينهما شغب جديد فقد كان للإسكندر أخ به ضعف في قواه العقلية اسمه أريدايوس (Aridaeus) ^(١) رغب حاكم كاريا الفارسي في أن يتخذ صهرأ له . « هنالك أخذ أصدقاء الإسكندر وأمه يغرونه بأبيه ويثبونه الهواجس من جديد ، وإن لم يكن لها ظل من الحقيقة . مدعين بأن فيليب بتدبيره هاته الزيجة النبيلة وما يترتب عليها من المساعدة ، كان يرمي إلى إعطاء التاج إلى أريدايوس ، ومن ثم أرسل الإسكندر — وقد أفلقته تلك الشبهات — شخصاً اسمه تسالوس (Thessalus) وهو ممثل مسرحي ، إلى كاريا ليطلب من عظيمها أن يعرض عن أريدايوس غير الشرعي المولد ، والناقص الإدراك ؛ وأن يتخذ وريث التاج الشرعي حليفاً له وصهرأ . وبلغ سرور بكسوداروس (Pixodarus) بهذا المقترح أقصى غايته . ولكن

(١) يسمى في كتب التاريخ التي تتناول ذلك العصر فيليب أريدايوس (Philip Aridaeus)

(المترجم)

لم يكذب فيليب يسمع بالخبر ، حتى ذهب إلى جناح الإسكندر مصطحباً معه فيلوتاس (Philotas) ابن پارمنيون (Parmenio) وهو من أشد أصدقائه ورفقائه إخلاصاً ، وعنف الإسكندر بمحضر هذا الصديق على انحطاطه ودناءة روحه في تفكيره أن يكون ختناً^(١) لرجل من كارييا ، هو أحد عبيد ملك همجي . وكتب في الوقت نفسه إلى الكورنثيين مشدداً عليهم بأرسال تسالوس إليه مكبلاً بالقيود . وعهد الملك إلى هارپالوس (Harpalus) ونيارخوس (Niarchus) وفريجيوس (Phrygius) وبطلميوس Ptolemy وهم بعض رفقاء آخرين للأمير فنفاهم . على أن الإسكندر استدعاهم فيما بعد ، وعاملهم معاملة ملوؤها التقدير .

وهناك شيء مؤثر جداً في هذه القصة ، قصة الوالد وهو يحتاج الولد الذي كان حبه الأبوى له ظاهراً ملحوظاً ، وقد حيره ذلك المقترح الوضع الذي نسج حول خيال الفتى .

أصيب فيليب بطعنة في حفل زواج ابنته من خالها ملك إبيروس وشقيق أولمبياس . إذ كان يسير في موكب إلى أحد المسارح وهو أعزل من السلاح وعليه ثوب أبيض ، قطعته أحد رجال حرسه . وكان هناك حصان ينتظر القاتل الذي حاول أن يفر ، لولا أن اشتبك حافر حصانه في كرامة بركة ، فألقته عثرة الجواد من سرجه ، وقتله متعقبوه .

وهكذا أصبح الإسكندر ملكاً على مقدونيا في سن العشرين وانتهى على تبوئه العرش .

وعند ذلك عادت أولمبياس فظهرت في مقدونيا كامرأة بررت موقفها تبرير المتكبرين ، ويقال إنها أصرت على أن تقدم لذكرى القاتل نفس مظاهر التكريم الجنائزية التي أقيمت لذكرى فيليب .

وسرى في بلاد الإغريق سرور عظيم بذلك الحادث السعيد . فأما ديموستينز فإنه لما أناه هذا النبأ العظيم ، خرج إلى الجمعية العمومية بأثينا في ثياب بهيجة

(١) الحق بفتح التاء هو زوج الابنة . (المترجم)

وعلى رأسه إكليل من الزهر ، ولما يمض على وفرة ابنته ما يجاوز السبعة الأيام .

ومهما يكن أمر ما فعلت أولمبياس بشأن قاتل زوجها ، فما تحيط أية شكوك تاريخية بتفاصيل معاملتها لضرتها كليوبطرة . إذ لم يكده الإسكندر يغادر مقدونيا (حين شغلته على الفور ثورة رجال التلال في الشمال) - حتى قتل ابن كليوبطرة الحديث الولادة بين ذراعى أمه ، ثم خنقت كليوبطرة بعد أن وجهت إليها عبارات السباب والتفريع ولا ريب . ويقال إن هذا الغلو في المشاعر النسوية ، هال الإسكندر ولكنه لم يمنعه من بسط يده أمه بسلطان عظيم في مقدونيا . وقد كتبت إليه رسائل في موضوعات دينية وسياسية وأظهر لها ابنها من الوفاء والبر ما جعله يرسل إليها على الدوام نصيباً كبيراً من الأسلاب التي كان يغنمها .

٣ - أول فتوح الإسكندر

اضطررنا إلى سرد هذه الأفاصيل اضطراراً إذ لا يستطيع فهم التاريخ بدونها . وهاهو ذا عالم واسع الأرجاء يعج بالناس ممتد بين الهند والبحر الأدرياتي وهو مستعد للوحدة متأهب إلى حد لم يسبق له مثيل للانصباع لحكم من يلم شمله . وها هي ذى الدولة العظيمة - دولة الإمبراطورية الفارسية بطرقاتها ونظام بريدها وسلمها الخيم على أرجائها وشامل رخائها - مهياة تماماً للتأثر بما يشعه العقل الإغريقي وما ينتجه من قطوف دانية . ومع ذلك فهذه هي القصص التي تصور طبيعة المخلوقات البشرية التي أتاحت لها تلك الفرص العظيمة . فها هو ذا فيليب ، ذلك الرجل العظيم البالغ النبل ، ومع ذلك فهو سكير مدمن ، وهو لا يستطيع أن يضبط نظام داره . وهاكم الإسكندر وهو إنسان موهوب من كثير من النواحي ، مواهب أعلى مما لدى أى رجل في زمانه ، ولكنه مغرور متشكك في الناس ، نزق حاد العواطف ، وله ذهن أحدثت أمه به انحرافاً وزيفاً .

وقد شرعنا الآن في فهم شيء مما عسى أن كان يؤول إليه العالم ، وشيء مما عسى أن كان يصير إليه جنسنا ، لولا طبيعتنا البشرية التي ما تزال فجّة غريرة ، ولم يكد يتجاوز ما مضى بين عصرنا وبين الإسكندر ما يزيد على سبعين جيلا ؛ كما لا يكاد يفصل بيننا وبين أجدادنا الصائدين المتوحشين الذين كانوا يضهبون^(١) طعامهم على الجمر أو يأكلونه نيئاً ، — ما يتجاوز الأربعمئة أو الخمسمئة جيل . ولن يتهيأ مجال كبير لدخول التعديل على نوع من الأنواع الحية في مدى أربعمئة أو خمسمئة جيل . وما عليك إلا أن تثبر فيمن حولك من الرجال والنساء مشاعر الغيرة أو الخوف أو السكر أو الغضب إلى درجة كافية حتى تبدو لك فيهم عيون رجال الكهوف الحمراء محملقة إليك اليوم . وقد تهيأت لدينا الآن المعرفة بالكتابة وتوفر التعليم والعلوم وتسخير القوى . وقد روضنا الوحوش وسخرنا البرق . ولكننا لا نزال ندلف^(٢) نحو النور وثيداً في تعثر . أجل روضنا الوحوش وربيناها . ولكن

بقى علينا أن نروض أنفسنا وزريئها .

أظهرت أعمال الإسكندر منذ أول بدايات حكمه ، إلى أي حد كبير تمثل خطط أبيه وسار على نهجها ، وإلى أي حد كانت كفاياته عظيمة . ولا بد لنا من خريطة للعالم المعروف لتبين مجرى حياته . ففي أول الأمر



(٨٢) الإسكندر الأكبر

بعد أن حصل على التأكيدات من بلاد الإغريق ، بأنه سيكون القائد العام للجيش

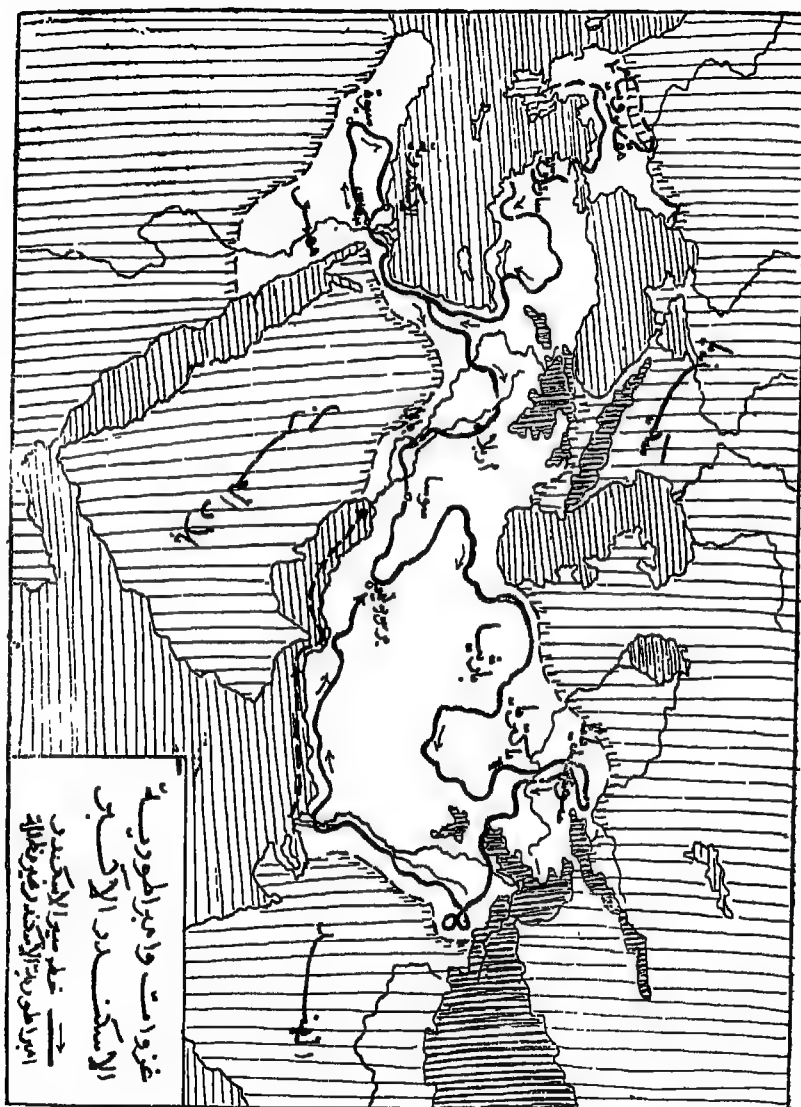
(١) من ضهب اللحم إذا شواه قليلا ولم ينضجه . (الترجم)

(٢) دلف دلوفا : مثى كالمقيد وقارب الخط في مشيه . (الترجم)

الإغريقية ، سار مخترقاً تراقيا إلى نهر الدانوب ، وعبر النهر وأحرق إحدى القرى ، وبدا أصبح الملك العظيم الثانى الذى أغار على البلاد الإسكندية فيما وراء الدانوب ، ثم عاد فعبره واتجه غرباً وبدا قفل بطريق إليريا . وفى ذلك الوقت كانت مدينة طيبة أعلنت العصيان عليه ، فكانت ضربته التالية فى بلاد الإغريق . فلن طيبة — ولم تساعدنا أثينا بالطبع — قهرت ونهبت وعوملت معاملة عنف مسرف . إذ هدّت كل مبانيها اللهم إلا المعبد ومنزل الشاعر پندار (Pindar) وبيع ثلاثون ألف نسمة من سكانها رقيقاً فى أسواق النخاسة . فصعقت بلاد الإغريق . وأصبح فى ميسور الإسكندر بذلك أن ينطلق حراً للقيام بالحملة الفارسية .

وكشف تدمير طيبة على هذا النحو عن مسحة من القسوة والعنف فى سيد أقدار البشرية الحديد . إذ كانت تلك ضربة أثقل من أن يقدم عليها لإنسان بل كان إتيانها عملاً وحشياً غشوماً . فلن قضى بها على روح العصيان ، فقد قضى كذلك على روح العون . فلن دول المدن الإغريقية ظلت جامدة منذ ذلك الحين ، فلا هى تشغب عليه ولا هى تعينه . وأبت تلك المدن أن تمد الإسكندر بسفائنها ، وهو أمر كانت نتيجته مضايقة خطيرة له .

وهناك قصة يرويها بلوتبارك عن هذه المذبحة الطيبية بوصفها أمراً يشرف الإسكندر . لكنها لعمري تبين كيف أن جوانبه السليمة التى تم عن التعقل وجوانبه الأخرى التى بها مس من الجنون كانت فى صراع . وهى تحدثنا عن ضابط مقدونى وسيدة من طيبة . كان هذا الضابط ينهب مع الناهبين ، فدخل إلى منزل هاته المرأة ، وأوقع بها من الإهانات والأضرار ما لا يمكن التعبير عنه ، ثم سألها آخر الأمر عما قد يكون لديها مخبئاً من كنوز الذهب أو الفضة . فأخبرته بأن كل كنوزها مخبوءة فى البئر وقادته إليه ، وبينما هو مائل يتأمل قاعه ، قذفه فيه على الفجاءة ثم قتلته بالقاء الأحجار الضخمة عليه . ووصل إلى المكان بعض الجنود الموالين ، وأخذوها إلى الإسكندر ليقضى فيها برأى .



ش (۸۳) غزوات الإسكندر الأكبر وأمبراطوريته

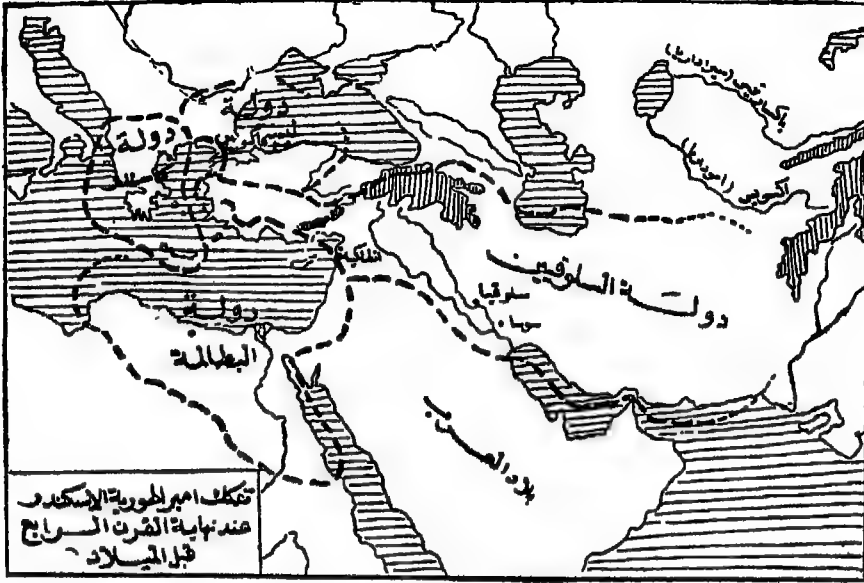
فتحدثه ، وكان دافع الغلو والتطرف الذى حدا به إلى القيام بالمذبحة قد أخذ فى التناقص والتضائل . فلم يكتف الإسكندر بالعفو عنها ، بل أمر برد عائلتها وممتلكاتها وحربتها إليها . ويفسر بلوتارك هذا بأنه كرم خلق وسماحة نفس ولكن المسألة أعقد من ذلك . إذ أن الإسكندر هو الذى كان ينهب ويستعبد وينتهك حرمان طيبة بأكملها . فذلك الوحش المقدونى المسكين المتردى فى البئر . ما كان يفعل إلا ما قيل له إن له ملء الحرية أن يفعله . فهل يجوز لقائد أن يصدر فى مبدأ الأمر أوامر قاسية ، ثم يعود فيعفو عن يقاتلون أعوانه بل ويكافئهم ؟ إن هذه البارقة من وخز الضمير فى حالة امرأة واحدة ربما لم يكن يعوزها مظهر الكرامة الحزينة والجمال الأسيف ، إنما هى عوض زهيد فى مقابل هلاك مدينة عظيمة .

وقد اجتمع فى نفس الإسكندر خليط من جنون أوليمپياس الذى ورثه عنها وما أخذه عن أبيه من رجاجة عقل وما تلقاه عن أرسطو من تعاليم . ولا مرأ أن حادث طيبة هذا أزعج خاطر الإسكندر . فكان كلما لقي الطبيب فيما بعد حاول أن يظهر لهم عطفاً خاصاً . ومما يذكر له بالفضل أن شبح ما جنت يده فى حق طيبة كان دائماً الملاحقة له .

ومع ذلك فإن ذكرى طيبة لم تنقد ثلاث مدن أخرى عظيمة من مثل تلك العاصفة العقلية الهوجاء . فإنه دمر صور (Tyre) وغزة ومدينة ببلاد الهند ، سقط أثناء فتحه إياها عنوة وجرح فى قتال شريف ، ولم ينبج من هذه المدينة الأخيرة نفس واحدة ، حتى الأطفال . فلا بد أن ما استولى عليه من الدعر كان شديداً حتى اجترح مثل هذا الانتقام الذريع .

وعند ابتداء الحرب كان للفرس عليه ميزة فائقة . إذ كانوا فى واقع الأمر سادة البحر . لأن سفن الأثينيين وحلفائهم كانت معرضة غاضبة لاتعين الإسكندر . ولكى ينتقل الإسكندر إلى آسيا ، اضطر أن يطوف معرجاً حتى عبر عند الهلسبون . فلو أنه تقدم متوغلاً فى الإمبراطورية الفارسية ، لتعرض

لخطر قطع مواصلاته تماماً عن قاعدته . وعلى ذلك كان أول واجب عليه أن يقسم العدو في البحر . ولم يكن هذا في مستطاعه إلا بالمسير على محاذة ساحل آسيا الصغرى والاستيلاء على الميناء تلو الميناء ، حتى يتم تدمير كل القواعد



ش (٨٤) تفكك إمبراطورية الإسكندر

البحرية الفارسية . فلو أن الفرس تجنبوا الالتحام معه في المعارك وانصرفوا إلى غشيان خط مواصلاته الطويل ، لقصوا عليه فيما يرجح ولكنهم لم يفعلوا ذلك . فإن جيشاً فارسياً لا يزيد عن جيشه كثيراً اشتبك معه في معركة على ضفاف نهر جرانيكوس (Granicus) (٣٣٤ ق.م.) فباء بالتدمير . وبذلك أصبح الإسكندر مطلق اليد في الاستيلاء على ساردس وإفيسوس وميليتوس ثم بعد قتال عنيف على هاليكارناسوس . وفي الوقت نفسه كان الأسطول الفارسي عن يمينه يفصل بينه وبين بلاد الإغريق ، وهو يهدده أكثر التهديد ولكنه لا يفعل شيئاً .

وفي (٣٣٣ ق.م.) وحين كان يتابع هجومه هذا على القواعد البحرية ، سار بمحاذاة الشاطئ حتى رأس الخليج المسمى اليوم « خليج إسكندرونة » . وكان هناك جيش فارسي جرار تحت قيادة الملك العظيم دارا

الثالث متغلغل في داخلية البلاد إلى جوار خط سيره ، تفصله عن الشاطئ الجبال . وتقدم الإسكندر عن هذه القوة المعادية قبل أن يدرك هو أو يدرك الفرس ما بينهما من تدان ، إذ كانت أعمال الاستطلاع - كما هو واضح - على أسوأ حال لدى الإغريق والفرس على السواء وكان الجيش الفارسي حشدا هائلا سيئ النظام : من الجنود والدواب ووسائل النقل ومنتجى المعسكرات (١) ومن إليهم . ونذكر على سبيل المثال ، أن دارا كان مصحوباً بحريمه ، وكان هناك عدد حاشد من إماء الحريم والموسيقيين والراقصين والطباخين . وكان الكثيرون من كبار الضباط قد أحضروا عائلاتهم ليشهدوا مصرع الغزاة المقدونيين . وقد جمعت الجيوش من كل ولاية في الإمبراطورية ، ولم يكن لديهم تقاليد متعارف عليها أو مبدأ يجمعهم ويؤلف بينهم في عمل موحد . وتملك « دارا » فكرة قطع السبيل على الإسكندر إلى بلاد الإغريق فساق هذا الجمع الحاشد من فوق الجبال حتى البحر ، ومن يمن طالعه أن اجتاز الممرات دون أن يعترض سبيله معترض ، ثم عسكر في سهل إيسوس (Issus) بين الجبال والساحل . وهناك هزمه الإسكندر وكان قد عاد ليلاقيه . إذ كرّ الفرسان وحطم الفيلق هذا الجيش العظيم المهش كما يهشم الحجر الزجاج ، فتفرق بدداً . وفر « دارا » من مركبته الحديدية - تلك الآلة العتيقة الطراز - ممتطياً صهوة جواده ، تاركاً كل شيء حتى حريمه في أيدي الإسكندر . وكل الأفاضل التي تروى عن الإسكندر بعد هذه المعركة تصوره على خير ما يكون الخلق الكريم فتظهره متحرزاً مساحاً . فعامل الأميرات الفارسيات بأقصى ما يكون من الأدب ، وتملك ناصية رشده ، واستمسك استمسكاً وثيقاً بخطته ، وترك دارا يهرب إلى سوريا ولم يتعبه . ثم واصل مسيره على قواعد الفرس البحرية - أي على ميناء صور وصيدا الفينيقيين ، فسلمت صيدا ، وقاومه صور .

فلئن أتيت لنا أن نجد في مكان ما دليلاً على مقدرة الإسكندر البحرية

(١) يزداد بها من يتعقبون المعسكرات من رجال ونساء للاستفادة من الجنود . (الترجم)

الفائقة ، فها هنا موضعها ومجلاها . كان جيشه من صنع أبيه ، ولكن فيليب لم يظهر في حصار المدن نبوغاً أبداً . ولما كان الإسكندر غلاماً في السادسة عشرة رأى مدينة بزنطة الحصينة على البوسفور تصد أباه . وها هو ذا يواجه مدينة منيعة صمدت لحصار بعد حصار ، وقاومت نبوخذناصر العظيم أربعة عشر عاماً . إذا أن الشعوب السامية صاحبة قصب السبق في احتمال الحصارات . وكانت صور عند ذلك جزيرة تبعد عن الشاطئ نصف ميل ، وأسطولها سليماً لم يصب بسوء ، وكان الإسكندر من الناحية الأخرى ، قد سبق فتعلم الشيء الكثير أثناء حصاره قلعة هاليكارناسوس ، وضم إليه هيئة من المهندسين من قبرص وفينيقيا ، وكان أسطول صيدا معه . وما لبث ملك قبرص أن انضم إليه بمئة وعشرين سفينة جعلت سيادة البحر في يده . وفضلاً عن ذلك فإن قرطاجة الكبيرة لم ترسل أى عون — إما اعتماداً منها على قوة المدينة الأم أو خروجاً منها عن الولاء لها — فضلاً عن أنها كانت مشتبكة في حرب في صقلية .

وكان أول ما اتخذ الإسكندر من تدابير أن بنى جسراً من أرض القارة إلى الجزيرة ، وما يزال هذا السد باقياً إلى يومنا هذا . وأقام الإسكندر على طرف هذا الجسر عند اقترابه من أسوار صور أبراجه ومجانيقه وأكبأشه^(١) . ثم شد كذلك إلى الأسوار سفناً ، أقيمت عليها الأبراج والمجانيق . واستخدم أهل صور الحراقات (سفن النيران) ضد هذا الأسطول الصغير ، وأخذوا يلاحقونه بالخروج المبالغ من مينائهم . وحدث في إحدى غاراتهم المفاجئة على السفن القبرصية أن أمسك بهم المغيرون وأوقعوا بهم أضراراً جسيمة ، وأصيب الكثير من سفنهم بقذائف المجانيق . ووقعت فوراً في أيدي قوات الإسكندر سفينة كبيرة محماسة ، أى ذات خمس طبقات من المحاديف ،

(١) الكبش : المنطاح (battering ram) آلة كانت تستعمل قديماً في هدم أسوار الأماكـن المحاصرة ، تتكون من عرق عظيم من الخشب برأس من حديد قريبة الشبة برأس الكبش ، ومنه اتخذ اسمها . (المترجم)

وأخرى ذات أربع طبقات - ثم فتحت آخر الأمر ثغرة في الأسوار - وبعد أن تسلق المقدونيون الأنقاض من سفنهم فتحوا المدينة عنوة .

استمر هذا الحصار سبعة أشهر ، وقاومته غزة شهرين . وحدثت في كلتا الحالتين مذبحه كما حدث أن نهبت المدينة وبيع الأحياء من أهلها بيع الرقيق . ثم دخل الإسكندر مصر قرب نهاية (٣٣٢ ق.م) ، وثبتت له سيادة البحر . فأما بلاد الإغريق - وكانت طيلة ذلك الزمان تتأرجح في سياستها - فإنها انتهت آنذاك إلى التصميم على الانحياز إلى جانب الإسكندر . وقرر مجلس دول المدن الإغريقية المنعقد في كورنثة إهداء تاج نصر من الذهب « لقائده العام » . ومنذ ذلك الحين ظل الإغريق منضمين إلى المقدونيين .

وكان المصريون أيضاً في صف المقدونيين ، على أنهم كانوا مع الإسكندر منذ البداية . فإن الحكم القارسي أظلمهم قرابة مئتي سنة . ولم يكن لمجيء الإسكندر من معنى عندهم سوى ذهاب سيد وقدم آخر ، ولكنه تغير كان في جملته تغيراً إلى أفضل . فسلمت البلاد من غير قتال . وأظهر الإسكندر الاحترام البالغ نحو شعورها الديني ، فلم يكشف اللقائف عن أى مومياء كما فعل قمبيز ، ولم يعتد على حرمة آبيس عجل ممفيس المقدس . وفي تلك البلاد لمس الإسكندر في نفسه في ظلال المعابد الضخمة وعلى نطاق واسع كثيراً من الشواهد والأدلة على وجود ميل إلى تدين خفي غير منطقي يذكره بأسرار وخفايا طالما اعتنقتها والدته وأثرت في طفولته أيما تأثير . وظل أربعة أشهر في مصر يداعب العواطف الدينية وتداعبه .

ولا بد لنا أن نتذكر أنه كان لا يزال شاباً يافعاً ، مقسماً على نفسه . أجل إن سلامة العقل القوية التي ورثها عن أبيه جعلت منه جندياً عظيماً . وحبته تعاليم أرسطو بشيء من النظرة العلمية إلى العالم . أجل إنه دمر صور . بيد أنه أنشأ في مصر عند أحد مصبات النيل مدينة جديدة هي الإسكندرية ، لتحل محل ذلك المركز التجاري القديم . وأنشأ إلى الشمال من صور وبالقرب من

إيسوس ، مرفأً ثانياً هو الإسكندرونة . وما تزال كلتا هاتين المدينتين زاهرة إلى يومنا هذا . كما أن الإسكندرية انقضى عليها دهر ربما كانت فيه أكبر مدينة في العالم . فلا بد إذن أن موقعيهما اختير اختياراً حكيماً . على أن الإسكندر كانت لديه كذلك روح التخيل العاطفية الهوجاء التي كانت لأمه . فإنه إلى جانب هذا العمل الإنشائي كان مستغرقاً في مغامرات دينية إذ استحوذت آلهة مصر على لبه . وإذا هو يسافر أربعمائة ميل إلى واحة قصية لزيارة وحى آمون . ذلك بأنه كان يريد أن يبت في شكوك معينة كانت تساوره عن حقيقة نسبه ومولده . فإن أمه طالما ألهمت ذهنه بالتلميح والإشارة والألفاظ المبهمة عن سر عميق يكتنف حقيقة أبوته . فهل كان إنسان عادى مثل فيليب المقدوني أباه حقاً ؟ .

وقد لبثت مصر قرابة أربعمائة سنة وهي قطر لا يعتد به من الوجهة السياسية ، يغزوها الإثيوبيون آونة ويغزوها الآشوريون أخرى والبابليون تارة والفرس طوراً . ولما أن أصبح تفكير المصريين فيما هم فيه من حاضر المهانة والانتضاع أمراً بغيضاً إلى نفوسهم ، أصبح الماضي والعالم الآخر أكثر روعة في نظرهم . وما تنشأ الدعاية الدينية المتبجحة بالمفاخرة والاغترار بالماضى إلا عن طول شعور الشعوب بالمدلة المزمنة الآلئة . فإن المقهور يستطيع أن يقول للظافر « ليس هذا الظفر بشيء ذى بال في نظر الآلهة الحقّة » . وهكذا اضطر ابن فيليب المقدوني وسيد بلاد الإغريق العام إلى أن يحس صغاره وضآلة قدره . بن المعابد الضخمة المشمخرة . وكان للإسكندر نصيب غير عادى مما هو مألوف من طموح الشباب الطبيعي إلى التأثير في كل من يحيط بهم من الناس . فكم كان ارتياحه واطمئنانه نفسه عظيماً إذن حين يكتشف لتوه أنه ليس مجرد مخلوق موفق ، وليس واحداً من أولئك السوقة من هؤلاء الإغريق العصريين وإنما هو قديم أزلى قدسى ابن إله ، وهو الإله فرعون بن آمون رع !!! ...

ولقد سبق لنا أن قدمنا لك في فصل سابق وصفاً لتلك المقابلة في معبد الصحراء .

ولم يقتنع الشاب تمام الاقتناع . نعم أطافت به في بعض الأحيان لحظات الاقتناع . كما كانت تنتابه في أحيان أخرى أطوار من سلامة العقل ، عند ما كان الأمر أقرب إلى مزاح . فأبدى في حضرة المقدونيين والإغريق الشك في أنه إله حقاً . فلما انطلق دوى الرعد القاصف ، أقدم السفه أريستارخوس (Aristarchus) على سؤاله « ألا تنوى أن تفعل شيئاً من هذا القبيل يابن زيوس ؟ » ، ولكن الفكرة الجنونية جعلت مع ذلك تطيف بذهنه منذ ذلك الحين وهي مستعدة لأن يلهب أوارها النبذ أو الملق .

وفي الربيع التالي (٣٣١ ق.م) عاد إلى صور ، وزحف من هناك نحو مملكة آشور جاعلاً الصحراء السورية عن يمينه ، فوجد في انتظاره عند خرائب نينوى المنسية جيشاً فارسياً عظيماً ، طفق داراً يجمعه منذ معركة إيسوس . وكان يتألف من خليط هائل آخر من فرق الحند ، ويعتمد في قوته الرئيسية على ذلك السلاح البالي العتيق حتى في ذلك الوقت : وهو المركبة الحربية . وكان لدارا من هذه قوة عدتها مئتان ، وقد ربطت بعجلات كل مركبة وإلى عريشها وجسمها مناجل . ويبدو أنه كان بكل مركبة أربعة خيول ، فبات واضحاً أنه إذا جرح أحد هذه الخيول بنبل أو سهم ، تعطلت المركبة . وكانت الخيول الخارجية تعمل أكثر ما تعمل كوقاية لخيول العجلة الداخلية . ولذا كانت تشبك إلى المركبة بسير خارجي مفرد يسهل قطعة ، ولكن إصابة أحد خيول العجلة (أى الخيل الداخلية) كان يفضي إلى تعطيل العربة كلية . ولمثل هذه العربة أثر ساحق عظيم إذا هي استعملت ضد جيش مفكك من المشاة أو نفر من المحاربين الفرادى . ولكن دارا ابتداء المعركة بقذفها على الخيالة وعلى المشاة الخفاف ، فبلغ القليل منها هدفه وسرعان ما تم القضاء على هذه أيضاً بسهولة . وأجريت المناورات لتخير مواقع أفضل والاعتصام بها ، وانطلق المقدونيون المدربون أحسن تدريب يسرون في خط مائل صوب الجهة الفارسية محتفظين بحسن نظامهم . فأما الفرس فلم يهتموا في تعقبهم لهذه الحركة حتى الجناح ، فتحوا في صفوفهم ثغرات .

وعلى حين بغتة كثر الفرسان المقدونيون المنظمون في أحد هاته الصدوع وصدموا قلب الجيش الفارسي . وعلى أثر كرتهم مباشرة تقدم المشاة يتبعونهم ، فتمزق قلب الفرس وميسرتهم . وقد تقدمت الراكبة الخفيفة في الميمنة الفارسية فترة من الزمان فاكتسبت من ميسرة الإسكندر أرضاً ، وكأنها لم تفعل ذلك إلا لكي تمزقها فرسان تساليا لإرباء . وكانت في ذلك الوقت أصبحت تقارب في حسن دربتها نموذجها المقدوني المحتذى ، ولم تعد القوات الفارسية تشبه الجيش بالمعنى المعروف . فلما انحلت إلى جمع غفير من الفارين تنساب ثلله تحت غمامات عظيمة من القتام . وليس بينها سبب واحد يلم شعثها وهي تسير عبر السهل الحار نحو أربيل (Arbela) . وانطلق المنتصرون بجيولهم خلال الغبار والجمهور الهارب وهم يقتلون ويذبحون حتى يخيم الظلام ووضع للمذبحة حداً . وقاد دارا المتقهقرين .

تلك هي معركة أربيل (أربيل) التي حدثت في اليوم الأول من أكتوبر (٣٣١ ق.م) . وإنا لنعرف تاريخها بمثل هذا الضبط الشديد ، لأن التاريخ سجل لنا أنه اتفق قبل حدوثها بأحد عشر يوماً أن كان المنجمون على كلا الجانبين في شغل شاغل بخسوف القمر .

وفر دارا شمالاً إلى بلاد الميديين ، وتقدم الإسكندر إلى بابل .

وكانت المدينة القديمة مدينة حمورابي (الذي حكم قبل ذلك بسبع عشرة مئة من السنين) ومدينة نبوخذناصر العظيم ونابونيداس ، لا تزال على العكس من نينوى مركزاً هاماً ناجحاً . والبابليون شأنهم في ذلك شأن المصريين ، لم يكن ليعنيهم كثيراً أمر انتقال الحكم من الفرس إلى المقدونيين . وكان معبد بعل - مردك قد أصبح حطاماً وخرائب ومججراً تؤخذ منه مواد البناء ، بيد أن تقاليد الكهنة الكلدان كانت ما تزال باقية ، وقد وعد الإسكندر بإعادة بناء المعبد .

ومن ثم سار إلى سوسا ، التي كانت يوماً ما مدينة العيلاميين البائدين المنسين ، والتي أصبحت العاصمة الفارسية .

ثم سار إلى پرسپولیس حيث أمر - وقد بلغ انتشاره بالخمير في إحدى
المآدب ذروته - باحراق بيت ملك الملوك . ثم أعلن فيما بعد أن هذا هو
انتقام بلاد الإغريق لإحراق إجزر سیس أثينا .

٤ - تجولات الإسكندر

هنا يبدأ طور جديد من أطوار قصة الإسكندر . فإنه ظل السنوات
السبع التالية يتجول بجيش معظمه من المقدونيين ، في شمال وشرق الجزء
الذي كان عند ذلك يُعد العالم المعروف . ابتداءً أولاً بالسیر في أعقاب دارا ،
ثم لا ندرى بعد ذلك ماذا أصبح ... ؟ فهل كان الأمر أمر مسح منظم لعالم
كان ينوى أن يوحد أجزائه ويؤلف منه دولة كبرى ، أم هو مجرد سير
على غير هدى كطراد الأوز البري في صيد ؟ لقد كان جنوده أنفسهم بل
خاصة أصدقائه يعتقدون في الرأي الأخير ، وأخيراً أوقفوا مدرجه وراء
السند . والواقع أن عمله هذا يبدو على الخريطة أشبه الأشياء بطراد أوز
بري ، وكأني بهذا الطراد لا يهدف إلى شيء بوجه خاص ولا يرمى إلى
الوصول إلى مكان ما .

وسرعان ما انتهى به تعقبه دارا الثالث إلى مسرح خاتمته المحزنة . إذ يلوح
أن قواد الملك العظيم أنفسهم ثاروا عليه بعد معركة أربیلا ، ناقمين منه ضعفه
وعدم كفايته . فسجنوه وأخذوه معهم على الرغم من رغبته في أن يلتقي بنفسه
بين يدي سماعة قاهرة ، واتخذوا من بیسوس (Bessl) حاكم باكتریا قائداً
لهم . وانتهى الأمر بالإسكندر إلى طراد جدی حامی الوطیس يتعقب آثار
القافلة الهاربة التي كانت تحمل ملك الملوك الأسير . وعند الفجر ، وبعد
مطاردة دامت الليل كله ، لاحت القافلة في الأفق البعيد ، وأصبح الفرار
جواً جنوبياً ، فلن بیسوس وقواده تركوا المتاع والنساء وكل شيء آخر ،
كما تركوا من خلفهم أيضاً عائلاً آخر ، فإلى جوار بركة ماء منزلة عن
الطريق العام سرعان ما وجد جندي مقلوني عربة متركبة ما تزال
بغالها مشدودة إليها . في تلك العربة كان يرقد دارا صريعاً ، وهو

مطعون في عشرات الأماكن من جسمه والدم يتدفق منه حتى الموت .
ذلك أنه رفض أن يواصل المسير مع ييسوس ، وأبى أن يمتطي الجواد الذي
قدم إليه . ولذا طعنه قواده بحراهم ثم تركوه ، فسأل أسريه بعض الماء .
ولسنا ندرى إن كان قد قال شيئاً آخر غير هذا . على أن المؤرخين رأوا من
اللائق أن يلقفوا عليه حديث النزع الأخير ، وهو ما لا يقبله العقل . ولعله
لم يقل إلا الشيء القليل الطفيف .

ولما أن وافى الإسكندر بعد شروق الشمس بقليل كان دارا قد قضى
نجه . . .

ولتجوالات الإسكندر عند مؤرخ العالم أهمية خاصة بها ، منفصلة تماماً
عن الضوء الذي تلقيه على أخلاقه . فكما أن حملة دارا الأول رفعت الستار
من خلف بلاد الإغريق ومقدونيا ، وأظهرتنا على شيء مما يقع خلف الأستار
الشمالية الصامتة من وراء تاريخ المدينيات الأولى الذي تنقله إلينا السجلات ،
فإن حملات الإسكندر تنقلنا كذلك إلى أقاليم لم يكن أحد دون عنها حتى ذلك
الوقت أى شيء جدير بالثقة .

فيتكشف لنا أنها لم تكن مناطق صحراوية ، بل كانت زاخرة بحياة
جماعات ذات طابع خاص .

سار الإسكندر إلى شواطئ بحر قزوين ، ومن ثم اتجه شرقاً عبر ما يسمى
الآن باسم « التركستان الغربية » ، وأسس مدينة تسمى الآن هيرات (Herat)
ومنها سار شمالاً بطريق كابول وما يسمى الآن باسم سمرقند ، حتى وصل
إلى جبال التركستان الوسطى ، ثم عاد أدراجه جنوباً وانحدر إلى الهند مختزلاً
ممر خيبر ، والتحم في معركة عظيمة على السند الأعلى مع ملك شجاع مديد
القامة ، هو الملك پوروس (Porus) وفيها التقت المشاة المقدونية بجمع من
الأفيال وهزمته . ولعله كان يرغب في مواصلة السير شرقاً عبر الصحراوات
إلى وادى الجانج ، بيد أن جنوده أبت مواصلة السير ، ويحتمل أنهم لو لم يفعلوا

ذلك في تلك الآونة أو بعدها ، لواصل السير حتى يبيد من التاريخ شرقاً ، ولكنه اضطر أن يحول وجهته مرتداً ، فبنى أسطولاً انحدر به إلى مصب السند. وهناك قسم قواته ، فأخذ الجيش الرئيسي وسار على امتداد الشاطئ القاحل قافلاً به إلى الخليج الفارسي ، وقاسى الجيش في الطريق متاعب وأهوالاً جمة ، ومات منه الكثير من الرجال عطشاً ، وتبعه الأسطول بحراً ، ولحق به عند مدخل الخليج الفارسي . وكان في خلال رحلته أثناء هذه السنوات الست يشتبك في معارك ، وتدين له بالخضوع كثير من الشعوب العجيبة ، وينشئ المدن . ولقد رأى جثة دارا في يونية (٣٣٠ ق.م.) وعاد إلى سوسا (٣٢٤ ق.م.) فوجد الإمبراطورية في اختلال . ووجد ولاية الأقاليم (الستارية) ينشئون لأنفسهم جيوشاً خاصة بهم . وألنى باكتريا وميديا في ثورة ، ووجد أولمبياس جعلت مهمة الحكومة في مقدونيا أمراً مستحيلاً . كما أن هارپالوس خازن الملك فر بكل ما خف حمله من الخزنة الملكية ، وأخذ يشق طريقه إلى بلاد الإغريق وهو يرشو الناس في رحيله . ويقال إن بعض أموال هارپالوس وصل إلى جيب ديموسثينز .

على أننا قبل أن نعالج الفصل الختامي لقصة الإسكندر ، نرى أن نقول كلمة عن تلك الأقاليم الشمالية التي تجول فيها . وواضح أنه من أقليم الدانوب وعبر جنوب روسيا قدماً ، وعبر القطر الواقع إلى شمال بحر قزوين قدماً ، والقطر الواقع إلى شرق بحر قزوين فما تلاه حتى الكتل الجبلية في هضبة الهامير ، ثم شرقاً إلى حوض نهر تاريم بالتركستان الشرقية ، - كانت تنتشر آنذاك سلسلة من قبائل وشعوب همجية (متبربرة) متشابهة كلها وهي جميعاً على مرحلة واحدة من الثقافة تقريباً ، وهي في معظم أمرها آرية في لغتها ، ولعلها نوردية في جنسها . وكانت مدنها قليلة العدد إذ هم في الكثير الغالب من المترحلين ، وقد يستقرون في بعض الأحيان استقراراً موقتاً رغبة في زراعة الأرض . ولاريب أنهم كانوا قبل ذلك يختلطون في آسيا الضغرى بالقبائل المغولية . بيد أن تلك القبائل المغولية لم تكن آنذاك منتشرة هناك .

وقد تعرضت تلك الأجزاء من العالم لعملية هائلة مستمرة من جفاف الجو وارتفاع السطح ظلت تحدث طيلة العشرة آلاف السنة الأخيرة . فبعد عشرة آلاف سنة كاملة كان هناك - فيما يرجح - حاجر مياه متصل الحلقات يمتد بين حوض نهر الأوبي (Obi) وبين بحر آرال - قزوين . وإذا أن هذا البحر قد جف ، وأصبحت أراضي المستنقعات قطراً شبه سهوب ، فإن الرحل النورديين القادمين من الغرب والرحل المغول من الشرق التقوا واختلطوا وعاد حصان الركوب إلى العالم الغربي . وواضح أن هذه المنطقة المترامية أخذت تتحول إلى مركز تتجمع فيه هذه الشعوب البربرية . وكان ارتباطهم بالأرض التي يحتلون ارتباطاً مفكك الأوصال ، فكانوا يعيشون في خيام وعربات أكثر منهم في منازل . وكانت دورة وجيزة من سنى الوفرة وانتشار الصحة أو انقطاع الحروب بين القبائل أثناء عهد أحد الحكام الأقوياء ، تؤدي إلى زيادة جسيمة في عدد السكان . فإذا أتت سنتان أو ثلاث من العسرات العجاف فلها تكني لعودة القبائل إلى تجوالها من جديد التماساً للغذاء .

ومن قبل يزوغ فجر التاريخ المدون ، كان إقليم التجمع البشرى هذا بين الدانوب والصين ، يلقى على التناوب قبائل تنال مثل شاييب المطر المتتابع زاحفة جنوباً ونحو الغرب . فكانت تلك المنطقة من خلف المناطق المأهولة بالسكان أشبه بسحب الغمام المتراكم ، يتجمع فيها الغزاة ثم ينفذون كالسيل الطامى . ولقد لاحظنا كيف هبطت الشعوب الكلتية غرباً كطل^(١) خفيف ، وكيف أن الإيطاليين والإغريق وذوى قرباهم من سكان إبيروس والمقدونيين والفريجيين انحدروا جنوباً . ولاحظنا كذلك حركة الكهريمن من الشرق وهي تندفع عبر آسيا الصغرى كشوئوب فجائى من البرابرة ؛ كما شهدنا انحذار الإسكيزيين والميديين والفرس جنوباً وهبوط الآريين إلى الهند . وحدث قبل عهد الإسكندر بما يدانى القرن غزوة آرية جديدة لإيطاليا على يد شعب

(١) الطل : المطر الخفيف ؛ والرايل الثقيل ؛ والشوئوب : الدفعة الواحدة من المطر . (المترجم) .

كلتي ، هو الغال الذين سكنوا وادي نهر پو (Po) : فهؤلاء الشعوب ، على اختلاف أجناسهم ، هبطوا من غمرات الحجب الشمالية إلى ضياء التاريخ . وفي الوقت ذاته كان المستودع ، أعنى إقليم التجمع ، خلف ذلك الضياء . لا يفتر عن تجميع الشعوب استعداداً لفيضانات جديدة . ففسر الإسكندر في آسيا الوسطى يدخل الآن في تاريخنا أسماء جديدة على أسماعنا ، هي أسماء البارثيين (Parthians) وهم شعب من الراكبة الرماة بالقسي ، كتب لهم أن يمثلوا دوراً هاماً في التاريخ بعد ذلك بقرون تقريباً . والباكتريين ، الذين كانوا يعيشون في الموطن الرملي للجمل . ويبدو أنه حينما طاف الإسكندر لتي شعباً تنطق بالآرية ، وكان البرابرة المخول في الناحية الشمالية الشرقية لا يزالون مجهولين . ولا إخال أحداً كان يتصور أن هناك أيضاً مستودعاً آخر عظيماً من السكان فيما وراء الإسكيزيين وأقربائهم مقره شمال الصين . قدر لهم أن ينسابوا هم أيضاً من توهم متدفقين تدفقاً جديداً نحو الغرب والجنوب ، ويختلطوا أثناء مجيئهم بالإسكيزيين (الأشقوزيين) النورديين وبكل من يلتقون به من شعوب أخرى ذات عادات مماثلة لعاداتهم . وحتى ذلك الحين لم يكن أحد غير أهل الصين يعرف شيئاً عن الهون (Huns) . ولم يكن هناك أتراك في التركستان الغربية أو في أى مكان آخر آنذاك . ولم يكن ثمة أى تثار في العالم .

إن هذه اللمحة عن الأحوال السائدة في التركستان في القرن الرابع ق . م . لمن أمتع مظاهر تجولات الإسكندر . وهناك غارة أخرى ، هي غارته على أرض البنجاب . فإن مما يستثير غضب رواة القصة البشرية ، أنه لم يواصل مسيره حتى إقليم الجانج (الكنج) ، وأننا لم نحصل نتيجة لذلك على أوصاف وتفاصيل قائمة بذاتها دمجها كتاب الإغريق عن الحياة في البنغال القديمة . على أن هناك مجموعة ضخمة من المؤلفات في لغات هندية متنوعة تعالج تاريخ الهند وحياتها الاجتماعية ، وهي لا تزال في حاجة إلى من ينفذ عنها الغبار ، ويقدمها إلى القراء الأوروبيين .

٥ - هل كان الإسكندر عظيماً حقاً ؟

ظل الإسكندر ست سنوات يمتلك الإمبراطورية الفارسية غير منازع ، وكان عند ذلك بلغ الحادية والثلاثين . ولم يستحدث في هذه السنوات الست شيئاً يذكر . فاستبقى معظم نظم المقاطعات الفارسية ، وعين حكاماً (Satraps) جديداً أو استبقى السابقين منهم . وكانت الطرق والموانئ ونظم الإمبراطورية لا تزال على ما تركها سلفه الأعظم قورش . واكتفى في مصر باستبدال حكام الأقاليم القدماء بحكام جدد ، وقهر في الهند بوروس ملكها ثم تركه على قدر من القوة لا يقل عما وجدته عليه ؛ اللهم إلا أن بوروس أصبح يسميه الإغريق ساتراب . وخطط الإسكندر عدداً من المدن ، قدر لبعضها أن تنمو وتزدهر فتصبح مدناً عظيمة . فإنه أسس ما يبلغ في مجموعه سبعة عشر إسكندرية تعاونت على أسمائها تغيرات شتى - مثال ذلك قندهار (اسكندر) وسيكندر آباد . على أنه دمر صور ، ودمر مع صور كل أمن وطمانينة تستظل بها الطرق البحرية التي كانت حتى ذلك الحين المنفذ الرئيسي لبلاد ما بين النهرين نحو الغرب . ويقول المؤرخون إنه « هلن » الشرق ، أى صبغه بالصبغة الهلينية . على أن مملكة بابل ومصر كانتا تعجان بالإغريق قبل زمانه . فهو إذن لم يكن السبب في هذه العملية بل كان أحد عواملها . وبفضله ظل العالم بأسره رديحاً من الزمان ، من البحر الأدرياتي إلى نهر السند تحت لواء حاكم واحد . وبذا يكون قد حقق أحلام إيزوقراط وآمال فيليب أبيه . ولكن إلى أى حد كان يسعى إلى جعل هذا الاتحاد مستديماً وطيد الأركان ؟ وهل كانت إمبراطوريته حتى آنذاك إلا زخرفاً راقاً يبهـر الأبصار ورواء مؤقتاً لشخصه العظيم الأخاذ ؟ .

لم يعمد إلى إنشاء طرق عظيمة ، ولا إقامة مواصلات بحرية آمنة مضمونة . ومن السخف أن تنهمه بأنه أهمل التعليم ، لأن الفكرة القائلة بأن الإمبراطوريات يجب أن تربط التعليم أجزاءها ، كانت لا تزال غريبة عن الفكر البشرى . بيد أنه لم يحط نفسه بأية طائفة من الساسة ولا كان يفكر في أى خلف له ،

ولم يعمل على ابتداع أى تقاليد ، بل إن ما أنشأه لا يعدو أن يكون أسطورة تدور حول شخصه . ويلوح أنه لم يدر بخبلده أن الفلك سوف يواصل الدوران من بعده ، وأن العالم لن تشغله أمور أخرى عدا التحدث بفخامته وروعته . كان لا يزال صغير السن لا جرم . ولكن ألا ترى أن فيليب قبل أن يصل إلى الحادية والثلاثين من عمره بزم من بعيد كان يفكر فى تعليم الإسكندر ؟

وقد يتساءل الإنسان عما إذا كان الإسكندر صاحب فكرة فى السياسة على الإطلاق ؟

إن بعض دارسى تاريخ حياته يؤكدون أنه كان من أبواب السياسة والتدبير ، وأنه شغل يوم كان فى سوسا بوضع الخطط لإقامة إمبراطورية عالمية ؟ . وأنه كان لا يرى فيما يعمل مجرد فتح مقدونى للعالم ، بل صهراً ومزجاً لتقاليد الأجناس البشرية بعضها ببعض . ومهما يكن من شىء فإنه فعل شيئاً واحداً ، يلمح إلى هذه الفكرة تلميحاً خفياً ، إذ أقام وليمة عرس كبرى ، تزوج فيها هو وتسعون من قواده وأصدقائه من عرائس فارسىات . فأمّا هو فقد تزوج بنت دارا ، وإن كانت لديه من قبل زوجة أسيوية هى روكسانا (Roxana) ابنة ملك سمرقند . وأقام لهذا الزواج الجماعى حفلاً رائعاً جداً . وفى الوقت نفسه ، قدم هدايا العرس للمقدونيين الذين تزوجوا من عرائس أسيويات ، والذين كان يبلغ عددهم عدة آلاف . وقد سُمى هذا « زواج أوروبا وآسيا » . إذ كان لا بد للقارتين من الارتباط على حد قول بلوتارك « برباط زواج شرعى وبجامع الاتصال والاشتراك عن طريق الذرية والنسل » . ثم أخذ بعد ذلك يدرب المجندين من فارس ومن الشمال ، أى من الفرس والباكتريين ومن على شاكلتهم — على فنون الحرب التى تتميز بها الأنظمة الخاصة بالفيلق والفرسان . فهل كان ذلك أيضاً لكى يتم مزج آسيا وأوروبا ؟ أم كان يرى من وراء ذلك إلى الاستقلال بنفسه عن رجاله المقدونيين ؟ لقد اشتّموا منه رائحة الفكرة الثانية على كل حال ، فتمردوا عليه ، واستطاع فى شىء من

الصعوبة أن يرجعهم في حال من الضراعة والندم ، واستألمهم إلى الاشتراك في وليمة عامة جمعت بينهم وبين الفرس . ولقد أجرى المؤرخون على لسانه حديثاً بليغاً مستفيضاً لهذه المناسبة ... كان بيت القصيد فيه أنه أمر رجاله المقدونيين أن يرحلوا ، ولم يوضح لهم الطريقة التي يرى أن يخرجوا بها من فارس إلى وطنهم . فبعد أن قضوا ثلاثة أيام في هلع ، خضعوا له واتمسوا منه الصفح والغفران .

والواقع أن هذا الموضوع يمكن أن يكون موضع بحث شائق . فهل كان الإسكندر حقاً ينوى إدماج الأجناس ومزجها بعضها ببعض . أم أن كل ما في الأمر أن قلبه تعلق بحب ما يستمتع به الملك الشرق من عظمة وقسدية ؟ وكان لذلك يريد أن يتخلص من هؤلاء الأوربيين الذين لا يعدونه إلا ملكاً فائداً ؟ على أن كتاب عصر الإسكندر ، والكتاب الذين عاشوا في زمن قريب من عصره أميل كثيراً إلى الأخذ بالفكرة الثانية . وهم يؤكدون لنا أنه كان مغروراً غروراً لا حد له ، ويقصون كيف أنه أخذ يرتدى أثواب ملوك الفرس وتيجانهم ، « يرتديهما أولاً أمام البرابرة وعلى انفراد وبين خاصته ، ولكنه ما لبث حتى أخذ يرتديهما على الملأ عند جلوسه لتصريف الأمور » وسرعان ما طلب من أصدقائه مظاهر الخضوع والخشوع على الطريقة الشرقية .

ولعل هناك شيئاً واحداً يقوى الظن بوجود غرور شخصي عظيم في الإسكندر . فإن صورته نقشت ونحتت مراراً كثيرة ، وهو يبدو فيها على الدوام في صورة الشاب الجميل ذي الذوائب المدهشة التي تتدل إلى الخلف كاشفة عن جبين عريض . وكان معظم الرجال في سالف الزمان يرخون لحاهم . ولكن الإسكندر الذي فتن بجماله وغضارة شبابه كان يأبى أن تفارقه نضرة الصبا . لذا ظل غلاماً زائفاً في سن الثانية والثلاثين فكان حليق الوجه وبذلك استن للإغريق وإيطاليا سنة دامت قروناً كثيرة .

وقصص العنف والغرور في سنيه الأخيرة تتجمع متكاملة حول ذكراه .

فإنه أصغى ذات مرة إلى هذر نمام وشى له بفيلوتاس بن پارمينيون أحد أشد قواده إخلاصاً وفوراً بثقتة . إذ أبلغه أن فيلوتاس ، قال متفاخراً بنفسه أمام امرأة كان يغازلها : « إن الإسكندر إنما هو مجرد غلام . وأنه لولا رجال من أمثال أبيه وأمثاله لما تم له غزو فارس وأشباهها من البلدان » . ومثل هذه الروايات تنطوى على عنصر معين من الصدق . وأحضرت المرأة بين يدي الإسكندر ، فأصغى إلى غدرها وخيانتها . واتهم فيلوتاس للساعة بالتآمر عليه ، ثم أمر به فعذب وأعدم بناء على أدلة براء ناقصة . ثم فكر الإسكندر في پارمينيون ، الذى مات ولداه الآخرين من أجله (أى الإسكندر) فى ميدان القتال . فأرسل رسلاً سراعاً ليقتلوا الشيخ المسن قبل أن يبلغه مقتل ولده . وكان پارمينيون هذا من أكثر قواد فيليب تمتعاً بثقتة وپارمينيون هذا هو القائد الذى قاد الحيوش المقدونية إلى آسيا قبل مصرع فيليب . وليس هناك أقل شك فى صحة جوهر هذه القصة وصدق ما تروى . ولا فى إعدام كاليستينز ابن أخت أرسطو الذى رفض أن يقدم للإسكندر مراسم التقديس . ثم « أخذ يسير فى كبرياء واختيال كمن ذك طغياناً ، على حين كان الشبان يتبعونه بوصفه الرجل الحر الأبى الوحيد بين آلاف الرجال » . ويختلط بأمثال هذه الحوادث تلك القصة التى لها دلالتها — قصة الشجار الذى قتل فيه الملك كليتوس أثناء معاقرتهمما الخمر . ذلك أن الملك ورفاقه أكثروا ذات ليلة من الشراب . فأطلق الشراب الألسنة وجعل الحديث عالياً حرّاً وانطلقت ألسن بالملق الكثير « للإله الصغير » مع الإسراف فى الخط من من قدر فيليب ، وابتسم الإسكندر لذلك ابتسامة الرضا . وكان ذلك الاغتياب النفسى الخمور فوق ما يطيقه المقدونيون ، فنارت له نائرة كليتوس — وهو أخوه فى الرضاع — ثورة جنونية . فلام كليتوس الإسكندر على ارتدائه الثياب الميدية وأثنى على فيليب . وعقب هذا شجار صاخب ، ودفع أصدقاء كليتوس به إلى خارج الحجرة لوضع حد لهذا الشجار . على أنه كان مع ذلك فى حالة السكر التى تبعث العناد فعاد من مدخل آخر

وسمع في الخارج وهو ينشد مقتبساً هذه الأبيات من اشعر يوريبيلدس في نبرة جريئة مليئة بالازدراء « أهذه عاداتكم ؟ أهكذا بلاد الإغريق تكافئ مقاتليها ؟ أيدعى رجل واحد الغنائم التي غنمها الآلاف ؟ » ،

وعند ذلك اختطف الإسكندر حربة من أحد حراسه وأنفذها في جسم كليتوس وهو يرفع الستار ليدخل ...

والإنسان مضطر إلى الاعتقاد بأن هذا هو الجو الحقيقي لحياة الفاتح الشاب . ثم إن قصة مظاهر حزنه الجنوني الشديد على هيفايستيون Hephæstion لا يمكن أن تكون كلها اختلاقاً ولا من نسج الخيال تماماً ، فلئن صحت كلها ، أو كانت صحيحة في بعض أجزائها ، فإنها تكشف عن ذهن مضطرب لا يعرف الاتزان ، ومحصور تماماً في صفائر الأمور الشخصية ، ذهن لم تكن الإمبراطورية لديه إلا مجالاً للمظهر الأناني ، ولا موارد العالم بأسرها إلا مادة لنوبات من ذلك النوع من السباحة والكرم الذي يسرق ألف إنسان لكي ينزع إعجاب شخص واحد مبهور بما يجزل له من عطاء .

فإن هيفايستيون الذي كان مريضاً فرضت عليه تغذية خاصة دقيقة — عمد أثناء غياب طبيبه في المسرح إلى دجاجة محمرة فتناولها ، واحتسى قنينة من النبيذ المثلوج فثارت على الأثر . وعند ذلك آلى الإسكندر على نفسه أن يقيم مظاهر الأسى والأحزان . وكان حزنه هذا حزن مجنون معتوه . فأمر بالطبيب فصلب ، وأمر بقص شعر كل حصان وبغل في بلاد فارس وهدم جميع حصون وطوابي المدن المجاورة ، ومنع الموسيقى بثنائاً في معسكره مدة طويلة . ولما أن استولى على قرى سعيية من قرى القوزيين (Cusaeans) أمر بكل البالغين فيها فذبحوا قرباناً لروح هيفايستيون ، ثم خصص ما لا يقل عن عشرة آلاف تالتوم (talentum) لإقامة قبر له . وكان هذا بالنسبة لتلك الأيام مبلغاً هائلاً من المال . وليس في واحد من هذه الأمور أى تكريم حقيقى لهيفايستيون ، بيد أنها أظهرت للعالم المأخوذ فرقاً ورعباً كم يكون حزن الإسكندر هائلاً مروعاً !!

وقد تكون هذه القصة الأخيرة والكثير من أمثالها ترهات وأكاذيب أو تشويهات أو مبالغات ، بيد أن بينها سبباً يجمعها . وبعد حفل صاحب في بابل اشتد فيه الشراب . أملت بالإسكندر حمى مباحثة (٣٢٣ ق.م.) فاعتل ومات وهو بعد في الثالثة والثلاثين لم يتجاوزها . ومنذ ذلك الحين تجد الإمبراطورية العالمية التي كان اختطفها وأمسك بها بين يديه ، كما يفعل الطفل بزهريّة ثمينّة قد سقطت إلى الأرض وتحطمت لإرباً .

فاختفى بموته كل ما لاحت بوارقه في مخيلة الناس من نظام حكم عالمي شامل . ووقعت البلاد من بعده بين برائن حكم استبدادي مطلق أو أوتوقراطي هيجي يغشاه الاضطراب . وأخذ كل حاكم من حكام الأقاليم يشيد لنفسه ويعمل لحسابه . ولم تمض أعوام قليلة حتى أبيدت كل عائلة الإسكندر بأسرها فقد سارعت روكسانا زوجته الأعجمية إلى قتل ضرّتها ومنافستها ابنة دارا . ثم وضعت - للوقت - ابناً للإسكندر ولد بعد وفاته ، وكان يسمى هو أيضاً الإسكندر . ثم ما لبث أن لقي مصرعه معها بعد ذلك ببضع سنين (٣١١ ق.م.) . وقتل أيضاً هرقل (Hercules) الإبن الآخر الباقي للإسكندر ؛ وكذلك قتل أيضاً أريدايوس أخو الإسكندر غير الشقيق الضعيف العقل . ولم يفت بلبوتارك أن يلقى لحة أخيرة إلى أوليمپياس في أثناء فترة وجيزة استمتعت فيها بالقوة والسلطان في مقدونيا . وقد أخذت تبهم هذا الشخص أولاً ثم ذاك ، بتهمة دس السم لولدها الرائع ، فقتلت الكثيرين في ثورة حنقها ، وأمرت بحث بعض خاصته الذين ماتوا بعد وفاته ، فاستخرجت من قبورها . ولسنا ندرى هل ألقى هذا البحث والنّيش لحنث الموتى أى ضياء جديد على وفاة الإسكندر . وأخيراً قتلت أوليمپياس في مقدونيا ، إذ اغتالها أصدقاء أولئك الذين قتلهم .

٦ - خلفاء الإسكندر

وسرعان ما برزت من حمأة الإجرام هذه شخصيات رئيسية ثلاث .

فإن شطراً كبيراً من الإمبراطورية الفارسية القديمة يمتد حتى السند شرقاً ،



وحتى ما يكاد يداني ليديا غرباً ، تملكه قائد واحد اسمه سلوقوس (Se eucus) أسس أسرة مالكة هي الأسرة السلوقية . وانتقلت مقدونيا إلى يد قائد مقدوني آخر هو أنتيجونوس (Antigonos) . واستحوذ على مصر مقدوني ثالث هو بطلميوس

(Ptolemy) ، فجعل من الإسكندرية قصبته (٨٥) سلوقوس الأول

لبلاده وأسس قوة بحرية متفوقة تكفل له الاحتفاظ بقبرص (ومعظم ساحل فينيقيا وآسيا الصغرى في حوزة يده . ودامت إمبراطوريتا بطلميوس



وسلوقوس زماناً طويلاً . على أن أوضاع الحكم في آسيا الصغرى والبلقان كانت أقل استقراراً . ولنا لموردون للقارىء خريطين لتساعداه على تفهم ما كان يطرأ على الحدود السياسية في القرن الثالث ق.م. من التقلبات الكثيرة . وهزم أنتيجونوس وقتل في معركة إيسوس (Ipsus) (٣٠١ ق.م.) تاركاً ليسياخوس (Lysimachus) وإلى تراقيا وكساندر (Cassander) وإلى مقدونيا وبلاد الإغريق ، خلفين له وإن لم يمكننا

في الحكم طويلاً . واقتطع حكام أقل شأنًا في ولايات صغرى لأنفسهم . وفي نفس الوقت كان البرابرة يتدفعون من الغرب والشرق إلى عالم المدنية المفكك الأوصال الواهن القوى . وجاء الغال من الغرب ، وهم شعب وثيق القرابة بالكلت ، فأغاروا محتاجين مقدونيا وبلاد

الإغريق حتى دلتى (٢٧٩ ق. م.) وعبر فرعان منهم البوسفور إلى آسيا الصغرى . كانوا فى مبدأ الأمر يستخدمون جنوداً مرتزقة ، ثم أخذوا يعملون لحسابهم الخاص كناهبين مستقلين . وبعد أن مضوا فى غاراتهم حتى جبال طوروس تقريباً ، استقروا فى أرض الفريجيين (Phrygians) القدماء ملزمين من حولهم من الناس بدفع الجزية . (وقد أصبح غال فريجيا هؤلاء هم الغلاطيين (Galatians) المذكورين برسالة القديس بولس) وأصبحت أرمينيا والسواحل الجنوبية للبحر الأسود منطقة مضطربة لكثرة من تغلب عليها من حكام . وظهر فى كبادوكيا (Cappadocia) وفى بلاد بونتش (Pontus) وهى الساحل الجنوبي للبحر الأسود وفى بيثونيا (Bithynia) وفى برجامة ، ملوك شبوا متشبعين بالأفكار الهلينية . ومن الناحية الشرقية تقدم كذلك نحو الجنوب الإسكيديون والبارثيون والباكتريون . واستدامت هناك دول باكتيرية يحكمها الإغريق لم تنفك تتحول تدريجياً إلى الطابع الشرقى . وفى القرن الثانى ق. م. ، أغار بعض مغامرى الإغريق من باكتيريا منحدرين حتى شمال الهند . وأسسوا هناك ممالك قصيرة الأجل ، وهى آخر موجة للإغريق نحو الشرق ، ثم أخذت الهمجية (البربرية) تتدلى تدريجياً كالستار وتحجب الهند عن المدينيات الغربية (١) .

٧ - برجامة ملاذاً للثقافة

هناك دويلة صغيرة تنهض بارزة بين أشلاء هذه الإمبراطورية الهلينية المحطمة وتطالبنا بأن نفرد لها قسماً وجيزاً على الأقل — تلك هى مملكة برجامة (Pergamun) . وقد سمعنا باسم هذه المدينة لأول مرة بوصفها مركزاً مستقلاً لإبان النزاع الذى انتهى بمعركة إيسوس . وبينما كان سيل غزو الغالة يرغى ويزبد ويدور جيئةً وذهاباً فى آسيا الصغرى بين سنتي ٢٧٧ و ٢٤١ ق. م. ، ظلت برجامة تدفع الجزية للغالة حينئذ من الزمان ، على أنها احتفظت باستقلالها العام . وانتهى الأمر فى موقعين فاصلتين . وظلت برجامة بعدها حرة طليقة مدة تزيد على قرن من الزمان (أى حتى ١٣٣ ق. م.) ، ولعلها كانت خلال تلك المدة أسمى دول العالم مدنية . وقد

(١) عن تفاصيل العصر بعد وفاة الإسكندر ، انظر المترجم : « الحصار الهلنسي » : الألف كتاب والأنجلو .

أقيمت على تل الأكروبوليس مجموعة فخمة من المباني والقصور والمعابد ، كما أقيم متحف ومكتبة ينافسان متحف ومكتبة الإسكندرية اللذين سنتكلم عنهما من فورنا ، ويكادان يكونان أول ما ظهر من نوعهما في العالم . وقد ازدهر الفن الإغريق للمرة الثانية بفضل رعاية أمراء برجامة . وإن فيما صنع هناك من النقوش البارزة بمذبح معبد زيوس ، ومن تماثيل الغالة المقاتلين ، وتماثيل الذين في النزاع الأخير لجزءاً خالداً من ذخيرة الإنسانية الفنى .

ولم يمض طويل زمن كما سنبين ذلك فيما بعد ، حتى أخذ الناس يشعرون في شرق البحر المتوسط بسلطان قوة جديدة ، هى الجمهورية الرومانية ، التى كانت ترتبط ببلاد الإغريق وبالمدنية الإغريقية بشعور المودة . ووجدت الحاليات الهلينية برجامة ورودس ، فى تلك الجمهورية الرومانية حليفاً طبيعياً نافعاً ومعيناً لها على الغلاطيين والإمبراطورية السلوقية المصطبغة بصبغة شرقية . وسنقص عليك فيما بعد كيف انتهى الأمر بأن امتد نفوذ الدولة الرومانية إلى آسيا ، وكيف أنها هزمت الإمبراطورية السلوقية فى معركة ماجنيزيا (١٩٠ ق.م.) وطردتها من آسيا الصغرى إلى ما وراء جبال طوروس وكيف انتهى الأمر (١٣٣ ق.م.) بأن استسلم أثالوس الثالث آخر ملوك برجامة إلى إحساسه بالمصير المحتوم ، فجعل الجمهورية الرومانية وارثة لملكته التى أصبحت عند ذلك ولاية « آسيا » الرومانية .

٨ - الإسكندر كبشير وداعية للوحدة العالمية

يكاد كل المؤرخين تقريباً ينزعون إلى اعتبار سيرة الإسكندر الأكبر مؤذناً بعهد جديد فى الشؤون البشرية . فلإنها ضمت شتات العالم المعروف كله باستثناء الجزء الغربى من البحر المتوسط فجعلت منه مسرحية واحدة . على أن الآراء التى كونها الناس عن الإسكندر ذاته ، تتفاوت تفاوتاً بعيداً . فإنهم ينقسمون فى غالبيتهم إلى مدرستين رئيسيتين . ففريق من العلماء يسحره شباب ذلك الفتى وبهاؤه وجلاله . ويبدو أن هؤلاء القوم من عباد الإسكندر ميالون لقبوله على أساس التقدير الذى يقدره هو لنفسه متغاضين

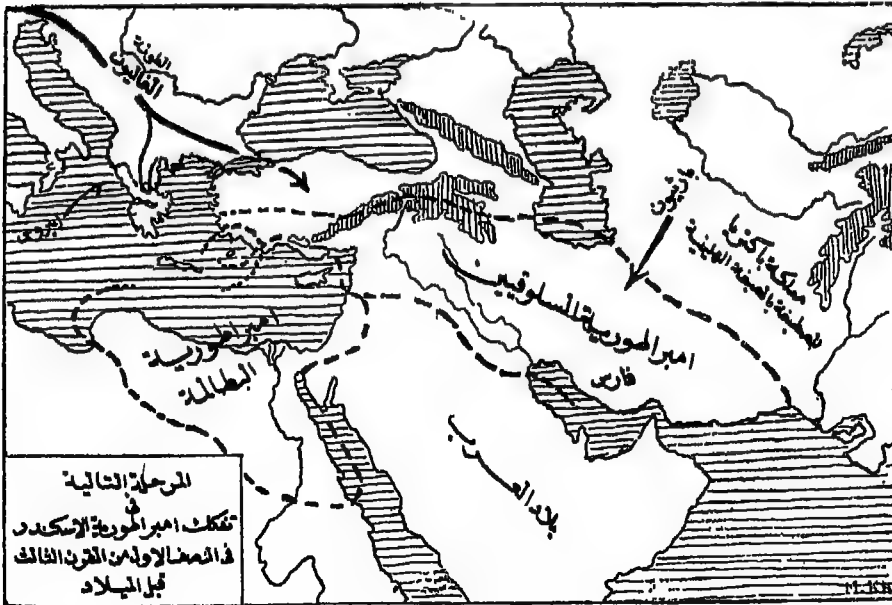
عن كل جريمة ارتكبتها وكل طيش ونزق بدر منه ، إما بعدها مجرد ثوران لطبيعة خصبة أو أشياء اقتضتها الضروريات المريرة التي حتمتها إحدى الخطط الهائلة ، واعتبار حياته مصوغة في خطة مرسومة من الحنكة والسياسة والتدبير بصورة لا تكاد معها معرفتنا الواسعة وأفكارنا الفسيحة الآفاق في هذه الأيام الحديثة تكفى لإدخالها في مجال فهمنا وإدراكنا ١٩١١ ... وهناك من الجانب الآخر ، من يرون فيه مجرد محطم لما كان يتكون ويستحصد من احتمالات لتحقيق عالم حر هادئ مهلّن .

ويحسن بنا قبل أن ننسب إلى الإسكندر أو إلى أبيه فيليب وضع خطط للسياسة العالمية جذرة بأن يقرها المؤرخ الفيلسوف في القرن العشرين ، أن نتأمل بغاية العناية أقصى ما كان في إمكان المعرفة والفكر أن يبلغاه في تلك الأيام . فإن عالم أفلاطون وإيزوقراط وأرسطو ، لم يكن لديه بالفعل أى تراث تاريخي . ينتهل منه على الإطلاق ، فإلى ما قبل العصر الحديث بقرنين ، لم يكن لدى العالم ذلك الشيء المسمى بالتاريخ ، وأعنى به التاريخ ميمزاً عن مجرد المدونات التاريخية الكهنوتية . ولم يتهياً لأوسع الناس علماً ومعرفة إلا أضيفت الفكرات عن الجغرافيا والبلدان الأجنبية . إذ كان العالم ما يزال ينظر معظم الناس مسطحاً لا تُعرف له نهاية . وكانت الفلسفة السياسية الوحيدة المنسقة تقوم على تجارب دويلات مدن صغيرة ، فلم تأبه بالإمبراطوريات ولم يكن أحد ليعرف شيئاً عن أصول المدنية ، ولم يسبق لأحد قط أن تأمل في الشؤون الاقتصادية قبل ذلك الزمان . ولم يكن أحد قد استنبط نتيجة تفاعل إحدى الطبقات الاجتماعية في الأخرى . وإنا لنسرف في ميلنا إلى اعتبار حياة الإسكندر وأعماله تاجاً على مفرق بعض عمليات كانت قائمة على قدم منذ زمان بعيد ، وأن نعتبرها أوج رفعة وصعود ، ولا شك أنه كان كذلك من ناحية ما . بيد أننا نكون أقرب كثيراً إلى الصدق حين نقرر أنها لم تكن نهاية قدر ما كانت بداية . فكانت أول وحى أوحى إلى الخيال الإنساني عن وحدة الشؤون البشرية . وكان أقصى ما بلغه فكر بلاد الإغريق قبل زمانه ، هو النظر في فكرة صبغ الإمبراطورية الفارسية بصبغة هيلينية ، وفي بسط سيادة المقدونيين والإغريق على العالم .

ولكن قبل أن يقضى الإسكندر نخبه ، بل وبعد أن مات وتهاى للناس الزمن لإعادة التفكير فى أمره ، كانت فكرة إيجاد قانون ونظام للعالم أصبحت فكرة عملية تستطيع عقول الناس أن تمثلها .

وظل الإسكندر الأكبر بضعة أجيال وهو فى عين العالم رمز النظام والسلطان العالمى وعنوانهما المائل ، فأصبح كائناً خرافياً . وإن رأسه المزدانة بالرموز المقدسة لهرقل نصف الإله أو للإله أمون رع ، لتظهر على عملة كل من استطاع من خلفائه أن يدعى لنفسه أنه وارثه . ثم حل لواء فكرة السيادة العالمية ، شعب آخر عظيم هو الرومان ، وهو شعب أظهر طوال عدة قرون نبوغاً سياسياً يعتد به . وقد حجبت شخصية مغامر بارز آخر هو قيصر ، ضياء الإسكندر فى أنظار النصف الغربى من العالم القديم .

وعلى هذا فإننا عند مستهل القرن الثالث ق.م. ، نجد أن ثلاثاً من الأفكار البناءة العظيمة التى تتسلط على عقل الجنس البشرى المعاصر ، قد أخذ عودها يشتد فى المدنية الغربية للعالم للقديم . ولقد تتبعنا فيما سلف تحور الكتابة والمعرفة وتخلصهما مما كان يحيطهما به كهنة العالم القديم من أسرار وخفايا ،



خطوة ، كما تعقبنا تطور فكرة جعل المعرفة فى متناول الجميع وفكرة التاريخ والفلسفة اللذين يمكن فهمهما ونقلهما بين الناس كافة . واتخذنا من شخصى هيرودوت وأرسطو شاهدين نموذجيين على هذه الفكرة العظيمة الأولى ، فكرة العلم ، مع استعمال كلمة « العلم » بأوسع معانيها وأصحها لتشمل التاريخ وتدل على صورة واضحة للإنسان فى علاقته بالأشياء المحيطة به . وقفونا أيضاً تعميم الديانة عند البابليين واليهود وغيرهما من الشعوب السامية ؛ أى نقلها من العبادة الخفية فى المعابد والأماكن المقدسة لبعض الأرباب المحليين أو القبليين إلى عبادة علنية « لإله واحد للكون كله تدعو للصالح والبر » معبده العالم بأسره . وتتبعنا أيضاً منذ هنيهة كيف نبتت لأول مرة فكرة « سياسة عالمية » . أما باقى تاريخ الجنس البشرى فهو فى معظمه تاريخ لهاته الأفكار الثلاث فكرة العلم وفكرة البر والصالح الشامل وفكرة إقامة حكومة عامة للجنس البشرى كافة — فى أثناء ذبوعها وانتشارها من أذهان النادرين الأفذاذ من الأفراد والشعوب التى نبتت فيها لأول مرة ، إلى أن استقرت فى الوعي العام للجنس البشرى ؛ وحين أسبغت عليه فى مبدأ الأمر لوناً جديداً ، ثم أعارته روحاً جديدة ، ثم وجهته توجيهاً جديداً فى الشؤون الإنسانية .

الفصل الثالث والعشرون

العلم والدين في الإسكندرية

- ١ - علم الإسكندرية .
٢ - فلسفة الإسكندرية .
٣ - الإسكندرية مصنعاً للديدنات .
٤ - الإسكندرية والهند .

١ - علم الإسكندرية

كانت مصر من أشد أجزاء إمبراطورية الإسكندر الأكبر العالمية الوجيزة الأمد ، نجاحاً ورفاهة . وكانت من نصيب بطليموس الذي عرفنا فيه من قبل صديقاً من أصدقاء الإسكندر الذين نفاهم الملك فيليب . وكان القطر على بعد يجعله في حوز حرير من الغالة السالبة وبارثيا الناهبة . وكان تدمير صور والقضاء على البحرية الفينيقية وإنشاء الإسكندرية ، قد أتاحا لمصر سلطاناً ورفعة بحرية موقوتة في شرق البحر المتوسط . فنمت الإسكندرية نمواً هياً لها أن تنافس قرطاجة وأصبح لها في الناحية الشرقية تجارة خارجية عن طريق البحر الأحمر مع بلاد العرب والهند . ونافت تجارتها في الناحية الغربية التجارة القرطاجية . وكتب لأهيتها التجارية أن تعمّر قروناً عديدة . قدر لها كذلك أن تبلغ بالفعل أقصى حد لنموها في ظل أباطرة الرومان .

ووجد المصريون في حكام البطالمة من مقدونيين وإغريق حكومة أشد عطفاً وأكثر تسامحاً من أية حكومة عرفوها منذ أن انتهى عهدهم بحكومتهم الإمبراطورية المستقلة . وفي الحق إن القول أن مصر هي التي غلبت البطالمة سياسياً وضمتهن إليها أدنى إلى الصواب من القول بأن المقدونيين هم الذين سادوا مصر وحكموها .

والحق إن الذي حدث كان عودة إلى الأفكار السياسية المصرية أكثر منه محاولة لصنع حكومة البلاد بصيغة هليينية . وأصبح بطليموس هو الفرعون ، الملك الإله ، كما أن نظامه الإداري كان امتداداً للتقاليد القديمة من عهد بيبي

وتحتمس ورمسيس ونخاو . وكان للإسكندرية مع ذلك دستور من طراز دساتير المدن الإغريقية يصرفُ الشئون الداخلية للمدينة مع خضوعها لسيادة فرعون الإلهية . وكانت لغة البلاط والحكومة هي اللغة الإغريقية الأتيكية^(١) . كما أن اليونانية صارت اللغة الشائعة بين طبقة المتعلمين في مصر إلى حد أن الحالمة اليهودية هناك وجدت لزماً عليها أن تُترجم التوراة إلى تلك اللغة ، إذ لم يعد كثير من بنى جنسهم قادرين على فهم العبرانية . ولبثت اليونانية الأتيكية بضعة قرون قبل المسيح وبعده لغة جميع المتعلمين من البحر الأدرياتي إلى الخليج الفارسي .

ويبدو أن بطليموس وهو أحد الشبان الذين أحاطوا بالإسكندر ، قد انفرد وحده ببذل أقصى جهده في تحقيق الأفكار المنطوية على تنظيم المعرفة تنظيماً دقيقاً كما أوحاها وبها أرسطو في بلاط فيليب المقدوني . وكان بطليموس رجلاً أوقى مواهب عقلية خارقة ، يجمع بين قوة الابتكار والتواضع ويخامر نفسه استخفافاً - لا يغيب عنا سببه - بالأثر الوراثي الذي خلفته أوليمپياس في عقل الإسكندر . وقد اندثر كتابه الموسوم « التاريخ المعاصر لحملات الإسكندر » ولكنه كان مصدراً استقت منه جميع الروايات الباقية وكانت مدينة له بأعظم الفضل .

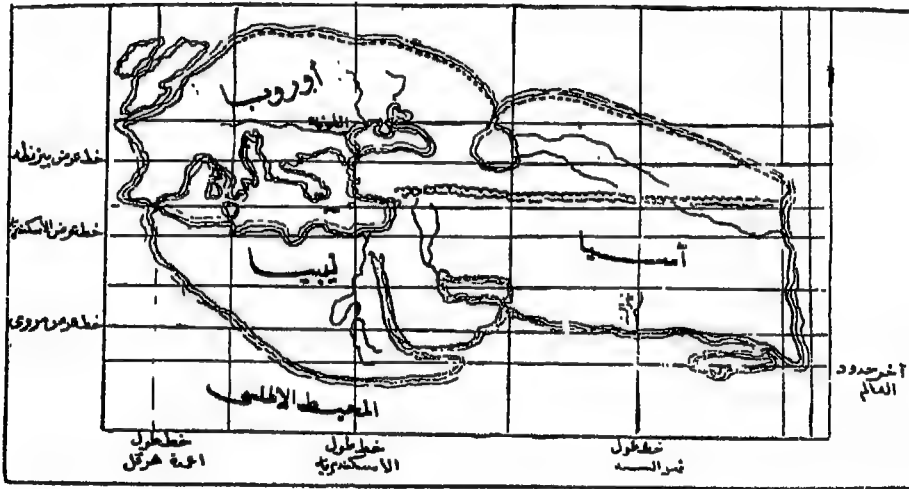
وكان المتحف الذي أقامه في الإسكندرية بمثابة أول جامعة في العالم . وكان المتحف كما يدل عليه اسمه (باللغات الأجنبية Museum) مكرساً لخدمة التأسوس الإلهي (Muses)^(٢) وكذلك كان شأن مدرسة المشائين في أثينا . ولكنه كان هيئة دينية من الناحية الشكلية فقط . وذلك رغبة في التغلب على الصعوبات القانونية المتعلقة بالهبات المالية في عالم لم يسبق له أن توقع شيئاً من طراز هذه الحركة الفكرية العلمانية . وكان في جوهره كلية مكونة من علماء يعنون بصفة خاصة بالبحث العلمي والتدوين على أنهم يشتغلون أيضاً إلى حد ما بالتعليم . وأنتج المتحف الإسكندري بادئ ذي بدء ، وفي مدى جيلين أو ثلاثة ، نخبة من العلماء لم تستطع أية مدينة أن

(١) الأتيكية نسبة إلى أتيكا وهي المنطقة المحيطة بأثينا . (المترجم)

(٢) الآلهة التسعة وهي عرائس الشعر والأدب وسائر الفنون . (المترجم)

تضارعها حتى أثينا في أزهى عصورها . وكان الإنتاج الرياضى والجغرافى بالغ الصحة والدقة بوجه خاص . وإن أسماء إقليدس (Enclid) المعروف لكل تلميذ وإراتوستينز (Eratosthenes) الذى قاس حجم الأرض ووصل إلى ما يدانى القطر الحقيقى بخمسين ميلا ، وأبولونيوس الذى كتب عن القطاعات المخروطية ، لتبرز ظاهرة مرموقة . وقام هيبارخوس (Hipparchus) بأول محاولة لعمل سجل للنجوم وإثباتها على خريطة يمكن الرجوع إليها بغية تسجيل ما عساه أن يحدث فى السماء من تغيرات . واستحدث هيرون (Hero) أول آلة بخارية . وجاء أرشميدس (Archimedes) إلى الإسكندرية

خريطة العالم فى نظر إراتستينز (٢٠٠ ق . م)



(٨٨) العالم فى نظر إراتستينز (٢٠٠ ق . م)

يطلب العلم ، وظل يرأس المتحف بين الآونة والأخرى . ولا تقل مدرسة الطب بالإسكندرية عن المتحف شهرة . ولأول مرة فى تاريخ العالم وضع بها المستوى العلمى اللازم لحرفى مهنة الطب . ويقال إن هيروفيلوس (Herophilus) أعظم رجال التشريح الإسكندريين قام بعملية تشريح المحرمن المحكوم عليهم بالإعدام وهم أحياء ، وانبرى معلمون آخرون للظعن على دراسة التشريح معارضة منهم هيروفيلوس وساهموا فى تطور علم العقاقير .

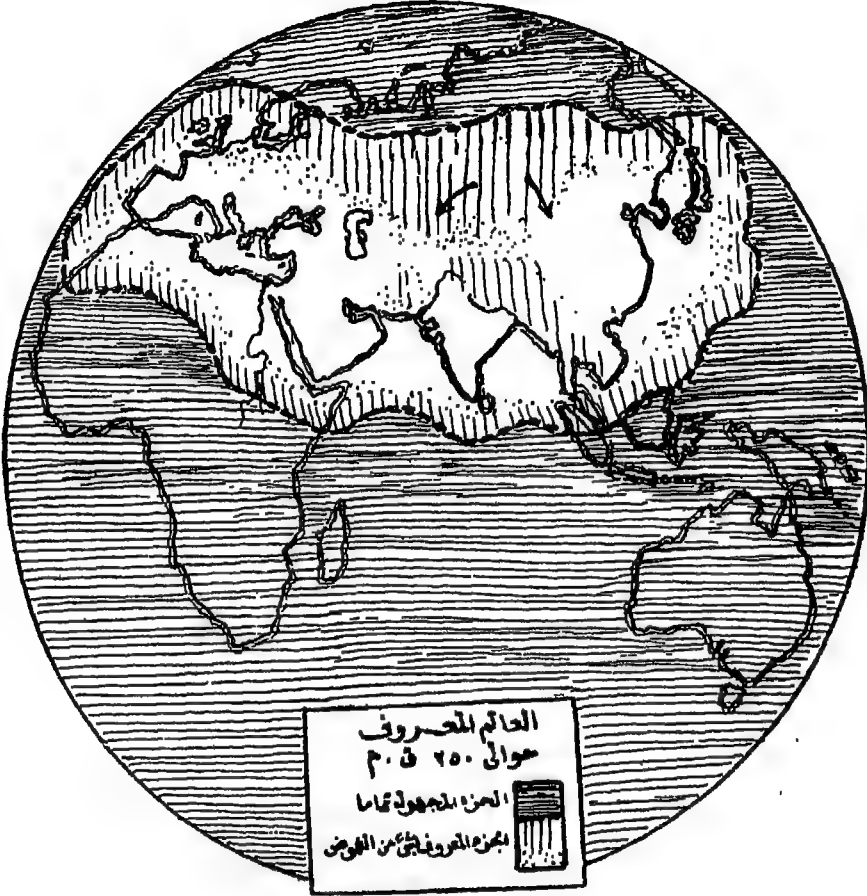
على أن هذه الشعلة العلمية التى انبثقت فى الإسكندرية لم تستمر فى خجلتها أكثر من قرن . إذ أن نظم المتحف لم يراع فى رسمها أن تضمن الاستمرار فى الإنتاج الفكرى ، لأنه كان كلية « ملكية » يعين الفرعون من بها من الأساتذة والمزلاء (كما يجوز لنا أن نسميهم) ويمنحهم مرتباتهم . ويقول الأستاذ (ماهافى) : « إن الطابع الجمهورى الذى اتسمت به الهيئات الخاصة التى تسمى بالمدارس والأكاديميات فى أثينا كان أكثر ثباتاً وأشد استقلالاً بكثير » . إذ كانت الرعاية الملكية شيئاً مقبولا مستساغاً ما دام الفرعون هو بطلميوس الأول أو الثانى . على أن السلالة اعترها الضعف وسرعان ما طغت تقاليد الكهانة القديمة العهد بمصر على البطالة وابتلعتهم ابتلاعاً وقضت على عقلية المتحف الأرسطاطالية قضاءً تاماً . ولم يكد يمس على المتحف مئة سنة حتى خبا نشاطه العلمى .

ولم جوار المتحف وبالإضافة إليه ، أنشأ بطلميوس الأول لنفسه أترأً أخلد وأبقى هو المكتبة العظيمة . وكانت تجمع بين مكتبة الدولة ودار نشر الدولة حيث يجرى العمل على نطاق لم يسمع بمثله الناس حتى ذلك الحين . وقد روعى أن تكون ذات طابع موسوعى تهدف إلى الإحاطة الشاملة بكل شئ . فلو أحضر أى شخص غريب إلى مصر كتاباً غير معروف ، كان لزاماً عليه أن يقدمه لينسخ ويضاف للمجموعة ، وكانت طائفة كبيرة من الناس تخدم على الدوام فى عمل نسخ من جميع التواليف ذات الشهرة والأهمية الواسعة . وكان للمكتبة - شأن مطبعة الجامعة - تجارة مع الخارج ، فكانت مهمتها بيع الكتب . وكان تنظيم ما يتجمع من الكتب وترتيبها وكتابة الفهارس لها عملاً يتم بغاية الضبط والنظام تحت إشراف كاليماخوس رئيس المكتبة أيام حكم بطلميوس الثانى والثالث .

ولا بد لنا أن نتذكر أن الكتب لم تكن فى تلك الأيام تتألف من صفحات بل كانت لفات ملفوفة كالفائف الموسيقية عند لاعبي البيانو العصريين . وكان القارئ الذى يرغب أن يرجع إلى أية فقرة معينة يضطر أن يلف

الكتاب خلفاً أو يلفه أماماً لفاً متعباً ، وهى عملية كانت تبلى الكتب وتبعث السامة فى القراء . وربما فكر المرء من فوره فى آلة صغيرة بسيطة قريبة إلى الدهن يمكن أن تلف بها مثل تلك اللفة جيئة وذهاباً حين تعز الرغبة فى الرجوع إلى الكتب ، ولكن لم نسمع أن القوم استخدموا شيئاً من ذلك القبيل . فى كل مرة يقرأ فيها الكتاب تتناوله يدان تسحان عرقاً . وقد اهتم كاليماخوس بتقليل ما يضيع من الوقت والتعب ، فقسم المؤلفات الطويلة أمثال تاريخ هيرودوت إلى « أسفار » أو أجزاء كما قد نسميها ، وجعل كل سفر لفة منفصلة . واجتذبت مكتبة الإسكندرية إليها من الطلاب عدداً يفوق كثيراً جداً عدد من استهواهم معلمو المتحف . وكان إسكان هؤلاء الزوار القادمين من كافة أصقاع المعمورة وتموينهم عملاً تجارياً يعود بجزيل الخير على سكان الإسكندرية .

وربما أخذنا العجب إذ نلاحظ مبلغ ما يتصف به تقدم جهاز الحياة العقلية من بطء . وما على القارئ إلا أن يفاضل بين ما يلقاه من تسهيلات فى المكتبة العادية بمنزل إنجليزى من طبقة متوسطة ، مثل التى يشتغل فيها الآن كاتب هذه السطور ، وبين المتاعب ونقص المعدات اللذين كان يكابد هما كاتب إسكندرية ، حتى يتبين له مبلغ مضيعة الوقت والجهد الجثمانى وفرط العناية والانتباه التى ظلت تنفق خلال كل القرون التى ازدهرت فيها تلك المكتبة . وبين يدي الكاتب الآن ستة كتب ، لثلاثة منها فهارس جيدة ، فهو يستطيع أن يتناول أياً من هذه الكتب شاء ، وأن يرجع فى سرعة إلى خبر من أخبارها ، ويحقق اقتباساً يقتبسه ، ثم يتابع كتابته . وما عليك إلا أن توازن بين هذا العمل الخفيف وبين الجهد الممل المسم من فك طيات المخطوطات الملففة . وفى متناول يدي الآن موسوعتان وقاموس وأطلس للعالم ، وقاموس تراجم حياة الشخصيات وغيرها من كتب المراجع ؛ وليس بها والحق يقال فهارس هامشية ، ولكن لعل فى هذا طلباً لأكثر مما ينبغى فى الوقت الحاضر . ولم تكن أمثال تلك المراجع توجد فى العالم فى ٣٠٠ ق. م. ولم تكن الإسكندرية قد أنتجت بعد أول أجرومية ولا أول قاموس .



(ش ٨٩) خريطة للعالم المعروف حوالي ٢٥٠ ق م .

وكتابي هذا المائل بين يدي يكتب باليد في مخطوط ، ثم يأخذ من يكتبه على الآلة الكاتبة بأعظم الدقة ، ويمكن عند ذاك أن يقرأ وأن يراجع بأقصى غاية اليسر ، وأن يصحح تصحيحاً وافياً ويعاد تصحيحه . فأما المؤلف الإسكندري فكان عليه أن يعمل أو ينسخ كل كلمة كتبها وقبل أن يرجع إلى ما قد كتب آنفاً ، كان عليه أن ينشف آخر كلماته بتلوينها في الهواء أو صب الرمل عليها ، فلم يكن لديه حتى ورق النشاف . وكل ما يكتبه المؤلف كان لا بد من نسخه مراراً وتكراراً قبل أن يصل إلى محيط واسع من القراء . وكان كل ناسخ يدخل في الكتاب بضع غلطات جديدة . وكانت

الكتب الحديدية تملئ على حجرة مملوءة بالنساخين ، وبذلك تصدر في طبعة أولى عدتها بضع مئات على الأقل . ويلوح أن أشعار هوراس (Horace) وفرجيل (Virgil) كانت تصدر في روما في طبعات كبيرة جداً . فإذا احتاج الأمر إلى الخرائط والرسوم البيانية قامت صعوبات أخرى جديدة . وإن علماً كعلم التشريح مثلاً في اعتماد المعروف على الرسم الدقيق كان يعوقه لا محالة إلى حد كبير ضعف مقدرة النساخين . ولا بد أن انتقال الحقائق الجغرافية كذلك ، كان أمراً شاقاً إلى حد لا يكاد يتصوره عقل . ولا ريب أنه سوف يأتي يوم تبدو فيه مكتبة خصوصية ومكتب من طراز سنة ١٩٢٥ ب . م ، سمجين متأخرين إلى حد عجيب ، بيد أنهما إذا قيسا بمعايير الإسكندرية اتضحت فيهما السرعة والوفاء بالغرض والاقتصاد في الطاقة العصبية والعقلية إلى درجة مذهشة .

وليس يبدو أن أحداً في الإسكندرية حاول البتة طباعة أى شيء . وهي حقيقة ربما بدت لنا عجيبة جداً . ذلك أن العالم كان يصبح في طلب الكتب صيحة تملأ الآفاق ، ولم تكن صيحة طلباً للكتب وحدها ، إذ كان بالناس عامة حاجة ماسة إلى البيانات والإعلانات والتصريحات والإشهارات وما إليها . ومع هذا فلم ينجم في تاريخ الحضارات الغربية شيء يستطيع الإنسان أن يسميه طباعة حتى القرن الخامس عشر الميلادي . ولا يرجع ذلك إلى أن الطباعة كانت فناً مستعصياً أو كانت متوقفة على ظهور مستكشفات أخرى تسبقها وتمهد لها ، وإنما الطباعة من أشد الحيل وضوحاً ، وكانت فكرتها معروفة على الدوام . وكما سبق أن ذكرنا آنفاً ، فإن هناك دلائل تحملنا على الاعتقاد بأن رجال الفترة المجدلينية في العصر الحجري القديم ، ربما كانوا يطبعون أشكالاً على أثوابهم الجلدية . وهل كانت أختام « سومر » القديمة إلا ضرباً من وسائل الطباعة ؟ وما العملة إلا معادن مطبوعة . كما أن الأميين في كل عصر يستعملون في توقيعاتهم أختاماً من الخشب أو المعادن . ويروي التاريخ أن وليم الأول فاتح إنجلترا النورماندي مثلاً ، كان يستخدم مثل هذا الخاتم مع الخبر في توقيع الوثائق . وكانت الآداب القديمة في الصين تطبع

إبان القرن الثاني ق . م . ومع ذلك فإن الطباعة لم تستعمل قط ، بل لم تستعمل حتى في الإنتاج المضبوط المتعلق بالصور التوضيحية ، وذلك إما لسبب يرجع إلى مجموعة من الصعوبات الصغيرة حول الحجر أو ورق البردي أو حول شكل الكتب ، أو بسبب المقاومة التي قد يبدونها أصحاب العبيد النساخين وقاية منهم لمصالحهم ، أو لأن النسخ كان من السرعة والسهولة بحيث لا يحفز الناس إلى التفكير في طريقة للكتابة تفوقه سهولة ، كما كانت الكتابة الصينية والحروف القوطية تحفز الناس على التفكير في ذلك ، أو بسبب وجود ثغرة في النظام الاجتماعي تباعد بين رجال الفكر والمعرفة من ناحية وبين رجال المقدرة الفنية والممارسة اليدوية من ناحية أخرى .

ولا مرأ أن السبب الرئيسي في هذا النكوص عن النهوض بالطباعة بطريقة منظمة يرجع إلى حقيقة واحدة هي عدم وجود كمية كبيرة من مواد صالحة للطباعة ذات نسيج منتظم وقطع مريح مناسب . وكان مقدار الإنتاج من ورق البردي محدوداً أضيق تحديد . إذ كان لا بد من لصق السلخة إلى السلخة ، ولم يكن هناك حجم معياري لفرخ الورق . فكأن العالم كان ملزماً أن ينتظر ورود الورق العادي من بلاد الصين ليطلق ذهنه أوروباً من عقالة . فلو كانت هناك مطابع لاضطرت أن تنتظر في خمول وركود حتى تصنع لها لفات البردي على عاداتها من البطء والمهل . على أن هذا التفسير لا يبين أسباب النكوص عن استعمال الطباعة بالكتل في حالة الصور والرسوم البيانية والتوضيحية .

وهذه المصاعب والتحديات تعيننا على أن نفهم لماذا لم يكن للإسكندرية إلا ما لا يكاد يذكر من الأثر على مجرى السياسة أو على حياة وأفكار الناس من حولها رغم أنها استطاعت على الفور تحقيق أشد الانتصارات الذهنية خرقاً للعتاد وهو أمر يجعل عملاً عظيماً كعمل إراتوستينز مثلاً ، — إذا راعينا افتقاره إلى الأجهزة — كافياً لرفعه إلى مصاف نيوتن وپاستر . وكان متحفها ومكتبتها مركزاً للنور ، بيد أنه كان نوراً في فانوس معتم مخبأ عن العالم جميعاً . ولم تكن لديها وسيلة لإبلاغ نتائج أبحاثها إلى الناس عامة ومن يتجاوبون معها منهم في الخارج خاصة ، إلا بطريقة مملة هي كتابة

الرسائل . ولم يكن في الإمكان نقل ما كان معروفاً هناك من العلم إلى جموع الناس عامة . وكان لازماً على الطلاب أن يحضروا متكبدين باهظ النفقات إلى هذا المركز المزدهم ، إذ لم يكن ثمة أى وسيلة أخرى للحصول مهما صغر قدره . وكان في أثينا والإسكندرية مكتبات صغيرة لبيع الكتب يمكن أن تشتري منها دفاتر المذكرات المخطوطة من مختلف الأصناف والقيم بسعر معقول . ولكن أى توسع في التعليم يجعله ميسوراً لمجموعات أوفر عدداً ويحمله إلى مراكز أخرى كان ينتج على الفور نقصاً في ورق البردى يضيق على ذلك التوسع ويحدده . وإذن فلم يصل التعليم البتة إلى الجماهير . وكان لازماً على المرء إن شاء أن يكون تعليمه عميقاً غير سطحي ، أن يعزل حياة دنياه العادية ، وأن ينتقل إلى الإسكندرية ليعيش فيها سنوات طويلة عيش الحائم في جوار حكماء مزودين بأسوأ أنواع المعدات ومرهقين بالأعمال بما إرهاب . ولم يكن التعليم في الحقيقة انسحاباً تاماً من الحياة العادية على نحو ما كان الدخول في الكهانة ، بيد أنه يعدّ مع ذلك شيئاً من هذا القبيل . وما أسرع ما ذوى من الإسكندرية ذلك الشعور بالحرية ، وتلك الصراحة والاستقامة في الإدلاء بالعلم التي هي الجوهر الحيوي للحياة الذهنية الحقّة : ذلك أن الرعاية الملكية حتى تلك التي يبذلها بطلميوس الأول نفسه أفضت إلى إحاطة المناقشات السياسية منذ البداية بنحو من التضيق . وسرعان ما أدت الشحناء بين مختلف المدارس إلى تسرب خرافات سوقة المدينة وسوء تعاملهم وتحزباتهم إلى مضمار شئون العلم والعلماء .

لذلك زالت الحكمة من الإسكندرية وخلفت وراءها الحذقة ، واستعيز عن استعمال الكتب بعبادة الكتب . وسرعان ما أصبح العلماء طبقة متخصصة عجيبة اتسمت بصفات مميزة كريمة . ولم ينقص على المتحف ستة أجيال حتى عرفت الإسكندرية طرازاً جديداً من المخلوقات البشرية : رأت فيه مخلوقاً خجولاً شاذ الطباع غير عملي لا يقدر على القيام بضرورات الحياة ، شرساً أعجب الشراسة على التوافه المتعلقة بالتفاصيل الأدبية واللفظية ،

يغار من زميله في الداخل مرير غيرته من الجاهل في الخارج - ذلك هو الرجل اللوذعي العلامة !! كان والكاهن فرسى رهان في التعصب وعدم التسمح ، وإن لم يكن صاحب مذبح . يميل إلى الغموض والإبهام ميل السحرة ، وإن لم يكن له كهف يكتفه ولم تكن أية وسيلة من وسائل النسخ مهما صعبت شاقة عليه . ولا كان أى كتاب مهما ندر بعيد المنال على يده ، وكأني به في عقمه وفُسُولته ضرباً من الإنتاج الطفيلي النامي على هامش الحياة في التطور الفكري . وقد كتب لشعلة الذكاء البشري الحديثة الاشتعال أن نحدد حداً كبيراً بقبود خطرة بسبب هذا « الإنتاج الطفيلي » طوال أجيال كثيرة نفيسة ذهبت على الإنسانية هباء .

٢ - فلسفة الإسكندرية

كانت عمليات النشاط العقلي الإسكندري في بداية الأمر تتمركز حول المتحف ، وهي حركة علمية في جل أمرها . أما الفلسفة التي كانت في عصر سابق يفوق هذا العصر حيوية وقوة تقوم على مبادئ القوة والسيطرة على النفس والعالم المادى ، فقد تحولت في الحقيقة إلى مبدأ من مبادئ السلوى الخفية ، وإن لم تنكر لالتزاماتها ومرعياتها . فكان الحافز قد تحول إلى مسكن . فإن الفيلسوف ترك العالم « ينعم من بناء » كما يقول العامة ، وهو العالم الذى كان الفيلسوف جزءاً منه ، ثم أخذ يعزى نفسه بعبارات وصيغ جذابة ومنمقة جداً قائلاً إن العالم وهم باطل ، وأن به هو شيئاً من جوهر السمو وخلاصة الحكمة يخرج به عن العالم ويرفعه عنه . وكانت أثينا أنسب المراكز لمثل هذا النوع من التعاليم الفلسفية ، فإنها أصبحت من الناحية السياسية غير ذات وزن ، وإن ظلت سوقاً عظيماً مكتظاً طوال القرن الرابع ، كما داخلها الانحلال وإن لم يكذب يحس به أحد ما بقيت للمدينة المظاهر الخارجية القديمة . كما أنها أخذت تعامل باحترام عجيب مشوب بشيء من الاحتقار من جميع القوات المتحاربة ومن مغامرى

العالم كافة ، ومضى قرنان برمتها قبل أن أصبحت المدارس الإسكندرية نفس الدرجة من الأهمية في المناقشات الفلسفية .

٣ - الإسكندرية مصنعاً للديانات

ولئن تأخرت الإسكندرية في تطوير فلسفة تتميز بها ، فلما سرعان ما برزت كمصنع عظيم وسوق كبيرة لتبادل الأفكار الدينية .

ذلك أن المتحف والمكتبة كانا يمثلان ناحية واحدة من النواحي الثلاث لمدينة الإسكندرية ، حيث كانا يمثلان العنصر الأسطوري والهلليني والمقدوني . على أن بطليموس الأول كان قد جاء بعاملين آخرين جمعهما في هذا المركز الغريب . فقد كان هناك أولاً عدد عظيم من اليهود جيء ببعضهم من فلسطين . ولكن الكثير الغالب منهم أتوا من مصر نفسها من تلك المستقرات والمهاجر اليهودية التي لم يعد أهلها قط إلى بيت المقدس . وكان هؤلاء الأخيرون هم أشتات اليهود المنتشرين في أرجاء الأرض (Diaspora) ، وهم سلاله اليهود الذين لم يشتركوا في الأسر البابلي ، وإن كانوا مع ذلك يحتفظون بالثورة ويراعون أحكامها ويتابعون بدقة مراسلة إخوانهم في الدين في كافة أقطار العالم . وكان هؤلاء اليهود يسكنون في حى من الإسكندرية بلغ من عظمته أن أصبحت المدينة أكبر المدن اليهودية في العالم ، وبها من اليهود عدد يفوق عددهم في أورشليم ذاتها . ولقد ذكرنا من قبل أنهم وجدوا من الضروري أن يترجموا كتبهم المقدسة إلى اللغة الإغريقية .

وكان هناك أيضاً عدد عظيم من الأهالي المصريين تتكلم غالييتهم اليونانية ولكنهم يحتفظون في قرارة أنفسهم بتقاليد أربعين قرناً من ديانة المعابد وقرايين المعابد . وبذلك التقت في الإسكندرية ثلاثة أنماط من العقل والروح ، هى الأنماط الرئيسية الثلاثة للجنس الأبيض . وهى تضم النقد المتفهم البصير لدى العقلية الإغريقية الآرية ، والحجاسة الأخلاقية والتوحيد اليهودى السامى ، وتقاليد الخفايا والقرايين القديمة التى رأيناها من قبل تعمل في

العقائد السرية والممارسات الغامضة في بلاد الإغريق ، وهي أفكار قوية متسلطة كانت تحتال صراحاً وجهاراً في المعابد العظيمة في مصر الحامية .

تلك هي العناصر الثلاثة الدائمة في الخليلط الإسكندري . ولكن المراقب والأسواق أماكن يختلط فيها رجال من كل جنس معروف ، ويوازنون بين آرائهم الدينية وعاداتهم . بل إنه يروى أنه حدث في القرن الثالث قبل الميلاد أن حضر مبعوثون بوذيون من بلأط الملك أسوكا ببلاد الهند ، وكان هناك فيما بعد على التحقيق جالية من تجار الهنود في المدينة . ويلاحظ أرسطو في كتابه « السياسة » أن المعتقدات الدينية لدى الناس عرضة لأن تقتبس صيغتها من النظم السياسية ، « فالرجال لا يقل تمثلهم لحياة الأرباب في حياتهم الخاصة عن تمثلهم لأشكالها الجثمانية » . وهذا العصر ، عصر الإمبراطوريات العظيمة الناطقة بالإغريقية في ظل ملوك مستبدين (أوتوقراطيين) لم يكن يتفق البتة مع قيام مشاهير محليين مثل آلهة القبيلة والمدينة القدماء . إذ كان الناس يبتغون آلهة تبلغ من رحابة الأفق مبلغ اتساع الإمبراطوريات على الأقل ، لذا فإن عملية عجيبة من التمثيل بين الآلهة كانت دائمة الحدوث في كل مكان فيما عدا الأماكن التي تقف فيها مصالح الكهانات القوية حائلا دون ذلك . إذ وجد الناس أنه وإن كثر عدد الآلهة ، فالتشابه بينها جميعاً شديد جداً . وحيثما وجدت آلهة كثيرة ، أخذ الناس يظنون أنه لا بد أن يكون هناك في الحقيقة إله واحد فقط له أسماء متعددة ، وأنه إنما يتسمى في كل مكان باسم جديد . فإن جوبيتر (Jupiter) الروماني وزيوس (Zeus) الإغريقي وبعل مردك البابلي وآمون المصري — (وهو نفسه آمون أبو الإسكندر المنتحل والحصم القديم لأمنحوتب الرابع) — متشابهة كلها تشابهاً يكفي لكي تدل جميعها على ذاتية واحدة .

« أبو الجميع ، في كل عصر

المعبود في كل قطر

يعبد القديس ، والمتوحش والحكيم

يَهوَه أو چوپتر أو المولى .

وحينما وجدت فروق واضحة تغلب الناس على الصعوبة بقولهم بأن تلك إنما هي صور أو أشكال (أقانيم) مختلفة لإله واحد . وكان بعل مردك مع ذلك أصبح آنذاك إلهاً مضمجلاً جداً بالفعل ، لا يكاد يعيش ولونحت اسم مستعار . فأما آشور وداجون ومن إليهما - وهى آلهة مسكنة تقادم عليها العهد لشعوب مقهورة - فقد محيت من الذاكرة منذ زمن بعيد ، ولم يعد لها محل فى ذلك المزج . فأما أوزيريس وهو رب محبوب لدى عامة المصريين ، سبق فعرف بأنه « أيبس » وهو العجل المقدس فى معبد « منف » فيخلط الناس بعض الشيء بينه وبين آمون . وهو الذى صار تحت اسم سيرابيس الرب العظيم للإسكندرية الهلينية .



وكان هو « چوپتر سيرابيس » . وكانت البقرة الربة المصرية « هاتور أو إيزيس » تمثل أيضاً فى صورة إنسانية كزوجة لأوزيريس ، ولدت له الطفل حورس الذى نما فأصبح أوزيريس ثانية . ولا ريب أن هذه الأقوال الصريحة تبدو ذات رنة عجيبة فى العقل الحديث ، بيد أن مطابقة هذه الشخصيات بعضها مع بعض وهذا المزج بين رب وآخر يوضح جيداً ذلك الكفاح الذى كانت تقوم به الفطنة البشرية الناهضة لكى تزيد من تعلقها بالديانة وروابطها العاطفية - وزمالتها

(ش ٩٠) - سيرابيس

الأخوية ، على حين كانت تجعل آلهتها أقرب إلى العقل وأكثر شمولاً .

فهذا الخلط والمزج بين رب وآخر يسمى باسم اتحاد الآلهة^(١) (Theocrasia). ولم يحدث هذا المزج في أى مكان بقوة تفوق ما جرى في الإسكندرية ، ولم يقاومه في تلك الفترة إلا شعبان هما اليهود الذين كانت لهم من قبل عقيدتهم في إله واحد هو يهوه رب السموات والأرض ، والفرس الذين كانوا يدينون بعبادة إله الشمس الواحد .

وبطلميوس الأول هو الذى أقام لا متحف الإسكندرية وحده بل السيراپيوم (Serapeum) المكرّس لعبادة ثالث من الآلهة كان يمثل نتيجة إحدى عمليات اتحاد الآلهة أعنى الثيوكرازيا ، مطبقة على الأخص على آلهة بلاد الإغريق ومصر .

وكان هذا الثالث يتكون من الرب سيراپيس (= أوزيريس + أبيس)



والربة إيزيس (= هاتورالربة البقرة القمر) ، والرب الطفل حورس . وبطريقة أو بأخرى كانت تتم المطابقة بين أى من الأرباب الأخرى تقريباً ، وبين أى واحد من هذه الصور الثلاث للرب الواحد ، لا يستثنى من ذلك حتى إله الشمس ميتراس (Mithras) عند الفرس ، وكان كل واحد منها هو الآخر ، كانت ثلاثة آلهة ، ولكنها أيضاً إله واحد . وكانت تعبد بحمية عظيمة ، وكانت جلجلة آلة خاصة هي الصلاصل (sistrum) ، وهى إطار علق به مجموعة من

الأجراس ويستعمل على نسق يقارب طريقة استعمال (ش ٩١) - إيزيس وحورس الدف في مراسم « جيش الخلاص » العصرى ، لازمة تميز الاحتفالات الدينية .

(١) وقد أسميناه أيضاً في ترجمتنا لكتاب « موجز تاريخ العالم » للمؤلف نفسه الذى نشر في ١٩٥٨ باسم « توحيد الآلهة » . (المترجم)

ولما لنجد الآن لأول مرة في التاريخ فكرة الخلود وقد صارت فكرة الدين الرئيسية وامتدت خارج مصر ؛ وليس يبدو أن الآريين الأول ولا السابيين الأول اهتموا كثيراً بأمر الخلود ، كما أن هذه الفكرة لم تؤثر في العقل المغولى إلا أثراً طفيفاً جداً ، على أن استمرار حياة الفرد بعد الموت كان منذ أقدم العهود الشغل الشاغل للمصريين . وكان لهذا التفكير عندئذ دور كبير في عبادة سيرابيس ؛ وتصفه « المؤلفات » الدينية التي ألفت عن مذهبه ، والخاصة بعبادته بأنه « مخلص الأرواح ومرشدها وهو الذى يقود الأرواح إلى النور ثم يتلقاها من جديد » ؛ وتذكر عنه أنه « يبعث الموتى ويعرض نور الشمس الذى يتلهف الناس شوقاً إليه على الذين يبصرون ، وهم من تحتوى قبورهم الطاهرة على أكداش من الكتب المقدسة » ، كما تصفه كذلك « ولسنا بمستطيعين أن نهرب منه أبد الدهر ، فإنه سوف يخلصنا ، ونحن لن نبرح بعد الموت موضع عنايته ورعايته » . وكانت طقوس إحراق الشمع وتقديم النذور - وأعنى به تقديم نماذج مصغرة من أجزاء الجسم الإنسانى تكون فى حاجة إلى العون والشفاء - جزءاً من مراسم العبادة فى السيرابيوم . واجتذبت إيزيس إليها كثيراً من العبّاد المتبطلين الذين نذروا لها أرواحهم ؛ وكانت تماثيلها تقوم فى المعبد وهى متوجة بوصفها ملكة السموات وهى تحمل طفلها حورس بين ذراعيها والشموع تحرق وتذوب أمامها ، وتماثيل أجزاء الجسم الشمعية تتدلى حول المقصورة . وكان على الكاهن المستجد أن يتم مرحلة إعداد وتلمذة طويلة ذات تفاصيل محكمة ويقسم الأيمان على العزوبة ، وعند ما يلحق مبادئ الأسرار ويثبت كانت تحلق رأسه ويلبس ثوباً من الكتان . . .

وكان حورس بن أوزيريس (سيرابيس) الوحيد المحبوب ، وهو أيضاً إله الشمس ، وكان الجعران ذو الأجنحة المنشورة رمزاً له . وعند حدوث الكسوف ، عند ما تظهر الهالة الشمسية ، يكون لها شبه قوى بجناحي

الجعل (الجران) المنتشرين . وكان حورس «شمس الصلاح والبر وفي جناحيه البرء» وأخيراً «صعد إلى الرب» وأصبح والأب واحداً . وهو في الديانة المصرية القديمة شفيح الحاطين عند الأب ، وهو يصور في «كتاب الموتى» الذي كان يدفن مع كل إنسان يستطيع دفع ثمن نسخة منه مدافعاً عن الموتى . وكثير من التراتيل التي تنشد لحورس تشبه بشكل فذ التراتيل المسيحية في روحها وعبارتها . فتلك الترييلة الجميلة التي مطلعها «يا شمس حياتي ، يا أيها المخلص العزيز» ، كانت تغنى لحورس يوماً ما في مصر .

إن عبادة سيراپيس هذه التي انتشرت انتشاراً عظيماً في جميع أقطار العالم الممدّن في القرنين الثالث والثاني ق . م . ، تُرى فيها أعجب الطلائع والظواهر المؤذنة بعبادات وطرق العبادة التي قدّر لها أن تسلط على العالم الأوربي طوال الحقبة المسيحية . غير أن الفكرة الجوهرية للمسيحية وهي الروح الحى فيها — كانت كما سنبين من فورنا — شيئاً جديداً في تاريخ عقل الإنسان وإرادته . على أن ثياب الطقوس والرمز والصيغة الاصطلاحية التي اتخذتها المسيحية ، والتي ما برحت ترتديها إلى يومنا هذا في كثير من الأقطار ، قد نسجت ، ولا مراء ، في عقائد ومعابد چوپيتر سيراپيس وإيزيس التي انتشرت عند ذلك من الإسكندرية إلى كافة أصقاع العالم الممدّن في عصر الثيوكرازيا (أعنى اتحاد الآلهة) في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد .

٤ — الإسكندرية والهند

استمرت أهمية الإسكندرية التجارية والفكرية قروناً طويلة . ونحن إذ نتسلف الحوادث وما سندلى إليك به من فورنا عن قيام الدولة الرومانية ، نستطيع أن نخبرك ها هنا أنه حدث في عهد الإمبراطورية أن أصبحت الإسكندرية أعظم مركز للتجارة في العالم . وكان للتجار الرومان الإسكندريين

— ٤٧٠ —

مستقرات عديدة في جنوب الهند . إذ كان هناك في كرانجانور على ساحل
مالابار معبد مكرس لأوغسطوس وكان يدافع عن المستقر فصيلتان رومانيتان .
وقد أرسلت البعوث من لدن الإمبراطور إلى مختلف الملوك والأمراء في
جنوب الهند . زد على ذلك أن كليمان (Clement) وكريسوستوم
(Chrysostom) وآخرين من الكتاب المسيحيين الأول ، أشاروا إلى الهنود
في الإسكندرية وتحدثوا عن عقائدهم .

الفصل الرابع والعشرون

قيام البوذية وانتشارها

- ١ - قصة جوتاما .
- ٢ - التعاليم والأساطير في نزاع .
- ٣ - إنجيل جوتاما بوذا .
- ٤ - البوذية وأسوكا .
- ٥ - معلمان صينيان عظيمان .
- ٦ - مفاسد البوذية .
- ٧ - مجال البوذية الحالى .

١ - قصة جوتاما

من الشائق أن ينتقل الإنسان من أوجه النشاط العقلية والأخلاقية فى أئنا والإسكندرية والنمو الفكرى للإنسان فى عالم البحر المتوسط إلى حياة الهند العقلية التى تكاد تكون منفصلة انفصال تاماً . فقد قامت بتلك البلاد مدنية يظهر أنها نمت من أول أمرها على أسسها الخاصة بها وعلى طابع مميز خاص بها أيضاً ، مدنية كانت منقطعة الصلة عن كل ما عداها من مدينت الشرق والغرب بفواصل جبلية هائلة وبأقاليم صحراوية فسيحة . وسرعان ما فقدت القبائل الآرية التى هبطت شبه الجزيرة ، اتصالها بذوى قرباها فى الغرب والشمال وتطورت فى اتجاهات خاصة بها . واتضح ذلك بنوع خاص فيمن توغلوا حتى أرض الحانچ (الكنج) وما وراءها . إذ وجدوا مدنية منتشرة من قبل فى بلاد الهند هى المدنية الدرافيدية . نشأت هذه المدنية مستقلة من كل ما عداها مثلما يبدو أن قد نشأت المدينت السومرية والكريتية والمصرية ، إذ قامت منبعثة عن ذلك التطور الفسيح المدنى الذى ألم بثقافة العصر الحجري الحديث التى وصفنا خصائصها من قبل ، فبعثوا فى هذه

المدينة الدرافيدية حياة جديدة وغيروها مثلما فعل الإغريق في المدينة الإيجية ، أو الساميون بالحضارة السومرية .

وكان هؤلاء الآريون الهنود يعيشون في ظروف مختلفة عن تلك التي كانت سائدة في الشمال الغربي . فكانوا يعيشون في مناخ أكثر دفئاً وحرارة ، يجعل الطعام المكون من لحم البقر والشراب المخمر ضاراً فتاكاً ، فاضطروا لذلك أن يلتزموا في طعامهم تغذية نباتية محضة ، وأمدتهم تربة الأرض الخصبة من تلقاء نفسها بكل ما يحتاجون إليه تقريباً من طعام ، فلم يعد لديهم بعد ذلك ما يحدوهم على التجوال ، لأن المحاصيل والفصول مضمونة تبعث على الطمأنينة ، ولأن حاجتهم إلى الكساء والمأوى طفيفة ، كما أن احتياجاتهم كانت قليلة إلى حد لم يساعد على ارتقاء التجارة . وكان لا يزال هناك متسع من الأرض لكل إنسان يريد أن يزرع وكانت الرقعة الصغيرة تكفيه . أما حياتهم السياسية فبسيطة مأمونة نسبياً . فلم تنشأ في الهند حتى ذلك الوقت أى قوى فاتحة عظيمة ، على حين كانت حدودها الطبيعية قميئة بالحد من أطماع الإمبراطوريات الاستعمارية الأولى في غربها وشرقها . وانتشرت في أنحاء البلاد آلاف من الجمهوريات القروية والرياسات الصغيرة الهادئة نسبياً ، ولم تقم فيها حياة بحرية ولا أغار عليها مغربون من القراصنة ولا تجار غرباء . فإن المرء يستطيع أن يسطر تاريخاً كاملاً للهند يصل إلى ما قبل يومنا هذا بأربعمئة عام ولا يكاد يذكر شيئاً عن البحر .

لبت تاريخ الهند قروناً عديدة أسعد حالا وأقل اضطراباً وعنفاً وأقرب إلى عالم الأحلام من أى تاريخ آخر . فكان النبلاء أى الراجاوات يمشون أوقاتهم في الصيد . وكانت الحياة في غالب أمرها تقوم على أقاصيص غرام ، وقد ينهض هنا وهناك « مهراجا » بين الراجاوات ويبنى مدينة ويصيد كثيراً من الفيلة ويستأنسها ويقتل كثيراً من الغمور ويترك عن أبتهته ومواكبه الفخمة سجيلاً حافلاً بالروايات الرائعة .

ومع ذلك فقد كان هناك بين الآريين المتجهين شرقاً حركة فكرية على أشد ما تكون من النشاط ، فألفت ملاحم عظيمة تناقلها الخلف عن السلف بطريق التواتر الشفوي - إذ لم تكن هناك أية كتابة حتى ذلك الحين . وكان لديهم كذلك الشيء الكثير من التأمل الفلسفي العميق الذي لا يزال بحاجة إلى أن توضح علاقته بأنظمة الغرب الفلسفية .

وحدث في وقت ما بين سنتي ٦٠٠ و ٥٠٠ ق . م . عندما كان حكم كرويسوس مزدهراً في ليديا ، وبينما قورش يعد العدة لاغتصاب بابل من نابونيداس ، - أن ولد مؤسس البوذية في الهند . ولد في مجتمع قبلي جمهوري صغير في شمالي البنغال تحت سفح الهملايا في ما هو الآن أرض آجام كثيفة على حدود نيبال . وكانت تحكم هذه الدولة الصغيرة عائلة هي عشيرة ساكيا التي كان سيداتها جوتاما أحد أفرادها . وكان سيداتها هو اسمه الشخصي مثل كايوس أو جورج . أما جوتاما فهو لقبه أو اسم عائلته مثل قيصر أو سميث . في حين أن ساكيا اسم عشيرته مثل يوليوس . ولم يكن نظام الطوائف استقرار بعد في الهند تماماً ، ولم يكن البراهمة كافحوا بعد حتى تبوءوا رئاسة هذا النظام وإن كانوا ذوي امتيازات ونفوذ . ولكن كانت هناك بالفعل فوارق بين الطبقات شديدة ملحوظة كما كان هناك فاصل يفصل تماماً طبقة الآريين النبلاء عن طبقة العامة الأقم لونا . وكان جوتاما ينسب إلى الجنس الأول . وربما استلقت أنظارنا أن تعاليمه كانت تسمى « النهج الآري أو الحق الآري » .

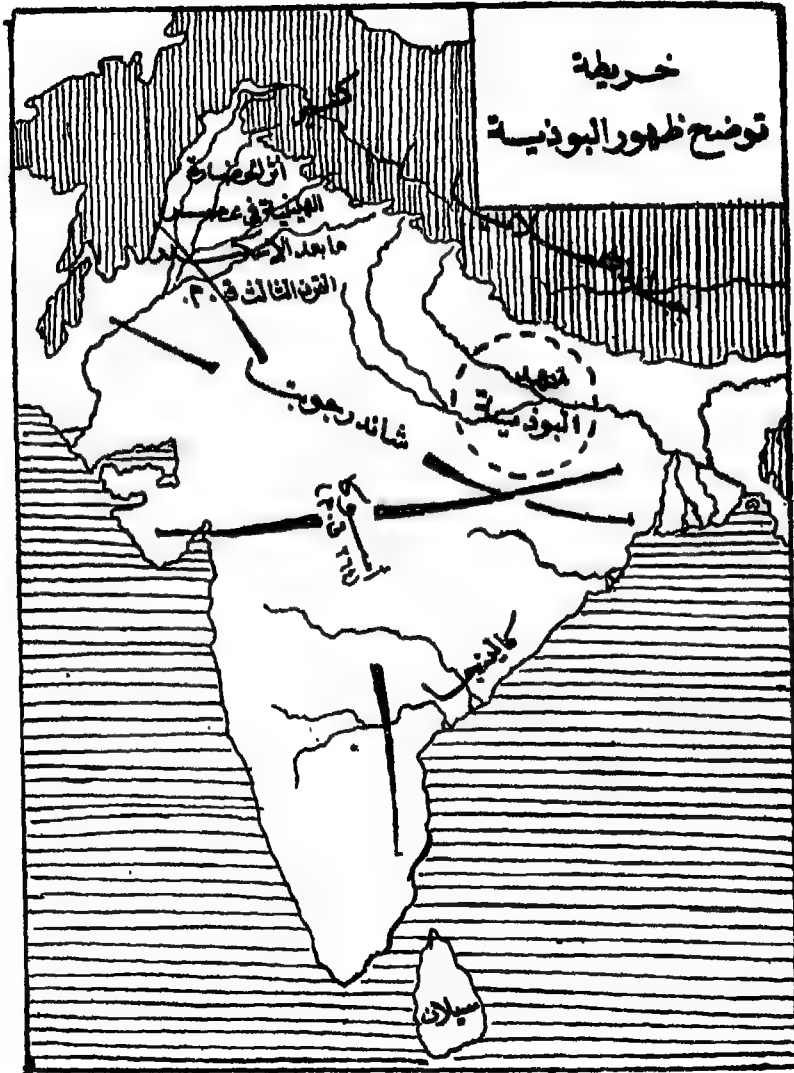
ولم يلم العالم إماماً صحيحاً بحياة جوتاما وآرائه الحقيقية إلا في نصف القرن الأخير وذلك نتيجة لازدياد الاهتمام بدراسة اللغة البالية (Pali)^(١) التي دونت فيها معظم المراجع الأصلية عنه ، وكان يكتنف قصته قبل ذلك أكذاس هائلة من الأساطير . ولقد أساء الناس فهم تعاليمه أيما إساءة . على أن لدينا عنه الآن بياناً يفيض إنسانية ويسهل فهمه .

(١) اللغة البالية : هي اللغة المقدسة التي كتبت بها نصوص الشريعة البوذية . (المترجم)

كان جوتاما رجلاً وسيم الطلعة قديراً ميسر الحال . وقد ظل حتى بلغ سن التاسعة والعشرين يعيش عيشة زمانه الأرستقراطية المألوفة . ولم تكن هذه الحياة من الناحية الذهنية مما يبعث على تمام الرضا . ولم يكن هناك « أدب » اللهم إلا روايات شفوية للملاحم الفيدانتية (Vedantic Epics). وهذه كان البراهمة يحتكرونها بنوع خاص ، فأما « المعرفة » فكان مقدارها أدنى من ذلك أو يكاد . وكان العالم في نظر من حوله من الناس تحده الهملايا المكسوة بالثلج شحلاً ، ثم هو يمتد نحو الجنوب امتداداً لا آخر له . كما كانت مدينة بنارس التي يحكمها أحد الملوك تبعد عن مستقر عشيرته نحو مئة ميل . وكانت أهم وسائل التسلية القنص والغزل . واستمتع جوتاما بكل ما حفلت به الحياة من طيبات . تزوج في سن التاسعة عشرة من ابنة عم له جميلة وظلاً بلا أطفال بضع سنين لبث أثناءها يتصيد ويلهو ويتنقل في ربوع عالم شمس بهيج ، يحظى ببساتينه ومروجه وروى حقول أرزهِ . وبينما هو ينعم بهذه الحياة وبهجتها حل به على الفجاءة تبرم وسخط عظيم . وما كان ذلك إلا مظهراً لشقاء ذهن ممتاز متوقد يطلب العمل . كان جوتاما يتقلب بين ألوان من الوفرة وخفض العيش والجمال ، ويتنقل من إشباع شهوة إلى إشباع أخرى ولم تكن روحه لتقنع أو ترضى ، وكأنما كانت مقسدرات الجنس البشري تهيب به ، وكان يشعر أن الحياة التي يحياها ليست هي حقيقة الحياة وإنما هي عطلة — طال أمدها أكثر مما ينبغي .

ولأنه لعل تلك الحال ، إذا به يرى أشياء أربعة أدت إلى توجيه أفكاره وجهة جديدة ، فبينما هو يقود عربة في إحدى رحلاته طلباً للذة والسرور ، إذ صادف رجلاً قد أدنفته السن إدنافاً ذريعاً ، وقد اجتذب ذلك المخلوق المسكين المقوس القناة الواهن القوى انتباهه وحرك خياله ، وقال شائناً (Channa) سائق عربته « هكذا نهج الحياة ولا مفر لنا من هذا المصير » . وبينما كانت هذه الصورة ما تزال ماثلة في ذهنه ، صادف رجلاً يعاني

آلاماً مبرحة من مرض وبيل ، فقال شائاً « هكذا نهج الحياة » وكان ثالث ما رآه جثة لم توار التراب وقد انتفخت وفقئت عيناها ونهشها الطير والوحش المار بها وهى فى جملتها فظيعة كل الفظاعة فقال شائاً « هكذا نهج الحياة » .



(ش ٩٢) - خريطة توضح ظهور البوذية وانتشارها

عند ذلك ران على قلب جوتاما الشعور بالمرض والفناء وتعرض كل سعادة للزوال وامتناع كل إرضاء للنفس فيها . ثم رأى هو وشاناً واحداً من أولئك الزهاد المتجولين الذين كان يوجد منهم في ذلك الزمان أعداد كبيرة بالهند . كان هؤلاء الرجال يعيشون طبقاً لقواعد قاسية ويقضون الزمن الطويل في التأمل والنقاش الديني . وذلك أن رجالا كثيرين ممن عاشوا قبل جوتاما في تلك الأرض الوادعة أرض الشمس الساطعة الوهاجة ، وجدوا الحياة مخوفة بالأحزان والأسرار الغامضة . وكان الظن السائد أن هؤلاء الزهاد بأجمعهم إنما يندشون في الحياة حقيقة أشد عمقاً وأبعد غوراً . فتملكت جوتاما رغبة عنيفة أن ينحو نحوهم .

وتقول القصة إنه كان يفكر في عزمه هذا عند ما بلغه أن زوجته وضعت له بكر أبنائه ، فقال جوتاما : « وهذه رابطة أخرى علينا أن نفصمها » .

عاد إلى القرية يحف به تهليل رجال عشيرته واغبتابهم وأقيمت وليمة عظيمة ورقصت الراقصات احتفالاً بمولد هذا الرباط الحديد . واستيقظ جوتاما في الليل وهو في آلام روحانية كأنما هو « إنسان روعه التهام النار منزله » . وكانت الراقصات راقصات في الردهة وقد علت هن خطوط متعاقبة من الظلمة وضوء القمر ، فنادى شاناً وأمره أن يعد حصانه ثم انسل إلى عتبة غرفة زوجته ، وراها في نور سراج زيتي صغير تنام نوماً هادئاً يحيط بها الأزهار وبين ذراعيها ابنه الرضيع فأحس في نفسه حينئذ شديداً إلى تناول الطفل في عناق وحيد يكون الأول والأخير قبل رحيله ، بيد أن خشيتيه إيقاظ زوجته منعتة . وأخيراً حول عنهما ناظريه وانطلق إلى ضياء القمر الهندي المتألي وكان شاناً ينتظره بالخیل فامتطى جواده وانطلق به يخط على غير هدى .

وبينا هو يسير تحت جنح الليل مع شاناً ، خيل إليه أن « مارا » الشيطان مغرى الجنس البشرى يملأ عليه فجاج السماء ويدافعه ويصارع

كان « مارا » يهيب به أن « عُد حيث كنت أجعلك ملكاً ولسوف تكون أعظم الملوك ، أو سر في طريقك تفشل لا محالة فلإني لن أكف — الدهر — عن اقتفاء أثرك وملاحقتك وسيستهويك آخر الأمر الطمع أو الحقد أو الغضب في بعض فلتات خطتك ولتصبحن ملك يميني إن عاجلاً وإن آجلاً » .

وقطعا في تلك الليلة مسافة شاسعة ، فلما أن أشرق الصباح توقف بعد أن اجتاز أرض عشيرته وترجل إلى جوار نهر رملي الشاطئين ، وهناك قطع بسيفه ذوائبه المهدلة وأماط عنه كل حلية وردّها مع جواده وسيفه إلى أهله بصحبة « شانتا » . حتى إذا واصل مسيره التقى من فوره رجلاً في أسمال بالية فتبادل وإياه الثياب بعد أن أماط عن نفسه كل العوائق الدنيوية ، وبذلك أصبح حرّاً في أن يتابع بحثه عن الحكمة فاتخذ طريقاً جنوبياً إلى مأوى للنسك والمعلمين في طنّف^(١) يؤدي إلى البنغال في شمال جبال الفندهيا بالقرب من مدينة راججير . وهناك كان يعيش عدد من الحكماء في أرض للصيد ذات كهوف يترددون على المدينة لقضاء مطالبهم وينشرون المعرفة بين من يجرون على التردد عليهم .

ولا بد أن هذا التعلم كان إلى حد كبير على نسق المحاورات السقراطية التي أخذ الناس يتجاذبونها في أثينا بعد ذلك بقرنين من الزمان . وألم جوتاما بكل غيبيات (متافيزيقا)^(٢) عصره . ولكن فطنته المرفهة لم تكن لتقنع بالحلول التي قدمت إليه .

ولقد كان العقل الهندي نزاعاً على الدوام إلى الاعتقاد أن القوة والمعرفة يمكن أن يجتلبا بالزهادة المتطرفة والصيام البالغ والامتناع عن النوم وتعذيب النفس ؛ فأخذ جوتاما يضع تلك الأفكار في بوتقة الاختبار ، فانطلق ومعه خمسة من رفقاته المتعلمين عليه إلى الأجمة الموجودة في أحد

(١) الطنّف : ما نأى في الجبل . (المترجم)

(٢) المتافيزيقا : دراسة بداية كل ما في الوجود والبحث عن طبيعة الأشياء وفطرتها وإله الكون وخصائصه وغير ذلك من الغيبيات أو ما وراء الطبيعة . (المترجم)

خوانق جبال الفندھيا ، وهناك استسلم للصيام والكفارات المريعة ، فدوى اسمه في الآفاق « دوى ناقوس عظيم يتدلى من قبة السماء » . بيد أن التقشف لم يجلب إليه أى شعور بالوصول إلى الحقيقة . وبينما هو يسير في أحد الأيام جيئة وذهاباً محاولاً أن يفكر بالرغم مما حل به من ضعف وضنى ؛ إذا به يترنح فجأة ويسقط على الأرض مغشياً عليه ، فلما أن أفاق اتضح له سخافة تلك الأساليب السحرية في سبيل الوصول إلى الحكمة .

وذهل منه تلاميذه الخمسة وشملهم الفزع عندما طلب الطعام العادى . على أنه رفض أن يواصل قتل شهوات نفسه . ذلك بأنه أدرك أنه مهما يكن مقدار ما يبلغه أى إنسان من الحقيقة فإن خير ما يوصله إليها عقل يتغذى في جسم سليم . وكانت مثل هذه الفكرة غريبة غرابة مطلقة عن فكرات البلاد والعصر ، فاعتزله تلاميذه وانصرفوا إلى بنارس في حزن وأسى . وتوقف طنين الجرس العظيم وهوى جوتاما الرائع .

ثم طفق يتجول وحيداً ردهاً من الزمان مناضلاً يبتغى النور وهو أشد شخص في التاريخ وحشة في وحدته وانفراده .

والعقل عندما يصطرع مع مسألة جليلة معقدة يخطو خطوات ويتثبت من مواطئ قدميه خطوة فخطوة ، وهو لا يدرك المغام التي غنمها إلا إدراكاً يسيراً ، حتى يفوز بالنصر بغتة في شيء من الإلهام غير المنتظر الذي ينير له الطريق . وهذا كما يخيل إلينا هو ما حدث لجوتاما . فإنه جلس يتناول طعامه تحت دوحة عظيمة إلى جوار نهر عندما جاءه ذلك الشعور بالروية الصافية والبصيرة النافذة . إذ خيل إليه أنه يرى الحياة صافية شفيفة . ويقال إنه جلس طيلة ليله ونهاره مستغرقاً في فكر عميق ، ثم نهض يذيع على العالم رؤياه وما هبط عليه من وحى .

٢ - التعاليم والأساطير في نزاع

تلك هي قصة جوتاما البسيطة كما استنتجناها من مقارنة مختلف الكتابات

القديمة ، ولكن عامة الناس لابد لهم من المعجزات والأعاجيب
الرخيصة .

فليس يعينهم أن يخرج هذا الكوكب الصغير آخر الأمر رجلاً يفكر
في الماضي والمستقبل وفي طبيعة الوجود الحق . لذا لم يكن بد من أن نحصل
على مثل الرواية التالية التي سطرها كاتب « پالی » مقرر . . . واستغل
فيها أقصى ما يمليه عليه خياله ، كما يتضح مما يلي :

« عند ما ابتداء الزراع بين « مخلص العالم » وبين « أمير الشر » سقط
ألف من الشهب الخيفة ، وتراجعت الأنهار تجري مياهها نحو منابعها ،
فأما القن والجبال المرتفعة حيث كانت تنمو أشجار لا حصر لها مدى
عصور كثيرة فقد خرت إلى الأرض هداً . . . وكست الشمس نفسها بظلمة
مرعبة وامتلاً الجو بجيش من الأرواح غير ذات الرؤوس » .

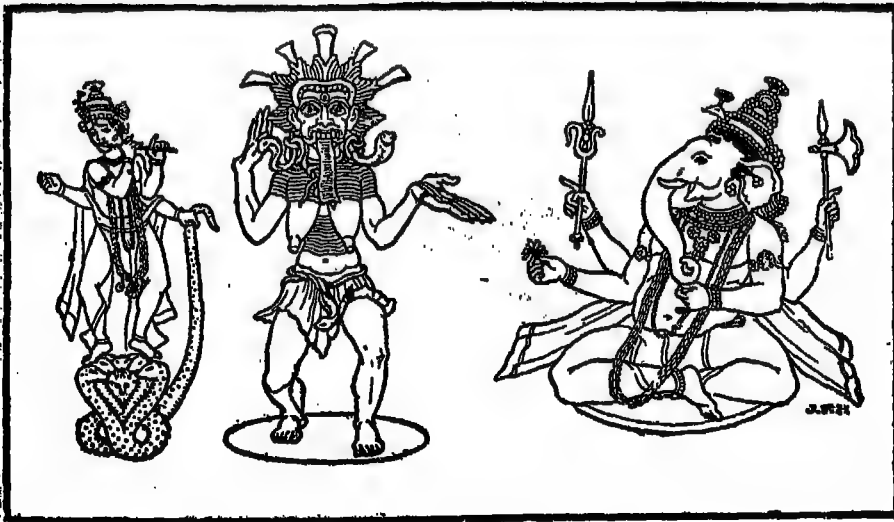


(ش ٣٩) - آلهة هندية : فيشنو - براهما - سيفا

وهي ظواهر لم يترك لنا التاريخ عنها دليلاً واحداً يؤيد صحتها . وإنما نجد
بدلاً من ذلك صورة رجل يسير وحيداً نحو بنارس .

وقد اهتم الناس اهتماماً خارقاً بالشجرة التي جلس من تحتها جوتاما ساعة

أن أطاف به ذلك الشعور بصفاء الذهن . كانت هذه الشجرة من فصيلة أشجار التين . وكان لها في قلوب الناس منذ البداية احترام خاص وهي تعرف باسم شجرة البو (Bo Tree) . ولقد بادت هذه الشجرة من زمن بعيد ، ولكن لا تزال تعيش إلى جوارها دوحة أخرى ربما كانت سليلتها . وتنمو في سيلان إلى يومنا هذا شجرة هي أقدم شجرة تاريخية في العالم ، نعرف عنها على وجه التحقيق أنها زرعت من فرع من شجرة البوسنة ٢٤٥ ق . م . ، وظلت منذ ذلك الزمان إلى وقتنا هذا تلقي ألوان الرعاية وتسقى بعناية وتسد الأعمدة الضخمة فروعها العظيمة وتعلو الأرض حولها في مدرجات ومساطب حتى استطاعت أن تمتد على الدوام جلوراً جديدة . وما يساعدنا على إدراك ما عليه التاريخ الإنساني بأجمعه من قصر ، روئيتنا لمثل هذا العدد الكبير من الأجيال الإنسانية تمضي تباعاً عبر امتداد أجل شجرة واحدة . ومن سوء الحظ أن تلاميذ جوتاما عنوا بحفظ شجرته أكثر من عنايتهم بالحفاظ على أفكاره التي أساءوا منذ البداية فهمها وشوهوها ومسحوها .



(ش ٩٤) - آلهة هندية : كريشنا - كالي - جانيسا

بحث جوتاما في بنارس عن تلاميذه الخمسة حتى وجدهم ، وكانوا ما يزالون يعيشون عيش الزهادة . وهناك قصة تروى ترددهم في استقباله عندما رأوه يقترب منهم ، ذلك أنه كان مارقاً مرتداً عن دينه . على أنه كان على شيء من قوة الشخصية تغلب به على فتورهم ثم استطاع أن يحملهم على الإصغاء إلى معتقداته الجديدة . واستمرت المناقشة خمسة أيام حتى إذا أقنعهم آخر الأمر بأنه استنار حقاً حيوه وهتفوا له ونادوا به البوذا . وكان يسود الهند في تلك الأيام اعتقاد بأن « الحكمة » سوف ترجع إلى الأرض على فترات متباعدات ، وأنها سوف يكتشفها للبشرية شخص مختار يسمى البوذا . وبناء على هذا الاعتقاد الهندي ظهر كثيرون من أمثال هذا البوذا . فجوتاما بوذا إنما هو آخر فرد في سلسلة البوذوات . على أنه من المشكوك فيه أنه هو نفسه قبل ذلك اللقب أو اعترف بتلك النظرية ، فإنه في أحاديثه لم يسم نفسه قط باسم بوذا .

ثم أسس هو وتلاميذه الذين استردهم إليه ضرباً من الأكاديمية في حديقة الغزلان ببنارس . فأنشأوا لأنفسهم أكواخاً وجمعوا من حولهم أتباعاً آخرين تزايدوا حتى بلغ عددهم ستين أو يزيدون ، وكانوا يقيمون على الحديث والمباحثة في مستقرهم هذا إبان موسم المطر ويتفرقون في أنحاء البلاد أثناء موسم الجفاف فيبشر كل منهم بالتعاليم الجديدة على الصورة التي يراها . وكان كل تعليمهم يتم ، كما يلوح ، بطريق المشافهة . ولم يكن هناك على الراجح أية كتابة في الهند على الإطلاق ، بل إننا لَنرتاب في أن تكون الإلياذة نفسها دونت إبان بوذا ، والراجح أن أبجدية البحر المتوسط - وهي أساس معظم الخطوط الهندية - لم تكن وصلت بعد إلى الهند - فكان المعلم الأكبر إذن ينج ويؤلف قصائد وحكماً مأثورة وقوائم بالنقط الهامة قصيرة كثيرة اللباب ، فيوسعها تلاميذه في أحاديثهم . وساعدهم استعمال الأرقام على استيعاب هذه القصائد والحكم المأثورة مساعدة جلييلة . وقد يضيق العقل العصري ذرعاً بنزوع الفكر الهندي إلى بيان أخبار الأشياء بالأرقام مثل

« الطريق المثلث الجوانب » - و « الحقائق الأربعة وهلم جرا » . بيد أن هذا العدد كان ضرورة مساعدة للذاكرة في عالم لا وثائق لديه ولا كتابة .

٣ - إنجيل جوتاما بوذا

إن تعاليم جوتاما الأساسية ، كما تبينها لنا اليوم دراساتها للمصادر الأصلية ، هي تعاليم واضحة بسيطة منسجمة انسجاماً وثيقاً مع الآراء الحديثة ، وهي بلا نزاع ثمرة ذكاء نفاذ من ألمع ما عرف العالم .

ولدينا الآن ما نكاد نجزم بأنه النقط الرئيسية الصحيحة لعظته إلى تلاميذه الخمسة ، وهي تحتوى على جوهر عقيدته ، فهو ينسب كل ما في الحياة من شقاء وتدمير إلى الأنانية التي لا تشيع ولا تقنع . ويقول إن الآلام ترجع إلى الذاتية الجشعة المتلهفة وإلى العذاب الناشئ عن الشهوة النهمية . وإلى أن يستطيع المرء أن يكبح كل ما بنفسه من نوازع الاشتها والتلهف الشخصي تظل حياته عناء واضطراباً ويصبح ختاهم أسى وعذاباً . وهناك ثلاثة أشكال أساسية يتخذها التلهف على الحياة وهي كلها شر : أولها الرغبة في إشباع الحواس وهي الرغبة الشهوانية ، وثانيها هو الرغبة في الخلود الشخصي ، وثالثها هو الرغبة في النجاح والثراء والاهتمام بأمور الدنيا . ولا بد من التغلب على هذه كلها ، أعنى أن الرجل يجب أن يكف عن أن يعيش من أجل نفسه ، قبل أن يتيسر للحياة الصفاء والسكينة . ولكن عند ما تقهر هذه الرغبات بالفعل ولا تعود تسيطر على حياة الفرد ، وعند ما يمحي ضمير المتكلم « أنا » من أفكاره الخاصة ، فإنه يكون عند ذلك قد وصل إلى الحكمة العليا ، إلى السعادة الخالدة ، إلى النرفانا (Nirvana) التي هي صفو الروح وسكينة . ذلك أن النرفانا ليس معناها الفناء كما يعتقد الكثيرون من الناس خطأ ، وإنما معناها فناء الأغراض الشخصية الباطلة التي تجعل الحياة بحكم الضرورة دينية أو ذليلة أو مروعة .

والآن صار لدينا ولا مرأى ، أتم تحليل لمسألة السكينة الروحية . فكل دين جدير بذلك الاسم يهيب بنا ، وكل فلسفة تنادينا أن نفنى أنفسنا في شيء

أجلّ من أنفسنا وأعظم « فكل من شاء منا أن ينقذ حياته عليه أن يخسرها »
وإنك لتجد هنا هذا الدرس نفسه بالضبط .

ذلك أن تعاليم التاريخ كما نكشفها لك في كتابنا هذا تتمشى بدقة مع
تعاليم بوذا هذه . فلن يتحقق - كما نشاهد بأنفسنا - أى نظام اجتماعى
ولا أمان ولا سلام ولا سعادة ولا زعامة رشيدة أو ملكية صالحة ، حتى
يفنى الناس أنفسهم فى شئ أجل من أنفسهم . كذلك تكشف لنا دراسة
التقدم البيولوجى الحجب عن نفس العملية بالضبط ، أعنى اندماج
الدائرة الضيقة لتجارب الفرد فى محيط أكبر وأوسع . وإن نسيان المرء
لذاته فى أثناء اهتمامه بمصالح أعظم منها إنما هو فرار من سجن مطبق .

ويجب أن يكون إنكار الذات كاملاً . فإن ذلك الفزع من الموت ، وذلك
النهم فى طلب استمرار لا نهائى لحياة الفرد الدنية الصغيرة ، وهو الذى دفع
بالمصرى ومن تعلم منه ، أن يدخل إلى المعابد حاملاً التعاويذ ووسائل
الاستغفار ، كل ذلك كان فى نظر جوتاما شيئاً يعادل فى فئائه وفى قبحه
وشرّه ، الشهوة أو الشح أو الحقد . وديانة جوتاما تتنافى تماماً وديانات
« الخلود » . وتعاليمه تنهض كالحجر الصلد ضد التقشف والزهادة بوصفها
مجرد محاولة للفوز بالقوة الشخصية عن طريق الآلام الشخصية .

أما عن قاعدة الحياة ودستورها : « النهج الآرى » الذى قد نستطيع به
أن نهرب من الشهوات والتلهفات الوضيعة فى صورها الثلاث التى تصم
الحياة الإنسانية بوصمة العار ، فإن التعاليم بشأنها ليست على نفس الدرجة من
الوضوح ، وذلك لسبب يبين جداً ، هو أن جوتاما لم يكن له أى علم
ولا بصيرة بالتاريخ ، ولم يكن لديه شعور واضح عن مغامرة الحياة الفسيحة
الكثيرة الجوانب فى انطلاقها فى أرجاء الزمان والفضاء . كان ذهنه محصوراً
فى دائرة أفكار عصره وقومه ، وقد جمدت عقولهم حول أفكار التكرار
الدائم المتواصل ، والعالم الذى يتلو عالماً سبقه ، والاعتقاد بظهور بوذا فى

إثر بوذا ، وهو دوران للكون يتسم بالركود والجمود . أما الفكرة التي يجعل من الجنس البشرى أخوة كبيرة تتجه نحو مصير لا نهاية له تحت رعاية إله البر والصلاح ، وهى الفكرة التي كان فجرها أنشأ من قبل يطلع في أذهان الساميين في بابل في ذلك الزمان ، فلم يكن لها وجود في عالمه . ومع ذلك فإن حديثه عن « الطريق المثمن الجوانب » ، يعتبر رغم هذا وبغض النظر عن هذه التحديدات على جانب عظيم من الحكمة والصواب .

وسنلخص في إيجاز العناصر الثمانية للنهج الآرى : فأولها « الآراء الصائبة » - حيث جعل جوتاما مسألة فحص الآراء والفكرات بإمعان شديد ، والإصرار على الحق والصدق أول مطلب لأتباعه . فينبغي الكف عن التعلق بالخرافات المزوقة القبيحة المخبر . فكان مثلاً يستنكر العقيدة السائدة القائلة بتناسخ الأرواح . وتحتوى إحدى المحاورات البوذية الشهيرة الأولى على تحليل مدمر لفكرة وجود روح فردية مستديمة . ثم تأتى « الأمانى الصائبة » بعد « الآراء الصائبة » ، فإن الطبيعة تمتقت الفراغ . ولما كانت التلهفات والشهوات الوضيعة شوائب لا بد من إقصائها ، فإنه ينبغى أن يحل محلها في النفوس رغبات سامية من أمثال الرغبة في خدمة الناس والرغبة في إقامة العدل وتثبيت أركانه وما شابهها . ولم تكن البوذية البدائية التي لم يتطرق إليها الفساد تجعل هدفها تدمير الرغبة بل استبدالها بأخرى . فمن الجلى أن التعلق بالعلم أو الفن أو بالتحسين والإصلاح ينسجم انسجاماً تاماً مع « الأمانى الصائبة » في البوذية الحقبة بشرط أن تكون تلك الغايات خلواً من الغيرة أو من التلهف على الشهوة .

ولست موضوعات « الحديث الصائب » - و « السلوك الصائب » - و « الارتقاء الصائب » بحاجة إلى إفاضة في البحث هاهنا . ثم يأتي في البند السادس لهذه القائمة « الكد الصائب » ، إذ أن جوتاما لم يكن ليتسامح بأى حال حيال حسن النية المصحوب بالتواني في التنفيذ . فكان لزاماً على التلميذ أن يقيم على مناشطه عيناً يقظة نفاذة . والعنصر السابع في

« النهج » وهو « التنبه الصائب » إنما هو الحارس الواقى لنا من الانزلاق إلى الشعور الشخصى أو المجد الذاتى المنبعث عن أى شىء تم أو لم يتم . وأخيراً يأق « الجدل الصائب » الذى يبدو أنه مصوب ضدّ النشوة العقيمة لدى القانت المتبتل ، أى ضد ذلك الغرور الأحمق مثلاً ، الذى كان ينطلق مع جلجلة آلة الصلاصل (السيستروم) الموسيقية بمعابد الإسكندرية .

ولن نناقش هنا عقيدة « كرما » (Karma) البوذية لأنها تنتمى إلى عالم فكرى آخذ فى الزوال . فإن الخير والشر فى حياة فرد كانا فى زعمه يحددان السعادة والشقاء فى حياة تالية تكون مطابقة لسابقتها (أى تكون هى بنفسيها) بطريقة لا يمكن تفسيرها . وإنا لنذكر فى زماننا هذا أن حياة الفرد تستمر فى ذريته إلى الأبد . بيد أنا لا نجد أية ضرورة تدعونا لفرض أن أية حياة فردية معينة تستأنف . وكان العقل الهندى مليئاً بفكرة التكرار الدورانى . إذ كان يزعم أن كل شىء لا بد أن يدور فيعود . وهذا فرض من الطبيعى جداً أن يفترضه الناس . فعلى هذه الشاكلة تلوح لنا الأشياء كلها حتى نحللها . ولقد أوضحت لنا العلوم الحديثة أنه لا وجود لشيء من هذا التكرار أو التعاقب المضبوط ، الذى نميل لافتراضه ؛ فإن كل يوم يكبر سابقه بمقدار متناهٍ فى الصغر ، وما من جيل يكرر سابقه تكراراً دقيقاً مضبوطاً .

والتاريخ لا يعيد نفسه أبداً . إذ أننا نعلم الآن علم اليقين أن ألوان التغير التى تلحقه لا تنتهى ولا يكاد يدركها حصر . فكل شىء جديد جدة أبدية لا نهائية . على أن الفوارق التى تفرق بين آرائنا بصفة عامة وبين آراء بوذا ينبغى أن لا تمنعنا بأى حال عن تقدير حكمته المبتكرة التى لم يسبقه إليها أحد ، وعن معرفة الخير والعظمة اللذين يتجليان فى هذه الخطوة التى رسمها جوتاما لحياة طليقة محررة فى زمن ما من القرن السادس قبل الميلاد .

فلئن فشل من الوجهة النظرية في جمع كلمة جميع من اعتنقوا مذهبه وربط إرادتهم بعضها ببعض في منشطة واحدة متعددة النواحي لجنسنا البشرى الذى يكافح الموت والحمود في الزمان والفضاء ، فلقد استطاع بالفعل أن يوجه حياته هو ذاته وحياة تلاميذه الأقربين نحو مغامرة واحدة تسير في سبيل التقدم ، مغامرة كان عليها أن تبشر بمبادئ وأساليب « الرفائنا » أى صفو النفس وتشرها في كل أرجاء عالمنا المحموم . فكان تعليمه لهم هم على الأقل كاملاً موفوراً . على أنه ليس كل الرجال بقادرين على أن يبشروا وأن يعلموا . وليست المذاهب والمعتقدات إلا وظيفة واحدة من وظائف الحياة ، تلك الوظائف التى يقوم جوهرها على البر والصلاح . ويبدو أن الفكر الحديث لا يكاد يفرق بين أن يقوم امرؤ وإن واجهته صعاب كبرى بازدياد الأرض أو بحكم مدينة من المدن أو بتعبيد الطرق أو ببناء البيوت أو بإنشاء الآلات ، أو بطلب المعرفة ونشرها على حال من نكران الذات وهدوء النفس التام بل إن هذه الأمور كلها لديه سواء . وكل هذه الأمور تتضمنها بطبيعتها تعاليم جوتاما . ولكن لا شك أن الاهتمام والتشديد كان يوجه إلى التعاليم نفسها ، وإلى الانسحاب من شؤون حياة الناس العادية أكثر منه إلى التسامى بها في مراقى النبل والكمال .

هذه البوذية البدائية تختلف من أوجه أخرى معينة عن أى دين من الأديان التى بحثناها حتى الآن . فهى قبل كل شيء ديانة خلقت وسلوك ، لا ديانة طقوس وقرايين . ولم تكن لها معابد . ولما لم تكن لها قرايين لم يكن لها هيئة مقدسة من الكهان وكذلك لم يقيم لها أى لاهوت ، وقد وقفت موقفاً محايداً من آلهة الهند التى كان يعبدونها الناس في ذلك الزمان ، تلك الآلهة التى لا تحصى ، والتى غالباً ما كانت غريبة الشكل — فلا هى أكرتها ولا هى اعترفت بها ولا هى أنكرتها ، بل غضت الطرف عنها جميعاً .

٤ - البوذية وأسوكا

أساء الناس فهم هذه التعاليم الجديدة منذ مستهل بدايتها نفسها . وربما كان هناك ناحية فساد واحدة كامنة في طبيعة تعاليمها . فإن الناس لم يكن لديهم حتى آنذاك أى شعور بأن الحياة مجهود متواصل مطرد ، لذلك كان من أيسر الأمور الانزلاق من فكرة التخلي عن النفس أو نبذها إلى فكرة التخلي عن حياة النشاط والعمل . وكما أظهرت التجارب الخاصة التى مر بها جوتاما ، يكون الفرار من هذا العالم أيسر من الفرار من النفس . وكان تلاميذه الأوائل مفكرين مجتهدين ومعلمين مجتهدين ، ولكن الانزلاق إلى مجرد عزلة الرهبة كان أمراً هيناً جداً ، ولا سيما فى مناخ كمناخ الهند تكون فيه بساطة العيش البتامة أمراً جذاباً ترتاح إليه النفوس ، وحيث المجهود أتعب للجسم منه فى أى مكان آخر فى العالم . ولقد شاعت المقادير لجوتاما منذ بداية دعوته ، كما شاعت لكل مؤسس الديانات منذ زمانه ، أن يحولهم تلاميذهم الأقل ذكاء إلى أعجوبة من الأعاجيب ليؤثروا بهم فى العالم الخارجى . ولقد ذكرنا من قبل كيف أن تابعاً مخلصاً ، لم يسعه إلا الاعتقاد بأن لحظات الإشعاع العقى لأستاذه لابد أن تكون بحكم الضرورة مصحوبة بنوبة صرع أصابت عناصر الطبيعة . ذلك مثل صغير للمجموعة الهائلة من الأعاجيب المبتدلة التى سرعان ما تزاحمت حول ذكرى جوتاما .

وبما لا سبيل إلى الشك فيه أن مجرد فكرة الانطلاق والتحرر من النفس ، كانت عند ذلك كما هى الآن فكرة بالغة العسر على أفهام الغالبية العظمى من جمهور الكائنات البشرية . والراجح أن كثيراً من المعلمين الذين كان بوذا يرسلهم من بنارس لم يستطيعوا هم أنفسهم أن يفهموا ويدركوا مراميها ، وأقل منهم من كانوا يستطيعون أن ينقلوها إلى سامعيهم .

فمن الطبيعي إذن أن يصطبغ تعليمهم بصبغة الخلاص ، لا من النفس — إذ كانت الفكرة أبعد عليهم منالاً — بل من الشقاوات والآلام في هذا العالم والعالم الآخر . ولقد وجدوا في خرافات القوم الموجودة من قبل ، وبخاصة في فكرة تقمص الروح بعد الموت (وإن كانت هذه الفكرة تناقض تماماً تعاليم أستاذهم الكبير نفسه) مادة من الخوف يستطيعون أن يبنوا فوقها . فاستحثوا الناس على الفضيلة لكيلا يعودوا إلى الحياة ثانية في أشكال منحطة أو مُتَعَسَّة ، أو أن يقعوا في أحد أنواع العذاب وهي كثيرة لا يبلغها الحصر ، — وهي الأفكار التي كان المعلمون البرهميون ملأوا بها عقولهم من قبل . ومثلوا البوذا على صورة المنقذ للناس مما لا يكاد يحصيه الحصر من ألوان العذاب .

ويلوح أنه ليس هناك حد للأكاذيب التي كان يذيعها الأتباع الأمناء والأغبياء أيضاً ، رغبة منهم في تمجيد أستاذهم وبلوغ ما يعدونه نجاحاً لدعاياتهم . فالرجال الذين يترفعون عن قولة الكذب في حياتهم اليومية يصبحون غشاشين كذابين لا يتورعون عن الدنايا حين يكرسون أنفسهم للدعاية . وذلك من السخافات الحيرة في طبيعتنا البشرية . فمن عجب أن مثل هاته النفوس الأمينة — وغالبيتهم كانت ولا مرأى من الأمناء — تسارع إلى إخبار سامعيهم بالمعجزات التي صحبت مولد البوذا ، وإن أحداً منهم لم يعد يسميه جوتاما ، إذ كان اسماً رُفِعت منه كل كلفة واحتشام ، أطلق عليه وهو في عنفوان قوته وأوج نزائوته . وهم لا يتورعون أن يقبلوا على الناس منبئين لهم بأعاجيب حياته اليومية ، معرجين على ما ظهر على جسمه من النورانية في ساعته الأخيرة .

وبديهى أنه كان من المستحيل أن يعتقد الناس أن بوذا كان ابناً لأب فان : بل حملت فيه أمه بمعجزة حيث رأت في منامها فيلا أبيض جميلاً ! وكان هو نفسه فيما سلف فيلا جميلاً له ستة أنياب ، تكرم فنحها كلها إلى صياد فقير ؛ بل لقد ساعده على قطعها من جسمه ... وهكذا .

وفضلاً عن ذلك فإن ضرباً من اللاهوت نشأ حول البوذا . فاكشف الناس أنه إله ، وأنه واحد من سلسلة من كائنات قدسية هي البوذوات . وأن « لكل البوذوات روحاً خالدة » لا تمتد إليها يد الموت . فهناك سلسلة من البوذوات مضت مع الغابرين وأخرى من البوذوات ستتلوها في اللاحقين . بيد أننا لا نستطيع أن نذهب إلى بعد من هذا في معتقدات اللاهوت الأسوي وبحسبنا أن نشير إلى أن : « تعاليم جوتاما الأخلاقية كادت تختفى عن الأنظار تحت تأثير القوى الجارفة لتلك التخييلات السقيمة . وسرعان ما كانت النظريات تنمو وتزدهر ، فكل خطوة جديدة وكل فرض جديد يستلزم شيئاً آخر جديداً ، حتى أصبحت السماء بأكملها مليئة بمزيفات من نسج الخيال واختفى ما ألفاه مؤسس الديانة من دروس أسمى وأبسط تحت كتلة المعميات الميتافيزيقية البراقة » .

وفي القرن الثالث ق . م . كانت البوذية تكتسب الثروة والسلطان . وكانت مجاميع الأكواخ البسيطة التي يتجمع فيها معلمو المذهب في الموسم المطير ، تحل محلها لمبان للأديرة شاذجة البنيان وطيدة الأركان . وإلى هذه الفترة تنتمي بداية الفن البوذي . وإذا تذكرنا كم كانت مغامرة الإسكندر حديثة العهد ، وأن كل الپنچاب كان ما يزال تحت الحكم السلوقي ، وأن الهند بأكملها كانت غاصّة بالمغامرين الإغريق ، وأن المواصلات مع الإسكندرية كانت لا تزال مستمرة ميسورة برّاً وبحراً ، إذا تذكرنا كل ذلك فليس هناك كبير عجب أن ترى ذلك الفن البوذي الأول متصفاً بخصائص إغريقية قوية ، وأن تكون نحلة الإسكندرية الجديدة : نحلة سيرابيس وإيزيس عظيمة الأثر في تطوره إلى درجة خارقة للعادة .

كانت مملكة جندهارا (Gandhara) الواقعة على الحدود الشمالية الغربية بالقرب من پيشاوار (Peshawar) والتي ازدهرت في القرن الثالث ق . م . ، خبر مثال يمثل التقاء العالمين الهليني والهندي . فهنا يوجد أول ما ظهر من

أعمال النحت البوذية ، وقد انتسجت معها أشكال يمكن للمرء أن يميز فيها أشكال سيراييس وإيزيس وحورس التي اتخذت سبيلها إلى شبكة الأساطير التي اجتمعت حول بوذا . ولا شك أن فنانى الإغريق الذين وفدوا إلى جندهارا عز عليهم أن يهجروا ألفوه . ولكن يقال لنا إن إيزيس هنا لم تعد إيزيس وإنما هى هاريتى (Hariti) ، وهى ربة وباء وأذى هداها بوذا وجعلها من الصالحات الخيرات المحسنات ، ويقفون فوشز (Foucher) أثر إيزيس من هذا المكان إلى الصين . بيد أن مؤثرات أخرى كانت تعمل عملها هناك أيضاً . وتصبح القصة أعقد من أن نستطيع تبينها وشرحها فى هذه « المعالم » . كانت للصين ربة تاوية (Taoist) هى الأم المقدسة ، مليكة السماء التى اتخذت لنفسها اسم كوان ين (Kuan-Yin) (وهو فى الأصل اسم مذكر) وهى التى تصادف أن شابهت هيئة إيزيس مشابة وثيقة . ولنا لشعر أن شكل إيزيس لا بد أن قد أثر فى معالجة كوان ين ، ومن أشباه إيزيس كذلك مليكة البحار ستيلامارس (Srella Maris) ، وكانت تسمى فى اليابان كوانن (Kwannon) . ويبدو أنه كان هناك تبادل مستمر فى المظاهر الخارجية للديانات بين الشرق والغرب ، فلما نقرأ فى رحلات هك (Huc) ، كيف تحير فكره وفكر زميله فى البعثة الدينية لما شاهداه فى العبادات من التقاليد المشتركة بين الشرق والغرب ، حيث يقول : « إن الصليب وتاج الأسقف والثوب الكهنوتى الرسمى والبطرشيلى ، التى يلبسها اللامات العظام فى رحلاتهم أو عندما يقومون بطقوس خارج المعبد ، والصلاة المصحوبة بجوقتين من المرتلين وترنيم المزامير والتعويذات والرقى والمبخرة المدلاة من خمس سلاسل ، التى تستطيع أن تفتحها وتغلقها ، والبركات التى يمنحها اللامات بمد يدهم اليمنى على رأس المؤمنين والسبحة والعزوبة الأكليروسية ، والازنواء الروحى ، وعبادة القديسين والصيام والمواكب والأوراد الكنسية ، والماء المقدس ، — كل هذه مماثلات يشترك معنا فيها البوذيون » .

ثم أخذت عقيدة جوتاما ومبادؤه ، وهى تجمع المفاسد وتستقبل التغيرات

من البرهمية والهللينية على السواء ، - تنتشر في أنحاء الهند على يد حشد متزايد من المعلمين في القرنين الرابع والثالث ق . م . وظلت بضعة أجيال على الأقل محتفظة بالكثير من جمالها المعنوي وبشيء من بساطة طورها الأول . وكثير من الناس ممن لا تستطيع أذهانهم إدراك معنى إنكار الذات وتجاهل مصالحها ، لديهم رغم هذا ، المقدرة على تقدير الروعة التي تنطوي عليها مطابقة هذه الصفات للحقيقة والواقع . كانت البوذية الأولى تنتج ولا مرأ نفوساً نبيلة ، ولا يخفى أن وسيلة استثارة كامن الاستجابة للنبل في أذهاننا لا تقتصر على العقل وحده ، بل الواقع أن تلك الاستجابة انتشرت لا بفضل ما قدمت من إذعان للأوهام المبتدلة بل على الرغم من ذلك انتشرت لأن الكثيرين من البوذيين الأوائل كانوا أناساً عذبي الشئائل ، رقيقى العواطف ، يبدلون لغيرهم العون ، ويتجلى في سجاياهم النبل والمرءة . وهذا أرغم الناس على الاعتقاد بإيمانهم الوطيد الصامد .

اشتبكت البوذية وهى لا تزال في مستهل حياتها مع ادعاءات البراهمة المتزايدة . وكما سبق أن لاحظنا ، كانت تلك الطائفة الكهنوتية لا تزال في كفاح من أجل التسلط على الحياة الهندية منذ أيام جوتاما نفسه . وكانت لها من قبل مزايا عظيمة ، فكانت التقاليد والقرايين الدينية حكررة في أيديهم لا ينازعهم فيها أحد ، ولكن تطور الملكية كان في الواقع تحدياً لسلطانهم لأن الرجال الذين أصبحوا زعماء للعشائر وملوكاً ، لم يكونوا في العادة من طائفة البراهمة .

وتلقى نظام الملكية من غزوات الفرس والإغريق للهنجاب دفعة قوية . وقد ذكرنا من قبل اسم الملك پوروس الذى هزمه الإسكندر بالرغم من أفياله ، وحوله إلى « سآراپ » تابع له . وكذلك وفد على المعسكر الإغريق على نهر السند مغامر آخر يدعى قندراجوبتا موريا أوجندر كپت (Chandra Gupta Maurya) وهو الذى يسميه الإغريق ساندرا كوتوس (Sandracottus) يحمل مشروعاً لفتح منطقة الجانج (الكنج) . ولم تلق الخطة ترحاباً من المقدونيين ، الذين كانوا قد تمردوا ورفضوا متابعة السير

داخل بلاد الهند ، فاضطر الرجل أن يغادر المعسكر فراراً وتجول بين القبائل على الحدود الشمالية الغربية ، وحصل على تأييدهم ، فلما رحل الإسكندر اجتاحت البنجاب طارداً ممثلي المقدونيين . ثم فتح بلاد الجانج (الكنج) (٣٢١ ق.م) وخاض حرباً (٣٠٣ ق.م) ضد سلوقوس الأول ، عند ما حاول الأخير أن يسترد البنجاب . وأرسى دعائم إمبراطورية عظيمة تمتد عبر سهل الهند الشمالى بأجمعه من البحر الغربى إلى البحر الشرقى . ثم اشتبك مع قوة البراهمة المتزايدة فى ذلك النزاع بين التاج والكهانة ، الذى سبق أن لاحظنا نشوبه فى بابل ومصر والصين . فرأى فى مبادئ البوذية الآخذة فى الانتشار حليفاً يعينه على إيقاف نمو قوة الكهانة ونظام الطوائف فظاهر النظام البوذى ومنحه العطايا وشجع تعاليمه .

وخلفه على العرش ابنه ، ثم جاء بعده أسوكا (٢٦٤ - ٢٣٢ ق.م) وهو من أعظم الملوك فى التاريخ . امتدت مملكاته من أفغانستان حتى ما يسمى الآن ولاية مدراس . وهو الملك العسكرى الوحيد الذى يشهد التاريخ بأنه تخلى عن الحرب بعد النصر . ذلك أنه غزا كالنجا (Kalinga) (٢٢٥ ق.م) وهى قطر على امتداد ساحل مدراس الشرقى ، ولعله كان عازماً على إتمام فتح شبه الجزيرة الهندية . وتوجت الحملة بالتوفيق ، ولكنه اشمأز مما رأى من فظائع الحرب وأهوالها . فأعلن فى بعض النقوش التى لا تزال موجودة أنه لن يطلب الغزو عن طريق الحرب بعد هذا ، بل عن طريق الدين . فكرس بقية حياته لنشر البوذية فى كافة أصقاع العالم . ويبدو أنه حكم إمبراطوريته الفسيحة فى سلام شامل وبكفاية عظيمة . لم يكن مجرد متعصب دينى . بيد أنه فى السنة التى حدثت فيها حربه الأولى والأخيرة ، انضم إلى المجتمع البوذى بوصفه رجلاً علمانياً عادياً . وبعد ذلك بضع سنوات أصبح عضواً عاملاً فى الهيئة ، وكرس نفسه للوصول إلى النرفانا بواسطة « الطريق المثمن الجوانب » . فكم كانت طريقة العيش هذه تتفق تماماً مع ما تكشفه لنا حياته من جهود وضروب نشاط عظمة النفع

حافلة بالبر والإحسان . لقد كانت سيرة حياته تمتاز « بالأمانى الصائبة » و« الجهود الصائبة » - و « الارتزاق الصائب » . فنظم حركة عظيمة لحفر الآبار في الهند ولزراعة الأشجار طلباً للظل وعين موظفين للإشراف على أعمال الإحسان . وأسس المستشفيات والحدائق العامة . وأمر فأنشئت مائة لزراعة الأعشاب الطبية . فلو أتيح له فيلسوف كأرسطو يوحى إليه بأرائه لتحسباً البحث العلمى بالعطايا السنية على أوسع نطاق ولا مراء . واستحدثت وزارة للعناية بالسكان الأصليين والأجناس المهجورة . واتخذ التدابير اللازمة لتعليم النساء . وكان أول ملك في التاريخ قام بمحاولة لتربية شعبه تربية توحد نظرهم إلى غايات الحياة وسبلها ووهب هيئات التعليم البوذية منحاً جزيلة . وحاول أن يستنهضهم إلى دراسة أدبها الخاص دراسة أوفى وأحسن ، وأقام في طول البلاد وعرضها نقوشاً مستفيضة تسرد على الناس تعاليم جوتاما . وكان ما سطره هو التعاليم البسيطة الإنسانية ، لا الزيادات المحشوة بالسخافات المخالفة للمعقول ، وما تزال خمس وثلاثون من نقوشه باقية إلى اليوم . وفضلاً عن ذلك فإنه أرسل المبشرين للنشر تعاليم أستاذه النبيلة المعقولة ، في جميع أنحاء العالم : في كشمير وسيلان كما بعث بهم إلى السلوقيين والبطالمة . فكانت إحدى تلك البعثات هي التي حملت إلى سيلان القطعة المأخوذة من « شجرة البو » التي سبق أن تحدثنا عنها .

وظل أسوكا مدة ثمانية وعشرين عاماً يعمل بعقله الراجح لسد حاجات الناس الحقيقية . وإنك لترى بين عشرات الآلاف من أسماء الملوك التي تزدحم بها قوائم التاريخ بين أصحاب الجلالة والعطوفة والعظمة وأصحاب السمو الملكي ومن إليهم ، اسم « أسوكا » يتلأأ ، بل يكاد يتلأأ وحده كالنجم الثاقب ، ولا يزال اسمه موضع التكريم من الفولجا إلى اليابان . ولا تزال الصين والتبت وحتى الهند نفسها (وإن كانت قد هجرت مبادئه) محتفظات له بالتقاليد العظيمة والذكرى الخالدة . وإن الرجال الأحياء الذين يعتزون بذكراه اليوم لأكثر عدداً من كل من سمعوا أسماء قسطنطين أو شلمان .

٥ - معلمان صينيّان عظيمان

يرى بعض الناس أن ما أغدقه «أسوكا» على البوذية من عطايا عميقة انتهت بها آخر الأمر إلى الفساد ، بما اجتذبه إلى حظيرتها من عدد كبير من الأتباع المرتزقة وغير المخلصين ، ولكن لا سبيل إلى الشك أن امتدادها وانتشارها في كل أصقاع آسيا يعود معظم الفضل فيه إلى تأثيره هو .

شقت البوذية طريقها إلى آسيا الوسطى عابرة أفغانستان وتركستان وبدا وصلت إلى الصين . ويقول الأستاذ پراماثانات بوز إن البوذية وصلت إلى الصين قرابة ٦٤ ميلادية في عهد الإمبراطور مينج تي (Ming Ti) من أسرة هان ، وكان الهانديت كاسيايا رسولها إلى الصين ثم تلتها سلسلة من المعلمين الآخرين العظماء . وكانت أيام الدعاية البوذية العظيمة في الصين هي القرنان الثالث والرابع الميلاديان ثم لقيت اضطهادات محزنة ثم عادت فنشطت من جديد وأخذت تبرز وتشتهر قبيل ظهور أسرة تانج .



(ش ٩٥) هاريتي

على أن البوذية وجدت في بلاد الصين ديانة شعبية منتشرة قد توطدت أركانها من قبل ، هي الديانة التاوية (Taoism) وهي صورة متطورة لما كان يزاوله ذلك الشعب منذ سحيق الأزمان من سحر بدائي عتيق وممارسات خفية . وأعاد تشانج تاولنج (Chang Taoling) تنظيمها كعبادة متميزة في زمان أسرة هان . ومعنى كلمة تاو (Tao) هو الطريق ، وهذا يشاكل فكرة «النهج الآري» مشاكلة وثيقة . وابتدأ الأمر بأن نشب الكفاح بين الديانتين ، ثم لم تلبث أن انتشرت جنباً إلى جنب ولحقتهما تغييرات متشابهة ، حتى لقد أصبحت المظاهر

متشابهة ، حتى لقد أصبحت المظاهر الخارجية لشعائرها في الوقت الحاضر باللغة التشاكل . والتقت البوذية أيضاً بالكونفوشيوسية أو الكونفوشيانية وهي عقيدة تكاد تكون أقل من التاوية من حيث الطابع اللاهوتي وأقرب إلى قانون للسلوك الشخصي . ثم التقت آخر الأمر بتعاليم لاوتسى (Lao Tse) وهو « فيلسوف أخلاقي فوضوى يناصر السلام ومذهب النشوء والارتقاء » . ولم تكن عبادته هذه ديانة قدر ما كانت دستوراً فلسفياً للحياة . ثم اندمجت تعاليم لاوتسى أو (لاهوتسى) فيما بعد في الديانة التاوية على يد تشن توان (Chen Tuan) مؤسس التاوية الحديثة .

وكان كونفوشيوس (Confucius) مؤسس الكونفوشيوسية يعيش كذلك في القرن السادس ق . م . شأن المعلمين العظميين الجنوبيين (لاوتسى وجوتاما) . وتتجلى في سيرته بعض أوجه شبه شائعة بينه وبين بعض الفلاسفة الإغريق في القرنين الخامس والرابع وإن فاقوه نزوعاً إلى السياسة .



ش ٩٦ - صورة صينية لكوانيين

ويقع القرن السادس ق . م . في المدة التي يخصصها المؤرخون الصينيون لأسرة تشاو (Chow) ولكن كان حكم تلك الأسرة لا يتجاوز أيامئذ الحكم الإسمى إلا قليلاً . فكان الإمبراطور يقوم بالقرايين التقليدية المقدمة من ابن السماء، ويحظى ببعض مظاهر الاحترام الشكلي . وليت الأمر وقف به عند حد الولاية الإسمية على بلاد الصين بل إن رقعة مُملكه لم تكن لتعادل سدس الصين في الوقت الحاضر . ولقد سبق أن ألقينا نظرة إلى مجريات الأمور في الصين في ذلك الزمان . وإذ كانت الصين بالفعل

مجموعة من الولايات المتحاربة مفتوحة الفجاج للبرابرة الشماليين . وكان كونفوشيوس فرداً من الرعايا في إحدى تلك الولايات ، وهي ولاية « لو »

(Lu) وهو أرستقراطي المولد وإن نشأ رقيق الحال . وبعد أن تقلد عدة مناصب حكومية ، أقام في « لو » ضرباً من الأكاديمية يبعي به اكتشاف الحكمة وبثها في الناس . كذلك نجد كونفوشيوس يحول من ولاية إلى ولاية في الصين لعله يجد أميراً يتخذه مستشاراً ناصحاً له ، ويجعل بلاطه مركزاً لعالم يعمه الإصلاح . وكذلك ذهب أفلاطون بعد ذلك بقرنين وبين جنبيه نفس تلك الأمنية والروح بالضبط إلى الطاغية ديونيسيوس في صقلية ليصبح مستشاراً له . ولقد ذكرنا من قبل موقف أرسطو وإيزوقراط حيال فيليب المقدوني .

قامت تعاليم كونفوشيوس حول فكرة الحياة النبيلة التي تمثلها في شخص معيارى أو مثل أعلى هو الرجل الأرستقراطي . وغالباً ما تترجم هذه العبارة في اللغة الإنجليزية باسم الشخص الأسمى ، ولكن لما كانت كلمتا « الأسمى » و « الشخص » قد صارت ككلمات « المحترم » و « الموقر » و « الوجيه » من زمان بعيد ألفاظاً تتضمن معنى السباب والسخرية التي تنطوى على شيء من التهكم ، فليس في ترجمتها على هذه الشاكلة إنصاف للكونفوشيوسية ، فإن مؤسسها قدم بالفعل إلى زمانه المثل الأعلى للرجل المخلص الذي وقف حياته على الخدمة العامة . وكانت الناحية سعامة على أقصى درجة من الأهمية في نظره . وكان الرجل مفكراً سياسياً إنشائياً أكثر من جوتاما أو لاو تسي . وكان ذهنه في شغل شاغل بحالة الصين ، فحاول أن يخلق الرجل الأرستقراطي مبتغياً بن ذلك بوجه خاص لإنشاء الدولة النبيلة . ولما لم نستطيع أن نقتبس هنا بعض ما قال « من المستحيل أن يعتزل المرء العالم ، وأن يخالط الطيور والوحوش التي لا يجمعنا وإياها تشاكل ولا تآلف ، فن ذا الذي ينبغي لي أن أخالطه من الناس إن لم أخالط من يتألمون ويشقون ؟ ، ذلك أن هذه الفوضى التي تعم الدنيا هي الشيء الذي يحتاج إلى جهودي ، ولو أن المبادئ الحققة كانت هي السارية في أرجاء المملكة ، لما كانت بي أي حاجة إلى تغيير حالتها » .

ويبدو أن الدعامة السياسية التي تقوم عليها تعاليمه تدخل في خصائص التعاليم الأخلاقية لأهل الصين . ففيها من الاهتمام بالدولة والإشارة المباشرة إليها أكثر مما في معظم العقائد الهندية والأوربية : الخلقية منها والدينية سواء . وعُين حاكماً فترة من الزمان في تشنج تو (Chung-tu) وهي إحدى مدن دوقية « لو » وهناك حاول أن ينظم الحياة تنظيماً خارقاً للعادة ، وأن يخضع بالفعل كل علاقة وكل عمل لقواعد ثابتة من أدب اللياقة المحكم التفاصيل . لقد صارت تعاليمه تفرض على الناس كافة ، وهي « مراسم ومرعيات في كل جزء من تفاصيلها كالتى لا تُرى إلا في بلاطات الملوك وقصور علية القوم . وأصبحت كل شئون الحياة اليومية خاضعة لقواعد جامدة ، حتى الطعام الذى قد تتناوله طبقات الناس المختلفة امتدت إليه يد التنظيم ، كذلك فرق بين الذكور والإناث في الطرقات . بل إن سُمك النعوش وشكل القبور وموقعها ، قد خضعت هي أيضاً للتنظيم » .

وكل هذا ، على حد قول الناس ، صينى (١) جداً . فما من شعب آخر عالج النظام الأخلاقى والاستقرار الاجتماعى قط عن طريق آداب السلوك كالشعب الصينى ، ومع ذلك فقد كان لأساليب كونفوشيوس أثر هائل في الصين على كل حال ، وما من شعب في العالم اليوم له مثل هذه التقاليد العامة الشاملة من آداب اللياقة وضبط النفس .

ثم تقوضت بعد ذلك سلطة كونفوشيوس على مولاه الدوق ، فاعتزل الحياة العامة من جديد . وتكدر صفو أيامه الأخيرة ب وفاة نفر من أنجب تلاميذه الذين كان يرجى منهم خير عظيم . وقد قال : « ليس هناك من حاكم ذكى ينهض ليتخذنى معلماً له ، وها قد دنا أجلى ! » .

على أنه مات ليخلد . ويقول هيرث (Hirth) : « لا مجال للريب أن كونفوشيوس كان له في تطور الخلق القومى الصينى أثر أعظم مما لكثير من

(١) صينى هنا بمعنى عقيم أو عجيب . (المترجم)

الاباطرة مجتمعين ، فهو لذلك أحد الشخصيات الأساسية التي يجب تأملها في كل تاريخ يكتب عن بلاد الصين . فأما تمكنه من التأثير على قومه إلى مثل هذه الدرجة ، فإنه كما يبدو لي راجع أكثر ما يرجع إلى صفات الشعب أكثر منه إلى شخصيته هو نفسه . فلو أنه عاش في أى جزء آخر من العالم فلربما نسي الناس اسمه . وكما رأينا ، أقام ذلك الرجل خلقه وآراءه الشخصية عن حياة الإنسان بعد أن درس دراسة وافية بعض الوثائق المتصلة اتصالاً وثيقاً بالفلسفة الأخلاقية التي أنبتتها الأجيال السابقة ، فالذى بشر به بين معاصريه لم يكن إذن جديداً كل الحدة عليهم . يبدو أنه — بعد أن سمع بنفسه أثناء دراسته للسجلات المدونة القديمة صوت حكماء الماضي خفيضاً خافتاً — أصبح بوقاً يسمع الصم وحاكياً ينقل للشعب تلك الآراء التي استخلصها من التطور الأول للشعب نفسه وليس ما بلغته شخصية كونفوشيوس من الأثر العظيم في الحياة القومية الصينية راجعاً فحسب إلى كتاباته وتعاليمه كما سجلها أناس آخرون ، بل يرجع كذلك إلى أفعاله . فقد أصبح خلقه الشخصى كما وصفه لنا تلاميذه وكما توضحه لنا بيانات من تلامه من الكتاب — وليس بعيداً أن يكون بعضها بأجمعه من بنات الأساطير — المثال الذى يحتذى ملاين ممن جبلوا على تقليد السلوك الظاهر لرجل عظيم فكل ما كان يأتيه على المأل من أفعال ، كان ينظم ويصاغ بأدق تفاصيله طقوساً ومرعيات ، ولم يكن ذلك من مستحدثاته ، لأن التزام المرعيات في الحياة ظل على الدوام موضع عناية الصينيين قبل كونفوشيوس بقرون كثيرة . ولكن سلطانه ومثاله المحتذى كان لها أثر كبير في تخليد ما كان يعتبره واجبات اجتماعية لازمة .

وكانت تعاليم لاو تسي (لاهو تسي) ، الذى ظل زماناً طويلاً أميناً للمكتبة الإمبراطورية في عهد أسرة تشاو ، أكثر إلهاماً وخداعاً وتملصاً من تعاليم كونفوشيوس . ويلوح أنه دعا المجتمع دعوة الرواقين (Stoics) إلى عدم المبالاة بما في العالم من مسرات وسلطان ، كما دعا إلى العودة إلى حياة بسيطة

تخيلها للماضى السحيق . وخلف لنا كتابات ، إلا أنها مقتضبة جداً في أسلوبها ، شديدة الغموض في معانيها . حتى لكأنى به يكتب في ألغاز . وبعد وفاة لاوتسى ألم بتعاليمه ما ألم بتعاليم جوتاما بوذا من قبل من فساد ، وأضيف إليها الشيء الكثير من الأساطير وأدخلت إليها أفكار خرافية ومرعيات شديدة التعقيد والشذوذ . على أن تعاليم كونفوشيوس لم تثقل بمثل هذه الإضافات لأنها كانت واضحة محدودة مستقيمة صريحة لا تسمح بتدسس مثل هذه التشويشات الملتوية .

ويتحدث الصينيون عن البوذية وعن مبادئ لاوتسى وكونفوشيوس باسم التعاليم الثلاثة . وهى تكون مجتمعة الأساس ونقطة التحول لكل ما تلاها من تفكير صيني . ودراستها بدقة إنما هى توطئة ضرورية لتأسيس أى رابطة ذهنية وخلقية صحيحة بين الشعب العظيم فى الشرق وبين العالم الغربى . ويلاحظ أن هناك أموراً معينة يتفق فيها جميع هؤلاء المعلمين الثلاثة ، الذين يعتبر جوتاما أعظمهم وأعمقهم غير منازع ، وهو الذى تتسلط تعاليمه إلى يومنا هذا على فكر الغالبية العظمى من الكائنات البشرية كما أن هناك مظاهر بعينها تتباين فيها تعاليمهم مع الأفكار والمشاعر التى قدر لها أن تسيطر على العالم الغربى على الفور . فهى أولاً تعاليم شخصية سمحة ، تعاليم طريق ونهج وطبقة نبيلة ، وليست مبادئ كنيسة ولا هى تسن قاعدة عامة . وهى لا تنجذ عبادة الآلهة الشائعين كما أنها لا تنكر وجودها . ويجب أن نلاحظ أن الفلاسفة الأثينيين ، كانوا على نفس الانفصال عن النواحي اللاهوتية ، فكان سقراط على أتم الاستعداد أن ينحى فى أدب لأى إله تقريباً وأن يقرب القرابين طبقاً للأوضاع المألوفة مع احتفاظه بأفكاره الخاصة . وهذا الاتجاه هو التقيض الصراح للحالة العقلية التى كانت تثبت وتتمو فى مجتمعات اليهود فى أرض اليهودية ومصر وبلاد بابل ، التى كانت فكرة الرب الواحد لديها هى الأولى المقدمة على كل ما سواها . ولم يظهر لدى كل من جوتاما أو لاهوتسى أو كونفوشيوس أى أثر مهما صغر لفكرة « الرب الغيور » :

ذلك الرب الذى لا يسمح بوجود « أى أرباب أخر معه » رب للصدق المر والحق الصارم لا يسمح بأى اعتقاد خفى فى السحر أو العرافة أو العادات القديمة أو أى قربان يقرب للملك الرب أو أى عبث بالوحدة المطلقة للأشياء .

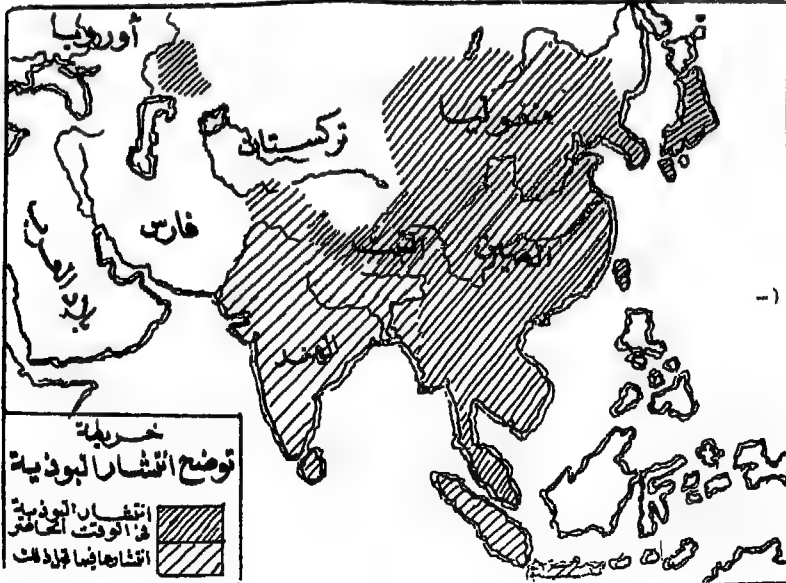
٦ - مفاسد البوذية

كانت عاقبة تعصب العقل اليهودى وعدم تسامحه ، أن احتفظ بعقيدته الأساسية صافية نقية . فإن إغفال المعلمين الشرقيين العطاء اللاهوت ووقوفهم منه على حال لا يحبذونه فيها ولا ينكرونه ، قد أتاح من الناحية الأخرى الفرصة منذ البداية الأولى أمام التفسيرات التفصيلية المحكمة وتجمع الطقوس . وفيما عدا إصرار جوتاما على تحرى « الآراء الصائبة » ، وهو المبدأ الذى كان من السهل إغفاله لم يكن هناك أى عنصر « لتطهير النفس » فى أى من البوذية أو التاوية أو الكونفوشيوسية . ولم يكن هناك أى تحريم فعال للممارسة الخرافات وإنهاض الأرواح واستدعائها والتعازيم والسجود والعبادات الإضافية (النوافل) . ومن ثم سرت فى العقيدة منذ مراحلها الأولى إضافات وزادات اطردت وتواصلت على مر الزمان . فإن العقائد الجديدة الثققت معظم الأدواء المعيبة بالديانات الفاسدة التى حاولت أن تحل محلها . فأخذت عنها الأصنام والمعايد والمذابح والمباخر .

والتبت اليوم قطر بوذى ، ومع ذلك فلو أن جوتاما بُعث من قبره حياً لذهب من أقصى التبت إلى أقصاها باحثاً عن تعاليمه بلا جدوى . وسيجد هناك ذلك الطراز العتيق من حكام البشر ، وهو الملك الرب متوجاً وممثلاً فى شخص الدالاي لاما (Dalai Lama) الذى هو (البوذا الحى) . وسيجد فى لاسا (Lhasa) معبداً فخماً غاصاً بالكهنة والرهبان واللامات — وهو (أى جوتاما) الذى لم تكن مبانيه إلا الخصاص والذى لم يكن له أى كهنة .

ولأنه ليشهد فوق هيكل مرتفع صنما ذهبياً ضخماً يخبرونه أنه يسمى « جوتاما بوذا ». ولأنه ليسمع صلوات ترتل أمام ذلك الرب ، ويرى نواميس وسنناً فيها آثار مبهمة لأشياء مألوفة لديه وتتم على سبيل الاستجابة . وتلعب الأجراس والبخور والسجود دورها في هذه المراسم المدهشة . ويدق جرس في لحظة من لحظات الصلاة وترفع امرأة ، بينما تزيد الجماعة بأسرها في انحنائها إمعاناً في المهابة والتوقير !!

ولأنه ليستكشف حول هذه المنطقة القروية البوذية كثيراً من الآلات الصغيرة ، وهي عجالات هوائية (١) ومائية صغيرة تدور ، وقد كتبت عليها صلوات مختصرة . وسيعلم منهم أنه كلما دارت هذه الأشياء الصغيرة دورة احتسبت بمقتضاها صلاة . وهو لا بد سائل : « لمن ؟ » . وفضلاً عن ذلك فإنه سيجد عدداً من ساريات الأعلام في البلاد تحمل رايات جميلة من الحرير ، رايات حريرية نقشت عليها هذه العبارة المحيرة «Om Mani padme hum» ومعناها « الجوهرة في اللوتس » . وسيعلم أنه كلما رفرفت الراية كتبت



(ش ٩٧) خريطة توضح انتشار البوذية

(١) وهي العجلة التي يصنعها الأطفال في مصر ويسمونها أبو ريلج (المترجم)

صلاة نافعة جداً للسيد الذى دفع ثمن الراية وللبلاد عامة . وهناك جماعات من العمال يستخدمهم الأتقياء من الناس ليضربوا فى أرجاء البلاد وهم يحفرون هذه العبارة النفيسة فوق جوانب الصخر والأحجار . وسيدرك آخر الأمر أن هذا هو كل ما استخلصه العالم من ديانتة !! وتحت هذا البريق الخلاب المتألق دفن « النهج الآرى » الموصل إلى صفو النفس وسكونها .

سبق أن أشرنا إلى خلو البوذية البدائية من كل فكرة تقديمية ، وهى فى هذا أيضاً مביئة لليهودية . ففكرة الوعد أضفت على اليهودية صفة لم تظهر فى أية ديانة سابقة أو معاصرة ، صفة أصبحت اليهودية بسببها ديناً تاريخياً أخذاً ، كما بررت عدم تسامحها العنيف لأنها كانت ترمى إلى هدف . وبالرغم من صدق تعاليم جوتاما وعمق الناحية السيكلولوجية فيها ، فإن البوذية ركبت وأسست وفسدت بسبب خلوها من تلك الفكرة التوجيهية . ولا بد لنا من الاعتراف بأن اليهودية فى أدوارها الأولى ، لم تتغلغل إلا قليلاً فى نفوس الناس ، فتركهم سادرين فى شهواتهم وأشحاء مقترين وعلمانيين قد استهوتهم الدنيا أو معتقدين فى الخرافات . ولكن اليهودية بفضل ما بذلته من وعد مقنع وما توافر لها من زعامة ربانية لخدمة غايات قدسية ظلت بالمقاييس إلى البوذية نشطة متوقدة متطلعة إلى المستقبل ، مثل حسام يجد على الدوام من يُعنى بصقاله .

٧ - مجال البوذية الحالى

ازدهرت البوذية فى الهند ربحاً من الزمان . بيد أن البراهمانية بما لها من آلهة كثيرة وأضرِب شتى من عقائد لا نهاية لها ، ظلت على الدوام مزدهرة إلى جوارها ، ثم أخذت هيئة البراهمة تزداد قوة ، حتى استطاعوا آخر الأمر أن ينقلبوا على هذه العبادة التى تنكر الطوائف ، وأن يطردوها من الهند طرداً تاماً . وليس هذا موضع قصة هذا الكفاح . فقد حدث

اضطهادات استتبت ردود أفعال ، ولكن ما كاد القرن الحادى عشر
يزغ ، حتى كانت تعاليم البوذية خمدت فى الهند اللهم إلا فى ولاية
أوريسا . على أن الشىء الكثير من وداعتها وإحسانها قد أدمج فى
البرهمانية .

وهى ما تزال على قيد الحياة فى مناطق مترامية من العالم . ولعل تعاليم
جوتاما الأصلية عند ما تتصل بالعلم الغربى وعندما ينفخ فيها التاريخ من
روحه ، وحين تنتعش وتنقى من الشوائب - تستطيع أن تقوم مع ذلك بدور
عظيم فى توجيه مستقبل البشر ومصيرهم .

على أنه عند ما أفلتت الهند من يد « النهج الآرى » زال سلطانه من حياة
كل الشعوب الآرية . ومن عجب أن يلحظ المرء أنه بينما الديانة الآرية
الوحيدة العظيمة تكاد اليوم تكون مقصورة قصرأ تماماً على الشعوب المغولية ،
فإن الآريين أنفسهم أصبحوا تحت سلطان دينين هما المسيحية والإسلام وهما
كما سبىرى ساميان خالصان . وتتخذ البوذية والتاوية والمسيحية على السواء
أثواباً من الطقوس والمراسم التى يلوح أنها مستقاة عن طريق الهلنيين من
مصر - أرض المعابد والكهانات ، ومن العقلية الأشد بدائية وأولية ، عقلية
الشعوب الحامية السمراء .

الكتاب الخامس

قيام الإمبراطورية الرومانية وانهارها

الفصل الخامس والعشرون

الجمهوريتان الغربيتان

- ١ - بدايات اللاتين .
- ٢ - نوع جديد من الدولة .
- ٣ - جمهورية الأغنياء القرطاجية .
- ٤ - الحرب البونوية الأولى .
- ٥ - كاتو الأكبر وروح كاتو .
- ٦ - الحرب البونوية الثانية .
- ٧ - الحرب البونوية الثالثة .
- ٨ - كيف قوضت الحروب البونوية الحرية الرومانية .
- ٩ - مقارنة الجمهورية الرومانية بدولة حديثة .

١ - بدايات اللاتين

من الضروري الآن أن نتناول تاريخ الجمهوريتين العظيمتين اللتين ظهرتتا في البحر المتوسط الغربي ، وهما روما وقرطاجة^(١) وأن نبين لك كيف نجحت روما في الاحتفاظ طوال أجيال كثيرة بإمبراطورية تكاد تكون أعظم من تلك التي حققها الإسكندر الأكبر بفتوحه . بيد أن هذه الإمبراطورية الجديدة كانت كما سنحاول أن نوضح لك بناء سياسياً يختلف في طبيعته أبلغ اختلاف عن أية إمبراطورية من الإمبراطوريات الشرقية التي سبقتها . وقد انقضت أجيال عدة كانت تجري في غضوناتها تغيرات هائلة في تكوين المجتمع الإنساني وفي أحوال العلاقات الاجتماعية بين طبقاته . وكانت مرونة التعامل بالنقود وقابليتها للتداول قد أخذت تصبح قوة يعتد بها ، ولها ككل القوى في الأبدى غير الخبيرة خطرها على الشئون البشرية ، فكانت آخذة

(١) قرطاجة : جرت عادة كثير من المؤرخين بكتابتها (قرطاجنة) وهو خطأ ذائع . والصحيح هو (قرطاجة) أو (قرطاج) كما يسميها أهل تونس أنفسهم . أما قرطاجة فهي مدينة بأسبانيا . (المترجم)

بأسباب تغيير العلاقات بين الأغنياء والدولة وبين إخوانهم المواطنين الفقراء . لم تكن هذه الإمبراطورية الحديدية وأعنى بها الإمبراطورية الرومانية ، من صنع فاتح عظيم ، على النقيض من كل الإمبراطوريات السابقة . لم يكن منشؤها راجعاً إلى عاهل كسرجون أو تحتمس أو نبوخذ ناصراً أو قورش أو الإسكندر الأكبر أو قندراجوبتا (جندر كبت) ، وإنما هى من صنع جمهورية . ثم إنها تولدت واتسعت بحكم نوع من الضرورة ونتيجة لقوى جديدة تعمل على التركيز والتوحيد وتتجمع ويتزايد نفوذها باطراد فى شئون البشر .

على أنا نرى أن نبدأ الحديث بإلمامة بسيطة بالأحوال السائدة فى إيطاليا فى القرون السابقة لظهور روما فى قصة العالم .

والراجع أن إيطاليا قبل سنة ١٢٠٠ ق. م. أعنى قبل قيام الإمبراطورية الآشورية وحصار طروادة وتدمير كنوسوس النهائى وبعد عصر أممحتوب الرابع كانت كاسبانيا لا يزال يسكنها فى معظم الأمر شعب أبيض داكن ينتمى إلى الجنس الأيبيرى الأصل الذى هو جنس البحر المتوسط الأساسى القديم . والراجع أن هؤلاء السكان الأصليين كانوا متأخرين قليلى العدد . ولكن الآريين كانوا قد أخذوا من قبل ينحدرون جنوباً فى إيطاليا كما فعلوا فى بلاد الإغريق . ولم تأت سنة ١٠٠٠ ق. م. حتى كان المهاجرون من الشمال استقروا وانتشروا فى معظم شمال إيطاليا ووسطها . وكما حدث فى بلاد الإغريق اختلطوا زواجاً بسابقيهم الداكنين وأسسوا مجموعة من اللغات الآرية هى المجموعة الإيطالية وهى أقرب إلى الكلتيية الجاليلية (Gaelic) منها إلى أية مجموعة أخرى من اللغات . وأهم هذه اللغات من وجهة النظر التاريخية هى تلك التى تتكلمها القبائل اللاتينية النازلة فى السهول الواقعة جنوبى وشرقى نهر التير . وكان الإغريق فى نفس الوقت قد أخذوا يستقرون فى بلاد الإغريق وأخذوا عند ذاك يتطلعون إلى البحر ويعبرونه إلى جنوب إيطاليا وصقلية مستقرين فيهما هناك ، ثم أنشأوا

فما بعد المستعمرات على طول ساحل الريفييرا الفرنسى وأسسوا مرسيليا فى بقعة كانت تشغلها مستعمرة فينيقية عتيقة . وثمة شعب شائق آخر هبط إيطاليا بحراً وهم شعب قوى الشكيمة متين العضل ضارب إلى السمرة كما يستنتج مما خلفوه من صور لأنفسهم . وأغلب الظن أنهم قبيلة من أولئك الإيبيجين البيض الداكنين الذين كان الإغريق يدفعونهم دفعا خارج بلاد اليونان وآسيا الصغرى والجزر الواقعة فيما بينهما . لقد ذكرنا من قبل قصة كنوسوس وأهالى كريت واستقرار ذوى قرباهم الفلسطينين فى أرض فلسطين . فهؤلاء الإترسك : (الإتروريون) كما كانوا يسمون فى إيطاليا عُرِفوا حتى فى الأزمنة القديمة بأنهم من أصل أسوى . ولعل من المغرى — وإن لم يكن له على الراجح ما يبرره — أن نربط هذه الفكرة المتواترة بالإنيادة (Aeneid) وهى ملحمة الشاعر اللاتينى فرجيل التى تنسب فيها المدنية اللاتينية إلى نازحين طرواديين من آسيا الصغرى (على أن الطرواديين أنفسهم كانوا فيما يرجح شعباً آرياً يمت إلى الفريجيين ببعض الأواصر) . وقد فتح هذا الشعب الإتروسكى معظم إيطاليا شألى نهر التيبر منتزعين



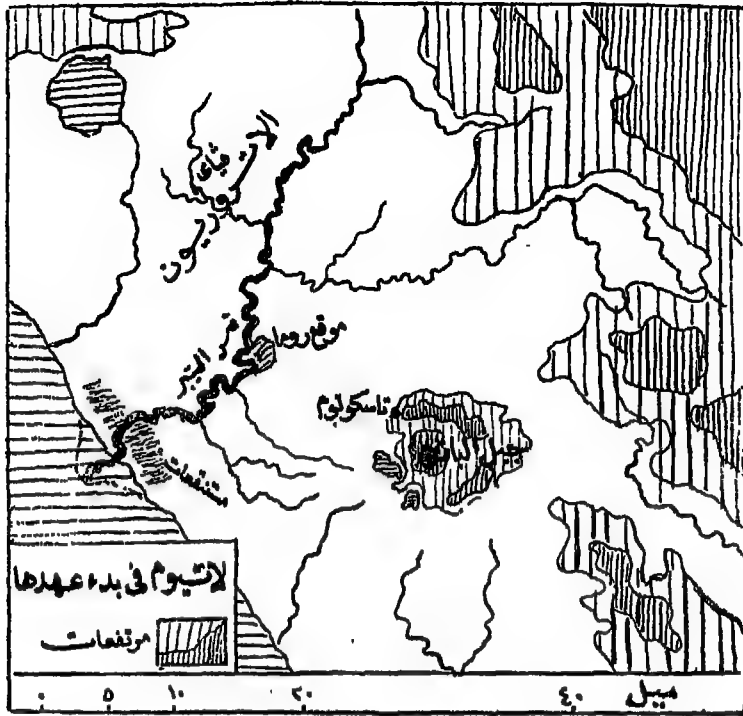
(ش ٩٨) خريطة الخوض الغربي للبحر المتوسط

إياه من القبائل الآرية التي كانت متناثرة في أرجاء تلك البلاد . ولعل الإترسك كانوا يحكمون شعباً إيطالية مقهورة وبذلك قلبوا الوضع الذي كان جارياً في بلاد الإغريق حيث كان الآريون هم الأعلىون .

وربما كانت خريطة حوض البحر المتوسط الغربي تمثل على وجه التقريب الحالة السائدة حوالى ٧٥٠ ق. م. وهى تبين أيضاً مستقرات التجار الفينيقين على امتداد شواطئ أفريقيا وأسبانيا التي كانت قرطاجة أعظمها شأنًا .

كان الإترسك أشد الشعوب المقيمة فعلا في إيطاليا مدنية وحضارة . فكانوا يبنون قلاعاً منيعة على طراز فن العمارة الميسيني وضربوا في صناعة المعادن بسهم ، وكانوا يستعملون خزفاً إغريقياً فاخراً . وكانت القبائل اللاتينية على الضفة الأخرى من التiber همجية بالقياس إليهم .

كان اللاتين لا يزالون شعباً زراعياً متأخراً خشناً . وكان مركز عبادتهم معبداً أقيم لرب القبيلة جوبيتر أى المشتري على جبل ألبان كما هو مبين بخريطة « اللاتيوم فى عهده الأول (ش ٩٩) » . وهناك كانوا يجتمعون لإقامة كبريات حفلاتهم على نحو يشبه كثيراً الاجتماعات القبلية القديمة التي تخيلناها من قبل فى آفبوري (Avebury) . ولم يكن موضع اجتماعهم هذا مدينة من المدن بل مكاناً عالياً صالحاً لأن يجتمعوا فيه ، ولم يكن به سكان يقيمون هناك بصفة مستديمة . ومهما يكن من شئ فإن الحلف اللاتينى كان يضم اثني عشر بلداً . وكان هناك عند نقطة معينة من النهر المخاضة تبادل عندها التجارة بين اللاتين والإترسك . وعند هذه المخاضة نشأت بدايات روما حيث يلتقى المتجرون ، ووجد اللاجئين من البلدان الاثني عشر فى هذا المركز التجارى ملاذاً ومرتقاً . ونشأ على التلال السبعة بالقرب من المخاضة عدد من المستقرات اندمجت آخر الأمر فأصبحت مدينة واحدة .



(ش ٩٩) اللاتيوم في عهده الأول

وقد تراهي إلى سمع معظم الناس قصة الأخوين رومولوس (Romulus) وريموس (Remus) اللذين أسسا روما ، والأسطورة التي تروى كيف تعرضا في طفولتهما للهلاك وكيف آوتهما ذئبة وأرضعتهما . والمؤرخون العصريون لا يعيرون هذه القصة أدنى قيمة . ويذكر عام ٧٥٣ ق.م. بوصفه تاريخ تأسيس روما . ولكن وجدت تحت الفوروم الروماني قبور للإيتوريين يرجع تاريخها إلى عهد أقدم من ذلك بكثير ، وما يسمونه قبر رومولوس إنما يحفل بكتابة إترسكية لم يستطع أحد حل رموزها .

ولم تكن شبه جزيرة إيطاليا أصبحت بعد تلك الأرض الباسمة بالكروم وحدائق الزيتون التي صار إليها حالها منذ ذلك الحين ، بل كانت لا تزال أرضاً موحشة مليئة بالمستنقعات والغابات ، يرعى الفلاحون فيها

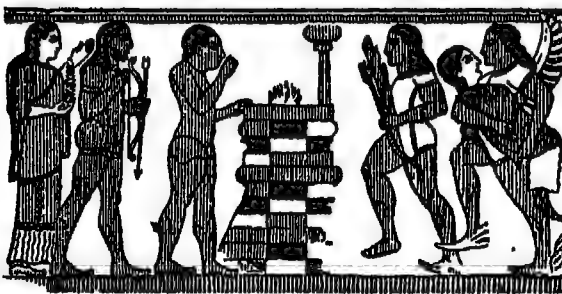
أغنامهم ويقطعون الغابات للاستفادة بالأرض . ولم تكن روما — وموقعها كما نعلم على الحدود بين اللاتين والإتروريين — في موقع شديد المنفعة يساعد على الدفاع ، وربما كان هناك في بادئ الأمر ملوك لاتينيون في روما . ثم يبدو أن المدينة سقطت في أيدي عواهل الإتروريين الذين أدى طغيانهم آخر الأمر إلى طردهم ، ومن ثم أصبحت روما جمهورية ناطقة باللاتينية ، وكان طرد الملوك الإتروريين من روما في القرن السادس ق.م. على حين كان خلفاء نبوخذ نصر يتولون الأمر في بابل برضاء الميديين ، وبينما كان كونفوشيوس يبحث عن ملك يصلح من فوضى بلاد الصين ، ويوم كان جوتا ما يعلم « النهج الآرى » لتلاميذه في بنارس .

ولسنا بمستطيعين أن نتحدث هنا في أى تفصيل عن الكفاح بين الرومان والإتروريين ، كان الإتروريون أحسن تسليحاً وأكثر تمدناً وأوفر عدداً . وكان الراجح أن تدور الدوائر على الرومان لو أنهم اضطروا إلى مقاتلتهم منفردين . ولكن معنى الإترورك (الإتروريون) بكارثتين أو هتتا قواهم إلى حد أن الرومان استطاعوا آخر الأمر أن يغلبوهم غلبة تامة . وكانت أولى هاتين الكارثتين حرباً مع إغريق سيراكوزة بصقلية انتهت بتدمير الأسطول الإترورى (٤٧٤ ق.م .) . والكارثة الثانية هى غارة عظيمة شنها الغال من الشمال على إيطاليا . احتشد هؤلاء القوم وانتشروا في شمال إيطاليا واحتلوا وادى نهر پو حوالى نهاية القرن الخامس ق.م . كما احتشد ذوو قرباهم بعد ذلك بقرنين وهبطوا على بلاد الإغريق وآسيا الصغرى واستقروا في غلاطيا وبذلك وقع الإتروريون بين المطرقة والسندان . وبعد حرب طويلة في فترات متقطعة استطاع الرومان أن يستولوا على قبلى وهى قلعة إترورية على بضع أميال من روما ، ما فتئت حتى ذلك الحين مصدر تهديد ومضايقة لهم .

وإلى فترة الكفاح هذه بين الرومان وبين « التاركوينين » من ملوك الإتروريين يشير كتاب اللورد ماكولى : « أناشيدروما القديمة Lays of Ancient Rome » المعروف لدى كل تلميذ في إنجلترا .

على أن غزو الغال كان إحدى تلك الأعاصير التي تعصف بالشعوب عصفاً فلاندر شيئاً على حاله . فإنهم واصلوا غاراتهم قُدماً في شبه الجزيرة الإيطالية ، وهم يخربون كل شبر في إتروريا^(١) حتى استولوا على روما ونهبوها (٣٩٠ ق.م.) . وقاومتهم قلعة الكايتول (كما تقول الأساطير الرومانية التي يلتق عليها الشك بعض ظلاله) ، وهذه أيضاً كاد الغال أن يأخذوها على غرة ليلاً لو لم توظف حركة تسللهم بعض الأوزات فصاحت صيحات عالية أيقظت الحامية . وبعد ذلك افتدى الغال أنفسهم بالمال وعادوا أدراجهم إلى الشمال ، إذ كانوا غير مزودين بالقدر الكافي مما يلزم عمليات الحصار من عتاد ، وربما كان تفشى المرض في معسكرهم سبباً آخر فيما أصابهم من كوارث . ومع أنهم قاموا بغارات تالية فإنهم لم يصلوا بعد ذلك قط إلى روما .

وكان قائد الغال الذين نهبوا روما يدعى برينوس (Brennus) . ويروى عنه الرواة أنه بينما كان ذهب الفدية في الميزان تنازع القوم حول صحة وزن الصنجة وتعادل الكفتين . فما كان منه إلا أن ألقي بسيفه في كفة الميزان قائلاً : « الويل للمغلوب Voie victis » . وهي عبارة لزم شبحها حتى وقتنا هذا كل مناقشة جرت في شئون الفديات والتعويضات .



(ش ١٠٠ -) إسمراق الموق « احتفال إتروري »

من نفسها زعيمة للقبائل اللاتينية . إذ يلوح أن احتراق المدينة الكبرى

(١) إتروريا : إقليم قديم في الجزء الغربي من أواسط إيطاليا . وهو موطن الإتروريين (الإترسك) . (المترجم)

استنهض همتها بدلا من أن يخدم نشاطها ويقعدها عن العمل . ومهما يكن مقدار ما لقيت من الآلام - فالظاهر أن معظم جيرانها عانوا من الولايات أكثر مما عانت . ولم تأت سنة ٢٩٠ ق.م. حتى كانت روما سيدة بلاد إيطاليا الوسطى من نهر الآرنو إلى جنوبي نابولي ، فلما قهرت الإتروربين قهراً تماماً ، وأخذت حدودها تنتقل شمالاً تبعاً لتقهقر حدود الغال ، وتمتد جنوباً بارتداد نخوم أصقاع إيطاليا الواقعة تحت السيادة الإغريقية (وهى ماجنا جرايكيا أى بلاد الإغريق العظمى) . وبثت الحاميات ومدن المستقرات على امتداد الحدود بينها وبين الغال . ولا شك أن هذا الخط الدفاعي يرجع إليه الفضل في انحراف غارات الغال وجهودهم نحو الشرق إلى بلاد البلقان .

ولن يدهش القارئ حين يعلم - بعد الذى سبق أن قلناه عن تاريخ اليونان وعن دساتير مدنها - أن الإغريق بصقلية وإيطاليا كانوا منقسمين إلى عدد من دول المدن المنفصلة ، على رأسها سيراكوزة وتارنم (وهى تارنتو الحديثة) ، وأنهم لم تكن تربطهم قاعدة عامة لتوجيه الجهود أو السياسة . بيد أنهم لما أزعجهم آنذاك امتداد الدولة الرومانية شخصوياً ببصارهم وراء الأدرياتي طلباً للمعونة ، ووجدوها في مطامع بيروس (Pyrrhus) ملك إبيروس . وكان موقف هؤلاء الإغريق ، سكان الماغناجرايكيا حيال الرومان وبيروس ، هو نفس الموقف الذى وقفته بلاد الإغريق الأصلية بين الفرس والمقدونيين قبل ذلك بنصف قرن .

ويذكر القارئ أن إبيروس وهى أدنى جزء في بلاد الإغريق إلى عقب (كعب) إيطاليا ، كانت موطن « أوليمپياس » أم الإسكندر . ثم تلت وفاة الإسكندر تقلبات في خريطة بلاد الإغريق سريعة خاطفة لا عداد لها . فكان المقدونيون يغشون إبيروس أحياناً أو هى تظل مستقلة أحياناً أخرى . وكان بيروس من ذوى قربى الإسكندر الأكبر كما كان ملكاً ذا مقدرة وإقدام . ويلوح أنه كان يعد أهبة لغزو إيطاليا وصقلية . وكان تحت

إمرته جيش جدير بالإعجاب . فكان جنود الرومان القليلو الخبرة نسبياً ضعاف الأثر لا يقدرّون على شيء بلزائمه في أول الأمر . إذ كان جيشه يحتوي على كل الوسائل والمعدات الحربية المعروفة في زمانه ، من فيالق المشاة والفرسان التسالين وعشرين فيلا مقاتلا أحضرت من الشرق . فبدد شمل الرومان في معركة هيرقلينا (٢٨٠ ق . م .) ، ثم تعقبهم بشدة وهزمهم مرة ثانية في معركة أوسكولوم (Ausculum ٢٧٩ ق . م .) في نفس بلادهم ، ولكنه بدلا من أن يواصل تعقبهم تهادن وإياهم . ووجه همه نحو إخضاع صقلية ، وبذلك اضطر دولة قرطاجة البحرية إلى التحالف ضده : ذلك أن قرطاجة لم تكن تستطيع أن تسمح بتأسيس دولة قوية فوق أرض صقلية الشديدة القرب منها . وكان القرطاجيون يرون في روما حتى ذلك الحين مصدراً للتهديد أقل خطراً عليهم من ظهور إسكندر أكبر آخر في أرض صقلية — ومن ثم ظهر أمام مصب النهر أسطول قرطاجة ليسجّع الرومان ويحملهم على استئناف القتال . ثم تحالفت روما وقرطاجة تحالفاً وثيقاً ضد الغزاة .

وقضى تدخل قرطاجة على بيروس فاحلّت عرى جيشه دون أن يشتبك في معركة فاصلة . واضطر أن يتراجع إلى إبيروس (٢٧٥ ق . م .) بعد أن منى بكارثة في هجوم له على المعسكر الروماني في بنيقتم (Beneventum) . ويسجل لنا التاريخ أن بيروس عندما غادر صقلية قال إنه يغادرها لكي تصبح ميداناً للقتال بين روما وقرطاجة . ثم قتل بعد ذلك بثلاث سنوات في معركة بشوارع أرجوس .

ويرجع الفضل في انتصار الرومان على بيروس إلى الأسطول القرطاجي ، واجتنت روما نصفاً كاملاً من ثمرة النصر ، الذي انتقلت بسببه صقلية بأكملها إلى قرطاجة وتقدمت حدود روما جنوباً حتى أصابع إيطاليا وعقبها . وأخذت روما ترمق ببصرها منافستها الجديدة عبر مضيق مسينا . ولم تمض إحدى عشرة سنة (٢٦٤ ق . م .) حتى تحققت نبوءة بيروس ، وابتدأت

الحرب الأولى مع قرطاجة ، وهي أولى الحروب البونية الثلاثة (وكلمة البونية Punic مشتقة من الكلمة اللاتينية بيونيكوس (Punicus) أي القرطاجة أعنى الفينيقية) .

٢ - نوع جديد من الدولة

على أنا نكتب لفظي « روما » - و « الرومان » وما يزال لزاماً علينا أن نفسر لك أى خلق من الناس كان هؤلاء الذين يلعبون دوراً من الفتوح لم يقم به حتى ذلك الحين غير ذوى الافتدار والنزعات العدوانية من الملوك . كانت دولة الرومان فى القرن الخامس ق . م . جمهورية من الطراز الآرى شديدة الشبه بجمهورية إغريقية أرستقراطية . وأقدم الروايات عن حياة روما الاجتماعية تمثلها لنا على صورة مجتمع آرى بدائى جداً . « وفى النصف الثانى من القرن الخامس ق.م. كانت روما لا تزال مجتمعاً أرستقراطياً من الفلاحين الأحرار يشغلون مساحة قدرها أربعمئة ميل مربع ، وبها من السكان ما لا يزيد على وجه التأكيد عن مئة وخمسين ألفاً ، يكادون ينتشرون انتشاراً تاماً فى الريف وينقسمون إلى سبعة عشر حياً أو قبيلة ريفية . وكانت معظم العائلات تمتلك مساحات صغيرة من الأرض وكوخاً صغيراً خاصاً بها يعيش فيه الوالد وأولاده ويشغلون معاً ، زارعين القمح فى أغلب أمرهم ، مع قطعة صغيرة من الكرم أو الزيتون هنا وهناك . وكانت الماشية القليلة لعدد لديهم ترعى فى الأراضى المشاعة المجاورة - فأما ثيابهم وأدواتهم البسيطة اللازمة للزراعة فكانوا يصنعونها بأنفسهم فى المنازل . ولم يكن فى استطاعتهم الاختلاف إلى المدينة المحصنة إلا فى القليل النادر وعلى فترات متباعدة وفى مناسبات خاصة جداً . وكانت المدينة مركز ديانتهم ومقر حكومتهم على السواء . وبها معابد الآلهة ومنازل الأثرياء وحوانيت الصناعات .

والتجار ، حيث يمكن المقايضة على كميات صغيرة من الفصح أو الزيت أو النبيذ بالملح والأسلحة الحديدية^(١) أو الآلات البدائية الخشنة .

وقد جرى هذا المجتمع على التقاليد المألوفة التي تقسم المجتمعات إلى أرسقراطية وعامة . وكان يطلق عليهم في روما اسم البطارقة (patres) والبلد (plebeians) . وكان هؤلاء وحدهم المواطنون فيها . إذ لم يكن نصيب العبد أو الأجنبي في شئون الدولة بأعظم من نصيبه في بلاد الإغريق . بيد أن الدستور كان يخالف أى دستور إغريقى حيث يركز قسماً كبيراً من السلطة الحاكمة في قبضة هيئة تسمى السناتو (مجلس الشيوخ) . ولم يكن السناتو هيئة خالصة من الأعضاء الوراثيين ولا هو هيئة تمثيلية منتخبة بطريقة مباشرة . بل كان هيئة تقوم على « التعيين » . واقتصر الترشيح لها في العصر الأول على البطارقة وحدهم . وكان هذا المجلس قائماً قبل طرد الملوك ، وكان الملك عند ذاك هو الذى يعين أعضاء السناتو . ولكن بعد طرد الملوك (٥١٠ ق.م) انتقلت سلطة الحكومة العليا إلى يد حاكين منتخبين هما القنصلان (Consuls) . فتولى هذان أمر تعيين أعضاء السناتو . وفي الأيام الأولى للجمهورية كان حق الانتخاب لوظائف القناصل أو عضوية مجلس الشيوخ مقصوراً على البطارقة ، أما العامة « الپليبان » فلم يتعد نصيبهم من الحكم حق التصويت لانتخاب القناصل وغيرهم من الموظفين العموميين . ولكن لم تكن لأصواتهم حتى في هذا الأمر نفس القيمة التي كانت لزملائهم المواطنين البطارقة . بيد أن أصواتهم كان لها على كل حال الوزن الكافى لحمل الكثيرين من المرشحين البطارقة على التودد للعامة وإظهار قدر من الاهتمام بآلامهم ومظالمهم متفاوتة درجة إخلاصه . هذا إلى أن العامة في العهود الأولى للدولة الرومانية لم يحرموا من تولى الوظائف العمومية فحسب ، بل من الزواج مع طبقة البطارقة . وبديهي أن إدارة

(١) نقلاً عن كتاب «عظمة روما واضمحلالها The Greatness and Decline of Rome» تأليف فريرو .

شئون الحكم كانت قبل كل شيء شأنًا اختص به البطارقة

فكان الطور الأول من أطوار الشئون الرومانية كان والحالة هذه أستقر اطمأ لا شك فيه ، وكان تاريخ روما الداخلى فى فترة القرنين ونصف القرن الممتدة بين طرد « تاركوين الصلِف » آخر ملك لرومى وبين بداية الحروب الهونية الأولى (٢٦٤ ق.م.) فترة صراع على السيادة بين هاتين الطبقتين البطارقة والهلنز أى النبلاء والعامّة . كان فى الواقع عظيم الشبه بالصراع بين الأرستقراطية والديمقراطية ، فى دول المدن الإغريقية . وكما هو الحال فى بلاد الإغريق كانت بالمجتمع طبقات بأسرها ما بين أرقاء وعبيد معتنين ورجال أحرار لا أملاك لهم وغرباء ومن إليهم وهم جميعاً بمعزل عن الكفاح ودونه فى الدرك الأسفل . ولقد لاحظنا من قبل الفارق الجوهرى بين الديمقراطية الإغريقية وبين ما يسمى باسم الديمقراطية اليوم فى العالم . وثمة كلمة أخرى يساء استعمالها وهى اصطلاح البروليتارية (Proletariat) الرومانى الذى تطلق فى مصطلح عصرنا هذا على كل من ليس لهم ممتلكات فى دولة حديثة . فإن جماعة البروليتارية كانت تدل فى روما على قسم من المواطنين ذوى المؤهلات الكاملة ممن لهم الحق فى التصويت على شريطة أن لا تقل قيمة ممتلكاتهم عن ١٠,٠٠٠ آس نحاسى As (أى ٢٥٧ جنيهاً) . وكانوا طبقة مقيدة فى السجلات تقوم قيمتهم فى نظر الدولة على تكوينهم عائلات من المواطنين (إذ أن معنى كلمة (Proles) هو النسل والذرية) . وكان يؤخذ من بين صفوفهم سكان المستعمرات الذين يذهبون لتكوين مدن لاتينية جديدة أو جند حاميات المراكز الهامة ، على أن طبقة البروليتارية كانت من حيث الأصل منفصلة تمام الانفصال عن الأرقاء أو العتقاء أو ذلك الخليط النازح إلى ما بالمدن من الأحياء الفقيرة المكتظة . ومما يؤسف له كثيراً أن يختلط الأمر على الناس فى المناقشات السياسية العصرية فيستعملوا لفظاً

كهذا استمالا خاطئاً غير مضبوط وهو لا يعبر عن شيء واقعى صحيح في تصنيف الطبقات في المجتمع الحديث .

وفي إمكاننا أن نتجاهل في هذه « المعالم » تفاصيل هذا الكفاح بين النبلاء والعامّة . فإنه كان كفاحاً أظهر ما للرومان من حصافة غربية إذ لا يدفعون بالأمور أن تبلغ حد الأزمة المهلكة بل يظلون مستمسكين بأهداب الأنثاة والحكمة قابضين تماماً على الغلاة المتشددين . ولكم أساء البطارقة استغلال امتيازاتهم السياسية استغلالاً دنيئاً ليجمعوا الثروات عن سبيل الفتوح القومية ، لا على حساب العدو المهزم فحسب ، بل على حساب العامة الفقراء الذين أهملت مزارعهم والذين وقعوا في ربكة الديون أثناء خدمتهم العسكرية فحرم هؤلاء العامة (الپليبيان) من كل نصيب في البلاد التي فتحوها والتي اقتسمها النبلاء فيما بينهم . والراجح أن استحداث النقود وانتشار تداولها زاد في تيسير الأمر على المراهبين وفي زيادة الصعوبات على المدنيين المقترضين .

واستخدم العامة ثلاثة ألوان من الضغط على النبلاء ظفروا بواسطتها بنصيب أوفى في حكم البلاد وفي الخيرات التي أخذت تنساب إلى روما بتسليمها ذروة المجد والقوة . وأول هذه الضغوط هو (١) الإضراب العام فإنهم ثاروا مرتين حتى خرجوا من روما خروجاً تاماً مهددين بإقامة مدينة جديدة في أعلى نهر التيبر ، وأثبت هذا التهديد مرتين أنه حاسم فعال . وكانت طريقة الضغط الثانية هي (٢) التهديد بإقامة حكم طاغية ، كما حدث بالضبط في أتريكا (وهي الولاية الصغيرة التي كانت أثينا عاصمتها) يوم تسلم پيزستراتوس مقاليد السلطان مستنداً إلى تأييد الأحياء الفقيرة . فقياساً على هذا لم تكن البلاد لتعدم البتة في معظم عصور تدمير العامة رجالاً ذا طموح مستعداً لتولى الزعامة وانتزاع السلطان من مجلس السناتو . على أن نبلاء الرومان ظلوا زمناً طويلاً قادرين بفضل ما أوتوا من المهارة على التغلب على أى طاغية محتمل الظهور بتساهلهم مع العامة إلى حد معين . وثالث هذه الأمور : (٣) أنه ظهر بين البطارقة النبلاء من بلغ من سعة العقل وبُعد

النظر مبلغاً دفعه إلى الإصرار على ضرورة إرضاء العامة (البلز) ومصالحهم وتمشياً مع هذه الروح أصدر القنصل فاليريوس بوبليكولا (ويتعلق هذا بالأمر الثالث) قانوناً سنة (٥٠٩ ق.م.) يقضى بأنه إذا تعرضت حياة أى مواطن أو حقوقه للخطر وجب أن يقدم اثباتاً عن الحكم من الموظف العمومى إلى الجمعية العمومية . وكان هذا القانون الفاليرى بمثابة (قانون حماية الفرد وثمان بحريته Habeas Corpus) (١) . وهو القانون الذى أنقذ العامة الرومان من أسوأ أخطار روح الانتقام بين الطبقات فى المحاكم .

وسحدث فى (٤٩٤ ق.م.) لإضراب (ويتعلق هذا بالأمر الأول) لأن عبء الديون أصبح بعد الحرب اللاتينية باهظاً لا يطاق ولأن العامة غضبوا حين شهدوا انسداد قوائم الدين كثيراً ما خدموا الدولة بشجاعة فى صفوف فرق الجيش يكتبون فى أغلال الديون والفاقة وينزلون إلى دركات العبودية بناء على طلب دائئهم النبلاء . وكانت الحرب ضد القولسكانيين (Volsians) محتدمة الوطيس ؛ فلما أن خمد أوارها رفض جنود الكتائب الرومانية عند عودتهم مظفرين أن يطيعوا القناصل بعدها أبداً ، وساروا فى نظام تام إلى « الجبل المقدس » ، وراء الأنبيو « فى أعلى التبر » . وهناك أعدوا العدة لإنشاء مدينة جديدة ، ما داموا قد حرّموا حقوق المواطنين الأحرار فى المدينة القديمة . فاضطر البطارقة إلى الإذعان ولما عاد العامة إلى روما بعد اعتصابهم الأول « نالوا الحق فى أن يكون من بينهم موظفون ، فيولون عليهم ترابنة أى نقباء (Tribunes) وأيادلة (Aediles) » (٢) .

وفى (٤٨٦ ق.م.) قام سپوريوس كاسيوس (Spurius Cassius) وهو أحد القناصل بإصدار قانون عقارى يضمن للعامة الحق فى أراضى الدولة (ويتعلق هذا بالأمر الثانى) ، ولكنه اتهم فى السنة التالية بأنه يهدف إلى الملكية ، وقضى عليه بالإعدام ولم ينفذ قانونه قط .

(١) يشير المؤلف بهذا إلى قانون حماية الأفراد من الحبس التعسفى (Habeas Corpus Act) الذى صدر فى إنجلترا فى ١٦٧٩ . (المترجم)

(٢) « موجز تاريخ روما حتى وفاة أغسطس » تأليف ج . ولز (J. Wells) والأيادلة جمع أيديل وهو موظف يشرف على المباني والطرق والموازين والمهرجانات . (المترجم)

ونشب عقب ذلك كفاح طويل قام به العامة لتدوين قوانين روما ، حتى لا يضطروا بعد ذلك إلى الاعتماد على ذاكرة النبلاء . وصدر قانون الألواح الاثني عشر (٤٥١-٤٥٠ ق. م .) وهو أساس القانون الروماني كله .

ولكن صوغ الألواح الاثني عشر استلزم تعيين لجنة من عشرة رجال (The Decemvirate) ^(١) في مكان الحكام العاديين . ثم عينت لجنة ثانية من عشرة لتخلف الأولى ، فحاولت أن تقيم شبه ثورة أرسقراطية رجعية برئاسة أبوس كلوديوس (Appius Claudius) فانسحب العامة من جديد إلى الجبل المقدس ، وانتحر أبوس كلوديوس بعد ذلك في السجن .

وحلت بالبلاد مجاعة في (٤٤٠ ق.م.) وحاول الناس مرة ثانية أن ينصبوا على البلاد طاغية شعبياً استناداً إلى ما يحق بالشعب من مظالم ، وكان على رأس هذه المحاولة سپوريوس مئيليوس (Spurius Maellus) أحد أثرياء العامة ولكن المحاولة انتهت بقتله غيلة .

وبعد أن نهب الغال روما (٣٩٠ ق.م.) ، تقدم إلى مكانة الزعامة الشعبية ماركوس مانليوس (Marcus Manlius) الذي كانت بيده إمرة الكابيتول ، يوم أن أنقذه صباح الإوز . وكان الهليان في أشد العسر والعناء لما لقوا من البطارقة بعد الحرب من ربا فاحش واستغلال للنفوذ في جنى الأرباح الطائلة ، فليس من العامة من لم يقع في ربة الديون الباهظة التي استدانونها لينبوا بها قراهم من جديد ويعمروها بالماشية والأغنام . وأنفق مانليوس ثروته في تخليص المدينين من ديونهم . فاتهمه النبلاء بأنه يهدف إلى أن يكون طاغية ، وصدر الحكم بإدانته ، ولقي من روما نصيب الخونة الآثمين ، بأن ألقى من أعلى الصخرة التاربية (Tarpeian) ^(٢) وهي حافة الهاوية في نفس تل الكابيتول الذي دافع عنه .

(١) كلمة لاتينية مكونة من Decem ومعناها عشرة ، و Vir بمعنى رجل .

(٢) كان الكابيتول في العصور الأولى يطلق عليه اسم جبل تاربيز Mons Tarpeius

ثم أصبح الاسم في العصور المتأخرة يطلق على جزء من صخرة الكابيتول . (المترجم)

وفي (٣٧٦ ق.م.) بدأ ليسينيوس (Licinius) أحد زبابة الشعب العشرة مرحلة كفاح طويل الأمد مع البطارقة بأن قدم مقترحات معينة تسمى القوانين الليسينية (Licinian Rogations) ، وهي تقضى بأن يكون هناك حد أقصى لمقدار ما يأخذه مواطن واحد من أراضي الدولة ، وبذلك يتبقى لكل امرئ شيء منها ؛ وأن ما تبقى من الديون غير المسددة يجب التنازل عنه وعن فائدته متى دفع الأصل ؛ وأنه منذ ذلك الحين فصاعداً يجب أن يكون واحد على الأقل من القنصلين من طبقة العامة . فأفضت هذه الطلبات إلى التعجيل بكفاح دام عشر سنوات . واستخدم العامة (الپليبان) حقهم كاملاً في تعطيل دولا ب الأعمال بتطبيقهم حق النقض أو القيتو الخول لممثليهم الترانة . وقد جرت العادة في حالات الأزمات والملمات القومية أن ينحى كل الحكام عن العمل وأن يعين زعيم واحد ، هو الدكتاتور . وقد فعلت روما فما سلف شيئاً من هذا القبيل إبان الملمات الحربية ، على أن البطارقة أقاموا إذ ذاك دكتاتوراً في وقت كان السلام فيه شاملاً بقصد القضاء التام على ليسينيوس . فعينوا كاميلوس (Camillus) الذي حاصر فياى واستولى عليها من الإترويين ، بيد أن كاميلوس كان رجلاً أوسع من أنصاره بصيرة وأشد حنكة فحمل الطرفين على قبول « وفاق » منح فيه العامة معظم مطالبهم (٣٦٧ ق.م.) . وأقام لتخليد ذكرى هذا الصلح معبداً يرمز إلى الوفاق (Concord) ثم اعتزل منصبه .

ومن ذلك الحين هدأت حدة النزاع بين الطبقتين . هدأت لأن الفروق الاجتماعية بين البطارقة والعامة أخذت في النقصان ، فضلاً عن مؤثرات أخرى كثيرة خففت من حدة الخلاف . وكانت التجارة تزداد وروداً إلى روما بتزايد نفوذها السياسى ، وكان الكثيرون من العامة قد أخذوا يثرون ، وأصبح كثير من البطارقة فقراء نسبياً . وغدت المصاهرة بين الطبقتين من الأمور الممكنة وذلك بإدخال شيء من التعديل على القانون . وأخذ الاختلاط

الاجتماعى يجرى مجراه . وعلى حين شرع العامة الأغنياء يصبحون على الأقل أوليجركيين فى عاداتهم وعواطفهم إن لم يصبحوا أرسقراطيين ، أخذت تنشأ فى روما طبقات جديدة لها مصالح جديدة وليس لها أية منزلة سياسية . وكان عدد الأرقاء الذين أعتقوا - وهم المحررون - وفيراً وفرة خاصة ، معظمهم من الصناع ، وإن كان بعضهم من التجار الذين أخذوا يتثرون . ولم يعد مجلس السناتو هيئة مقصورة على البطارقة وحدهم - نظراً لأن مناصب متنوعة غدت عند ذلك مباحة للبلبيين ، وأصبح من تقلدوا هذه المناصب من العامة أعضاء فى السناتو حتى غدا ذلك المجلس آنئذ جمعية تضم كل ذوى الثراء والاقتدار والهمة والنفوذ من رجال الدولة . وطفقت الدولة الرومانية تزداد قوة واتساعاً وكلما ترامت أطرافها أصبحت هذه الخصومات القديمة بين طبقات المجتمع اللاتينى الأول شيئاً لا معنى له . فأخذت تحمل محلها تكتلات وارتباطات جديدة وخصومات جديدة . وكان الأغنياء أياً كانت أصولهم يتحزبون وينضمون بعضهم إلى بعض بدافع المصلحة المشتركة التى كانت تجمعهم ضد آراء الفقراء ذات الطابع الاشتراكى .

وفى (٣٩٠ ق.م) كانت روما مدينة صغيرة باتسة على حدود إروريا تمتد إليها يد الغال بالنهب ، ولكن ما وافى (٢٧٥ ق . م) حتى كانت مسيطرة على كل إيطاليا وقد وحدتها ولت شملها من نهر الأرنو إلى مضيق مسينا . وكان « الوفاق » الذى أبرمه كاميلوس (٣٦٧ ق . م) قد قضى على الخلافات والمنازعات الداخلية ، وترك كل قواها طليقة يمكن استخدامها فى التوسع ، وكان الجمع الغريب بين الحصافة والأناية العدوانية ، الذى امتازت به الحرب بين طبقاتها فى الداخل والذى هباً لسكانها أن يحتفظوا بتوازن القوى دون الوقوع فى أى كارثة ، هو رائد سياستها فى الخارج وعنوانها وميزتها . فلإنها أدركت قيمة الحلفاء وعرفت كيف تتمثل غيرها . وكانت تستطيع فى تلك الأيام على الأقل أن تتبادل المنافع مع الغير وأن

(١٦ - معالم)

« تعطى وتأخذ » فى الداخل والخارج على حد سواء متوخيه بعض العدالة وشيثاً من الحكمة وهذا هو سر قوة روما الخاصة التى بها استطاعت أن تفلح حيث فشلت أثينا فشلاً بيتناً .

لقد قاست ديمقراطية الأثينيين كثيراً من جراء ضيق الأفق الذى اتسمت به « روح الوطنية » فيها ، والذى طالما جلب الدمار للأمم جميعها . فإن أثينا كانت موضع الكراهية والحسد من إمبراطوريتها لأنها بوصفها مدينة كانت تحكمها بروح ضيق من الأنانية ، ولم تكن المدن الخاضعة لها لتشعر بكوارثها وتشاركها فيها . هذا بيننا أعضاء السناتو الأكثر حصافة ونبلا إبان سنوات روما العظيمة ، قبل أن تنهك الحروب الهونية الأولى قوتها المعنوية وتبث فيها الانحلال ، — لم يقتصروا فى بذلهم لآخر سهم فى جعبتهم — على الرغبة فى إبداء الاستعداد عن طيب خاطر لإشراك عامة قومهم فيما كانوا يتمتعون به من امتيازات بل كانوا كذلك تواقين إلى ضم أشد أعدائهم مراساً إلى صفوفهم على أساس من المساواة التامة المستديمة بين الطرفين . ولقد توسعوا فى منح الحرية المدنية أعنى حقوق المواطنة متوخين الحرص والحذر مع الاطراد والاستمرار . فأصبحت بعض المدن تتمتع بالمواطنة الرومانية بل منحت نصيباً من التصويت فى أداة الحكم . ومنح الحكم الذاتى لبعضها الآخر مع منحها حق الاتجار أو الزواج فى روما دون أن تحظى بحقوق المواطنة الرومانية كاملة . وكانت الحاميات من المواطنين المستكملى الحقوق تنشأ فى المواقع ذات الأهمية الاستراتيجية وتقام المستقرات الصغيرة التى تتمتع بمختلف الامتيازات بين ظهرانى الشعوب المغلوبة . وكانت الحاجة إلى الاحتفاظ بالمواصلات مفتوحة بين هذه الكتلة العظيمة المتزايدة من المواطنين أمراً ملموساً ظاهراً للعيان منذ البداية . ولم تكن الطباعة ولا الورق قد تيسرا بعد لتقريب الناس بعضهم من بعض ، على أن شبكة من الطرق الرئيسية ترسمت خطى اللسان اللاتينى والحكم الرومانى حيثما حلا . وكان أول هذه

الطرق وهو الطريق الأبياني (Appian Way)^(١) يمتد من روما حتى يصل إلى نهاية عقب إيطاليا . وقد شرع في إنشائه الرقيب^(٢) (Censor) أبوس كلوديوس ٣١٢ ق . م . (الذى يجب ألا نخلط بينه وبين عضو مجلس العشرة الرجال أبوس كلوديوس الذى عاش قبله بقرن) .

وبدل الإحصاء الذى تم في (٢٦٥ ق . م .) ، على أنه كان يوجد في المناطق التى يحكمها الرومان ، أعنى في إيطاليا جنوبي الأرنو ، ثلاثمائة ألف مواطن حر ، تجمعهم جميعاً مصلحة مشتركة في خير الدولة ورفاهيتها ، وكلهم لم يتأثر إلا قليلاً بسلطان منصب الملك ، الذى توزعت اختصاصاته في عهد الجمهورية بين أيدي كثيرة . ويجدر بنا أن نلاحظ أن هذا كان شيئاً جديداً تمام الجدة في تاريخ الجنس البشرى . ذلك أن جميع الدول والممالك والإمبراطوريات الضخمة كانت حتى ذلك الحين مجتمعات تقوم على مجرد الطاعة لبعض الرؤساء أو الملوك الذين كانت سعادة الشعب ورفاهيته تعتمد على مزاجهم وطباعهم اعتماد العاجز الذى لا حيلة له . فلم تفلح أية جمهورية حتى ذلك الحين أن تتجاوز مرتبة دولة المدينة . ولم يكن ما يسمونه « بالإمبراطورية » الاثنية إلا مجرد دولة مدينة توجه حلفاءها والمدن الخاضعة لها . ولكن الجمهورية الرومانية تسنى لها أن تمد مواطنيتها في بضعة عشرات من السنين إلى وادى نهر پو ، وأن تتمثل ذوى قرباها من الغال ، وأن تستبدل بلغتهم لاتينيتها ، وأن تقيم مدينة لاتينية هي آكويليا على ناصية البحر الأدرياتي نفسها . وفي (٨٩ ق . م .) أصبح كل سكان إيطاليا الأحرار ، مواطنين رومانيين . وفي (٢١٢ بعد الميلاد) شملت المواطنة كل رجال الإمبراطورية الأحرار .

ومن البين أن هذا التطور السياسى الخارق هو البشير المؤذن بظهور

(١) اسمه عند الرومان «Via Appia» أى طريق آبيا أو الطريق الأبياني . (المترجم)

(٢) الرقيب أو السنسورج سناسرة : موظف روماني مكلف بجمع الإحصاءات وحماية

الأخلاق العامة . (المترجم)

كل الدول الحديثة ذات الطراز الغربى . ومن ثم فهو نظام شائق يستحق من عناية دارس السياسة ما يستحقه من الباحث فى التطور الحيوانى أى كائن برمائى^(١) من عصر الرواسب الفحمية أو أى مجنح أقدم (أركيو بترىك)^(٢) فهو الطراز البدائى للنظام السائد اليوم . وعن خبرات روما وتجاربها ينبعث ضياء ينير معالم التاريخ السياسى فى كل العصور التالية .

وهناك نتيجة طبيعية واحدة لهذا التطور الذى تهباً لديمقراطية قوامها مئات الآلاف من المواطنين المنتشرين فى أرجاء الجزء الأكبر من إيطاليا وهى نمو قوة مجلس الشيوخ (السناطو) . وقد ظهرت أثناء تطور الدستور الرومانى أضرب كثيرة من أشكال مجلس الأحرار منها مجلس العامة (البلنز) ، والمجلس القبلى والمجلس المثوى إلى غير ذلك ، وهى أضرب ليس فى وسعنا أن نتناولها بأى تفصيل واف . وبحسبك أن تعلم أن الفكرة المستقرة هى أن مجلس الأحرار كان صاحب الحق فى اقتراح القوانين . ويلاحظ أن هذا النظام كان يحوى ضرباً من الحكومة المزدوجة . ذلك أن المجلس القبلى أو المجلس المثوى كان جمعية تضم هيئة المواطنين كافة : النبلاء منهم والعامة معاً . ومن البديهي أن مجلس البلبيين كان جمعية مكونة من طبقة العامة وحدهم . ولكل مجلس موظفوه الخاصون . فالموظفون فى الحالة الأولى هم القناصل وغيرهم ؛ وهم فى الثانية الترابنة . ويوم كانت روما دويلة صغيرة ، ذرعها عشرون ميلاً مربعاً ، كان فى الإمكان أن يلتزم مجلس بتوفر فيه الروح التمثيلية لمجموع الشعب ، ولكن من الواضح أن صعوبة وسائل المواصلات فى إيطاليا آنذاك ، كانت تجعل من المحال على الغالبية العظمى من السكان حتى أن

(١) ، (٢) عن البرمائى والمجىح الأقدم (ذى الأجنحة القديمة) انظر المعالم ج ١ ص ٤٤ -

(المترجم)

يحيطوا علماً بما يجرى في روما ، فما بالك بأن يساهموا بأى نصيب فعال في الحياة السياسية هناك . وقديماً أوضع أرسطو في كتابه « السياسة » ما عساه أن يلحق الناخبين الذين يعيشون خارج المدينة ، والذين تشغلهم شئون الزراعة عما سواها ، من الحرمان الفعلي من الحقوق المدنية . كما أنه أشار إلى أن هذا النوع من الحرمان من مباشرة الحقوق الانتخابية بسبب الصعوبات المادية ، كان ينطبق على الغالبية العظمى من المواطنين الرومانيين . ومن ثم دب إلى الحياة السياسية مع نمو رقعة روما صنف غير منتظر يرجع إلى هذه الأسباب ، واستحال مجلس الأحرار شيئاً فشيئاً إلى جمع من المأجورين السياسيين وغوغاء المدينة ، وأخذ ينحط شيئاً فشيئاً عن مرتبة التمثيل الحق للمواطنين العاديين الجديرين بالاحترام . وقد أصبح مجلس الأحرار أقرب ما يكون إلى القوة والهيبة في القرن الرابع ق.م. ومنذ ذلك التاريخ أخذ نفوذه يندوى ذوياً متواصلاً ، فأما مجلس السناتو الجديد - الذى لم يعد بعد ذلك هيئة من البطارقة النبلاء تسودها تقاليد متجانسة ذات طابع متوأم نبيل على وجه العموم ، بل غدا هيئة من أغنياء الرجال والحكام السابقين والموظفين الأقوياء والمغامرين الجراء ومن إليهم ، كما أمسى يسوده ميل قوى إلى العودة إلى فكرة اعتبار المؤهل الوراثى أساساً ، - فإنه (أى مجلس السناتو) أصبح طوال ثلاثة قرون السلطة الحاكمة في العالم الرومانى .

وهناك وسيلتان عرفتتا منذ ذلك التاريخ في العالم ، ربما كان يتأني لهما تمكين حكومة روما الشعبية من أن تستمر في تطورها إلى أبعد من الذروة التى بلغتها أيام أپيوس كلودىوس الرقيب عند ختام القرن الرابع ق. م . ، بيد أن واحدة منهما لم تخطر للعقل الرومانى على بال . وأولى هاتين الوسيلتين هى استخدام الطباعة استخداماً صحيحاً . فلقد لاحظنا من قبل في بياننا عن الإسكندرية في عصرها الأول تلك الحقيقة الغريبة وهى أن الكتب المطبوعة لم تظهر في العالم في القرن الرابع أو الثالث ق.م. ويضطرنا هذا الحديث

عن الشئون الرومانية إلى تكرار هذه الملاحظة . ومن الجلى في التفكير الحديث أن الحكومة الشعبية العديدة الأنصار تتطلب كشر ضرورى لسلامة بنائها أن تزود كل المواطنين بقدر ثابت من المعلومات الصحيحة في الشئون العامة وأن تحرص على دوام اهتمامهم بتلك الشئون . فلم يتيسر قيام الحكومات الشعبية في الدول العصرية التى نشأت على جانبي المحيط الأطلسي في القرنين الأخيرين ، إلا بواسطة معالجة الشئون العامة بالنقد بواسطة الصحافة « وهوية » الآراء بدرجة متفاوتة من الأمانة والدقة . ولكن الذى حدث بإيطاليا هو أن الطريقة الوحيدة التى تستطيع بها الحكومة في روما أن تتصل بأية هيئة من هيئات مواطنيها في مكان آخر هى إرسالها الرسل ، فأما المواطن الفرد فما كانت تستطيع أن تتصل به بأية حال .

والوسيلة الثانية التى يرجع الفضل الأكبر فيها إلى الإنجليز في تاريخ البشر والتي لم يستخدمها الرومان قط ، والتي تكاد تعادل الأولى في وضوحها هى الحكومة التمثيلية أو النيابية . ذلك أنه كان في الإمكان أن يحل اجتماع من المنديبين محل مجلس الأحرار القديم (في أشكاله الثلاثة) . وقد أدرك الإنجليز هذه الضرورة مع نمو الدولة فيما تلا ذلك من حقبة التاريخ . فإن رجالا بعينهم هم فرسان المقاطعات كانوا يدعون إلى وستمستر للتكلم وإبداء الرأى تعبيراً عن الشعور المحلى ، وكانوا ينتخبون لتلك الغاية انتخاباً شكلياً إلى حد ما . ويدلوا للعقل الحديث أن الوضع الرومانى كان ينادى بأعلى صوته مطالباً بمثل هذا التعديل بيد أنه لم يتم قط .

كانت طريقة اجتماع المجلس القبلى (Comitia Trbuta) . — أحد الأشكال الثلاثة لمجلس الأحرار — تتم بواسطة إعلان من مناد قبل تاريخ الاجتماع بسبعة عشر يوماً ، على أن هذا المنادى لا يمكن أن يصل صوته بطبيعة الحال إلى مسامع معظم سكان إيطاليا . وكان العرافون وهم كهنة التنبؤ بالمستقبل الذين ورثتهم روما عن الإترورين يقومون بفحص أحشاء الذبائح والقرايين

في الليلة السابقة للاجتماع ، فإن رأوا من الأوفق أن يقولوا إن هاته الدلائل أو النذر المملوطة بالدماء كانت غير موثقة ، تفرق المجلس القبلى . فإن قال العرافون إن الآكباد راضية متعطفة صدر عن الكايتول وأسوار المدينة نفخ عظيم في الأبواق له دوى عظيم ، وواصل المجلس عمله . وكان ينعقد في الهواء الطلق إما في الفوروم^(١) (Forum) البصير أسفل الكايتول ، أو في منعكف أصغر منه يتفرع من الفوروم أو على أرض التدريب العسكرى ، وهى ساحة الإله مارس (Campus Martius) ، وهى الآن أشد أجزاء روما الحديثة ازدحاماً بالسكان ، ولكنها كانت عند ذاك أرض براح . وكان المجلس يبدأ عمله عند الفجر بالصلاة . ولم يكن هناك مقاعد ، ولعل ذلك كان مما يساعد على طمأننة المواطنين إلى ما جرت عليه العادة من انتهاء كل شيء عند الغروب .

وبعد صلاة الافتتاح تدور المناقشة في التدابير التى يتعين على المجلس أن ينظر فيها ، وتقرأ المقترحات المطروحة أمام الاجتماع . أو ليس مما يبعث على الدهشة أنه لم تكن توزع هناك نسخ مطبوعة ؟ فلو وجدت نسخ تتداولها الأيدي فهى لا بد مخطوطة ولا بد أن كل نسخة كانت عرضة للأخطاء والتحريف المقصود . ولا يبدو أنهم كانوا يسمحون بإلقاء الأسئلة ، على أنه كان يجوز للأفراد بصفتهم الشخصية أن يخطبوا في الاجتماع بإذن من الموظف الذى يرأسه .

ثم ينتقل الجمع بعد ذلك إلى أماكن مسورة تشبه حظائر الماشية ، لكل قبيلة محلها ، فتعطى كل قبيلة صوتها فيما طرح على بساط البحث من التدابير . وكان القرار النهائى يؤخذ بغالبية عدد القبائل لا بغالبية أفرادها من المواطنين ، وعند ذلك يعلنه المبلتون .

(١) الفوروم (Forum) هو سوق المدينة في روما ، وكانت تجر فيه أعمال البيع والشراء وهو ملتقى الاجتماعات العامة ، ولما اتسعت المدينة زاد عدد الأسواق بها ، وكانت تقوم به المنشآت والأبنية العامة . (المترجم)

أما مجلس الأحرار المثوى وهو الكوميتيا ، كنتورياتا Comitia Centuriata فهو شديد الشبه بهذا في خصائصه ، اللهم إلا أن المجلس القبلى كان يتألف فى القرن الثالث ق. م. من خمس وثلاثين قبيلة ، بينما كان قوام المجلس المثوى ٣٧٣ وحدة مثوية (centuria) ، كما كانت تقدم عند الافتتاح قرابين علاوة على الصلاة . وكان المثويون ، وهم فى الأصل من العسكريين (شأن مثوي الحكومة المحلية البدائية الإنجليزية) ، قد فقدوا من زمن بعيد كل اتصال بينهم وبين الرقم مئة . إذ كان بعض الوحدات المثوية لا يضم إلا بضع نفر من الناس ، وبعضها يضم العدد الجم . وكان هناك ثمانى عشرة وحدة مثوية أعضاؤها من الفوارس (eques) ممن كانوا فى الأصل رجالا ذوى مكانة توهلهم أن يقتنوا حصاناً وأن يخدموا فى فرقة الفرسان ، وإن صارت الفروسية الرومانية فيما بعد — شأن الفروسية فى إنجلترا — امتيازاً مبتذلاً ، ليست له أية دلالة عسكرية أو عقلية أو خلقية . (وأصبح هؤلاء الفوارس مع اشتغال روما بالتجارة وزيادة ثرائها طبقة هامة جداً ؛ فلبثوا دهرأً وهم الطبقة النشيطة الحقيقية فى المجتمع . ولم يبق لديهم من الفروسية إلا بمقدار ما لا يزال لدى فرسان «قائمة الشرف» وكشوف الرتب والنياشين فى إنجلترا اليوم . ولقد أقصى أعضاء مجلس الشيوخ عن التجارة منذ نحو عام ٢٠٠ ق. م. ، ومن ثم أصبح هؤلاء الفوارس رجال الأعمال والمال العظام (Negotiatores) ^(١) وكانوا الملتزمين (Publicani) الذين بيدهم جباية الضرائب) . وكان هناك بالإضافة إلى هؤلاء ثمانون وحدة مثوية من الأثرياء (وهم من يملكون ما يربى على مئة ألف آس — وهو فى أصله رطل من

(١) Negotiator كلمة لاتينية معناها تاجر على نطاق واسع أو رجل من رجال المال يشتغل بأعمال المصارف . أما Publicani : فهى لفظة لاتينية معناها ملتزم الضرائب وهم فى الغالب من طبقة الفرسان ، اشتهروا بافتنانهم فى أساليب جباية الضرائب فى ولاية آسيا .
(المترجم)

النحاس ووحدة العملة الرومانية — واثنان وعشرون وحدة مثوية من الرجال يملك كل منهم ما يعادل خمسة وسبعين ألف آس) وهكذا . وكان هناك وحدتان مثويتان ، إحداهما من الميكانيكيين ، والثانية من الموسيقيين . وكذلك كان لطبقة « البروليتارية »^(١) وحدة مثوية واحدة . وكان قرار المجلس المثوى (الكوميتيا كتورياتا) يصدر بغالبية الوحدات المثوية .

أعجيب إذن ان ينتقل السلطان بعد نمو الدولة الرومانية وتعدد أعمالها عائداً من مثل مجلس الأحرار هذا إلى السناتو الذى كان هيئة متماسكة نسبياً يراوح عددها بين ثلاثمائة كحد أدنى وبين تسعمائة عضو كحد أقصى (وهو العدد الذى رفعه إليه قيصر) ، وهم رجال كان لزاماً عليهم أن يتصرفوا فى شئون الدولة وكبار الأعمال ، ويعرف أحدهم الآخر إلى حد ما ، ولديهم فى أصول الحكم والسياسة تقاليد متوارثة ينتهجون نهجها ؟ وكانت سلطة تعيين أعضاء مجلس السناتو ودعوتهم إلى الاجتماع موكولة فى الجمهورية فى أول الأمر إلى القناصل . ولما أن أنشئت بعد ذلك بزمان يسير وظيفة الرقيب (السنسور Censor) ، ونقل الكثير من اختصاصات القناصل إليهم ، وكل إليهم كذلك القيام بهذه المهمة . وقام أفيوس كلوديوس وهو من أوائل من شغلوا منصب الرقيب واضطلعوا بهذه المهمة ، بتقييد أسماء الأرقاء المعتمدين فى سجل القبائل ، ودعا أبناء الرجال المعتمدين إلى عضوية مجلس السناتو . غير أن هذا العمل جاء صدمة أزعجت ذلك المجتمع المحافظ بغريزته على القديم . فأبى القنصلان أن يعترفا بمجلسه ، واستبعد من عقبه من الرقباء (٣٠٤ ق. م .) مرشحيه بطريقته هذه . وكيفيا كان الأمر فإن محاولته مساعدنا على تفهم

(١) البروليتارية (Proletarii) : وهم بروما طبقة فى أسفل السلم الاجتماعى والسياسى ، وظيفة الواحد منهم أن يخدم الدولة لا بملكاته وراثته بل بأولاده ونسله ومن هنا جاءت تسميتهم . (المترجم)

مدى تقدم السناتو عن حاله الأصلية حين كان هيئة صرفة من البطارقة . فأصبح شأن مجلس اللوردة المعاصر جمعاً من رجال الأعمال الكبار والسياسيين ذوى النشاط الجهم والمغامرين الموقفين وكبار أصحاب الأراضى والأملاك ومن على شاكلتهم . فأما ارتداؤه ثوب النبل وكرامته وانتحاله سمة البطارقة ، فزيف جميل وخداع خلاب . على أنه على عكس مجلس اللوردات البريطانى لم يكن يحد سلطته من الناحية القانونية أى شىء اللهم إلا مجلس الأحرار الذى نعتناه من قبل بالعجز والتقصير ، وإلا الترابنة الذين كان ينتخبهم مجلس البلنز . على أن رقابة مجلس السناتو القانونية على القنصلين ونواب القناصل (١) كانت غير كبيرة . وكانت سلطته التنفيذية ضئيلة لا تذكر على أن قوته ونفوذه إنما تستمدان من هيئته وخبرته . وطبيعى أن مصالح أعضائه تناقض بالطبع مصالح هيئة المواطنين عامة . ولكن انقضت أجيال عدة وهذه الكتلة العظيمة من عامة الناس عاجزة عن الترجمة عن عدم رضاها عن إجراءات هذه الأوليجركية . ومن ثم فإن الحكومة الشعبية المباشرة لأى دولة أكبر من دولة المدينة ، كان مصيرها إذن هو الفشل والخذلان فى إيطاليا لأنه لم يتهياً للناس حتى آنذاك أى تعليم عام ولم تنهض لهم صحافة ولا تم لهم أى نظام تمثيلى . باءت هذه الحكومة المباشرة بالفشل لجرد وجود هذه الصعوبات المادية قبل شبوب الحرب الهونية الأولى . ولكن فى ظهورها أهمية كبرى ، لأنها تمثل بوادر ظهور مجموعة من المشاكل التى لا تزال فطنة العالم السياسية جمعاء تناضل وإياها إلى اليوم محاولة إيجاد حل لها .

كان السناتو يجتمع عادة فى دار أعدت له بالفوروم ، غير أنه كان يدعى للاجتماع فى الظروف الخاصة فى هذا المعبد أو ذاك ، فإذا ما كان داعى الاجتماع هو الاتصال بالسفراء الأجانب والنظر فى شئون قواده (الذين كان

(١) نائب القنصل (Proconsul) هو قنصل سابق كان يعين حاكماً على إحدى الولايات الرومانية بعد توليه وظيفة القنصلية سنة أو أكثر فى روما . (المترجم)

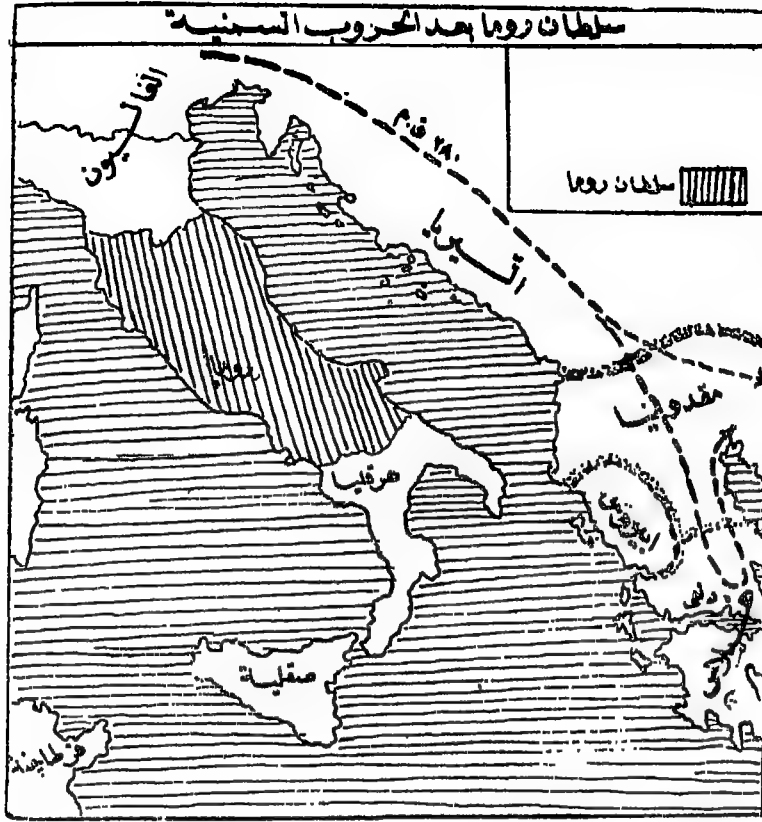
محرمًا عليهم دخول المدينة وهم على إمرة جنودهم) ، كان مكان اجتماعه هو ساحة الإله مارس (Campus Martius) خارج أسوار المدينة .

٣ - جمهورية الأغنياء القرطاجية

كان من الضروري أن نسهب شيئاً ما في موضوع التكوين السياسي للجمهورية الرومانية بسبب استمرار أهميتها الهائلة إلى يومنا هذا . وليس دستور قرطاجة بحاجة إلى أن نطيل إليه الوقوف .

كانت إيطاليا وهي تحت سيطرة روما قطراً جمهورياً . وكانت قرطاجة تسير على غرار ذلك النظام العريق في القدم ، وأعني به المدينة الجمهورية . وكانت لها « إمبراطورية » مثلما كانت لأثينا « إمبراطورية » من الدول التابعة التي لم تكن تضم لها أية مودة . وكان بها جمهرة ضخمة من الرقيق الصناع ممن لا يخلصون لها سليقة وطبعاً .

وكان للمدينة ملكان يتوليان الحكم بالانتخاب يسميهما أرسطو بالسوفيتين (Suffetes) كانا في الحقيقة يعادلان الرقباء (السناسرة) عند الرومان . وكان لقبهما باللغة السامية هو نفس اللقب الذي يطلق على القضاة اليهود . وثمة جمعية عمومية لا حول لها ، ومجلس سناتو يضم الشخصيات من الزعماء البارزين ، بيد أن لختين من هذا السناتو ، وهما منتخبان انتخاباً اسمياً - ولكن بوسائل تسهل الهيمنة عليها والتأثير وهما لجنة المئة والأربعة ولجنة الثلاثين ، كانتا تُكوِّنان في الحقيقة أوليجركية ضيقة وثيقة البنيان مكونة من أغني الرجال وأوسعهم نفوذاً . وكانوا لا يبلغون الأخبار إلى حلفائهم وزملائهم في المواطنة إلا في أضيق الحدود ، ولا يستشيرونهم إلا في أقل حد مستطاع . وكانوا يتبعون أساليب وخططاً تخضع فيها مصلحة قرطاجة ورفاهيتها بلا ريب لمصلحة طائفتهم هم . كانوا يناصبون العداء كل رجل ناهض جديد وكل إجراء مستحدث ، كما كانوا على يقين أن السيادة البحرية التي استدامت لبلادهم قرنين من الزمان لا بد أن تكون جزءاً من طبيعة الأشياء .

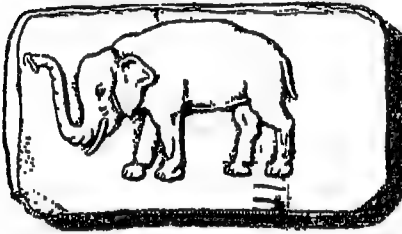


(١٠١) اتساع رقعة روما بعد الحروب السمنية

٤ - الحرب البونية (الفينيقية) الأولى

في اعتقادنا أن من الشائق - وليس من العيب وإضاعة الوقت في شيء - أن نتأمل ما كان يحصل للجنس البشرى لو أن روما وقرطاجة استطاعتا تسوية ما بينهما من خلافات وتمكنتا من أن تقيما جلفاً دائماً في العالم الغربي . فلو قد طال الأجل بالإسكندر الأكبر ، فلعله كان يسير غرباً ويكره هاتين القوتين (: الدولتين) على سلوك هذا السبيل الذي يدمج بين المصلحتين . على أن هذا الأمر ما كان ليتفق والخطط الخصوصية للأولييجركية القرطاجية ولا أبهتها وبذخها ؛ كذلك كان سناتو روما العظمى بوضعه الحديد قد أخذ

يغدو مغرمًا بتذوق طعم غنائم النهب ، ويرمق بعين الحسد الممتلكات القرطاجية في صقلية وراء مضيق مسينا . فكان أعضاده يتطلعون لها ليها جشعاً ولكنهم يخشون قوة قرطاجة البحرية . وكانت « وطيئة » عامة الشعب الروماني مع ذلك تتأجج غيرة وخوفاً من أولئك القرطاجيين ، على أنها كانت أقل من السناتو ميلا أن تقيم لنفقات القتال وزناً . دامت المحالفة التي قضى بإبرامها بين روما وقرطاجة ظهور بيروس إحدى عشرة سنة . على أن روما كانت على تمام الأهبة لما يسمى في لغة السياسة العصرية وأسلوبها العقيم باسم الحرب « الهجومية الدفاعية » . ثم سنحت الفرصة في ٢٦٤ ق. م .



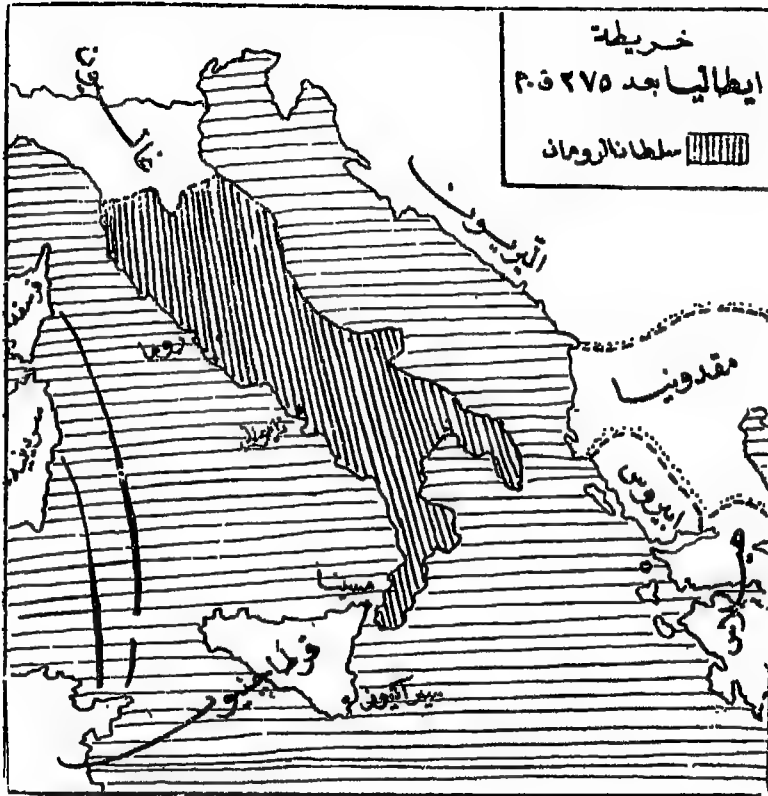
١٠٢ - عملة رومانية لذكرى الانتصار على بيروس

وفي ذلك الوقت لم تكن صقلية كلها في قبضة قرطاجة . إذ كان طرفها الشرقى لا يزال تحت حكم هيرون ملك سيراكوزة الإغريق ، وهو خلف لذلك الملك ديونيسيوس (Dionysius)

الذى ذهب إليه أفلاطون كفيلسوف لبلاطه . وقد استولت في (٢٩٨ ق.م.) على مسينا جماعة من الجند المرتزقة كانوا في خدمة سيراكوزة ، ثم أخذوا يغيرون على تجار سيراكوزة حتى اضطر هيرون آخر الأمر أن يتخذ التدابير للقضاء عليهم (٢٧٠ ق.م.) . وعند ذلك هبت لمساعدته قرطاجة التي كانت تهتم اهتماماً حيويًا بالقضاء على القرصنة ، ووضعت في مسينا حامية قرطاجية . وكان هذا ولاشك إجراء له كل مبرراته . فإن قرطاجة أصبحت بعد تدمير مدينة صور ، هي الحارس المقتدر الوحيد لقانون البحار في مياه البحر المتوسط . كما أن القضاء على القرصنة كان واجبها بحكم العادة كما هو التزام أمته عليها التقاليد المتوارثة .

وهرع قراصنة مسينا يلتمسون المعونة من روما ، وهنا تحركت الحشية

والغيرة التي طالما أفعمت قلوب الشعب الروماني نحو قرطاجة فدفعته إلى أن يقرر مساعدة المستجيرين . ومن ثم أرسلت حملة عسكرية إلى مسينا بإمرة القنصل أفيوس كلوديوس (وهو ثالث أفيوس كلوديوس ، اضطررنا إلى ذكره في هذا الكتاب) .



(١٠٣) خريطة إيطاليا بعد ٢٧٥ ق.م .

وبذلك ابتدأت الحلقة الأولى في سلسلة من أشد الحروب جوحاً وتدميراً وأحفظها بالكوارث وأحلكتها في تاريخ البشر صحيفة . وها نحن نظهر على الطريقة التي كان يكتب بها أحد المؤرخين معبراً عما يملأ جوانب نفسه من غريب الأفكار الشائعة في عصرنا هذا ، إذ قال مترجماً عن سروره بحملة الشر هذه : « كان الرومان يعرفون أنهم مقدمون على الحرب مع قرطاجة ،

بيد أن غرائز القوم السياسية كانت صائبة ، إذ أن وجود حامية قرطاجية على المضيق الصقلي ، كان مصدر تهديد خطر على السلام في إيطاليا .
لذا وقوا سلام إيطاليا من هذا « التهديد » بخرب دامت ربع قرن تقريباً ؛ فحطموا في أثناء ذلك « خُلُقهم » السياسي الذي لم يتكامل لهم تكوينه إلا بعد دهور وأجيال .

استولى الرومان على مسينا ، وتخلّى هيرون عن القرطاجيين وانضم إلى الرومان . ثم تركز القتاء ، زماناً حول مدينة أجريجنتوم (Agrigentum) . فحاصرها الرومان ، وأعقب ذلك مدة من حرب الخنادق . وقاسى الطرفان أعظم الآلام من الطاعون ومن عدم انتظام المدد ، وخسر الرومان ثلاثين ألف رجل . على أن القرطاجيين أدخلوا مراكزهم آخر الأمر (٢٦٢ ق.م.) وانسحبوا إلى مدنها الحصينة الواقعة على شاطئ الجزيرة الغربي ، وأهمها مدينة ليليبايوم (Lilybaeum) . إذ أنهم كانوا يستطيعون أن يمدوا هذه بالمدد من أرض القارة الإفريقية في يسر وسهولة ، ويكون من اليسر عليهم ما بقيت لهم سيادتهم البحرية ، أن يستنفدوا كل جهد يبذله الرومان ضدهم .



١٠٤ - عطارد

وعند ذلك دخلت الحرب في طور جديد لا عهد للناس بمثله . فإن الرومان خرجوا إلى البحر ثم هزموا الأسطول القرطاجي ، فأدهشوا بذلك القرطاجيين وأنفسهم على السواء . وقد تطور فن بناء السفن وتقدم تقدماً عظيماً منذ أيام سالاميس . فكان طراز سفينة الحرب الغالب هو المثلثة (trireme) أى السفينة ذات الصفوف الثلاثة من المحدفين ؛ فأما السفينة الحربية الرئيسية القرطاجية فكانت الخماسة (Quinquereme) ، وهى سفينة أكبر

بكثير لها خمس مجاميع من المجاديف تستطيع أن تصك أو تقطع مجاديف أية سفينة أضعف منها . ولقد دخل الرومان الحرب وليس لديهم من أمثال هذه السفن شيء . فأخذوا يجدون في إنشاء ربّات الخمسة صفوف أى المخمّسات ، وأعانهم على ذلك كما يقال أن البحر قذف إحدى هذه السفن القرطاجية إلى شاطئهم . ولم ينقض شهران حتى صار لديهم مئة من تلك المخمّسات وثلاثون من الثلاثات . بيد أنهم لم يكن لديهم الملاحون المهرة المدربون ولا المجدفون الخيرون ، فعالجوا هذا النقص علاجاً جزئياً بالاستعانة بخلفائهم الإغريق ، وعالجوه من ناحية أخرى باختراع أضرب جديدة من « التكتيكات » . فبدلاً من الاعتماد على الصك أو على قطع مجاديف الخصم ، وهو أمر يتطلب براعة في الملاحظة فوق ما لديهم ، رأوا أن ينزلوا على سفن الأعداء ، وابتنوا على سفنهم ضرباً من الكبارى الطويلة القابلة للرفع ، تشدها بكرة إلى سارية ، وبنهايتها خطاطيف وخوازيق تمسك بسفن الأعداء وتنسبث بها . وكذلك حملوا سفنهم بالخنود . حتى إذا صكت سفن القرطاجيين سفنهم أو احتكت بجوانبها أنزل هذا الكوبرى (Corvus) ثم تقدم عليه من على ظهر السفينة من الخنود حاشدين .

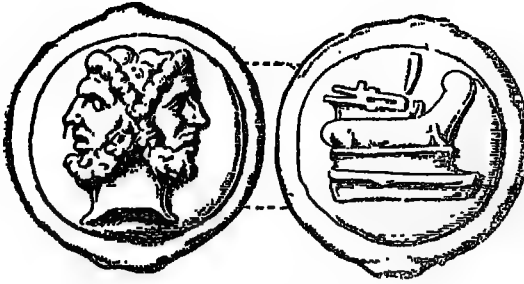
ومع أن هذه الوسيلة كانت بسيطة كما ترى ، فإنها أوتيت نجاحاً تاماً . فغيرت مجرى الحرب ومصير العالم . وواضح أنه لم يكن في طاقة عقول الحكام القرطاجيين ابتكار وسيلة بسيطة لإحباط أثر هذا الكوبرى . وفاز الرومان في معركة ميلاي (Mylae) (٢٦٠ ق. م .) بأول نصر بحرى لهم واستولوا على خمسين سفينة أو دمروها . وفي معركة إكنوموس الكبرى (Ecnomus) (٢٥٦ ق. م .) - « وهى فيما يرجع أعظم موقعة بحرية نشبت في العالم القديم »^(١) ، وفيها التحمت سبعمئة أو ثمانمئة من السفن الكبيرة ، أظهر القرطاجيون أنهم لم يتعلموا شيئاً من كارتهم السابقة . أجل إنهم جرياً على

(١) J. Wells : "Short History of Rome to the Death of Augustus"

قديم عادتهم بزوا الرومان في المداورات ، فحق لهم لذلك أن يهزمهم ، بيد أن الكوبرى عاد مرة ثانية فهزمهم . وأغرق الرومان ثلاثين سفينة واستولوا على أربع وستين .

ثم واصل الطرفان بعد ذلك الحرب . وأخذت كفتا الحظ تتأرجحان عنيفاً ، ولكن لم ين الرومان عن إظهار ما هم عليه من تفوق في الهمة والتماسك والمبادأة وروح الابتكار . وبعد « إكنوموس » غزا الرومان إفريقية بحراً ، وأرسلوا جيشاً ناقص العون والعدة هزم هزيمة تامة بعد أن أحرز كثيراً من الانتصارات ، وبعد استيلائه على تونس (وهي على بعد عشرة أميال من قرطاجة) . ثم ما لبثوا أن خسروا سيادتهم البحرية في إحدى العواصف ثم استعادوها بتشيد عمارة بحرية أخرى من مئتين وعشرين سفينة في مدى ثلاثة شهور . واستولوا على بالرمو وهزموا هناك جيشاً قرطاجياً عظيماً (٢٥١ ق.م.) مستولين على مئة وأربعة من الأفيال ، وعادوا إلى روما بموكب نصر هائل لم تره تلك المدينة من قبل . ثم ضربوا على مدينة ليليبايوم حصاراً باء بالفشل ، وهي المعقل الرئيسي الباقي في أيدي القرطاجيين بصقلية . ثم فقدوا أسطولهم الثاني في معركة بحرية عظيمة في دريبانوم (Drepanum) (٢٤٩ ق.م.) ، إذ خسروا مئة وثمانين سفينة من مئتين وعشرة . وفقدوا أسطولا ثالثاً عدته مئة وعشرون سفينة حربية وثمانمئة ناقلة جنود في نفس السنة ، ضاع بعضه في الحرب والبعض الآخر في إحدى العواصف .

ثم انقضت سنوات سبع واصل فيها الطرفان - وقد كادت قواهما أن تنهك - حرباً فاترة ، قوامها الغارات الكليلة والحصار الواهي ، كان للقرطاجيين فيها اليد العليا في البحر . ثم قامت روما بمجهود أخير متفوق ، فأنزلت إلى البحر أسطولا رابعاً عدته مئتا سفين . وسحقت آخر ما لدى القرطاجيين من قوة في معركة الجزر الأيجاتية (٢٤١ ق.م.) . هنالك طلبت قرطاجة الصلح (٢٤٠ ق.م.) .



١٠٥ - آس رومان

وبمقتضى شروط هذا
الصلح ، أصبحت صقلية
كلها فيما عدا ممتلكات
هيرون السيراكوزي
« ضيعة » من أملاك
الشعب الروماني . ولم

يمارس الرومان في تلك الجزيرة عملية التمثيل التي مارسوها في إيطاليا ؛
بل صارت صقلية ولاية مقهورة ، تدفع الجزية وتدر عليهم الأرباح ، شأن
مستعمرات الإمبراطوريات الأقدم عهداً . وفضلاً عن ذلك ، ألزمت
قرطاجة بدفع تعويضات حرب قيمتها ٣٢٠٠ تالنتوم ، أى ما يعادل (٧٨٨
ألف جنيه) .

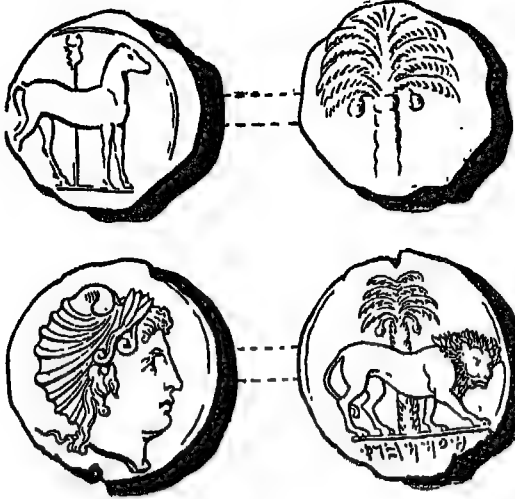
٥ - كاتو الأكبر وروح كاتو

دام السلام بين روما وقرطاجة اثنتين وعشرين سنة . وكان سلاماً
لا رخاء فيه ولا رغد . قاسى فيه كلا المتحاربين آلام العوز وانحلال النظام
التي تتلو بالضرورة والطبيعة كل الحروب العظيمة . وكانت أراضي قرطاجة
تضطرم بالقوضى العنيفة . فإن الجنود العائدين لم يستطيعوا الحصول على
أعطياتهم ، فتمردوا وأخذوا ينهبون ويسلبون . وتركت الأراضي بوراً
لا نجد من يزرعها . وإنا لنقرأ في سجل التاريخ صفحات رهيبة من القساوات
المروعة التي حدثت إبان إخماد هاملكار (Hamilcar) القائد القرطاجي لهذا
الشغب ؛ فنسمع رجال يُعدمون صلباً بالآلاف دفعة واحدة . وثارث سردينيا
وقورسيقا . ولم يكد « سلام إيطاليا » أن يكون أسعد من هذا حالا . فقد
ثار الغال وتقدموا جنوباً ؛ ولكنهم هزموا وقتل منهم أربعون ألفاً عند تيلامون
(Telamon) . وغنى عن البيان أن إيطاليا لا تتم وتكتمل وحدتها حتى تصل
إلى جبال الألب . ولذا أنشئت المستعمرات الرومانية في وادى نهر الپو ،
وبدئ في إنشاء الشريان الكبير المتجه شمالاً وهو الطريق الفلاميني

(Via Flaminia) . ولكن مما يدل على مبلغ ما وصل إليه الرومان من انحطاط خلقى وعقلى فى هذه الفترة التى أعقبت الحرب أنه بينما كان الغال يهددون روما تقدم البعض باقتراح تقديم القرابين البشرية ، ونفذ ذلك فعلا . ثم إن القانون البحرى القرطاجى القديم انهار ، نعم ربما بدا قانوناً ينطوى على الأنانية والاحتكار ، بيد أنه كان على الأقل مصدراً للنظام . فزخر البحر الأدرياتي بالقراصنة الإليريين ، وكانت نتيجة تلك الحال نشوب نزاع بسبب هذه القرصنة أفضى إلى نشوب حربين تمخضتا عن إلحاق إليريا بروما كولاية ثانية . ومهد الرومان السبيل للحرب الهونية الثانية بإرسالهم الحملات لضم سردينيا وقورسика ، وهما ولايتان قرطاجيتان اندلعت فيهما نار الثورة .

كانت الحرب الهونية الأولى قد كشفت عما لدى كل من روما وقرطاجة من قوى نسبية وعجمت عوديهما . فلو أوتى الطرفان من الحكمة حظاً أوفر قليلا ، ولو طبع الرومان على مقدار من التسامح وعلو النفس أكثر قليلا ، لما دعت حاجة إلى تجديد النضال . بيد أن روما كانت قاهراً لا يرحم . فاستولت على قورسिका وسردينيا بغير وجه حق . وزادت التعويض بمقدار ١٢٠٠ تالنتوم وجعلت من نهر الإبرو حداً أقصى للتوغل القرطاجى فى أسبانيا . وكان فى قرطاجة حزب قوى يتزعمه هانو ، يدعو إلى استرضاء روما . على أن من البديهي أن الكثير من القرطاجيين أصبحوا ينظرون إلى خصمهم الطبيعى نظرة الحاقد اليائس .

والحق أحد الشهوات التى قد تتسلط على حياة فرد من الأفراد ، وإن هناك لطرازا من الأمزجة أشد ما يكون تعرضاً له . وهذا المزاج على أتم استعداد للنظر إلى الحياة نظرة تقوم على الميلودراما الانتقامية العنيفة ، كما أنه على أتم أهبة لالتماس الدافع المثير وشفاء الغليل فى صورة المظاهر الرهيبة للعدالة ولروح الانتقام . وما برحت مخاوف الجحيم والكهف تثمر فى حياتنا حتى اليوم زهراتها السود ، فلسنا بعدُ على مبعدة من العصر الحجري القديم



١٠٦ — عملة قرطاجية

الا بمقدار أربعمئة جيل .
والحروب العظيمة — كما
تعلم أوربا بأجمعها — تفسح
المجال لهذه الروح « الحقود
الشريرة » وتلهب أوارها
إلى أقصى حد . وفي ذلك
الحين أخذ الشره والكبرياء
والقساوة التي أطلقت لها
الحرب اليونانية الأولى
العنان ، تنتج ثماراً وفيرة من

روح كراهية الأجنبي في إفراط بلغ حد الجنون ، وكان أبرز الشخصيات
في الجانب القرطاجي قائداً عظيماً وإدارياً بارعاً ، هو هاملكار بارقا ، الذي
نصب نفسه آنذاك للكيد لروما وتمزيقها إرباً . كإن حمأ لاسدروبال ،
وأباً لغلان هو هانيبال ، وهو الذي قدر له أن يكون أخطر الأعداء الذين
أربعوا مجلس السناتو الروماني أبداً الدهر . وكان أوضح طريق أمام قرطاجة
هو إعادة بناء أسطولها وإدارتها البحرية واستعادة قوتها في البحر . على أن
هاملكار لم يستطع تنفيذ ذلك فيما يبدو . فاعتزم أن يستعيض عنه بتنظيم
أسبانيا ، وجعلها قاعدة لهجوم برى على إيطاليا . فذهب إلى أسبانيا والياً
(٢٣٦ ق م .) . ويقص هانيبال بعد ذلك أن أباه جعله — وهو إذ ذاك
غلام في الحادية عشرة — يقسم أغلظ الإيمان على العداء الأبدي للدولة
الرومانية .

وإن تركيز أسرة بارقا لمواهبها ولأرواحها وتوفرها على الانتقام على
مثل هذا النحو شبه الجنون إن هو إلا مثال واحد لما كان يقض مضاجع
الناس من مرارة العيش وتضييق على الحياة ، بهما في أفئدتهم ويلات ذلك

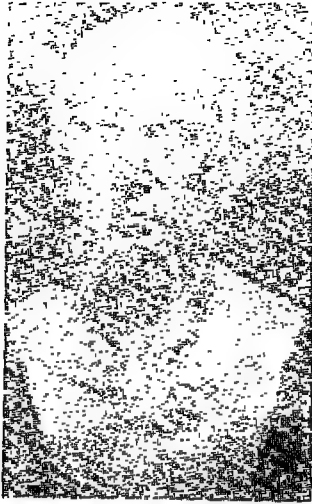
الكفاح العظيم والشعور العام بعدم الطمأنينة . فإن ربع قرن من الحرب خلف العالم الغربي برمته تعساً متسماً بالخشونة . وبينما هانيبال الغلام ذو الأحد عشر عاماً يقسم يمينه تلك بالكراهة المقيم لروما ، كان يدرج حول بيت ريفي في توسكولوم^(١) طفل في الثانية من عمره صغير السن ، إلا أنه بغضب كراهه فيما يحتمل ، اسمه ماركوس پوركيوس كاتو . عاش هذا الغلام حتى بلغ الخامسة والثمانين ، ولعل أعظم العواطف سلطاناً عليه ، بغضه لكل سعادة يصيبها أى إنسان إلا شخصه هو . كان جندياً ماهراً ، كما كان موفقاً في حياته السياسية أيما توفيق . وعقد له لواء القيادة في أسبانيا ، فذاع صيته بما أظهره من ضروب التساوت . واتخذ لنفسه موقف المتظاهر بحماية الديانة والأخلاق العامة . ثم قضى بقية أيام حياته يشن - وهو مستتر تحت ثيابه الزاهية تلك - حرباً عواناً على كل شيء يرى فيه الفتوة أو الساحة أو الجمال . وكلما استثار غيرته أحد من خصومه تعرض لسخطه واستنكاره في سلوكه نحوه . وكان جم النشاط في سن وتنفيذ جميع القوانين المكافحة لأزياء السيدات والمضادة لزيئتهن ، والمناهضة للملاهي والمناقشات الحرة . ومن حسن حظّه أنه تولى منصب الرقيب (السنسور) ، وهو أمر أتاح له سلطة عظيمة على الحياة الخاصة للرجال العموميين . وبهذه الوسيلة تمكن من القضاء على خصومه في الحياة العامة عن طريق التشهير بفضائلهم الخاصة . فطرد مانليوس من مجلس السناتو لأنه قبل امرأته نهاراً بمرأى من ابنتهما . واضطهد الأدب الإغريقي الذي ظل على جهل مطبق به حتى بلغ سنّاً متأخرة . ثم قرأ ديموسثينز وأعجب به . وألف باللاتينية عن الزراعة وعن « القديم الضائع من فضائل روما » . وتلقى كتاباته ضياء كاشفاً يظهره على صفاته . ومن أمثاله المأثورة قوله : إذا لم يكن العبد نائماً وجب أن يكون قائماً يعمل . وثمة مثل آخر هو : إن الثيران والعبدان المسنة يجب أن تباع . وقد ترك

(١) مدينة بيطاليا .

وراءه يوم عاد إلى إيطاليا جواد الحرب الذي حمله إلى النصر في حملاته الأسبانية توفيراً لنفقة نقله . وكان يكره وجود الحدائق عند غيره من الناس ، لذا قطع عن الناس مدد الماء الذي كان يروى الحدائق بروما . وإنه ليخرج بعد الانتهاء من تناول العشاء والاحتفاء بمدعويه ويبيده سوط من الحلد ليصلح ما عساه أن يكتشفه في خدمه من إهمال . وكان يعجب بفضائله الذاتية أيما إعجاب ويشيد بها في كتاباته . ودارت معركة في ثرموبيلاي بين الرومان وبين أنطيوخوس الأكبر ، وكتب عنها يقول متحدثاً عن نفسه : « إن من رأوه يهاجم العدو ويطارده ويقتني أثره ، أعلنوا أن دين كاتو لأهل روما أقل من دين أهل روما لكاتو »^(١) . ثم إن كاتو أصبح ، وقد طعن في السن ، داعراً خليعاً ، نداءً عن قويم الأخلاق مع امرأة من الإماء . وفي النهاية لما أن احتج ابنه على هذه الفوضى في دارهما المشتركة ، بلغ به الأمر أن تزوج من فتاة صغيرة ، هي ابنة سكرتيره ، الذي لم يكن في مركز يسمح له أن يرفض طلبه . (ولسنا ندرى شيئاً عما آل إليه أمر تلك الأمة ؛ ولعله باعها) . ومات هذا الرجل الذي جمع في شخصه صفوة الفضائل الرومانية القديمة بأكملها في سن متقدمة ، والناس يحترمونه ويخشونه . ويكاد يكون آخر أعماله العامة تحريضه على إشعال الحرب البونية الثالثة وعلى تدمير قرطاجة نهائياً . ذلك أنه ذهب يوماً إلى قرطاجة مندوباً ليسوى بعض الخلاف بينها وبين نوميديا ، فهاله بل أرعبه ما في ذلك القطر من بعض دلالات الرخاء بل وأمارات السعادة .

ومنذ تلك الزيارة أصبح كاتو يحتم كل خطاب يلقيه في مجلس السناتو بأن ينق قائلًا : « يجب أن تدمر قرطاجة — Delenda est Carthago » . على هذه الحال كان طراز الرجل الذي ارتقى إلى ذروة الرفعة في روما أثناء الحروب البونية ، وعلى تلك الشاكلة كان خصم هانيبال ، وعلى هذا المنوال كان استعداد قرطاجة للانتقام . وبواسطة كاتو وهانيبال نستطيع أن نحكم على طبيعة ذلك العصر ونلحظ كنهه وروحه .

(١) « حياة كاتو » لبلوتارك .



١٠٧ - كاتو

كانت الدولتان الغريبتان العظيمتان
مجهدين مكودتين عقلياً وخلقياً لما لحقهما
من أهوال الحرب الأولى ، ولعل روما
أشدّها إجهاداً وتوتراً . لقد كان جانب
الشر هو الأعلى في معترك الحياة . ومن
الحلى أن تاريخ الحربين الهونيتين الثانية
والثالثة (من ٢١٨ إلى ٢٠١ ق.م ، ثم من
١٤٩ إلى ١٤٦ ق.م) تاريخ شعوب ليست
مستكملة تماماً لتوازنها العقلى . ومن سخر
القول أن يتحدث المؤرخون عن « الغرائز
السياسية » لدى الرومان أو القرطاجيين .

فإن غرائز أخرى مضادة لهذه على خط مستقيم هى التى أطلق لها العنان .
إذ غلب الحقد على العقل ، واحمرت الحدى كأنما عادت إلى هذا العالم عينا
السلف القرد الحمراوان . ذلك زمان كان خصوم عقلاء الرجال يهاجمونهم
بالعواء سباً وتشهيراً أو يقتلونهم قتلاً . ولا أدل على الروح الحقة لذلك العصر
المظلم من تلهف القوم فاحصين عن النذر فى تلك الأكباد الإنسانية التى
أخرجوها من الضحايا البشرية حارة مختلجة ، وهى الضحايا التى ذبحوها
فى روما قرباناً يوم شملهم الرعب قبيل معركة تيلامون . فالعالم الغربى كان
مسودّ الصحيفة بتلك الرغبة الجنونية فى القتل . فقد اختصم شعبان عظيمان ،
كلاهما شديد اللزوم لتطور العالم وتقدمه ، ونجحت روما آخر الأمر فى
إهلاك قرطاجة والقضاء عليها .

٦ - الحرب الهونية الثانية

لسنا بمستطيعين فى هذا المقام إلا أن نوجز القول فى تفاصيل الحربين
الهونيتين الثانية والثالثة . ولقد أخبرناك منذ هنيهة كيف شرع هاملكار فى

تنظيم أسبانيا وكيف حضر عليه الرومان أن يتخطى نهر الإبرو . ومات هاملكار (٢٢٨ ق . م) وعقبه زوج ابنته هاسدروبال ، الذى اغتيل (٢٢١ ق . م) ، وخلفه هانيبال ، وكان إذ ذاك فى السادسة والعشرين . وقد عجل الرومان شوب الحرب الفعلية بنقضهم الشروط التى وضعوها بأنفسهم وبدخلهم فى شئون جنوبى نهر الإبرو . ومن ثم سار هانيبال قدماً غتراً جنوب بلاد الغال (أى فرنسا) ، ثم عبر جبال الألب (٢١٨ ق . م) وهبط إيطاليا .

والسنوات الخمس عشرة التالية تحوى قصة أشد الغزوات فى التاريخ شهرة وأقلها طائلا . فقد استمر هانيبال صامداً فى إيطاليا خمسة عشر عاماً وهو منصور لم يغلب . ولم يكن القواد الرومان كُفواً لذلك القرطاجى ، فكلموا التقوا به حلّت بهم الهزيمة . على أن قائداً رومانياً واحداً هو ب . كورنيليوس سكيبيو (P. Cornelius Scipio) أوتى من الإدراك الاستراتيجى ما جعله يخطط لنفسه خطة فوتت على خصمه كل ثمار انتصاراته . فإنه كان عند ابتداء شوب الحرب قد أرسل بحراً إلى مرسيليا ليصد هانيبال ويقطع عليه الطريق ، غير أنه وصل متأخراً ثلاثة أيام ، ولكنه بدلا من تعقبه دفع بجيشه إلى أسبانيا ليقطع عن هنيبال كل مؤونة أو مدد . وفى كل ما عقب ذلك من حرب ظل ذلك الجيش الرومانى فى أسبانيا حائلا بين هانيبال وقاعدته . فأصبح الرجل « معلقاً فى الهواء » ، لا يستطيع القيام بالحصارات ولا تعزيز الفتوح .

وكلمما التقى هانيبال بالرومان فى قتال وجهاً لوجه غلبهم . فأحرز عليهم نصرين عظيمين فى شمال إيطاليا . وظفر بضم الغال إلى جانبه . ثم اندفع جنوباً نحو لاتورريا ، ثم كمن لجيش رومانى وأحاط به ودمره تدميراً عند بحيرة ترازيمينى (Trasimene) . وفى ٢١٦ ق . م . هاجمته عند كانى (Cannae) قوة رومانية تفوقه فوقاً هائلا تحت قيادة فارو فقضى عليها

قضاء تاماً . ويقال إن خمسين ألفاً من الرجال قتلوا في تلك المعركة ، وإن عشرة آلاف رجل أخذوا أسرى . على أنه لم يستطع مع ذلك أن يواصل الزحف إلى روما ويستولى عليها ، إذ لم تكن لديه معدات الحصار . غير أن معركة كاني أثمرت ثماراً أخرى . فإن قسماً كبيراً من جنوب إيطاليا انحاز إلى هانيبال ، بما في ذلك كاپوا (Capua) ، أكبر مدن إيطاليا بعد روما . ثم تحالف معه المقدونيون . هذا إلى أن هيرون السراقوزي حليف روما المخلص كان قد مات ، وانضم خلفه هيرونيوس إلى القرطاجيين . وواصل الرومان الحرب مع ذلك بعزم أكيد وشدة مكيئة لا تعرف الكلال . فرفضوا أن يعقدوا صلحاً مع هانيبال بعد كاني ثم ضربوا على كاپوا حصاراً بحرياً طويل الأمد كلل بالنجاح آخر الأمر . ثم أخذ جيش روماني نفسه بإخضاع سراقوزا . وحصار سراقوزا مشهور بصفة خاصة بسبب المخترعات الرائعة التي استحدثها الفيلسوف «أرشميدس» ، والتي أوقفت الرومان موقف الحرج وصدتهم طويلاً . ولقد ذكرنا من قبل أرشميدس هذا بوصفه أحد تلاميذ مدرسة المتحف الإسكندري ومراسليها . وقتل أثناء فتح المدينة عنوة . ثم انتهى الأمر بعد سراقوزا (٢١٢ ق.م) بأن سقطت تارنم (٢٠٩ ق.م) ، وهي مرفأ هانيبال الرئيسي وسبيل تموينه من قرطاجة ، وكاپوا (٢١١ ق.م) ، فاضطربت على أثر ذلك مواصلاته .

وكذلك انتزعت أسبانيا من قبضة القرطاجيين جزءاً فجزءاً . ولما أن وصلت إلى إيطاليا الأمداد المرسلة لهانيبال تشق طريقها كفاحاً تحت قيادة أخيه هاسدروبال (ويجب ألا يخلط اسمه باسم صهره هاسدروبال الذي اغتيل) ، دمرها الرومان في معركة متاوروس (Metaurus) (٢٠٧ ق.م) ، وكانت أول أخبار وصلت إلى هانيبال عن الكارثة ، هي رأس أخيه الموصول عن جسمه يلتقي في معسكره .

وبعد ذلك حُصِرَ هانيبال في كالابريا (Calabria) وهي عقب الحذاء

الإيطالى . ولم تكن لديه قوات يستطيع بها القيام بعمليات حربية ذات جرم كبير ، فعاد آخر الأمر إلى قرطاجة فى الوقت المناسب لكى يتولى قيادة أبناء وطنه فى آخر معركة فى الحرب .

حدثت هذه المعركة الأخيرة وهى معركة زاما (Zama) (٢٠٢ ق.م) على مقربة من قرطاجة نفسها .

كانت أول هزيمة أصابت هانيبال ؛ ولذا فن المستحسن أن نوجه بعض عنايتنا إلى شخصية قاهره سكيبيو الإفريقى الأسن" ، الذى خلد التاريخ اسمه إنساناً دمث الأخلاق وجندياً عظيماً ورجلاً كريماً . ولقد ذكرنا من قبل شخصاً معيناً اسمه پ . كورنيليوس سكيبيو ، كان ينزل الضربات بقواعد هانيبال فى أسبانيا . فهذا هو ابنه ؛ وكان هذا الابن إلى ما بعد معركة زاما يحمل اسم « پ . كورنيليوس سكيبيو » ثم منح لقب الإفريقى . (فأما سكيبيو الإفريقى الأصغر وهو (Scipio Africanus Minor) الذى قدر له فيما بعد أن ينهى الحرب البونية الثالثة ، فهو الابن المتبنى لابن سكيبيو الأول الإفريقى الأسن ذاك) . وكان كل ما فى سكيبيو الإفريقى يثير فى نفس كل روماني من الطراز القديم — من مدرسة كاتو وأضرابه — نوازع المعارضة والكرهية وعدم الثقة . ذلك أنه كان صغير السن وكان سعيداً تام الكفاية ، جواداً ، ينفق المال بسخاء ، وكان واسع الاطلاع على الأدب الإغريقى ، ويكاد يكون من ناحية آرائه الدينية أميل إلى « البدع » الفريجية منه إلى آلهة روما الجامدة . ولم يكن ممن يؤمنون بالتروى المسرف الذى كان يتسلط على خطط قواد الرومان الاستراتيجية فى عصره .

حدث بعد الهزائم الأولى التى حلت بالرومان فى الحرب البونية الثانية ، أن تسلطت على العمليات العسكرية الرومانية ، شخصية قائد هو فابيوس (Fabius) ، الذى أخذ ينادى بضرورة تجنب الالتحام مع هانيبال حتى جعل من ذلك نوعاً من المبدأ المقدس . وغلب « فن التكتيك الفاني » على إيطاليا



١٠٨ - سكيبيو الإفريقي

مدة عشر سنوات . راح الرومان في
أثنائها يحصرون خصومهم بحراً
ويقطعون الطريق على القوافل البحرية
المعادية ، ويهاجمون الشاردين من
أعدائهم ، فلذا لاح لهم شبح هانيبال
ولوا الأدبار . ولا ريب أن الحكمة
كانت تقضى عليهم ، عقب هزائمهم
الأولى ، أن ينتهجوا مثل هذه الخطة
إلى حين . بيد أن الواجب كان يقضى
على الدولة الأشد قوة - وكانت روما
هي الدولة الأقوى طوال الحرب الهونية

الثانية - بالألا تسمح باستمرار حرب لا نهاية لها ، بل تسمى في تعويض
الخسائر ، واكتشاف القواد المقتدرين ، وتدريب جيوش أفضل ، وتدمير
قوة العدو . والعزم أهم واجبات القوى وألزم صفاته .
كانت الخطة الفابيانية وما تتصف به من مكر ومخاتلة غير مجدية ،
وهي التي كانت تستنزف ببطء دماء إيطاليا وقرطاجة معاً حتى الموت ، -
بغضبة ممقوتة عند أمثال سكيبيو من الرجال . لذلك أخذ ينادى مطالباً
بالهجوم على قرطاجة نفسها .

« على أن فابيوس ملأ المدينة عند ذلك ذعراً ، كأنما كانت الجمهورية
مقبلة على أشد الأهوال وأعظم المحن على يد شاب أهوج غير متزن . وموجز
القول أنه لم يتورع عن أن يأتي أى عمل أو يقول أى شيء يرى فيه وسيلة
لحمل مواطنيه على العدول عن قبول الاقتراح وتأييده . فظفر بأمنيته في
مجلس السناتو . على أن الناس اعتقدوا أن معارضة فابيوس لسكيبيو ترجع
إما إلى حسده إياه على نجاحه ، وإما إلى إضماره الخوف من قيام هذا البطل
الصغير بمأثرة باهرة ممتازة تضع للحرب حداً ، أو تبعد شبحها على الأقل

عن إيطاليا ، وعندئذ يظهر للملأ أن تصرفاته البطيئة التي امتدت خلال هذا العدد الجح من السنين لا يمكن أن تعزى إلا إلى التواني والخور . فلجأ إلى كراسوس (Crassus) زميل سكيبيو في القيادة محاولاً أن يقنعه بألا يدع هذه الولاية لسكيبيو بل يذهب بنفسه إلى هناك للعمل ضد قرطاجة إذا رأى من الصواب أن يقوم بالحرب على تلك الشاكلة . ولم يكتف بهذا ، بل أعاق عملية تدبير المال اللازم لتلك الحملة ، حتى لقد اضطر سكيبيو أن يدبر ما يلزم الحملة من مال جهد طاقته . ثم حاول أن يثنى الشبان الذين تقدموا للتطوع في الحملة عن تقييد أسمائهم ، وصرح بأعلى صوته في كل من مجلس السناتو والفوروم « إن سكيبيو نفسه لم يكن يتجنب هانيبال فحسب ، بل يرى أن يحمل معه كل ما تبقى لدى إيطاليا من قوة ، بإقناعه الشبان بالتخلي عن الديهم وزوجاتهم ومدنهم ، بينما لا يزال عدو قوى لم يقهر بعد » مرابطاً على الأبواب . . . بمثل هذه الترهات بث الرعب في النفوس إلى حد جعل القوم لا يأذنون لسكيبيو إلا بالكتائب التي كانت في صقلية وثلاثمائة من أولئك الرجال الذين عاونوه بإخلاص عظيم في أسبانيا . . . وسرعان ما وردت من سكيبيو أثر نزوله بإفريقيا أخبار تبشر روما بما قام به من جلائل الأعمال وعجائبها . ثم تلا ذلك وصول غنائم ثمينة أكدت البشرية . وأخذ ملك نوميديا أسيراً ؛ وأحرق معسكران ودمرا وبهما عدد ضخم من الرجال والسلاح والخيول ؛ فأرسل القرطاجيون الأوامر إلى هانيبال أن يتخلى عن آماله العقيمة في إيطاليا ، وأن يعود إلى بلاده ليدافع عن وطنه . وبينما كان كل لسان في روما يلهج بالثناء على ما أثر سكيبيو هذه ، اقترح فابيوس ضرورة تعيين خلف له دون ما سبب أو مبرر معقول اللهم إلا ما يتضمنه هذا المثل الشهير القائل بأن : من الخطر أن نستودع حظ رجل واحد شئناً على مثل تلك الدرجة من الأهمية ، لأنه ليس من المحتمل أن يستمر النجاح حليفاً له على الدوام . كلا بل إن فابيوس حتى عندما أبحر

هانيبال بجيشه مغادراً لإيطاليا ، لم ينقطع لحظة عن تكدير صفوف السرور العام والتوهين من روح روما ، ذلك أنه سمح لنفسه أن يؤكد « أن الجمهورية قد وصلت إلى أقصى محتتها وأسوئها عاقبة وأن لديها كل سبب يدعوها أن ترهب جهود هانيبال عندما يصل إلى إفريقيا ويهاجم أبناء روما تحت أسوار قرطاجة ؛ وأن سكيپيو سيضطر إلى أن يلتحم بجيش ما تزال يده مخضبتين دفيئتين بدماء هذا العدد الكبير من القواد والدكتاتورين والقناصل الرومان » . وانزعجت المدينة لهذه التشهيرات الحماسية ، ومع أن ساحة القتال انتقلت إلى إفريقيا ، فقد أحس الناس أن الخطر أقرب إلى روما منه في أى وقت آخر» (١) .

وحدثت قبيل معركة زاما هدنة وجيزة ومفاوضات ، انقطعت بغلطة من القرطاجيين . وكما كان الحال في معركة إربيس (أربيل) ، يمكن تحديد يوم معركة زاما بالضبط بكسوف حدث في هذه المرة أثناء القتال . وكان قد انحاز إلى الرومان النوميديون ، وهم الشعب الذى يسكن ما يلى قرطاجة من أرض إفريقيا ، انضموا إليهم تحت إمرة ملكهم ماسينيسا Massinissa ، فأكسبهم ذلك لأول مرة تفهماً عظيماً على هانيبال فى الفرسان . فزحزح جناحا هانيبال من الفرسان عن مراكزهما ، على حين استطاع مشاة سكيپيو بما لهم من نظام أصلب وأسلم أن يفسحوا بين صفوفهم دروباً تهجم خلالها فيلة الحرب القرطاجية دون أن يضطرب نظام هؤلاء المشاة . وحاول هانيبال أن يمد خط مشاته لكي يحيطوا بكتلة المشاة الرومانية ، بيد أنه على حين كانت لجنوده بمعركة كافي كل ميزات التصوق فى التدريب وكانت القدرة على المداورة هنالك تبعاً لذلك فى جانبه ، فاستطاع آنذاك أن يحيط بجيشه من المشاة وأن يعمل فيهم السيف ذبحاً وتقتيلاً ، فإنه وجد الآن أمامه خط مشاة يفوق خط مشاته صلابة وقوة . فانقطع خطه أثناء امتداده ، وهجمت

(١) بلوتارك (كتاب السير) .

الكثائب الرومانية في الصميم وخسر هانيبال يومه . وعاد الفرسان الرومانيون من ملاحقة جواد هانيبال لكي يحيلوا الهزيمة التي منى بها القرطاجيون بالفعل إلى كارثة تشتت مروعة .

عند ذلك خضعت قرطاجة وسلمت دون مزيد من كفاح . وكانت الشروط قاسية ، بيد أنها تركت لها المجال في أن تأمل في مستقبل كريم . فأجبرت على التخلي عن أسبانيا لروما ، وأن تتنازل عن كل أسطوطها الحربي إلا عشر سفن ، وأن تدفع عشرة آلاف تالنتوم (٢,٤٠٠,٠٠٠ جنيه) ، وثمة شرط آخر هو أصعب شروط الحرب قاطبة وبه توافق على ألا تخوض غمار حرب دون إذن من روما . ثم أضيف آخر الأمر شرط يقضي بتسليم هانيبال عدو روما اللدود بيد أنه كفى مواطنيه هذا الإذلال ، بأن فر إلى آسيا .

كانت هذه شروطاً جائرة ، كان يجدر بروما أن تقنع بها . بيد أن من الشعوب من بلغ من الجبانة حداً لا يجترئون معه على مجرد قهر عدوهم ، فلا بد لهم إذن من أعمال القتل فيهم وإفنائهم . فإن ذلك الجليل من الرومان الذي كان يرى العظمة والفضيلة في رجل مثل كاتو الرقيب ، خليق أن يجعل من وطنه حليفاً دينياً ومنتصراً جباناً .

٧- الحرب البونية الثالثة

إن تاريخ روما في السنوات الثلاث والخمسين التي انقضت فيما بين معركة زاما والفصل الأخير من المأساة ، وهو الحرب البونية الثالثة ، لينبئنا عما أصابته روما من نفوذ وسلطان خارجي واسع تتجلى فيه قسوة وخسة ، وينبئنا كذلك عما أحدثه ربا الأغنياء وشرهم من تدمير بطيء لعنصر الزراع الأحرار من سكان إيطاليا .

وكانت روح الشعب قد صارت إلى الخشونة والوضاعة . ولم يعد هناك

توسع جديد في منح حقوق المواطنة ، ولا أى محاولات سمحة أخرى ترمى إلى إدماج عناصر السكان من الأجانب بحكم مولدهم . وكان نظام الحكم الرومانى فى أسبانيا شيئاً معيماً واستبطنها بطيئاً شديد العسر . وأفضت التدخلات المعقدة إلى إنزال إلبيريا ومقدونيا من روما منزلة الولايات الدافعة للجزية . ولم يكن يخفى على أحد أن روما تنهج فى سياستها إذ ذاك نحو « تكليف الأجنبي بالضرائب » وإعفاء سكانها بأرض الوطن من كل ضريبة ، فبعد عام ١٦٨ ق. م. ، لم تعد الضريبة القديمة على الأراضى توجب فى إيطاليا ، وكان مورد الدخل (الإيراد) الوحيد المتحصل من إيطاليا ، هو المتحصل من ممتلكات الدولة والأراضى العامة ومن المكوس المفروضة على الواردات الخارجية . وكانت الإيرادات الآتية من ولاية « آسيا » تقوم بنفقة الدولة الرومانية . وكان رجال من طراز كاتو يحتازون المزارع بأرض الوطن بإقراض الأموال عليها وحرمان الراهن من حق فكك الرهن ، وكثيراً ما كانت هذه المزارع ملكاً لرجال حل بهم الفقر والعوز بسبب أدائهم الخدمة العسكرية . وكان هؤلاء المرابون يطاردون المواطنين الأحرار ويخرجونهم من أراضيهم ، ويدبرون مزارعهم بواسطة العمال الأرقاء الذين كانوا يسوقونهم سوقاً لارحة فيه والذين أصبحوا زهيدى الأجور وفيرى العدد . وكان مثل هؤلاء الرجال يعدون السكان الأجانب فى الخارج عبيداً لهم وإن لم يحتلبوا إلى روما . وسلمت صقلية إلى ملتزمى الضرائب الشرهين يستغلونها ويستنزفون دماءها . وكان الأغنياء يستخدمون الأرقاء هناك فى زراعة القمح الذى كان يصدر بعد ذلك إلى روما فيدر عليهم الربح الوفير ، وبذلك أصبح فى المستطاع تحويل الأراضى الزراعية فى إيطاليا إلى مراعى للماشية والأغنام . ومن ثم شرع الإيطاليون الذين نزع منهم أراضيهم يهرعون زرافات إلى المدن والخواضر وبخاصة إلى روما .

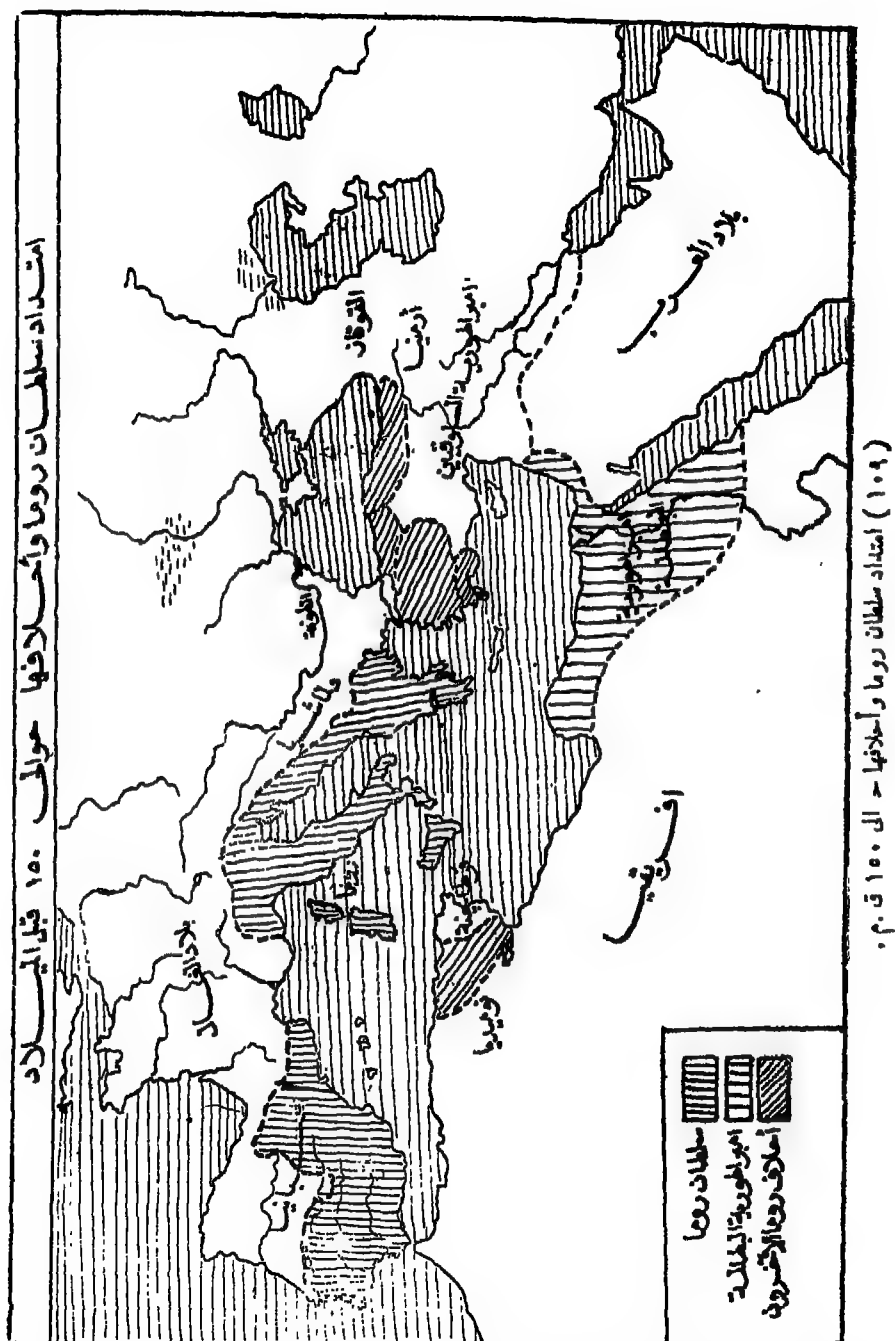
وليس لدينا هاهنا غير القليل ندلى به عن المنازعات الأولى بين قوة

روما الناهضة وبين دولة السلوقيين ولا كيف أبرمت روما مع مصر تحالفاً ، كذلك ليس لدينا ما نقوله عن الأساليب المتنوية والتقلبات التي ألمت بمحظ المدن الإغريقية منذ أن خيم عليها ظل روما أثناء توسيعها رقعة أملاكها حتى تردت تلك المدن في هوة الخضوع الفعلي^(١) . وحسبنا الآن خريطة لتوضيح امتداد إمبراطوريتها في ذلك الزمان .

ولم يخل ذلك العصر على ما يشوبه من وضاعة كريمة وخسة مردولة ، من صوت يجأر بالاحتجاج ويجهر بالتذمر . وقد أسلفنا إليك كيف وضعت قوة نفوذ سكيبيو الإفريقي حداً لداء الحرب الهونية الثانية الويل المصني الذي أصاب تلك الدولة وكان يخلق رجلاً أثرياء أشحاء هم أشبه ما يكونون بالقرح والبثور تطفح في أديم الجسد السقيم . ولما أن ساوره بعض الشك أن يسمح له مجلس السناتو بأن يتولى قيادة الجيش الروماني هدده بأن يلجأ إلى الشعب فيحتكم إليه . ومنذ ذلك الحين أصبح رجلاً مرهوب الجانب تحذره عصابة السناتو الدائبون على تحويل إيطاليا من أرض مزارعين أحرار إلى أرض مراعى واسعة للماشية يشتغل فيها الأرقاء . فحاولوا أن يقضوا عليه قبل أن يصل إلى إفريقيا ، وكان أن أعطوه من القوات ما لا يكفي - فيما يؤملون - لإحراز النصر ؛ ثم حالوا بعد الحرب بينه وبين تولى أى منصب في الدولة . وقد انبرى كاتو لمهاجمته مدفوعاً بعامل المصلحة الشخصية والنزعة الشريرة الفطرية .

ويبدو أن سكيبيو الإفريقي الأسن كان سمح النفس قليل الصبر بمن يحيطون به ، لا يميل بفطرته إلى استغلال تدمير الشعب مما حوله من النزعات الخبيثة السائدة واستثمار محبة الشعب العظيمة جداً له لمصلحته الخاصة . فعمل تحت رئاسة أخيه لوكيوس سكيبيو (Lucius Scipio) عند ما قاد الأخير أول جيش روماني عبر البحر إلى آسيا وهناك في ماجنيزيا من أعمال ليديا لقي على يديهما جيش عظيم مخلط بقيادة أنطيوخوس الثالث (Antiochus III)

(١) عن تفاصيل هذا النزاع وقاريخ الحقبة التي أعقبت وفاة الإسكندر حتى ظهور أوكتافيوس - انظر للمترجم كتاب « الحصار الهلنستية » تأليف تارن مكتبة الأنجلو .



الملك السلوقى (عام ١٩٠ ق. م.) ، — نفس الهزيمة التى لقيتها الجيوش
الفارسية المخلطة قبل ذلك بمئة وأربعين سنة . وأثار هذا النصر عداوة مجلس
السناتو ضد لوكيوس سكيبيو ، فاتهم باختلاس النقود التى تلقاها من
أنطيوخوس . فغضب « الإفريقى » لهذا الاتهام غضبة الرجل الشريف . وبينما
لوكيوس مائل فى مجلس السناتو يحمل بين يديه وثائق حساباته وهو مستعد
للرد على نهشات متهميه ، خطف الإفريقى الوثائق من يديه ومزقها وألقاها
على الأرض ، قائلاً إن أخاه قد دفع فى خزانة الدولة مئتي ألف سسترتيا^(١)
(sestertia) وهو ما يساوى مليونين من الجنيهات . فهل هم يريدون أن
يكذبوا صفو أيامه ويسقطوه لمثل هاته أو تلك من التفاصيل ؟ وعندما رفعت
الدعوى فيما بعد على لوكيوس وحكم بإدانته أنقذه أخوه الإفريقى بالقوة .
فلما أن قدم للمحاكمة ذكر الشعب أن ذلك اليوم هو يوم ذكرى موقعة زاما ،
وتحدى السلطات بين تهليل جموع الشعب وهتافه .

ويلوح أن الشعب الرومانى كان يحب سكيبيو الإفريقى ويعاضده ،
ولا بد أن يحبه الناس اليوم ويعطفوا عليه بعد انقضاء ألفين من السنين . فإنه
استطاع أن يلقى بالورق الممزق فى وجه مجلس السناتو ، وعندما هوجم لوكيوس
مرة ثانية ، تدخل أحد ترابنة الشعب بما له من حق النقض والاعتراض
وأحبط الإجراءات . على أن سكيبيو الإفريقى كانت تعوزه صلابة العود ،
التي تجعل من الرجال زعماء ديمقراطيين عظماء . فإنه لم يكن كقيصر . وكان
يعوزه الكثير من صفات الرجل السياسى التى تجعله يستسلم لما تمليه عليه
ضرورات الحياة السياسية على ما فيها من ضعه . ولم يلبث أن تقاعد بعد هذه
الحوادث مشمئزاً وغادر روما إلى مزارعه ، حيث توفى عام ١٨٣ ق. م .
وفى نفس تلك السنة مات هانيبال ، إذ تجرع السم يائساً . فإن خشية
مجلس السناتو الرومانى الراضخه له ظلت تتعقبه من بلاط إلى بلاط . وكانت

(١) السسترتيا — عملة رومانية قارها عشرة جنيهاً . (المترجم)

— ٥٥٥ —

روما طلبت من قرطاجة أثناء مفاوضات الصلح أن تسلمه إليها على الرغم من احتجاجات سكيپو الحانقة الغاضبة ، ثم استمرت تطلب هذا الطلب من كل دولة تؤويه . وعندما تم إبرام الصلح مع أنطيوخوس الثالث ، كان تسليم هانيبال أحد شروط ذلك الصلح . وفي بيثينيا قبض عليه في مخبئه واعتقله ملكها لكي يرسله إلى روما ، بيد أن هانيبال كان يحمل منذ أمد طويل في خاتمه السم اللازم له وبه قضى على نفسه .

ومما يزيد اسم سكيپو شرفاً ، أن فرداً آخر من أسرته . هو سكيپو ناسيكا (Scipio Nasica) كان هو الذي يسخر من عبارة كاتو « يجب أن تدمر قرطاجة » بأن يختم كل خطبة له في مجلس السناتو بقوله « يجب أن تبقى قرطاجة » . إذ بلغ من حصافة رأيه أن كان يرى أن وجود قرطاجة حافز عظيم لروما له فضل كبير في رخائها العام .

ومع هذا شاءت الأقدار أن يكون سكيپو الإفريقى الثانى ، وهو حفيد متبنى لسكيپو الإفريقى الأسن ، هو فاتح قرطاجة ومدمرها . وكانت جريرة القرطاجيين الوحيدة التى سببت الحرب البونية الثالثة والأخيرة ، هى أنهم استمروا يتجرون وينجحون . ولم تكن تجارتهم مما ينافس تجارة روما . ولذلك فإن قرطاجة لما أن دمرت مات بموتها الشيء الكثير من تجارتها ، ودخل شمال إفريقيا في دور تدهور اقتصادى . ولكن ما نعمت به قبل تدميرها من رخاء كان يثير في نفوس الرومان حسداً عنيفاً متقد الأوار كان من الواضح أنه أقوى حتى من الجشع الذى ملأ نفوس طراز « الرومان القديم » . ذلك أن طبقة الفرسان الأغنياء كانت تضيق بأى ثراء فى العالم إلا ثراءها . وقد أثارت روما الحرب بتحريضها النوميديين على الاعتداء على قرطاجة ، حتى هب القرطاجيون للحرب ثأرين مستبشرين . وعند ذلك انقضت روما على قرطاجة . وأعلنت أنها خرقت المعاهدة ! لأنها دخلت حرباً بلا استئذان .

وأرسل القرطاجيون الرهائن الذين طلبتهم روما ، وسلموا أسلحتهم واستعدوا لتسليم أراضي من بلادهم . على أن الخضوع لم يكن ليزيد روما إلا تجسراً وعتوّاً ولم يكن ليزيد نفوس طبقة الفوارس الغنية إلا شراهة وجشعاً ، وهم الذين لا تعرف الشفقة إلى قلوبهم سيلاً ، والذين كانوا متسلطين على أداة الحكم فيها . هنالك طلبت روما أن يخرج أهالى قرطاجة من ديارهم ، وأن يرحل السكان إلى بقعة تبعد عن البحر مسافة لا تقل عن عشرة أميال . وقد طلب هذا المطلب إلى قوم يكادون يعتمدون اعتماداً كلياً في معاشهم على التجارة فيما وراء البحار ! .

وأثار هذا المطلب غير المعقول اليأس في نفوس القرطاجيين . فاستدعوا المنفيين منهم واستعدوا للمقاومة . وكانت الكفاية العسكرية عند الرومان في تدهور مستمر خلال نصف قرن قضوه في ظل حكومة قصيرة النظر ضيقة الأفق ، وكادت الهجرات الأولى على المدينة سنة ١٤٩ ق.م. أن تبوء بكارثة . ولم يتميز سكيبيو الصغير خلال هذه العمليات إلا بمقدرة ضئيلة . وكانت السنة التالية سنة فشل أيضاً يرجع إلى عجز رجال السناتو . وعند ذلك انتقل ذلك المجلس الجليل من حالة التحدى والوعيد الصاحب إلى حالة رعب مفرط . وانذعر الشعب الرومانى انذعاراً أشد وأكبر ، فانتخب سكيبيو الصغير قنصلاً لا لسبب إلا اسمه ، على الرغم من أنه كان دون السن القانونية ، كما كان من نواح أخرى غير أهل لذلك المنصب ، فحزم متاعه ورحل إلى إفريقيا لينقذ وطنه الغالى .

وابتدأ على أثر ذلك أشد صنوف الحصارات عناداً وفظاعة ، وبنى سكيبيو جسراً عبر ميناء قرطاجة ، وقطع عنها كل المدد براً وبحراً . فقاسى القرطاجيون من الجوع آلاماً ذريعة . بيد أنهم صمدوا حتى فتحت المدينة عنوة . واستمر القتال في الشوارع ستة أيام ، ولما سلمت القلعة آخر الأمر كان الأحياء من القرطاجيين خمسين ألفاً من سكان يقدر عددهم الأصى

بنصف مليون نسمة . وأخذ هؤلاء الأحياء أرقاء ، ثم أحرقت المدينة بأسرها ، وأعمل المحراث في الأنقاض تعبيراً عن التدمير النهائي ، واستنزلت اللعنات في حفل ديني رهيب على كل من تحدته نفسه بأن يعيد بناءها .

وفي نفس تلك السنة (١٤٦ ق. م .) قضى مجلس السناتو الروماني وطبقة الفرسان الرومان على مدينة عظيمة أخرى أحسوا أنها تحد من احتكاراتهم وتجارهم ، هي كورنثة . وكان لهم في ذلك مبرر ، لأن كورنثة كانت شهرت السيف في وجههم ، على أنه كان مبرراً غير كاف .

٨ - كيف قوضت الحروب الهونية الحرية الرومانية

ينبغي أن نلاحظ هاهنا في موجز من القول تغييراً لحق نظام روما الحربى بعد الحرب الهونية الثانية ، وكانت له أهمية هائلة فيما تلا ذلك من تطوراتها . فحتى ذلك الوقت ، كانت الجيوش الرومانية تؤخذ من مجندين من المواطنين الأحرار . فكانت القوة المحاربة والقوة الناجبة مرتبطين ارتباطاً وثيقاً . وكان مجلس الأحرار في وحداته المئوية يتخذ مظاهر التعبئة العسكرية ويتقدم وعلى رأسه الوحدات المئوية من الفرسان إلى ساحة الإله مارس . وكان هذا النظام شديد الشبه بنظام البوير قبل شوب الحرب الأخيرة بجنوب أفريقيا . وكان المواطن الروماني العادى فلاحاً مثله مثل البويرى العادى ، فإذا « نُفخ في البوق » لبي النداء وانخرط في سلك الجندية . وكان البوير يبلون في القتال بلاء فائقاً ، بيد أنهم كانوا يضمرون في أنفسهم رغبة ملحة في العودة إلى المزارع . فإذا استدعى الأمر القيام بعمليات مطولة من أمثال حصار قباى ، كان الرومان يرسلون إمدادات تعزيزاً لحيوشهم ويستبدلون بها أخرى تحل محلها . وعلى نفس هذه القاعدة جرى البوير ينهجون في حصار ليدى سميث .

وكانت الحاجة إلى قهر أسبانيا بعد الحرب الهونية تنادى بضرورة إنشاء

جيش من طراز آخر . إذ كانت أسبانيا أبعد شقة من أن تسمح بموالة العمل عن طريق هذا التبادل فضلاً عن أن الحرب كانت تتطلب تدريباً أوفى ومراناً أكمل مما كان يستطيعه هؤلاء الجنود الغادون والرائحون . ومن ثم قيدت أسماء الرجال لمدة أطول ودفعت لهم الأعطيات والرواتب . وبذا بدأ ظهور الجندي المأجور في الحياة الرومانية . وأضيفت الأسلاب إلى الأعطيات . فوزع كاتو كنوز الفضة على من تحت إمرته من الجنود في أسبانيا . ومما هو ماثور عنه أيضاً أنه هاجم سكيبيو الإفريقي لأنه وزع الأسلاب على جنوده في صقلية . وأدى إدخال نظام الأعطيات للعسكر آخر الأمر إلى نشوء جيش محترف ، كما أدى هذا بعد ذلك بقرن إلى نزع السلاح من المواطن الروماني العادي الذي أخذ ينساب إذ ذاك إلى روما والمدن الكبرى وهو في حالة عسر وإملاق . وكانت الحروب الكبرى كللت بالنصر ووضعت أسس الإمبراطورية وضعاً وطيداً بفضل جهود فلاحي روما الذين حملوا أعباء الحروب وخاضوا نغماتها قبل (٢٠٠ ق . م) . واختفى في أثناء هذه العملية الحديدية العديد الأكبر من فلاحي روما المقاتلين . على أن ذلك التغيير الذي ابتداء بعد الحرب البونية الثانية لم يتم إلا عندما أشرف القرن على نهايته حين أعاد ماريوس تنظيم الجيش كما سيلي ذكر ذلك في موضعه . وبعد عصر ماريوس سنشرع في الكلام عن « الجيش » ثم عن « الكتائب » ، وسنجد أنفسنا نعالج نوعاً جديداً تماماً من الجيوش ، لم تعد تضمه بعضه إلى بعض رابطة المواطنة . وإذ تنقسم عرى هذه الرابطة لا تلبث أن تهتدى الكتائب إلى نوع آخر من الترابط هو روح التشيع للطائفة والإخلاص للجماعة « esprit de corps » يكتشفونه فيما يشتركون فيه من اختلاف عن المجتمع العام ومن مصلحة مضادة لمصلحته . ولا يلبث الجنود حتى يداخلهم المزيد من الاهتمام والتعلق الأشد بقوادهم ، الذين أباحوا لهم الأرزاق والسلب . وكان ذوو الأطماع من

الرجال نزاعين في روما قبل الحروب البونية إلى استرضاء العامة والتلق إليهم ؛ ولكنهم بعد ذلك الزمان أخذوا يترضون الكتائب ويخطبون وُدّها .

٩ - مقارنة الجمهورية الرومانية بدولة عصرية

إنّا لننسّم من تاريخ الجمهورية الرومانية حتى ذلك الحين نفحات تذكرنا من كثير من الوجوه بالروح العصرية أكثر من أية دولة أخرى سبقتها ، وليس هناك من هو أشد إدراكاً لهذه النفحات من القساري الأمريكي أو الأوروبي الغربي . فإنّا نلمس لأول مرة نوعاً من « أمة » تحكم نفسها بنفسها ، ومجتمعاً أكبر من مجرد « دولة مدينة » يحاول أن يتحكم في مصائره . ولأول مرة نجد قطراً زراعياً فسيح الأرجاء يتفياً فكرة واحدة من القانون . ونشهد في مجلس السناتو ومجلس الأحرار فضلاً بين الجماعات والشخصيات ، ومنهجاً في تصريف الأمور وضبطها يقوم على العدل والنقاش ، ولكنه أرسخ قدماً وأطول أمداً من أية أوتوقراطية ، وأكثر مرونة وقابلية للتكيف من أية كهانة . ولأول مرة كذلك نواجه منازعات اجتماعية تماثل من بعض النواحي منازعاتنا . وقد حلت النقود محل المقايضة ، وأصبح رأس المال النقدي سيلاً حراً لا يعرف الجمود . أجل ربما لم يصل في سيولته وحريته إلى ما هو عليه اليوم ، بيد أنه بلغ عند ذاك درجة لم يبلغها من قبل قط . ثم إن الحروب البونية كانت حروباً بين الشعوب ، وهي ظاهرة لم تسبقها إليها أية حروب أخرى سجلناها حتى الآن . ولأمراء أن الخطوط العريضة التي يقوم عليها عالمنا الراهن أي ما به من أفكار أساسية وخلافات رئيسية ، كانت آخذة في الظهور في تلك الأيام .

غير أن روما إبان الحروب البونية كانت تعوزها كما أسلفنا أنواع معينة من التسهيلات الأولية ، كما أن بعض الأفكار السياسية السارية في زماننا هذا كانت تنقصها . فلم يكن هناك صحف ، ولم يكن هناك في الواقع أي استخدام لنظام الممثلين المنتخبين في مجالس الأحرار الشعبية . وقد أمر

يوليوس قيصر (٦٠ ق. م.) بنشر محاضر جلسات السناتو وقراراته بكتابتها على الأبيض "in Albo" أعنى على ألواح النشرات . وكانت العادة قد جرت بنشر المرسوم السنوى للبرايتور^(١) (Prætor) (أى صاحب القضاء بروما) على هذه الشاكلة . وكان هناك قوم يحترفون كتابة الرسائل ، فيرسلون الأخبار بوساطة الرسل والسعاة الخصوصيين إلى مراسلين أغنياء من سكان الريف ، وكان هؤلاء الكتاب ينسخون المكتوب على « اللوح الأبيض » (Album) . وعند ما كان شيشرون حاكماً على كيليكيا ، كان يتلقى الأخبار الجارية عن مراسل من هذا النوع ، وهو يشكو في أحد رسائله أنها لم تكن مما يعنى . فان مجموعة الأخبار التى أرسلها إليه مراسله قد أسهبت في أخبار سباق العجلات وغيرها من أنباء الألعاب ، على حين فات المراسل أن يقدم أى فكرة عن الموقف السياسى . وواضح أن هذه الطريقة في نقل الأخبار بالرسائل كانت في متناول الرجال العموميين الميسرى الحال دون غيرهم .

وثمة نقص كبير آخر في النظام الديمقراطي للجمهورية الرومانية وهو نقص فهمه علينا اليوم يسير جداً ، وإن كان أبعد من أن يتناول إليه فكر أى إنسان عند ذاك - ذلك هو انعدام كل أثر لمبادئ التعليم السياسى العام على الإطلاق . ولقد أظهر العامة في روما بارقة من الإدراك لفكرة أنه بغير العلم والمعرفة لا يتسنى للأصوات الانتخابية أن تجعل الرجال أحراراً ، وذلك يوم أصروا على نشر قانون « الألواح الاثني عشر » . بيد أنهم لم يستطيعوا قط أن يتصوروا أن في الإمكان توسيع مجال انتشار المعرفة بحيث يتطرق بها إلى كتلة الشعب إذ كان ذلك فوق إمكانيات العصر . ولم يبدأ الناس إلا في هذه الأيام أن يدركوا تماماً الأهمية السياسية للقول المأثور :

(١) البرايتور هو موظف قضائى اختص بأعمال القضاء ومعاونة القنصل في هذا

(المترجم)

المجال .

« المعرفة قوة ». فلإن اتحادات ونقابات العمال البريطانية مثلاً ، أنشأت حديثاً كلية العمال تسد حاجات الأكفاء منهم في علم التاريخ وفي العلوم السياسية والاجتماعية وما إليها . على أن التعليم في روما الجمهورية كان نزوة تلم بأحاد الآباء ، وكان من امتيازات ذوى الثروة والفراغ . وكان معظمه في أيدي الإغريق الذين كانوا في الكثير الغالب من الأرقاء . وكان هناك جدول ضحضاح من العلوم الرفيعة والتفكير الممتاز تواصل فيضه وانسيابه حتى القرن الأول من عصر الملكية (أو الإمبراطورية) ، يشهد على ذلك لوكريتيوس (Lucretius) وشيشرون (Cicero) بيد أنه لم يمتد إلى كتلة الشعب . ولم يكن الروماني العادي جاهلاً فقط بتاريخ الجنس البشري جهلاً مطبقاً ، بل بأحوال الشعوب الأجنبية كذلك . ولم يكن لديه أية معرفة بالقوانين الاقتصادية ولا بالإمكانات الاجتماعية . بل إنه لم يكن حتى ليفهم مصالحة الخاصة فهماً واضحاً .

وبديهي أنه في دول المدن الإغريقية الصغيرة ، وفي تلك الدولة الرومانية الأولى التي ذرعها أربعمائة ميل مربع ، كان الرجال يكتسبون عن طريق الحديث والملاحظة قدراً من المعرفة يكفي للقيام بواجبات المواطنة العادية ، ولكن الأمر عند ابتداء الحروب الهونية كان تضخم وتعمد حتى أضحت المعلومات فوق طاقة الأميين من الرجال . ومع ذلك فلم يبد على أحد أنه لحظ الثغرة التي أخذت تباعد بين المواطن وبين دولته ، وعلى ذلك خلت السجلات من كل إشارة إلى أية محاولة ترمي إلى « توسيع » عقلية المواطن بالتعليم حتى يواجه اتساع واجباته . وإنك لترى الناس جميعاً منذ القرن الثاني قبل الميلاد وما بعده يبدو ملاحظاتهم وعلقون على جهالة المواطن العادي وضآلة حظه من الحكمة السياسية . وكان كل شيء في الدولة يعاني من انعدام التماسك السياسي الناشئ عن هذه الجهالة ؛ ولكن أحداً من الناس لا يخطو بالأمر حتى يصل به إلى ما نعهده اليوم النتيجة الحتمية له ، فما من إنسان يقترح القضاء على الجهالة الضاربة أطنابها وإزالة

سبب الشكوى . لم تكن هناك أية وسيلة البتة لتعليم جماهير الشعب في نطاق مثل عليا مشتركة ذات طابع سياسى واجتماعى . ولم يحدث إلا يوم تطورت الديانات الكبرى التى تقوم على الدعاية في العالم الرومانى - وأهمها وأبقاها جميعاً المسيحية - أن لمس الناس ما يحتمل أن ينتج من آثار لمثل هذ التعليم المنظم للجماهير عظيمة من الناس ورأوا ثماره بارزة في العالم . وكان الإمبراطور قسطنطين الأكبر ، ذلك العبقري العظيم أول من أدرك بعد ذلك بستة قرون تلك النتيجة المحتملة ، وأول من حاول أن يستخدمها في سبيل الإبقاء على تماسك المجتمع العالمى الذى كان يحكمه ونسجه سدى ولحمة من الناحيتين العقلية والخلقية .

على أن اختلاف نظام روما السياسى عن نظامنا ليس مقصوراً على قيام هاته النقائص المتمثلة في وسيلة نقل الأخبار ونشر التعليم وفي صلاحية نظام الحكومة التمثيلية . أجل إنها كانت بالدول العصرية الممدنة أشبه كثيراً منها بأى دولة أخرى تقدم ذكرها ، على أنها كانت في بعض الأمور بدائية بصورة عجيبة و« منحلة دون مرتبة الحضارة » . وإن قارئ التاريخ الرومانى حين يقرؤه متنبها إلى ما فيه من أساليب المخادلات والتدابير والسياسات والحملات الحربية وينظر إليه من وجهة نظر رأس المال والعمل ، ليعثر فيه بين الفينة والفينة على شئ يشيع في نفسه قسماً وافراً من ذلك الفرع الذى يتمشى في مفاصل من نزل يستقبل في بيته طارقاً مجهولاً ، ومد يده فلقى كف الإنسان الأول النياندرتالى (Homo Neanderthalensis) الشوهاء المغطاة بالشعر، ثم رفع رأسه فرأى وجهاً وحشياً بشعاً عديم الذقن . ولقد أشرنا من قبل إلى تقديمهم الأضاحى البشرية في القرن الثالث ق.م ، وفوق هذا فإن كثيراً مما نعرفه عن ديانة روما في العصر الجمهورى يرجع بنا شوطاً بعيداً إلى ما قبل أيام الآلهة المحترمين اللاتيين أعنى إلى عصر العقيدة الشامانية^(١) .

(١) الشامانية : ممارسات دينية بدائية لشعوب آسيا الشمالية تقوم على الاعتقاد بأن في الإمكان الهيمنة بالسحر على الأرواح الطيبة والشريرة . (المترجم)

والسحر . فنحن نتكلم عن الهيئات التشريعية فينطلق بنا الذهن فوراً إلى « وستمنستر » (دار البرلمان الإنجليزي) ، ولكن ماذا يكون شعورنا لو أننا ذهبنا نشهد افتتاح إحدى أدوار انعقاد مجلس اللوردة ، فوجدنا يد قاضي القضاة (Lord Chancellor) مخضبة بالدماء ، وهو يبعث بها في اهتمام بالغ بين أحشاء شاة حديثة الذبح باحثاً فيها عن نبوءة بما يكنه المستقبل ؟ عند ذلك يكر الفكر راجعاً من وستمنستر إلى عادات بنين^(١) المتوحشة . كذلك كان الاسترقاق في روما وحشياً أدنى مرتبة تماماً من الاسترقاق في بابل . ولقد أتيت لنا أن نلقى لمحة إلى كاتو صاحب الصلاح والفضيلة إذ ينتقل بين عبدانه في القرن الثاني ق. م. وفوق ذلك فلمنه في القرن الثالث ق. م. حالما كان الملك أسوكا يحكم بلاد الهند في جو يفيض ضياء ورقة ، كان الرومان يبعثون من جديد رياضة إرورية وحشية ، وهي تحريشهم العبدان بعضهم ببعض ليستنقلوا حياتهم جلاداً وقتالاً ، مما يعيد إلى الذاكرة ثانية صورة أفريقيا الغربية كمنبت لهذه التسلية الممجبة . ذلك أنها نشأت عن عادة قديمة ترجع إلى ما قبل التاريخ وهي إعمال السيف ذبحاً في الأسرى عند دفن أحد الرؤساء . وهذه التسلية عندهم مسحة دينية ، فإن العبيد الذين كانوا يسحبون جثث الموتى من المختلد بالخطاطيف كانوا يلبسون أقتعة تمثل إله العالم السفلي وهو خارون (Charon) المعداوى الجهنمي .

وفي ٢٦٤ ق. م. وهي نفس السنة التي بدأ فيها أسوكا حكمه والتي ابتدأت فيها الحرب الهونية الأولى ، حدثت في سوق المدينة « الفوروم » بروما أولى ما يذكره التاريخ من مصارعات المجالدين احتفالاً بجنازة عضو من أعضاء أسرة بروتس (Brutus) الرومانية العريقة . كان ذلك عرضاً متواضعاً تشترك فيه ثلاثة أزواج ، ولكن سرعان ما أصبح المجالدون يتقاتلون بالمثلثة . وأخذ الإقبال على تذوق هذه المصارعات يزداد بسرعة ، وأمدتهم

(١) بنين (Benin) مدينة في غرب إفريقية تقع على الساحل الشمالى للخليج غانة .

(المترجم)

الحرب بالعدد الوفير من الأسرى . فأما الأخلاقيون الرومان القدماء الذين كانوا على غاية الصرامة ضد التقبيل وزينة النساء والفلسفة الإغريقية ، فلم يكن لديهم ما يقولونه عن هذا التطور الجديد إلا كل خير ، ولقد يلوح أن الأخلاق الرومانية كانت مطمئن راضية مرضية ما شهدت الناس يلقون الآلام والعذاب !

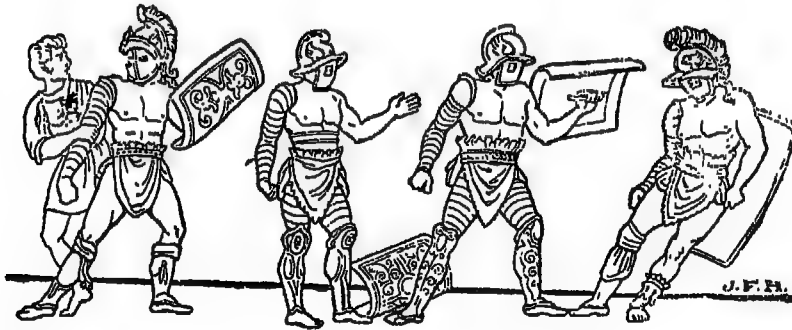
ولئن كانت روما الجمهورية أول المجتمعات القومية العصرية المتمتعة بالحكم الذاتي ، فلقد كانت ولا ريب أول شكل بدائي « نيناندترالى » لتلك المجتمعات

نمت حفلات المجالدين في روما نمواً هائلاً في خلال القرنين أو الثلاثة التالية . وابتدأ الأمر بأن كان المجالدون يؤخذون من أسرى الحرب يوم كانت الحروب كثيرة متلاحقة . وكان كل مجالد يتقدم بأسلحته المميزة له ما بين بريطان ذوى وشم أو مغاربة أو إسكيذيين أو زنوج ومن إليهم ، وربما كانت لهذه الحفلات بعض القيمة العسكرية . على أنهم عمدوا بعد ذلك إلى استخدام المجرمين من الطبقات الدنيا ، ذلك أن العالم القديم لم يكن يدرك أن المجرم المحكوم عليه بالإعدام ما يزال شخصاً له حقوقه . وأياً ما كان ، فإن استعمال المجرم كمجالد لم يبلغ من السوء الدرجة التي بلغها استعماله « مادة » للتشريع وهو حي في متحف الإسكندرية . ولكن لما زادت أرباح هذا الصنف من الحفلات ، وزاد الطلب على الضحايا ، صار العبدان العاديون يباعون لمدربي المجالدين . لذا كان كل عبد يستغضب سيده عرضة لأن يجد نفسه في أحد المعاهد الخاصة بتدريب المجالدين وتأجيرهم . وكان كل خليع فاسق من الشبان الذين بددوا ثرواتهم وكل ذوى النفوس الوثابة من الغلمان يحترفون تلك المهنة متطوعين فترة معينة من الزمان معتمدين في بقائهم أحياء على بسالتهم وحسن بلائهم .

ولما تطورت تلك الحرفة ونمت وجد للمجالدين عمل جديد باستخدامهم

أتباعاً مسلحين ؛ فكان الأغنياء يشترون الجوقة منهم ويستخدمونها حرساً خاصاً لهم أو يؤجرونها في الحفلات طلباً للريح .

وكانت حفلات العرض تبدأ بموكب استعراضى رسمى (Pompa) وبقتال زائف (Proclusio) . ثم يعلن بدء القتال الحقيقى بالنفخ فى الأبواق . فأما المحالدون الذين يرفضون أن يقاتلوا لأى سبب من الأسباب فيدفعون دفعاً بالسياط والحدائد المحمأة . وربما التمس الجريح منهم الرحمة برفع أصبعه السبابة . وعندئذ فلما أن يلوح النظارة بمناديلهم دلالة على الرحمة ، أو يقضوا بإعدامه بمد أيديهم مقبوضة مع وضع الإبهام فى هيئة ما معناها الموت . ويختلف الثقاة هنا فى حقيقة أمر هذه العلامة بالضبط . فيقول مايور « Mayor » إن رفع الإبهام إلى الصدر معناه الموت ، وإن خفض الإبهام إلى أسفل معناه : « أن أنزل هذا السيف » . ولكن جمهرة الرأى السائد أن وضع الإبهام إلى أسفل معناه الموت . وكان الصرعى والذين أشرفوا على الموت يسحبون إلى مكان خاص يسمى « الإسهولياريوم »^(١)



١١٠ - المحالدون

(١) الإسهولياريوم **spoliarium** - مكان فى الملعب المدرج تنزع فيه ملابس المحالدين

الذين غرروا صرعى . (المترجم)

حيث يجردون من أسلحتهم وممتلكاتهم ، فمن لم يكن مات منهم آنفاً أجهزوا عليه .

وهذا الوضع الذى ينظم القتل ويعد الموت رياضة وتسلية يساعد على تبيان مقدار الثغرة العظيمة التى تفصل بين المعايير الخلقية عند كل من المجتمع الرومانى ومجتمعنا . ولا شك أن كثيراً من ألوان القساوات وانتهاك حرمة الكرامة الإنسانية يمثل هذه الوحشية الفظيعة ، ما تزال تحدث فى العالم . بيد أنها لا تحدث باسم القانون ، ولا دون أن يرتفع صوت واحد بالاعتراض عليها وإنكارها . فالحق لنا لم نعر حتى زمان « سنيكا Seneca » (القرن الأول الميلادى) على أى أثر يسجل احتجاجاً صريحاً على ذلك الأمر . فلقد كان ضمير الإنسانية أضعف آنذاك وأقل فطنة مما هو الآن . ثم جرت لإرادة المقادير أن تنشأ فى الضمير الإنسانى فور ذلك قوة جديدة تولدت عن انتشار المسيحية . فإن روح يسوع المنبعثة فى المسيحية ، أصبحت فى عصرنا من الدولة الرومانية الخصم اللدود لكل هذه الحفلات العنيفة القاسية والعدو العنيد للرق ، ولم يزل هذان الشران يتناقضان بانتشار المسيحية ، حتى أصبحا أثراً بعد عين . ويضيف العلامة جلبرت موراي إلى ذلك قوله : « كان الإغريق يرون فى حفلات المجالدين سبباً يدللون به على اعتبارهم الرومان برابرة متوحشين (Barbaroi) ، وقد حدثت بعض الاضطرابات عند ما حاول نائب القنصل الرومانى (proconsul) أن يُدخلها فى كورنثة . » من هنا يتبين أن معارضة هذه القساوة القديمة لم تكن إذن مسيحية محضة . وواضح أن خيار الرومان كانوا يفضونها ، بيد أن ضرباً من الخشية والحياء قد حال بينهم وبين التنديد بقسوتها علناً . مثال ذلك أن شيشرون عند ما كان يضطر أن يحضر لمشاهدة ساحة الألعاب^(١) كان يأخذ

(١) Circus ساحة الألعاب ، وهى فى روما الساحة الكبرى التى كانت تقام فيها الألعاب ويمجر فيها السباق وفى بعض الأحيان كانت تجر بها الاستعراضات العسكرية . (المترجم)

معه ألواح وسكرتيره ، ثم لا ينظر إلى شيء منها قط . وإنه ليبر عن
اشمزاز خاص لمقتل أحد الفيلة . وقد استنكرت الفلسفة الإغريقية هذه
الألعاب ولم تتردد في الطعن عليها ، وذهبت أرواح اثنين من الكليبيين
ومسيحي واحد ضحية المحتلد^(١) في أوقات مختلفة فقصوا نحبهم وهم يجأرون
بالاحتجاج عليها وذلك قبل أن يتقرر إلغاؤها .

(١) المحتلد (Arena) : الجزء الأوسط المكشوف للعيان من الملعب المدرج الروماني
(Amphitheatre) حيث كان يصطع المجدلون (Gladiators) . (المترجم)

الفصل السادس العشرون

من تيبيريوس جراكوس إلى الإمبراطور المؤله في روما

- ١ - منهج الوقوف في سبيل الرجل العادى . ٢ - المالية في الدولة الرومانية .
- ٣ - آخر العهد بالسياسة الجمهورية . ٤ - حقبة القواد المغامرين .
- ٥ - نهاية الجمهورية . ٦ - ظهور الزعيم أو الأمير الحاكم (١)
- ٧ - لماذا فشلت الجمهورية الرومانية ؟

١ - منهج الوقوف في سبيل الرجل العادى

سبق لنا مرتين ، أن شبهنا لك المجتمع الرومانى الذى يتمتع بحكم نفسه بضرب « نياندرتالى » من الدولة « الديمقراطية » العصرية الممدنة ، وهانحن نعود مرة أخرى إلى هذه المقارنة . فن حيث الشكل ، كان الوضعان : وهما المحاولة البدائية العظيمة الأولى في روما ، وضرباتها التى ظهرت فيما بعد حتى عصرنا . هذا ، متشابهين تشابهاً خارقاً للمعتاد ؛ على أنهما يختلفان أحدهما عن الآخر اختلافاً عميقاً من حيث الروح . فإن الحياة الرومانية السياسية والاجتماعية ولا سيما تلك الحياة السياسية والاجتماعية في القرن المحصور بين سقوط قرطاجة وبين قيام قيصر والقيصرية ، ذات مشابهة عامة واضحة جداً بالحياة السياسية والاجتماعية في أقطار كالولايات المتحدة الأمريكية ، أو الإمبراطورية البريطانية اليوم . ويزيد في قوة التشابه ما درج عليه الرومان والمحدثون على السواء من استعمال ألفاظ من أمثال « مجلس السناتو والديمقراطية والبروليتارية » وما يشابهها على درجات من عدم الدقة تتفاوت بين حالة وأخرى . بيد أن كل شيء في الدولة الرومانية

(١) الأصل في معنى كلمة **Princeps** هو الزعيم الأول أو الرئيس المقدم على غيره . ثم اتخذت معنى اصطلاحياً للدلالة على أباطرة الرومان . (المرجم)

الرومانية كان يتسم بما لكل بدائي من سذاجة وخشونة وفجاجة . وكانت نار المظالم أشد تأجيجاً ، والمنازعات أبلغ خشونة وعنفاً . وكان حظ العالم من العرفان ضئيلاً نسبياً ومن الأفكار العامة قليلاً . ولم يشرع الناس في روما في قراءة مؤلفات أرسطو العلمية إلا إبان القرن الأول ق . م . حقاً أن فريرو^(١) (Ferrero) يدعى لقصر الإمام بكتاب السياسة لأرسطو وينسب إليه الحلم بإنشاء «روما بريكلسية» ، وكأنني بفريرو يهيم حين يقول ذلك في غيبوبة من الأحلام الرائعة يرخي فيها لخياله العنان وهذا لعمرى مبعث سعادة كتاب التاريخ وترديهم في الزلل على السواء .

ولقد سبق أن وجهنا الأنظار إلى ما ينهض بين الأحوال الرومانية والعصرية من فروق عميقة بسبب انعدام الصحافة ، وعدم وجود أى تعليم شعبي ولا فكرة التمثيل النيابي في مجلس الأحرار . ولا يبرح عالمنا اليوم بمنأة عن حل مشكلة التمثيل النيابي وعن ابتكار جمعية عمومية تلخص حقاً فكرة المجتمع وإرادته وتبلورها وتعبّر عنها بشكل صادق . إذ لا تنفك انتخاباتنا في جل شأنها سخرية بارعة بالناخب العادي ، الذي يجد نفسه عاجزاً مغلول اليدين حيال التنظيمات الحزبية التي تحيل حريته في اختيار ممثليه إلى عملية اختيار لأقل المأجورين السياسيين المرشحين أمامه سماجة وأهونهما ضرراً . ومع ذلك كله فإن صوته يعتبر بالمقايضة إلى صوت أى مواطن روماني عادي ، أداة فعالة ذات أثر . ومن عجب أن الكثرة الغفيرة من كتب التاريخ التي تعالج هذا العصر من التاريخ الروماني تتحدث عن « حزب الأحرار » وعن أصوات الشعب وما إلى ذلك من عبارات ، كأنما كانت تلك الأشياء عند ذلك حقائق واقعة كما هي اليوم . على أن أعضاء السناتو وسياسي روما عملوا على ألا يكون لمثل هذه الأوضاع أى وجود كحقائق خالصة صحيحة

(١) في كتابه : « عظمة روما وانحلالها » Greatness & Decline of Rome ، الكتاب

الأول - الفصل الحادي عشر .

التكوين . لذا فإن هذه العبارات العصرية تقتادنا إلى أبلغ الضلال ما لم نحددها ببالغ العناية .

ولقد وصفنا لك من قبل اجتماعات مجلس الأحرار ؛ بيد أن ذلك المجلس القبيح الذى كان يزج بالرومان فى أماكن أشبه بحظائر الأغنام لا يصور لنا مبلغ ما كان يجرى فى روما من العبث بالتمثيل الشعبى بتقسيم البلاد تقسيماً يكفل الأغلبية لأحد الأحزاب . فكلما منحت طائفة جديدة حقوق المواطنة فى إيطاليا ، لحأ بعض القوم إلى محكم الألاعيب ، وبادر البعض الآخر إلى ألاعيب أخرى متقنة مضادة لتلك ، هذه ترمى إلى تدوين المصوتين الجدد فى أقل أو أكثر عدد ممكن من « القبائل » الثلاثين القديمة ، وتلك تنزع إلى إدراجهم فى أقل ما يمكن من القبائل الجديدة . وإذ أن الأصوات كانت تؤخذ بعدد القبائل ، فمن الحلى أنه مهما بلغ عدد الأفراد الجدد الذين يضافون فلن يمكن أن يعد رأيهم إلا صوتاً قليلاً واحداً إن جمعوا كلهم فى قبيلة واحدة . وكذلك يكون الحال لو أنهم حشدوا فى بضع قبائل قليلة فقط سواء منها الجديد أو القديم .

ولو أنهم دونوا - من الناحية الأخرى - فى عدد عظيم جداً من القبائل ، فربما كان تأثيرهم فى أية قبيلة خاصة غير جسيم ، وهنا يقوم نوع العمل الذى يستهوى ويجتذب إلى غمرته كل نذل مخاتل من أنذال السياسة . وكان من المستطاع فى بعض الأحيان أن تُستصدر من المجلس القبلى (Comitita Tributa) قرارات مناقضة للشعور العام تماماً . وكما سبق أن لاحظنا كانت الكثرة العظمى من الأفراد الأحرار فى إيطاليا معطلة حقوقها الانتخابية أيضاً بسبب بُعد الشقة . وقد حدث قرابة منتصف مدة الحروب القرطاجية (الهونية) أن ارتفع عدد الناخبين حتى تجاوز ٣٠٠,٠٠٠ مواطن . وفى حوالى ١٠٠ ق. م . ، كان هناك أكثر من ٩٠٠,٠٠٠ منهم ، ولكن كان تصويت مجلس الأحرار فى واقع الأمر قاصراً على بضع

عشرات قليلة من الألوف تقيم في روما وبالقرب منها معظمهم رجال من طراز وضيع . وفوق هذا كان النახبون الرومان « منظمين » تنظيمًا محكمًا يجعل ما اشتهرت به الإدارة المركزية للحزب الديمقراطي في نيويورك من فساد الأداة الانتخابية ، يبدو ساذجاً شريفاً بالقياس إليهم . فإنهم كانوا ينتسبون إلى أندية (collegia sodalicia) تستر في العادة وراء بعض مدعيات دينية أنيقة . وكان السياسى الناشئ - وهو يشق طريقه نحو المناصب - يذهب بادئ بدء إلى المراهين ، ثم يتقلب بالمال المقترض إلى هذه النوادي . فإذا أثارت مسألة من المسائل اهتمام الأفراد الأحرار في غير روما إلى حد أن يهرعوا إلى المدينة حاشدين ، كان في الإمكان دائماً تأجيل التصويت بإعلان عدم مواعمة النذر . فإن حضروا إلى المدينة غير مسلحين ، كان من المستطاع إرهابهم . وإن أحضروا معهم أسلحتهم ، علت الصيحة بأن هناك مؤامرة لقلب الجمهورية ؛ وعند ذلك تعد العدة لإعمال الذبح فيهم .

وليس هناك من مزية أن كل إيطاليا وكل الإمبراطورية كانت جياشة بالسخط والقلق والتدمير طوال القرن الذى عقب تدمير قرطاجة . وكان عدد قليل من الرجال قد أخذ يغتنى غنى فاحشاً . ووجدت غالبية الناس نفسها غارقة في أحاييل عجيبة من الأسعار غير الثابتة والأسواق المتقلبة والديون الباهظة . ومع هذا لم تكن هناك قط أية وسيلة للإعرا ب عن التدمير العام وإزالة أسبابه . ولم يسجل لنا التاريخ محاولة واحدة لجعل مجلس الأحرار أداة عامة قوية ذات أثر فعال . ومن دون المظاهر السطحية للشئون العامة ، كان جبار صامت هو الرأى العام والإرادة العامة يكافح جاهداً ، وكان يندل في بعض الأحيان مجهوداً سياسياً عظيماً واندفاعاً إلى التصويت وما إلى ذلك ، أو يخوض نغمار دور من أدوار العنف الفعلى . وطالما لم يبد من الناس شيء من مظاهر العنف الفعلى ، كان رجال السناتو والماليون يواصلون سياستهم الضارة المدمرة . ولم يكن هناك إلا الإخافة الشديدة سبيلا يمنع به الشعب

تلك المناسر الحاكمة أو الأحزاب من انتهاج سياستها الشنعاء وبرغمها أن
تدعن للمصلحة العامة .

ولم يكن المجلس القَبَلَى هو السبيل الحق الذى يعبر به الشعب فى إيطاليا
آنذاك عن رغباته تعبيراً صادقاً ، بل كانت الوسيلة إلى ذلك هى الإضراب
والعصيان ، وهى أصلح الطرق وألزمها لكل الشعوب التى تمنى بالغش
أو الظلم والقمع . ولقد رأينا فى زماننا هذا فى كثير من دول أوروبا ما اعترى
الحكومة البرلمانية من نقص فى هيبتها ، ومن لجوء الجماهير إلى الطرق غير
الدستورية لنفس هذا السبب عينه ، أعنى جنوح بعض السياسيين إلى التلاعب
بالأداة الانتخابية وحرمان طائفة معينة من الناس من حق الانتخاب ، حتى
يُدفع المجتمع إلى الانفجار دفعا .

على أن السكان المتدمرين يحتاجون فى عصيانهم إلى زعيم يتزعمهم .
ومن ثم فإن تاريخ روما السياسى فى القرن الختامى للنظام الجمهورى الرومانى ،
إنما يدور حول زعماء ثورات ، وآخرين يناهضون الثورة . وواضح أن
معظم الأولين مغامرون لا شرف ولا ضمير لهم ممن يحاولون الإفادة من
الضرورات الملحة والتعاسة الفاشية بين الناس فى رفع شأن أنفسهم .
ويظهر الكثيرون من مؤرخى تلك الحقبة ميلا إلى التحزب ، فهم إما
أرستقراطيون فى نزعاتهم أو ديمقراطيون متطرفون . ولكن الواقع أن أحداً
من الطرفين المشتبكين فى هذه المنازعات الدقيقة المعقدة التركيب ليس له
تاريخ يشهد له بسمو الغايات أو نقاء اليدى . فإن مجلس السناتو والفرسان
الأغنياء كانوا ذوى نفوس خسيصة شرهة معادية للجمهور المسكين محترقة
له . وكان العامة جهلة لا يستقر لهم حال ، يعادلون الأولين فى الشره على
أقل تقدير ويتلأأ اسم أسرة سكيبو بالمقارنة إلى غيرها فى كل هذا السجل
بوصفها مجموعة من السادة الشرفاء . وربما جاز لنا أن نحسن الظن قليلا
بدوافع هذا الشخص أو ذاك من رجال ذلك العصر فنبتسط عليه شيئاً من المزية

الحسنة التي يتيحها الشك ، شأننا مع تيريوس جراكوس مثلاً . أما الباقون فهم قوم لا يتبدى لنا منهم إلا ما هم عليه من الدهاء والمكر والمدى البالغ الذي بلغوه من الخبث والبراعة في المنازعات ، ومقدار الذكاء في الادعاء ومبلغ ما كان يعوزهم من الحكمة ورشاقة الروح . ولست أجدهم عليهم في هذا المقام تعليقاً أبلغ من قول بعضهم وأظنه السير هارى جونستون حين وصف الإنسان النياندرتالي بقوله : « هو مخلوق مضطرب المشية أشعر وحشى وإن كان فيما يرجح شديد المكر المنبعث من مخ كبير وراءه » .

ولا يسعنا إلا أن نستعمل إلى يومنا هذا ألفاظاً مشابهة لهذه في وصف روح رجل السياسة . فما أحوج رجل الدولة أن يطرد السياسى من عرينه ويسلبه أكوام أسلحته . وما أحوج التاريخ أن يصبح سجلاً للكرامة الإنسانية !!!

٢ - المالية في الدولة الرومانية

هناك ناحية أخرى كان فيها النظام الرومانى صورة بدائية وتسلفاً فجيجاً . نظامنا ، ومختلفاً عن كل ما تأملناه من النظم السياسية السابقة ، ذلك أنه كان نظاماً يستخدم طريقة الائتمان والدفع نقداً . ولم تكن العملة عرفت في العالم إلا قبل ذلك بقرون قليلة ليس غير . بيد أن استعمالها كان آخذاً في النمو ؛ لأنها كانت تزود الناس بأداة سيالة سهلة تعينهم على ما يقومون به من أسباب التجارة والمشروعات ، وباتت تحدث في الأحوال الاقتصادية تغييراً عميقاً . وشرع رجل المال وفائدة رأس المال يلعبان في روما الجمهورية دوراً بارزاً بآدى الشبه بالأدوار التي يلعبانها في الوقت الحاضر .

ولقد أسلفنا إليك فيما كتبناه عن هيرودوت ، أن من أوائل آثار النقود أن أتاحت من حرية الحركة والفراغ ، ما مكن عدداً من الناس لم يكونوا

ليستطيعوا من دونها أن يستمتعوا بهاتين الميزتين ، وهنا تقوم القيمة الخاصة للنقود لدى الجنس البشرى . فبدلاً من أن يدفع أجر العامل أو المساعد عيناً وبطريقة تغل استمتاعه قدر ما تقيده في عمله ، تركه النقود حراً في أن يفعل ما يشاء ، وتدع أمامه مجال الاختيار واسعاً للحصول على ما يشاء من منافع يستعين بها ومن راحة يستجم بها ومن لذات يستمتع بها . وهو قد يستهلك نقوده بتناولها طعاماً أو احتسائها شراباً أو يعطيها لمعبد من المعابد ، أو ينفقها في تعلم شيء أو يدخرها لمناسبة متوقعة . ذلك فضل النقود ونقطة الخير فيها وهو جرية قابليتها للتحويل وتداولها . بيد أن الحرية التي تمنحها النقود للرجل الفقير لا تعد شيئاً بالموازنة إلى الحرية التي منحها للثرى . فإن الأثرياء قد كفوا بفضل النقود عن أن يكونوا مرتبطين بالأرض والمنازل والخازن والقطعان والرعائل . وصاروا يستطيعون أن يغيروا طبيعة ممتلكاتهم وموضعها بحرية لم يسمع الناس بمثلها من قبل . وفي القرنين الثالث والثاني ق. م. كان ما ترى من إطلاق سراح الثروة وفكائها من الأغلال قد أخذاً يؤثران في الحياة الاقتصادية العامة للعالم الرومانى والمهلتن (المصطبغ بالصبغة الهلينية) ، فشرع الناس يشترون الأرض وما إليها لا ابتغاء النفع الذى يفيدونه منها ، بل لبيعها ثانية بشيء من الربح . وصار الناس يقرضون ليشترى ، وتطورت المضاربات . وكان هناك لا محالة رجال مصارف في بابل عام ١٠٠٠ ق. م. ، بيد أنهم كانوا يقرضون في نطاق يتسم بالضيق والحمود إلى أبعد حد قضباناً من المعدن ومخزونات من السلع . فقد كان ذلك العالم العتيق عالم مقايضة يجرى فيه الدفع عيناً ، وكان لهذا السبب يسيراً بطيئاً بل وأكثر اتزاناً وثباتاً . وعلى تلك الحالة ظلت مملكة الصين الهائلة حتى الزمن الحاضر تقريباً .

وكانت المدن الكبيرة قبل روما مدناً تجارية وصناعية . وعلى هذه الشاكلة كانت كورنثة وقرطاجة وسيراكوزة . بيد أن روما لم تنتج قط

سكاناً صناعيين وفيرى العدد ولم تنافس مخازنها قط مخازن الإسكندرية . وكانت ميناء أوستيا على صغرها تفي على الدوام بكل مطالبها . وإنما كانت روما عاصمة سياسية ومالية . وكانت من هذه الناحية الأخيرة على الأقل نوعاً جديداً من المدن . إذ كانت تستورد الأرباح والخزبات ، ولا يخرج منها مقابل ذلك إلا أقل القليل . وكانت أرصفة ميناء أوستيا مشغولة بنوع خاص بتفريغ قمح صقلية وإفريقيا والأسلاب من العالم أجمع .

وقد جُنَّ جنون الخيال الروماني بعد سقوط قرطاجة . بما سنع له من فرص الإمكانات المالية التي لم يعرف الناس لها حتى ذلك الحين نظيراً . إذ أن الصدفة أظهرت الجنس البشري على النقود كما أظهرته على معظم مخترعاته الأخرى . وكان ما يزال لزاماً على الناس أن يطوروا علم النقد وأصوله الأخلاقية ، كما لا يزال عليهم اليوم أن يبلغوا بهما مرتبة الكمال . وإن المرء ليرى تلك الأداة الصغيرة (النقود) وهي « ترسي جذورها » فيما سطر من ترجمة كاتو الرقيب وفيما تواتر إلينا من كتاباته . ذلك أنه كان في مستهل حياته شديد الورع مرير العداوة للربا ؛ غير أنه قضى ما تلا ذلك من أيام حياته في استنباط أبرع الخطط وأسلمها عاقبة للربا .

ولأنك ل ترى الناس على مر هذا القرن الممتع العجيب من عصور التاريخ الروماني يتساءلون رجلاً بعد رجل « ماذا جرى لروما ؟ » وتسمع عن ذلك أجوبة متنوعة : إنه الانحطاط في الدين — أو التدهور عن مستوى فضائل السلف الأول من الرومان — أو إنها تلك « السموم العقلية » الإغريقية ، وما إلى ذلك من إجابات ! ! . ونحن الذين ننظر إلى المسألة وأمامنا — بتراحي الدهور — أفق رحيب ، نستطيع أن نحكم أن ما حاق بروما من التوازل إنما جلبه عليها « المال أو النقد » ، وما أتاحه ذلك المال من حريات جديدة وفرص سانحة . وقد أثر طوفان النقود في الرومان فهموا على متنه سابحين ، ومادت الأرض الثابتة من تحت أقدامهم . فلن كل إنسان في

الدولة أخذ يقبض على النقود بكتلتا يديه ، فاحتازتها الغالبية بالوسيلة البسيطة وسيلة الاستدانة . وما كان امتداد الإمبراطورية شرقاً في معظم أمره إلا تصيداً للكنوز التي تحتويها الحجرات الحصينة والمعابد ، وذلك ابتغاء مسامرة تلهف الناس إلى تلك الطلبة الحديدية . وأصبحت طبقة الفوارس على الأخص هي صاحبة القوة المالية . وكان كل فرد يزيد في ممتلكاته ، وكان الفلاحون يهجرون القمح والماشية ، إذ يقترون الأموال ويشترون الرقيق ويدأون في زراعة الزيتون والكروم على نطاق واسع وإنتاج وفير .

كانت النقود حدثاً صغير السن في خبرة البشر وكانت ضارية متوحشة . فلم يكن أحد قد استطاع بعد أن يكبح جماحها ، وكانت تتأرجح تأرجحاً عظيمًا . فهي آونة وفيرة وآونة نادرة . وكان الناس يدبرون الخطط الماكرة الفجة لاصطيادها وتضييق الخناق عليها واكتنازها ، وكانوا يعمدون إلى رفع الأسعار بإطلاق المعادن المكتنزة . وأخذت طائفة صغيرة من أشد الناس دهاءً تثرى ثراءً فاحشاً . وكان الكثيرون من النبلاء (البطارقة) قد أخذ الفقر يعرضهم وأخذ الغيظ بمجامع نفوسهم فلم يعودوا يستمسكون بمبدأ ولا ضمير . وكان من بين أفراد الطبقة الوسطى كثيرون تمتلئ قلوبهم بحرارة الأمل ، وآخرون توفروا على الخطار والمغامرة ، وآخرون قد شاعت خيبة الآمال في نفوسهم . فأما من نزعته منهم أملاكهم وهم بجمهرة نامية متزايدة فقد تدسس إليهم ذلك الشعور المبهم المربك الذي يفقد المرء معه كل أمل ويحس بأنه أصبح مغلوباً على أمره وأن الكوارث تدهمه بغير ما علة ظاهرة ، وهي الحالة التي تمهد السبيل لكل الحركات الثورية العظيمة .

٣ - آخر العهد بالسياسة الجمهورية

كان أول زعيم بارز التجأ إلى الشعور الثورى المتجمع في إيطاليا هو تيبريوس جراكوس (Tiberius Gracchus) وهو يبدو أقرب رجال ذلك

العصر إلى النزاهة ، لا نستثنى منهم أحداً إلا سكيبيو الإفريقي الأسن . كان تيربوس جراكوس في مبدأ الأمر مصلحاً معتدلاً من طراز يكاد يكون رجعيّاً . وكان شديد الرغبة في أن يعيد إلى طبقة صغار المزارعين أملاكهم ، لاعتقاده الراسخ بأن تلك الطبقة هي العمود الفقري للجيش . وقد وقرت في نفسه خبرته العسكرية في أسبانيا قبل تدمير قرطاجة وبعده ، ما أصاب الكتائب الرومانية من انحطاط في كفاءتها . فكان تيربوس بذلك أحد من قد نسيمهم في هذه الأيام « دعاة العودة إلى الريف » . ولم يكن يدرك — مثله في ذلك مثل الكثيرين من الناس في أيامنا هذه — أن نقل السكان من الأرض إلى حضر المدينة أيسر كثيراً من إعادتهم إلى الأشغال الرتيبة في الحياة الزراعية المضنية البسيطة . فأراد أن يبعث القوانين الليسينية ، التي سنت عند ما بنى كاميلوس معبده المسمى معبد الوفاق منذ نحو قرنين ونصف من الزمان (راجع الفصل الخامس والعشرين القسم ٢) ، مع قصر أثر تلك القوانين على تجزئة المزارع العظيمة والحد من استخدام الرقيق في العمل .

ولطالما بُعثت هاته القوانين الليسينية مراراً وتكراراً ، ثم أهملت مراراً وتكراراً وعفّي عليها النسيان . ولم يحدث إلا عند ما اعترض كبار ملاك الأراضي في مجلس السناتو على ذلك المقترح — أن تحول تيربوس جراكوس إلى الشعب وشرع يحدث اضطراباً عنيفاً مطالباً بقيام حكومة شعبية . فأنشأ لجنة للبحث في حق الملاك كافة في ملكية الأراضي . وبينما تيربوس في أوج نشاطه حدثت حادثة من أشد حوادث التاريخ خرقاً للمألوف . ذلك أن أتالوس ملك برجامة ذلك القطر الغني في آسيا الصغرى مات (١٣٣ ق.م.) موصياً بمملكته للشعب الروماني .

ومن العسير علينا أن نفهم السر في تلك المنحة . فإن برجامة كانت قطراً متحالفاً مع روما ، وبذلك أصبحت في مأمن من الاعتداء نوعاً ما .

وكانت النتيجة الطبيعية لمثل هاته الوصية هي إثارة جشع مناسر مجلس السناتو إلى عنيف التخاطف والتدافع وإضرارها نار النزاع بينهم وبين الشعب على مغنم تلك القنيصة الحديدية . والواقع أن أتالوس نزل عن مملكته لتهبها أيدي الناهبين . وكان بتلك البلاد — لا جرم — كثير من رجال الأعمال الإيطاليين الذين استوطنوها واستقروا بها ، وحزب قوى من الأهالي الأصليين ذوى اليسار لهم علاقة وثيقة بروما . وكان الانضمام إلى النظام الرومانى أمراً مقبولا لديهم ولا مرأ . ويشهد يوسفوس^(١) بوجود مثل هاته الرغبة في التبعية لروما والانضمام إليها لدى أغنياء سوريا . وهي رغبة كانت على غير هوى من كل من الملك والشعب فيها . وهذه الوصية التي تهب مملكة رجامة لروما إن كانت مدهشة في حد ذاتها ، فقد كانت لها إلى ذلك نتيجة أدهش منها كثيراً وهي أنها أصبحت قدوة تحتذيها أقطار أخرى . ففي (٩٦ ق.م.) وهب بطليموس أبيون (Ptolemy Apon) بلاد برقة في شمال أفريقيا للشعب الرومانى . وفي (٨١ ق.م.) اتبع الإسكندر الثانى ملك مصر نفس الطريقة فأوصى بمصر وهي تراث أكبر من أن تتحمله شجاعة أعضاء مجلس السناتو إن لم يكن أكبر من أن تستسيغه أفواههم ، فرفضوا قبول هذه الهبة . وفي (٧٤ ق.م.) أوصى نيقوميديس ملك بيشنيا ببلاده بعد وفاته لروما . ولن نزيدك في هذا المقام حديثاً عن هذه الوصايا الأخيرة الشاذة . ومن هنا يتضح عظم الفرصة التي أتاحتها هبة أتالوس لثيبريوس جراكوس فشرع من فوره يتهم الأثرياء بالشره ، وألح في طلب إصدار المراسيم بإعطاء كنوز أتالوس للشعب عامة . واقترح أن تستخدم هذه الثروة الحديدية في إمداد الناس بالبذور والماشية والأدوات الزراعية حتى يعودوا إلى المقام بالريف والاستقرار في أراضيهم .

(١) يوسفوس (Josephus) مؤرخ يهودى عاصر الإمبراطور فسبازيان ، ولد في اورشليم ٣٧ ميلادية وتوفى في ١٠٠ م . وأهم مؤلفاته كتاب « تاريخ اليهود القديم » في عشرين جزءاً وهو يسرد تاريخهم منذ بدء الخليقة حتى عام ٦٦ م . (المترجم)

على أن حركته سرعان ما اشتبكت في أحابيل النظام الانتخابي الروماني المعقدة . وذلك أن كل الحركات الشعبية إن لم يكن لها واقٍ من نظام انتخابي بسيط قويم ، فلأمناس لها في كل العصور من أن تصاب بالاضطراب والاختلال ، ويمسها مما يخالطها من المعقدات الدستورية مس من الحنون ثم توشك الضرورة أن تؤدي بها إلى سفك الدماء . وكان من اللازم لتبريوس جراكوس - إن شاء لعمله دوماً - أن يظل في وظيفة التربيون ، ولم يكن القانون يبيح له أن يصبح تريبوناً مرتين متعاقبتين . ولذا تجاوز حدود القانون ، وأخذ يطالب بأن يعين للمرة الثانية في وظيفة التربيون . وحضر الفلاحون الذين جاءوا من الريف ليعطوه أصواتهم مسلحين . فتعالت في مجلس السناتو الصيحات القائلة بأنه يرى إلى جعل نفسه طاغية ، وهي تلك الصيحات التي قضت منذ زمن طويل على مايلبوس ومانليوس ، فذهب أنصار « القانون والنظام » إلى الكابيتول هيثة رسمية يصحبهم زعانف من الأتباع مسلحين بالعصى والمراوات . وحدث بين الطرفين نزاع ، أو قل مذبح في الثوار ، قتل فيها ما يقرب من ثلاثمائة شخص ، وضرب تبريوس جراكوس حتى قضى نحبه ، ضربه اثنان من أعضاء مجلس السناتو بحطام مقعد مكسور .

وعند ذلك حاول أعضاء السناتو أن يقوموا بثورة مضادة ، وأهدروا دماء كثيرين من أتباع تبريوس جراكوس وصادروا أملاكهم . بيد أن الرأي العام كان غاضباً متوعداً بحيث أهملت هذه الحركة ، واضطر سكيبيو ناسيكا الذي كان له ضلع في مقتل تبريوس أن يرحل إلى الخارج انقاء للشر وإن كان يشغل وظيفة الحبر الأعظم (Pontifex maximus) . وكان لزاماً عليه أن يبقى في روما من أجل تقديم القرابين العامة ، وهي التي كانت قوام واجبات منصبه .

وبعد ذلك بقليل ثارت نفس سكيبيو الأفريقي الأصغر لما كان يشهده

في إيطاليا من دلائل القلق فاقترح منح كل إيطالي الحرية المدنية . غير أنه مات موت الفجاءة قبل أن يخرج اقتراحه إلى حيز التنفيذ .

ثم أعقبه كايوس جراكوس (Caius Gracchus) وسيرته مبهمة وهو أخو تيبريوس ، فاتبع « سياسة » ملتوية ، لا تزال تحير عقول المؤرخين . فإنه زاد في أثقال الضرائب الملقاة على عاتق الولايات ، ويظن أنه كان يرى بذلك إلى إثارة المالين الحديثين أعنى الفرسان (Equites) على أصحاب الأراضي من أعضاء السناتو . وأعطى الأولين التزام جباية الضرائب في ولاية آسيا الموهوبة للدولة حديثاً ، وأدهى من ذلك وأمر أنه أعطاهم حق الرقابة على المحاكم الخاصة المعينة لمنع الابتزاز . ثم شرع يقوم بأعمال عامة هائلة وبخاصة لإنشاء الطرق الجديدة ، واتهم بأنه يستغل العقود لخدمة مآربه السياسية . ثم بعث من جديد الاقتراح الخاص بمنح إيطاليا كلها الحقوق المدنية . وزاد في مقدار القمح الرخيص الموزع إعانة للمواطنين الرومان ولسنا بمستطيعين محاولة تفسير خططه ، ولا نحن بقاضين فيه برأى . ولكن لا يخالفنا أدنى شك أن سياسته قد أساءت إلى الجماعات التي كانت تتحكم في مجلس السناتو . فذبحه أنصار « القانون والنظام » ومعه قرابة ثلاثة آلاف من أتباعه في شوارع روما (١٢١ ق. م .) . وحل رأسه المفصول عن جسده إلى السناتو على رأس حربة .

(ويقول بلوتارك : إن القاتل منح جائزة تعادل وزن الرأس ذهباً مقابل ما أحرز من أمارات النصر ؛ وأن هذا السفاك قد تصرف أليق التصرفات وأجدرها بنصراء الشرف والنزاهة « وجلائل الأعمال » فلأ تجويف الجسممة بالرصاص وهي في طريقها إلى الميزان ! ! .)

وعلى الرغم من هذه التدابير السريعة الحازمة لم تكتب الأقدار للسناتو أن يستظل لواء السلام وينعم بمزايا التحكم في موارد الإمبراطورية زماناً طويلاً ، فلم تنقضي عشر سنوات حتى ثار القوم ثانية .

ففي (١١٨ ق. م.) تملك عرش نوميديا وهي المملكة شبه الهمجية التي نشأت في إفريقيا الشمالية على أنقاض الدولة القرطاجية الممدنة ، ملك قدير اسمه يوجورثا (Jugurtha) ، سلفت له الخدمة العسكرية مع الجيوش الرومانية في أسبانيا ، فكان أعرف الناس بالخلق الروماني . وقد سببت بعض تصرفاته تدخل روما العسكرى . على أن الرومان وجدوا أن قوتهم العسكرية في ظل سناتو مكون من المالين وملوك الأراضي مختلفة جد الاختلاف عما كانت عليه حتى في أيام سكيبيو الإفريقي الأصغر . « واشترى يوجورثا ذمم المندوبين المرسلين لمراقبته وأعضاء السناتو الذين عهد إليهم بمحاکمتهم ، والقواد أصحاب الإمرة على الجيوش المسيطرة عليه . »^(١) وهناك مثل روماني هذا نصه : المال لا يأسن « Pecunia non olet » . ولكنه مثل خاطئ ذلك أن نقود يوجورثا أسنّت وفاحت رائحتها حتى في روما . فثار ثأر القوم ؛ وفي أثناء موجة الغضب العام رُفع إلى منصب القنصلية جندي مقتدر وضيع الأصل اسمه ماريوس (١٠٧ ق. م.) . ولم يحاول ماريوس أن ينسج على منوال آل جراكوس بأن يعيد للريف طبقة صغار الملاك الذين هم عماد الجيش وعموده الفقري . كان جندياً محترفاً على درجة عالية من الكفاية وميل إلى سلوك أقصر السبل . فاكتفى بأن جمع الجنود من بين طبقات الفقراء ، سواء أكانوا من أهل الريف أم من الحضر وأجزل لهم العطاء ونظمهم تنظيمًا كاملاً . ثم أنهى في (١٠٦ ق. م.) حرب السنوات السبع مع يوجورثا بإحضاره ذلك الزعيم إلى روما مكبلاً السلاسل والأغلال . ولم يخطر ببال إنسان أن ماريوس قد قام أيضاً بمحض الصدفة بإنشاء جيش محترف ليس له من مصلحة تجمع شتاته إلا أعطياته . ثم أقام في وظيفة القنصلية سنوات عدة لا يبالي أكان بقاؤه فيها قانونياً أم غير قانوني ، وفي (١٠٢ ، ١٠١ ق. م.) صد حركة

(١) انظر فرير في المرجع السابق .

هجوم خطيرة قام بها الحرمان (الذين يظهرون بذلك في تاريخنا لأول مرة) ، والذين كانوا يغيرون محترقين بلاد الغال في طريقهم إلى إيطاليا . فأحرز نصرين ، أحدهما على الأرض الإيطالية . فهلل له الناس وأكبروه كمنقذ لوطنه ، وشبهوه بكاميلوس (١٠٠ ق.م.) .

ولطالما سخرت التورات الاجتماعية في ذلك الزمان من تشبيهه بكاميلوس ، وقد اجتنى السناتو أكبر الفوائد بما تم من النشاط الكبير في الشؤون الخارجية ومن الكفاية العسكرية المتزايدة التي وضع ماريوس أسسها . بيد أن التذمر القبيح المرير الذي يملأ نفس الجمهور كان ما يزال يبحث عن منقذ فعال ينفّس عنه ما به . وازداد الأغنياء غنى والفقراء فقراً . وكان من المحال مواصلة استخدام الأحابيل السياسية إلى الأبد في القضاء على نتائج هذه الحال . فان الشعب الإيطالي كان ما يزال محروماً من حقوقه المدنية . وقد اغتيل اثنان من الزعماء الديمقراطيين المتطرفين . هما ساتيرنينوس (Saturninus) وجلوكيا (Glaucia) . بيد أن هذا العلاج المألوف الذي اعتاده مجلس السناتو بآء بالفشل في تهدئة الشعب في هذا الظرف . وفي (٩٢ ق.م.) حاول موظف أرستقراطي هو روتيلوس روفوس أن يضع حداً لابتزازات المالبين في آسيا الصغرى ، فاتهم بالفساد والرشوة — وكان ذلك اتهاماً مفتعلاً لم ينخدع له أحد — ثم قضى بإدائته . وفي (٩١ ق.م.) اغتيل ليثيوس دروسوس (Livius Drusus) وهو تريبيون للشعب حديث الانتخاب ، حاول أن يستغل محاكمة روتيلوس روفوس ، واقترح منح الحقوق المدنية للإيطاليين عامة . ولم يكن ظهوره نذيراً فحسب بسن قانون آخر للأراضي بل ومؤذناً بإلغاء عام للديون . ومع ذلك فعلى الرغم من هذه الشدة التي كان يبدوها رجال السناتو المرابون ومتصيدو الأراضي ومحتكرو الأسواق ، لم ين الجياع والقلقون عن ملاحقتهم بالتمرد والعصيان . وكان مقتل دروسوس آخر قطرة في كأس العامة ، فإن إيطاليا اضطربت بنار عصيان مستبثس .

ونشبت في أعقاب ذلك حرب مدنية مريعة دامت سنتين ، هي الحرب الأهلية ، وهي صراع بين فكرتين إحداهما تنادى باتحاد إيطاليا والأخرى تقول بحكم السناتو الروماني وسيادته . ولم تكن تلك الحرب حرباً « اجتماعية » بالمعنى العصري ، وإنما هي حرب بين روما وأحلافها (Socii)^(٢) من الإيطاليين . « وطفق القواد الرومان المدربون على تقاليد الحروب الاستعمارية يذرعون إيطاليا بكل قسوة طولاً وعرضاً : يحرقون المزارع وينهبون المدن ويحملون الرجال والنساء والأطفال أنسرى لكى يبيعوهم في السوق علناً أو يسخروهم في العمل جماعات في مزارعهم الكبيرة^(٣) » .

وكان يقود جيوش روما ماريوس ومعه قائد أرسقراطي هو سُلَا (Sulla) ، وقد كان يعمل معه في إفريقيا كما كان منافساً لدوداً له ، ومع أن الثوار كابدوا كثيراً مما لاقوا من هزائم وما فقدوا من أسلاب ، فإن واحداً من هذين القائدين لم يستطع وضع حد للحرب . على أنها انتهت بشكل ما (٨٩ ق.م .) بأن سلم السناتو عملياً بفكرة الإصلاح فسلبت الثورة روحها بقبول مطالب الثوار « من ناحية المبدأ » . وما أن تفرق الثوار حتى عاد زعماء السناتو إلى ما ألفوه من تلاعب بالناخبين الجدد قائم على نفس الأساليب التي شرحناها في القسم الأول من هذا الفصل .

وما وافت السنة التالية (٨٨ ق.م .) حتى كانت الجولة القديمة ابتدأت من جديد . وكان يشوبها ويخالطها المؤامرات الشخصية التي يأتمر فيها كل من ماريوس وسُلَا بصاحبه . ولكن الكفاح اتخذ لوناً جديداً . بسبب إصلاحات ماريوس في الجيش ، التي أنشأت طرزاً جديداً من الكتائب المكونة من جند محترفين لا أرض لهم ولا مصلحة في الحياة غير الأعطيات والأسلاب ، ولا شعور عندهم بالولاء إلا نحو قائد موفق . وظهر

(١) Socii ومفردها Socius . هو الحليف . (المترجم)

(٢) فيريرو المصدر نفسه .

ريبون شعبي اسمه سُلْپِيكْيوس (Sulpicius) أخذ يسن بعض قوانين جديدة تنصل بالديون ، بينما راغ القنصلان من العاصفة بإعلان إيقاف الأعمال العامة . ثم جاء الدور المعتاد من اللجوء إلى العنف ، فطرد أتباع سُلْپِيكْيوس القنصلين من سوق المدينة (الفوروم) . وعند ذلك ظهرت القوى الجديدة التي قوامها الجيش الحديد وتقدمت للعمل . فإن مْثْرِيدَاتَس (Mi hridates) ملك بُنْطُش المطبوعة بالطابع الهليني والواقعة على شواطئ البحر الأسود الجنوبية والمتاخمة من الناحية الشرقية بيشنيا ، أخذ يتحوش بروما ويستدرجها إلى الحرب . وكان من بين مشروعات القوانين التي اقترحها سُلْپِيكْيوس قانون يقضى بأن يقود ماريوس الجيوش التي أرسلت على ذلك الملك . وعند ذلك زحف « سُلَّا » على روما بالجيش الذي كان تحت إمرته طوال الحرب الأهلية . ففر ماريوس وسُلْپِيكْيوس ، وابتدأ عصر جديد هو عصر الإعلانات والتصريحات العسكرية الثورية .

ولسنا بمستطيعين أن نبين لك في أى تفصيل كيف جعل سُلَّا من نفسه قائداً للحملة على مْثْرِيدَاتَس ثم رحل عن البلاد ، ولا كيف أن الكتائب الموالية لماريوس قبضت عند ذلك على زمام الحكم ، ولا كيف عاد ماريوس إلى إيطاليا وتشفى من خصومه السياسيين بمذبحة رهيبية ، ثم مات بالحمى بعد أن روى غلته انتقاماً . غير أن هناك تدبيراً واحداً أبرم في أثناء حكم الإرهاب الذي أقامه ماريوس وكان له فضل كبير في تخفيف التوتر الاجتماعي ، ذلك هو إلغاء ثلاثة أرباع الديون المستحقة . ولسنا بمستطيعين أيضاً أن نبين لك كيف أن سُلَّا عقد صلحاً مخزياً مع مْثْرِيدَاتَس (الذي سبق له أن أعمل السيف في مئة ألف إيطالي بآسيا الصغرى) لكي يرجع بكتائبه إلى روما ، ويهزم أنصار ماريوس عند معركة بوابة كولين (Colline Gate) بروما ، وينقض كل ما أبرمه ماريوس من تنظيمات . واستعاد سُلَّا النظام والقانون بأن أهدر دماء أكثر من خمسة آلاف إنسان .

أعدمهم وصادر أملاكهم . وخرب أجزاء كبيرة من إيطاليا فأصبحت قاعاً صفصفاً ، وأعاد إلى السناتو سلطانه ، ونقض كثيراً من القوانين الحديثة العهد ، وإن لم يستطع أن يرجع أعباء الديون الملقاة ، حتى إذا داخله الملل من السياسة وقد جمع ثروة طائلة ، فإنه اعتزل العمل بحوطة جو من الكرامة ، وما لبث أن استسلم لأبشع المملذات . وسرعان ما قضى نحبه ، وقد أكل جسده مرض وبيل مما يسببه الفسوق .

٤ - حقبة القواد المغامرين

ثم يكن ما طرأ على الحياة السياسية في إيطاليا بعد ذلك من السكون هدوءاً قدر ما كان ذهولاً مما استهدفت له على يد ماريوس وسُلاً من ذريع المذابح والمصادرات . ولا يسمح لنا النطاق الذى وضع على أساسه هذا الكتاب بأن نتكلم هاهنا عن كبار المغامرين الذين سرعان ما أخذوا يدبرون خططاً ودسائس يرمون من ورائها إلى إقامة الديكتاتورية في روما معتمدين اعتماداً متزايداً على نصرة الكتائب لهم . وفي (٧٣ ق. م) ذعرت إيطاليا بأجمعها بثورة الأرقاء وبخاصة المجالدين منهم بقيادة مجالد تسالى اسمه سبارتاكوس . كان هرب ومعه سبعون آخرون من « ضبعة » للمجالدين في كاپوا (Capua) . وحدثت فوراً مشابهة لهذه في صقلية . وأصبحت القوات التى تحت إمرة سبارتاكوس عصبة مخلطة تجتمعت حوله من كل حذب وصوب ، وليس بينها من رابط أو فكرة مشتركة إلا فكرة التفرق والعودة إلى الأوطان . ومع ذلك فإنه صمد في جنوب إيطاليا مدة سنتين ، متخذاً من فوهة ركان فيزوف التى كانت خامدة آنذاك خموداً ظاهرياً قلعة طبيعية تحصن بها حيناً من الدهر . وبالرغم من حب الإيطاليين لحفلات المجالدين ، فلمهم كرهوا تحويل كل البلاد إلى مجتلد عام ، وتوصيل سيف المجالدين إلى أبواب المنازل . فلما أن غلب



١١١ - پمبي العظيم

سپارتاكوس وأصحابه على أمرهم آخر
الأمر ، انقلب رعب الرومان منهم إلى
قساوة جنونية ، فصلب ستة آلاف
من أتباعه الذين أسروا - وامتدت
الضحايا الذاوية المرفوعة على الأعواد
مسافة أميال طويلة على طول الطريق
الأيباني .

ولسنا بقادرين هنا أن نسهب
الحديث في لوكولوس (Lucullus) الذي
اجتاح بَنطش وحارب مثيرداتس ،
وجلب شجرة الكريز لتزرع لأول

مرة في أوروبا . ولا كيف استطاع پومبي العظيم (Pompey) أن يغتصب بمهارة
وحذق معظم ما فاز به لوكولوس في أرمينية وراء بَنطش من نصر وهيبة
وسلطان . وتقاعد لوكولوس كما فعل سُلّا فعاش عيش الثراء واليسار
بحوطه جو أكثر لياقة وكرامة من صاحبه حتى انتهى إلى نهاية أشرف
وأكرم . ولسنا كذلك بمفصلين القول في كيف أن يوليوس قيصر حاز في
الغرب الشهرة البالغة بغزوه بلاد الغال وهزيمته القبائل الجرمانية على نهر
الراين ، ثم بتوجيه حملة تأديبية عبر مضيق دوغو إلى بريطانيا . وتزايدت
الكتائب أهمية يوماً بعد يوم بقدر ما تناقصت قيمة السناتو والمجالس في روما .
على أن قضية كراسوس يحيط بها من الفكاهة المرة جو لا نستطيع تلقاءه
أن نغفلها كلية .

كان كراسوس هذا مرابياً عظيماً ومحتكراً كبيراً ، فكان نموذجاً
لطرارز الفرسان بوضعهم الحديد . وهو يعادل من الناحية الاجتماعية رجال
السوق السوداء المستغلين لأسعار المؤن والذخائر في العصر الحديث .
وقد أثرى في أول أمره بأن اشترى أملاك أولئك الذين أهدر سُلّا دماءهم

وصادر أملاكهم . وكانت أول جهوده الحربية في الميدان حملته ضد سبارتاكوس ، فاستطاع آخر الأمر أن يقضى عليه بدفع المبالغ الطائلة وبذل المجهودات الشاقة بعد حملة طويلة الأمد باهظة النفقة . ثم استطاع بعد ذلك أن يتولى القيادة في الشرق نتيجة لمساومات وصفقات معقدة ، ثم تهيأ لمنافسة ما ناله لوكولوس من مجد ، وهو الذى تقدم من برجامة وبيثينيا شرقاً إلى بَنْطش ، كما تأهب لمطاوله مجد يومى الذى كان أتم نهب أرمينية .

ويساعدنا ما حاق به من محن على تبيان الجهل المطبق الذى كان الرومان يسيرون به أمورهم في ذلك الزمان . فإنه عبر نهر الفرات متوقفاً أن يجد في بلاد فارس مملكة مهلنة تشبه بَنْطش^(١) . ولكن حقيقة الأمر كما سبق أن أشرنا هي أن المستودعات الكبرى للشعوب المترحلة التي كانت تمتد من الدانوب عبر روسيا إلى آسيا الوسطى ، أخذت تفيض ثانية في الأراضي المحصورة بين بحر قزوين ونهر السند وهي المنطقة التي غزاها الإسكندر وضمها للنفوذ الهليني . وما لبث كراسوس أن وجد نفسه من جديد أمام « الإسكيديين » ، أمام قبائل سريعة الحركة من الفرسان يقودهم ملك في ثياب ميدية . وكان من لقيهم من « الإسكيديين » شاكلة خاصة تسمى بالبارثيين (Parthians) . ويحتمل أن البارثيين كان يخاطب دماغهم عنصر مغولى (طوراني) ممتزجاً بالسلالة الآرية . ومن غرائب الاتفاق أن حملة كراسوس وراء الفرات تشبه حملة دارا وراء الدانوب شهاً عجيباً . إذ حدث في هذه كما حدث في تلك أن قذف القائد قلداً ثقيلاً بقوة من المشاة ضد راكبة من الفرسان مراوغة خفيفة الحركة . بيد أن كراسوس كان أبطأ من دارا إدراكاً لضرورة الانسحاب ، وكان البارثيون ناشبة يفوقون الإسكيديين الذين لقيهم دارا براعة ومقدرة . ويبدو أنه كان لديهم نوع ما من القذائف الرنانة لها شدة وقوة غير عاديتين ، وتختلف

(١) إن شئت توسعاً في تاريخ هذه المنطقة هي وبلاد الإغريق ومصر وسوريا في تلك الأيام وقبلها بقليل أى بعد الإسكندر فاقراً للمترجم كتاب و . تارن « الحصار الهلينيستية » الألف كتاب ومكتبة الأنجلو .

عن السهم العادى . ويقول الأستاذ ج. ل. مارز (Myres) ، إن هذا القوس كان فيما يرجح هو القوس المركب ، المسمى كذلك لأنه كان مصنوعاً من لوحات عديدة من القرن تبلغ الخمس أو نحو ذلك ، على هيئة زمبركات (سوستات) العربات . وهو يقذف سهماً على السرعة له طنين . وكان هذا هو القوس الذى كانت المغول تستعمله . فهذا القوس المركب — ولم يكن بالطويل — قديم العهد جداً فى الخبرة الإنسانية . فهو قوس أوديسيوس (Odysseus) . وكان لدى الأشوريين على هيئة معدلة . وقد اندثر من بلاد الإغريق ولكنه ظل معروفاً لديهم باسم القوس المغولى . كان قصيراً تمام القصر ، صلباً جداً فى جذبه ، وله خط سير منبسط ومدى طويل عجيب وضجة عظيمة (نقلا عن إشارة هوميروس إلى طنين القوس) . ولكنه زال من البحر المتوسط ، لأن المناخ هناك لا يناسبه ، ولأنه لم تكن هناك حيوانات كافية لتقديم ما يلزم لصنعه من القرون .

وبلغت الحملة أقصى ذروتها فى تلك المذبحة المعروفة باسم معركة كاراي (Carrhae) (٥٣ ق. م.) ، التى استمرت يومين أعمل العدو فيهما الذبح فى الفرق الرومانية وقد أعيها الحر وأنهكها العطش والجوع وأضناها التعب . لقد ظلوا يكدهون فى الرمال الحارة مهاجمين عدواً لا يبرح يروغ منهم ، ثم يدور من خلفهم راكباً ويعمل فيهم بالقسي حتى يمزقهم أشتاتاً . فقتل منهم فى المعركة عشرون ألفاً ، وواصل عشرة آلاف المسير شرقاً بعد أن أخذوا أسرى وأصبحوا أرقاء فى إيران .

وإن أحداً لا يدرى على وجه الدقة ماذا جرى لكراسوس . وهناك قصة ، ربما حبكت لتكون عظة خلقية لنا وربما أوحى بها اشتغاله بالربا تقول : إنه وقع حياً فى أيدي البارثيين ، فقتل بأن صبب فيه الذهب المصهور .

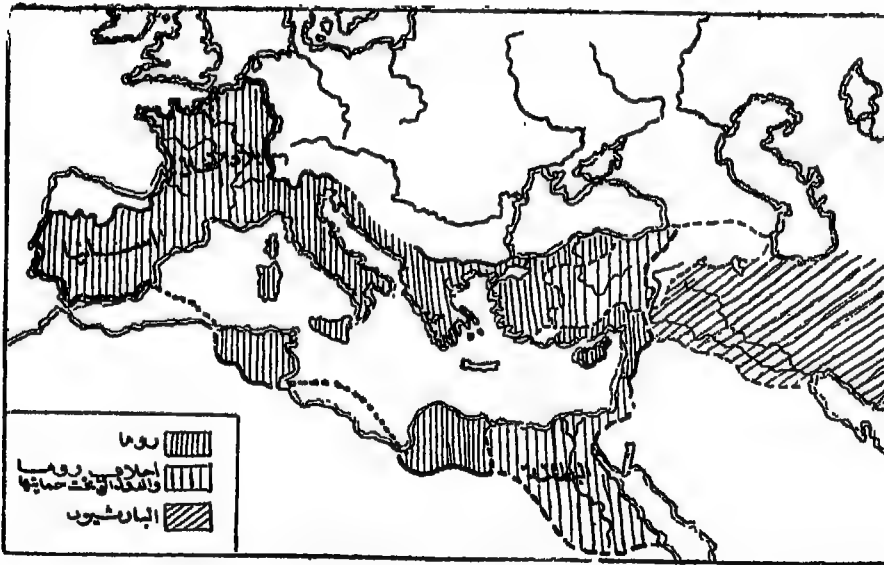
والحق إن لهذه الكارثة دلالة عظيمة الأهمية فى هذا التاريخ العام

للإنسانية . فلإنها تساعد على تذكيرنا ، أنه من الراين إلى الفرات وعلى الأرض الممتدة بينهما ، إلى شمال جبال الألب ونهر الدانوب والبحر الأسود — كانت تمتد بحابة واحدة متصلة من الشعوب المترحلة وشبه المترحلة الذين لم يستطع دهاء روما السياسى والاستعمارى أن يكبح جماحهم وبعث فيهم السكينة وييث المدنية بينهم كما لم تتمكن فنونها العسكرية من إخضاعهم . ولقد استرعينا النظر قبل هذا إلى خريطة تبين كيف رقدت الإمبراطورية البابلية الثانية (وهى الإمبراطورية الكلدانية) ، رقدة الحمل بين ذراعى الدولة الميديّة . وعلى نفس هاته الشاكلة بالضبط ، رقدت الإمبراطورية الرومانية رقاد الحمل بين ذراعى هذا الهلال العظيم من البرابرة النازلين بأوطانهم النائية خارج حدودها . ولم تثبت روما فحسب عجزها التام عن دفع ذلك الهلال المتركب حول كاهلها ، وعن تمثله فى كيائها ، بل لإنها لم تستطع قط أن تنظم طرق المواصلات فى البحر المتوسط وتجعل لها فيه نظام مواصلات مضموناً مأموناً محكماً بين مختلف أجزاء إمبراطوريتها . وكانت روما لا تزال تجهل كل شئ عن قبائل المغول فى شمال شرق آسيا وهم الهون وذوو قرباهم ، ممن دأبت أسرتنا تسمى وهان على صد تيارهم عن الصين بإقامة السور ومطاردتهم بالقوة ، فأخذوا يزحفون غرباً مخالطين البارثيين^(١) والإسكيذيين والتيتوتون ومن إليهم أو دافعين إياهم أمامهم .

ولم يحدث مطلقاً أن نجح الرومان فى توسيع حدود إمبراطوريتهم إلى ما وراء أرض الجزيرة ، ولم تكن قبضتهم على أرض الجزيرة مكيّنة قط . وقبل نهاية عهد الجمهورية أخذت مقدرتهم على التمثل تلك التى كانت فيما سلف سر نجاحهم تزول وتذوى ويحل محلها حال من الاعزال أو العزلة « الوطنية » والشراسة « الوطنية » . وقد نهبت روما آسيا الصغرى ومملكة بابل ، ثم دمرت هما والقاعدة اللازمة للتوسع شرقاً نحو الهند ، تماماً مثلاً

(١) البارثيون : هم سكان بارثيا وهو الاسم الذى كان يطلق قديماً على بلاد خراسان وشمال إيران وعاصمتها إكثيسفون . (المترجم)

دمرت ونهبت قرطاجه ، وبهذا حرمت نفسها من موطن قدم تمتد منه أملاكها في إفريقيا ، وكما فعلت بالضبط في تدميرها كورنثة ، فقطعت بذلك على نفسها طريقاً سهلاً يوصلها إلى قلب بلاد الإغريق . وكثيراً ما يميل كتّاب الغرب الأوروبيون لتأثرهم بما فعلته روما فيما بعد من صبغ بلاد الغال وجنوب بريطانيا بالصبغة الرومانية وبالمدينة فيهما وتعويض أسبانيا عما أنزلته بها في البداية من الإلتلاف والتخريب يسراً ورخاء ، - كثيراً ما يميل هؤلاء الكتّاب إلى التغافل عن أنها وجهت نفوذها في مناطق أخرى أعظم كثيراً تقع إلى الجنوب والشرق ، إلى إضعاف تلك الأراضي المترامية الأطراف المنزعة من يد المدينة الهلنستية وإلى ردها ثانية إلى مرتبة الهمجية .



خريطة سلطان روما حوالي ٥٠ ق. م
(١١٢)

٥ - نهاية الجمهورية

لم يكن لدى سياسيي إيطاليا في القرن الأول قبل الميلاد خرائط لألمانيا والروسيا ولا إفريقيا ولا آسيا الوسطى ، ولم يكن فيهم من وُهب القدر الكافي

من الذكاء لدراستها لو أنها وجدت . ولم تبعث روما في النفوس قط ذلك النوع الدقيق من حب الاستطلاع الذى ساق هانو وملاحى الفرعون نخاو إلى ارتياد سواحل إفريقيا . وعندما حدث في القرن الأول (ق . م) أن وصل مبعوثو أسرة هان إلى الساحل الشرقى لبحر قزوين ، لم يجدوا إلا أقاصيص متناثرة عن مدينة بادت وعفت آثارها . وكانت ذكرى الإسكندر ما تزال باقية في تلك البلاد ، أما روما ، فلم يكن الناس يعرفون عنها إلا أن يوميى وصل إلى شواطئ بحر قزوين الغربية ثم عاد ادراجها وأن كراسوس هلك وقضى نحبه . وكانت روما مشغولة بشؤونها الداخلية . ذلك أن البقية الباقية من طاقة المواطن الرومانى الذهبية بعد الذى ينفقه منها في محاولاته الوصول إلى موفور الثراء والعيش بسلامة الشخص وعافية البدن ، كانت تستنفدها شدة انشغال باله بما يجرى من خطط ومكائد وضربات تكال وضربات أخرى مضادة يقوم بها شتى المغامرين الذين كانوا يتخاطفون إذ ذلك السيادة العليا والسلطان جهاراً .

وقد درج المؤرخون على أن يعالجوا هذه المنازعات باحترام مفرط ، فهم يصورون لنا شخص يوليوس قيصر بصفة خاصة كما لو كان نجماً بلغ في تاريخ الإنسانية ذرا التألق والأهمية . ومع ذلك فإن نظرة تأمل مجردة من الهوى وفاحصة للحقائق المعروفة عنه لا بد أن تُمنى بالفشل التام في تبرير تلك النظرية التى تجعل من قيصر نصف إله . بل إن الإسكندر الأكبر نفسه ، ذلك الغرير الخيِّب لكل ما نيط به من آمال كبار وما تهبأ له من إمكانيات جسام ، قد فخم وعُظم شأنه وأسبلت عليه ثياب رائعة تسرعى إعجاب القراء السطحيين العاجزين عن النقد . وهناك طراز من العلماء يقصر همه - وأقولها صريحة واضحة - على القعود للتقول واختراع سياسات عالمية عجيبة ينحلونها أبرز شخصيات التاريخ بانين ذلك على مبررات أوهن من خيط العنكبوت أو على غير مرر إطلاقاً .

أولئك يخبروننا مثلاً أن الإسكندر كان يزعم فتح قرطاجة وروما ، وكان ينبغي إخضاع الهند إخضاعاً تاماً ، وأنه لم يقض على هذه الخطط سوى وفاته . وكل ما نعرفه على وجه التحقيق هو أنه غزا الإمبراطورية الفارسية . ولم يتجاوز حدودها أبداً إلى مدى بعيد . وأنه يوم كان الاعتقاد سائداً أنه يدبر هذه الخطط الهائلة النبيلة ، كان في حقيقة الأمر يستمرئ أموراً بالغة حد البشاعة والسخرية مثل حزنه على حظيّه هيفايستيون ، ويجعل شغله الشاغل أن يحتسى الخمر حتى يغيب عن وعيه . وعلى هذا النحو ينسب البعض إلى يوليوس قيصر أنه أزمع الإقدام على نفس ذلك الأمر الوحيد الذي لم يكن من المستحيلات والذي كان كفيلاً بإنقاذ الإمبراطورية الرومانية من انهيارها النهائي - وأعني به فتح أوربا فتحاً منظماً حتى بحر البلطيق ونهر الدنبر وطبعها بطابع الحضارة . ويقول بلوتارك ، إنه كان يأمل أن يزحف على ألمانيا مخترقاً بارتيا وإسكيزيا عن طريق شمال بحر قزوين والبحر الأسود

ومع ذلك فإن الحقيقة التي نحن ملزمون أن نوفق بينها وبين ذلك المشروع الحكيم الواسع النطاق تقول بأن قيصر وهو في أوج قوته وقد أصبح رجلاً أصلع وجاوز منتصف العمر وتخطى رشاقة الحب الفتى الحارة ودوافعه الجاحمة - قضى الرده الأكبر من عام بمصر يقيم الولائم ويسلى نفسه ويرفه عنها بتبادل كوؤس الغرام والملاذات مع الملكة المصرية كليوباترة . ثم استصحبها معه بعد ذلك إلى روما ، حيث ضاق الناس ضيقاً مريعاً بسلطانها عليه . وإن وقوعه في حبائل امرأة على هذا النحو ليبين فيه شهوة الشيخ المسن أو عاطفته - إذ أنه كان في الرابعة والخمسين عند ابتداء هذه العلاقة - أكثر مما يظهره في صورة السيد الأمر القاهر للرجال .

ولزام علينا - إبرازاً لحجج نظرية وضع قيصر فوق مصاف البشر وإنزاله منزلة السوبرمان - أن ندخل في تقديرنا ذلك التمثال النصفي لقيصر الموجود في متحف نابولي . وهو يمثل وجهاً ممتازاً سامى المدارك شديد

النبيل في تعبير قسماته ، وفي إمكاننا ان نقرن هذا بالقصة القائلة بأن رأسه كان حتى في يوم مولده ، ذا ضخامة غير عادية ، كما كان ممتاز الشكل . ولكن ليس هناك في الحقيقة دليل مقنع بأن هذا التمثال النصفي الشهير يمثل قيصر فعلا . ومن العسير أن نوفق بين ما يتجلى فيه من صفاء النفس واطمئنان شديد وبين اشتهار قيصر بالدوافع العنيفة وسوء النظام . وهناك تماثيل نصفية أخرى تمثل رجلا مختلفاً وهي تنسب إليه مع أرجحية أعظم .

ولا يخالفنا أقل شك أنه كان في صباه رجلا فاسقاً خليعاً ومسرغاً مبذراً - وتترادف الفضائح حول اسمه أثناء إقامته في بيثينيا التي لجأ إليها فراراً من سلا ، وكان قريباً للخليع الفاجر كلوديوس والمتآمر كاتيلينا ، وليس في سيرة حياته السياسية أى شيء يدل على وجود أى هدف له يعلو أو يبعد عن رغبته في رفع نفسه إلى مرتبة القوة والسلطان وإلى كل ما تيسره القوة من المحب الشخصي والمتعة الذاتية . ولسنا بمحاولين أن نحرك هاهنا عن أساليب حياته والدورات التي ألمت بها . وهو وإن كان ينتمى إلى أسرة عريقة من البطارقة ، فإنه دخل ميدان السياسة بوصفه معبود الشعب وبطله المتألق . فأنفق مبالغ طائلة واستدان ديوناً باهظة ليقم ولائم عامة على أعظم ما يكون السخاء والسرف . ولقد عارض تقاليد سلا واعتز بذكرى ماريوس ، الذي كان زوجاً لخالته . وأقام زماناً يعمل في ألفة ووافق مع كراسوس وپومبي ، ولكن ديب الشقاق دب بينه وبين پومبي بعد وفاة كراسوس .

وما وافت سنة (٤٩٠ ق.م.) حتى كان يقتل مو وپومبي ويتنازعان علناً على السلطان في الدولة الرومانية تؤيد كلا منهما كتائمه ، فقيصر من الغرب وپومبي من الشرق . وقد خالف القانون بإحضاره كتائمه عبر نهر الروبيكون الذي كان الحد الفاصل بين ما تحت إمرته وإيطاليا نفسها . وشتت شمل جيش پومبي في معركة فارسالوس في تساليا (٤٨ ق.م) ، وفر

بومبي إلى مصر ، فقتل بها تاركاً في يد قيصر من السيادة على العالم الروماني ما لم يبلغه سلاً أبداً .

وعند ذلك عين دكتاتوراً لمدة عشر سنوات (٤٦ ق.م.) ، وفي أوائل (٤٥ ق.م.) عين دكتاتوراً مدى الحياة . وكان هذا هو الملكية بعينها . ولئن لم تكن وراثية ، فلقد كانت على الأقل انتخابية مدى الحياة . وكانت تلك فرصة لا حد لها يؤدى فيها خير ما في مستطاعه لخدمة العالم . ونحن ملزمون أن نحكم عليه من كنه وروح استخدامه لهذه السلطة الدكتاتورية في أثناء تلك السنين الأربع . فأعاد تنظيم الإدارة المحلية شيئاً ما . ويلوح أنه تصدى لموضوع كانت الحاجة إليه في تلك الأيام واضحة نوعاً ما ، وهو مشروع إعادة مرفأى كورنثة وقرطاجة الصريعتين اللتين نتج عن تدميرهما تحطيم الحياة البحرية في البحر المتوسط . بيد أن سلطان كليوبطرة ومصر كانا أبلغ أثراً في ذهنه . والظاهر أن فواده هفا كما هفا فؤاد الإسكندر من قبل إلى فكرة الملك الرب ، وكان ترلّف تلك الرتبة الوراثية الفاتنة كليوبطرة إليه عوناً دون ريب على زيادة تلك الفكرة في حالته قوة ورسوخاً . ولنا لنجد من الشواهد ما يدل على أنه نشب بينه وبين أصدقائه الشخصيين فيما يتعلق بموضوع تلك الادعاءات الإلهية نفس ذلك النزاع الذى سجلناه من قبل في حالة الإسكندر . وتقديم مظاهر الإكبار والتقديس للحكام كان فكرة مألوقة في الشرق المهلن لا جرم . بيد أنها كانت ما تزال بغیضة لدى ما كان باقياً عند روما من روح آرية .

وكان أنطونيوس — وهو تاليه في الرتبة في فارسالوس ومساعدته في القيادة من أشد المتملقين المتزلفين إليه . ويصف بلوتارك مشهداً حدث في الألعاب العامة ، حاول فيه أنطونيوس أن يجبر قيصر على قبول تاج ، فرفضه قيصر بعد تمتع قليل وبعد ما أظهره الجمهور من عدم الاستحسان . غير أنه اتخذ لنفسه الصولحان العاجى والعرش اللذين كانا شارتين تقليديتين

الملوك روما القدامى وحمل تماثله بين تماثيل الآلهة في موكب افتتاح المختلد ، ونصب تماثله في أحد المعابد وقد خطت من تحته العبارة الآتية : « إلى الإله الذى لا يقهر ! » . بل لقد عُيِّن بعض الكهنة سدنةً لعبادته . وليست هذه الأمور من دلائل رجاحة العقل ورحابة الأفق بل هي تشير إلى جنون العظمة يمس عقل رجل عادى . وإن ما يسجله التاريخ على قيصر من تدبيره الخطط الرخيصة الرامية إلى أشد مساحر العبادة الشخصية ابتداءً وخسة لأمرٍ سخيّف مخجل . وهو لا يستقيم مع الفكرة الزاهية إلى أنه كان فوق مستوى البشر وأنه كان حكماً رائعاً يوجه العالم نحو الخير والحق .

ثم انتهى أمره بأن اغتالته عصابة من نفس أصدقائه ومناصريه (٤٤ ق.م) ، بعد أن ضاقوا ذرعاً بتلك الأمانى والأطاع القدسية . فحاصروه في مجلس السناتو ، وطعنوه في ثلاثة وعشرين موضعاً من جسمه فخر صريعاً تحت قدمي تماثيل خصمه المهزوم بومبي العظيم . ويدل ذلك هذا الحادث على مبلغ الانحطاط الخلقى التام لدى الهيئة الرومانية القديمة الحاكمة . وكان بروتس زعيم عصابة القتلة يود لو قام في أعضاء السناتو خطيباً ، لولا أن الأعضاء حين صدمتهم هذه الملمة هبوا يفرون في كل صوب . وظلت روما غالب نهارها وهي لا تدري كيف تتصرف في هذا الحادث . وسار القتلة بأسلحتهم ملوثة بالدم بين ظهرائى مدينة مترددة لم تستقر بعد على رأى ، دون أن يعترضهم أحد ودون أن ينحاز إليهم إلا نفر قليل . ثم انقلب الرأى العام عليهم ، فهوجمت بيوت بعضهم ، واضطروا أن يختبئوا وأن يفروا طلباً للنجاة وخشية على حياتهم .

٦ - ظهور الزعيم أو الأمير الحاكم (Princeps)

بيد أن تيار الحوادث كان متجهاً نحو الملكية بشكل واضح جارف . واستمر النضال بين الشخصيات ثلاثة عشر عاماً أخرى . وهناك فرد واحد

هو شيشرون^(١) خليف بأن ننوه به بوصف كونه رجلاً حبه المقادير بالفكر الرحيب وأهمته طموحاً يكاد يبرأ من الأنانية . كان رجلاً متواضع الأرومة أكسبته فصاحته وقوته في الأدب مكانة مبرزة في مجلس السناتو . وقد انتقلت إليه من ديموستينز عدوى الهجاء وإن بقدر طفيف ، ومع ذلك فإنه يبرز بين الناس شخصية نبيلة لا تأثير لها مع الأسف ، وهو يدافع عن المثل العليا للجمهورية مجادلاً مجلس سناتو تلك الأيام وقد ساءت سيرته وبلغ من الانحطاط والوضاعة والخبانة حدّاً عظيماً . كان شيشرون كاتباً مجيداً ممتازاً ، وإن الخطب والرسائل الخاصة التي تركها لنا لتجعله في نظر القارئ العصري واحداً من أشد شخصيات ذلك العصر صدقاً وخلوداً . وقد أهدر دمه وأعدم عام ٤٣ ق. م. وهي السنة التالية لمقتل يوليوس قيصر ، ثم سمرت رأسه ويداه في الفوروم الروماني . ويلوح أن أوكتافيوس (Octavian) الذي أصبح آخر الأمر عاهل روما ، بذل جهداً لإنقاذ شيشرون . فلا مرء أن ذلك القتل لم يكن مما جنت يده .

وما نحن هاهنا بمستطيعين أن نتعقب ألوان الاتفاقات والخيانات التي انتهت بتألق نجم أوكتافيوس هذا ، وهو وريث يوليوس قيصر المتبنى . وما يجدر ذكره هنا ارتباط مصير الشخصيات الكبرى بمصير كليوباترة . فلما جعلت شغلها الشاغل بعد مقتل قيصر أن تتسلط على مشاعر أنطونيوس وغروره وهو رجل أحدث سنّاً من قيصر بكثير ، ولعلها كانت تعرفت إليه من قبل . وظل أوكتافيوس وأنطونيوس وشخص ثالث هو ليبيدوس (Lepidus) ردحاً من الزمن يقسمون العالم الروماني بينهم مثلما كان قيصر وبومبي يقسمانه قبل نزاعهما النهائي . فاخصص أوكتافيوس بالغرب الأصلب عوداً ، ثم ثبت فيه سلطانه ؛ وكان لأنطونيوس الشرق

(١) شيشرون : أفسح خطباء الرومان قاطبة ولد ١٠٦ ق. م. وشائع بومبي معارضا قيصر وأنصاره وقتل في ٤٣ ق. م. (المترجم)

الأكثر بذخاً وأبهة - ومعه كليوباترة . وكان نصيب ليبيدوس تلك العظيمة النخرة التي أصبحت حطاماً بالية وهي أفريقيا القرطاجية . وهو يلوح رجلاً طيب النفس حميد السيرة بين الناس متجهاً بكل فوائده إلى تعمير قرطاجة من جديد أكثر منه إلى الثراء والغرور الشخصى . فأما أنطونيوس فقد رانت على عقله تلك الأفكار القديمة فكرات الملكية الإلهية المقدسة التي كانت أكبر من أن يتحملها اتزان يوليوس قيصر العقلى . وما لبث أن استسلم فى ظلال كليوبطرة للهوى والملاذات ولحلم من الجحد الحسى ، حتى جاء وقت شعر فيه أوكتافيوس ، أنه قد آن له أن يقضى على هذين الإلهين المصريين .

وفى (٣٢ ق. م) حمل أوكتافيوس السناتو على خلع أنطونيوس من إمرة الشرق ، ثم مضى يهاجمه . ودارت بينهما رحى معركة بحرية عظيمة فى أكتيوم (٣١ ق. م) كان العامل الفاصل فيها تحلى كليوباترة عنه على غير انتظار وفرارها بستين سفينة حين حمى وطيس القتال . ومن الحال علينا الآن تماماً أن نفصل فى هل كان هذا التخلّى عن خيانة مدبرة من قبل ، أم هو نتيجة لنزوة فجائية أطافت برأس امرأة فنانة . على أن رحيل هذه السفائن الستين قد ألقى بأسطول أنطونيوس فى حالة من الحرج والارتباك قطعت عليه كل أسباب الرجاء ، وتفاقم الخطب عند ما عجل ذلك العاشق المثالى الولهان بالهرب فى إثر معشوقته . إذ انطلق من خلفها فى سفينة سريعة دون أن يخبر قواده . وبذا ترك أتباعه يقاتلون ويموتون حسبما يترأى لهم ، فظلوا زماناً لا يصدقون أنه قد ولّى . أما ما تلا ذلك من لقاء العاشقين وصلحهما فهو أمر نتركه لبلوتارك يتمعن فيه بروحه التهامية .

وأطبقت شباك أوكتافيوس على مهل حول منافسه . وليس مستبعداً أنه كان هناك نوع ما من التفاهم بين أوكتافيوس وكليوبطرة ، كما لعله

كان في زمان يوليوس قيصر ، تفاهم بينها وبين أنطونيوس . واستسلم أنطونيوس للشيء الكثير من مظاهر الأسى الفاجع التي نوت أشكالها مناظر الحب المختلفة أثناء المرحلة الأخيرة من درامته الصغيرة . فقد أقام دهرأ على حالة تحاكي مسلك تيمون الكلبي ، حين فقد كل ثقة في الجنس البشرى ، وإن كنا نرى أن بحارته الذين تخلى هو عنهم في أكتيوم كانوا أولى منه بهذا الموقف ! ! . ثم ألقي نفسه وكليوبطرة آخر الأمر يحاصرها أوكتافيوس في الإسكندرية . وقام المحصورون بهجمات عديدة ونالوا من النجاح قسماً محدوداً ، وطفق أنطونيوس يجهز بالتحدي لأوكتافيوس أن يفصل في الأمر بالزال الشخصي . ثم ألقي بعضهم في روع ذلك النجم اللهان أن كليوبطرة قد انتحرت ، فطعن نفسه طعنة غير قاتلة جعلته يقضى نحبه على مهل ثم حمل إليها ليلفظ أنفاسه الأخيرة في حضرتها (٣٠ ق. م.) .

وإن ما كتبه بلوتارك عن أنطونيوس . وأغلبه مستقى من الشهود الذين رأوه وعرفوه ، يصفه بأنه كان رجلاً باسلاً مقدماً . ويقارنه بهرقل (Hercules) نصف الإله ، (وكان في الواقع يدعى الانتساب إليه) ، ويشبه كذلك بياكخوس الهندي . ويورد بلوتارك عدا ذلك حادثة تغنى لها النفوس وإن ألفت على أخلاقه ضياء مرشداً ، إذ يصف حادثة وقعت له في مجلس السناتو وهو يحاول أن يخطب وهو ثمل فلاحقه زميل من أنخس قرنائه في معاقرة الشراب وأقلهم كرامة .

وقد ظلت كليوبطرة فترة وجيزة وهي ما تزال متعلقة بالحياة . ولعلها كانت تعلق النفس بإخضاع أوكتافيوس لنفس ذلك الدور القدسي ، الذي مثَّله من قبل يوليوس قيصر وأنطونيوس . وجرى بينهما وبين أوكتافيوس مقابلة تقدمت إليه فيها كحسنة مهیضة الجانب كسيرة الفؤاد تلم بها محنة قاسية ، وكانت في ثياب شفافة . بيد أنه لما اتضح ما أن

أوكتافيوس كانت تنقصه الشرارة الربانية ، وأن عنابته براحتها وسعادتها لم يكن يملها عليه بوجه خاص إلا الرغبة في عرضها في موكب نصر يجتاز شوارع روما ، قضت على نفسها منتحرة . إذ دست إليها أفعى مخبأة في سلة من التين دون أن يشعر بها الحراس الرومان ، فماتت ضحية أنيابها .

ويكاد أوكتافيوس أن يخلو فواده تماماً من كل ما داخل يوليوس قيصر وأنطونيوس من التطلع إلى التقديس والألوهية . فهو لم يكن بالإله ولا بالبطل الغرامى ؛ بل كفاه أنه كان رجلاً أوسع أفقاً وأكثر مقدرة من أى مثل آخر في هذا الفصل الأخير من مسرحية الجمهورية في روما . وإذا نحن قدرنا كل الاعتبارات فلربما وجدنا أن ظهوره كان خير ما قد نجو به الأقدار روما في ذلك الزمان . فإنه تنازل واضحاً عن السلطات غير العادية التي ظل يتولاها منذ (٤٣ ق. م.) ، أو كما عبّر هو عن ذلك بنفسه حين قال : «لأنه سلم الجمهورية ليتولى السناتو وشعب روما الإشراف عليها» وبذا دبّت الحركة من جديد في الأداة الدستورية القديمة ؛ وعاد مجلس السناتو ومجلس الأحرار والموظفون إلى تولى اختصاصاتهم وهلل الناس لأوكتافيوس «معيد الجمهورية ونصير الحرية» .

«لم يكن من اليسير تحديد العلاقة بينه — وهو لعمرى السيد الفعلى للعالم الرومانى — وبين تلك الجمهورية التي بعثت من جديد . فلو أنه تنحى عن الرئاسة فإن تنحيه — بأى معنى حقيقى أياً كان — لم يكن ليحدث من نتيجة إلا العودة بكل شيء إلى الفوضى . فان مصلحة السلام والنظام كانت تفضى عليه أن يحتفظ على الأقل بالقسم الجوهري من سلطته . وقد تمت له تلك الغاية حقاً ، وتم تأسيس حكم الأباطرة ، على طريقة ليس لها من ضريب في التاريخ . وكان لإحياء الملكية وألقابها أمراً لا يصح التفكير فيه . وقد رفض أوكتافيوس نفسه وظيفة الدكتاتورية قصداً . كذلك لم تخلق له أية وظيفة أخرى ولا أنشئ من أجله أى لقب رسمى جديد . بيد أن السناتو والشعب

منحاه وفقاً للأوضاع. الدستورية القديمة سلطات معينة ، كما منح مواطنون كثيرون من قبله ، وبذلك تبوأ مقعده بجوار موظفي الجمهورية العموميين المعينين وفق الأصول القانونية . وإظهاراً لمرتبة الرفيعة بوصفه كبيرهم جميعاً ، أصدر السناتو مرسوماً يقضى بأن يتخذ لنفسه لقباً إضافياً هو « أوغسطس » (Augustus) ، على حين أطلق الناس عليه في كلامهم العادى منذ ذلك الحين لقب الزعيم أو الأمير الحاكم (Principes) ، وهو مجرد لقب مألوف في الاستعمال الجمهورى العادى أطلق عليه من قبيل التكريم ، ولا ينطوى على أية فكرة أخرى عدا فكرة الأولوية المعترف بها ، والأسبقية على كل زملائه المواطنين .

« وبذا تحققت تحقّقاً ظاهراً فكرة المثل الأعلى الذى رسمه شيشرون في كتابة « عن الجمهورية » (De Republica) ، لرئيس دستورى يتولى الأمر في جمهورية حرة ؛ بيد أن ذلك كان أمراً لا يتجاوز الظواهر . إذ الواقع أن الامتيازات والحقوق الخاصة التى خوّلت أوكتافيوس أعادت إليه جوهر السلطة الاستبدادية (الأوتوقراطية) التى تنازل عنها ، فأما توازن القوى بين الجمهورية التى أعيد بعثها وبين أميرها الجديد ، فكان شديد الجنوح ناحية الأخير بدرجة جارفة » (١) .

٧ - لماذا فشلت الجمهورية الرومانية

على هذه الشاكلة انتهى النظام الجمهورى بظهور زعيم أو أمير حاكم ، وانهارت وباءت بالفشل أولى التجارب العظيمة فى مجتمع يتمتع بالحكم الذاتى ويقوم على نطاق أوسع من القبيلة أو المدينة .

وسر فشلها أنها لم تستطع أن تدعم الوحدة وترسخ قدمها فى البلاد .
فى مراحلها الأولى ، كان لمواطنيها ، سيان منهم البطارقة (النبلاء)

(١) نقلا من هـ . س . جونز H. S. Jones فى الموسوعة البريطانية مادة « روما » .

أو العامة (الهلينان) ، تقاليد معينة تقوم على العدالة وطيب الثقة وعلى ولاء المواطنين جميعاً للقانون ، وعلى أن القانون يهدف إلى خير المواطنين جميعاً . وتعلقت روما بأهداب هذه الفكرة ، فكرة أهمية القانون واحترامه ، والخضوع له حتى قرابة القرن الأول (ق.م) . بيد أن اختراع النقود وتطورها بدرجة لم تكن في الحسبان ، وما ترتب على التوسع الاستعماري من مغريات وتفكك عرى ، وما عرفته روما من تعقيد في الأساليب الانتخابية ، — كل هذه أمور أضعفت هذه التقاليد وأغرقها في لججها بإظهار الخلافات القديمة في أثواب جديدة عزز على من تصدوا للحكم عليها أن يتبينوها من دونها ، وبتهيئتها للرجال أسباب الإخلاص لحرفة المواطنة لا لروحها . وكانت الرابطة بين الشعب الروماني على الدوام رابطة أخلاقية أكثر منها دينية . وكانت ديانتهم تقوم على القرابين والخرافات ؛



خريطة الإمبراطورية الرومانية عند وفاة أغسطس ١٤ ميلادية

ولم تتضمن أياً من تلك الأفكار العظيمة كفكرة الزعيم المقدس والرسالة المقدسة من أمثال ما كانت تنادى به اليهودية . فلما أن فشلت فكرة المواطنة واضمحلت تلقاء الظروف الجديدة لم تعد لهم أى وحدة داخلية ، أو بالأحرى لم تعد تجمع شتات نظامهم أية وحدة حقيقية على الإطلاق . فزايد بالناس النزوع إلى أن يفعل كل منهم ما يراه صواباً .

وفى مثل تلك الظروف لم يكن هناك خيار بين الفوضى الشاملة وبين الرجعة إلى النظام الملكى أى إلى قبول فرد مختار ليكون رمزاً لإرادة واحدة عاملة على توحيد الدولة . وبديهي أن يكمن وراء تلك العودة على الدوام توقع الناس أن يستحيل العاهل إلى شيء يشبه السحر — كما قد يقولون ؛ وأن يكف عن أن يكون مجرد كائن بشرى ضئيل القدر ، وأن يشرع فى التفكير والشعور بأنه شيء أعظم وأكثر نبلا ، بوصفه — كما هو الواقع — شخصية تمثل الدولة . وبديهي أن الملكية تفشل على الدوام فى أن تحقق ذلك الأمل . وسوف نلقى نظرة سريعة إلى مبلغ هذا الفشل فى العرض الوجيز الذى سنستعرض فيه من توتنا أباطرة روما . ولسوف نجد آخر الأمر واحداً من أشد هؤلاء الأباطرة تجديداً وإنشاء هو فسطنطين الأكبر ، فإنه وقد أدرك عجزه عن أن يكون قوة عاملة على توحيد الدولة ، شخص ببصره إلى عقيدة وإيمان ونظام وحيوط التعاليم التى تقوم بها إحدى الحركات الدينية الجديدة فى الإمبراطورية ، لتمده بنفس ذلك العامل الذى يتغلغل فى عقول الرجال ويربطها بعضها ببعض ، والذى كان من الواضح جداً أن العالم فى أمس الحاجة إليه .

وبظهور قيصر عادت حضارة أوروبا وآسيا الغربية إلى الملكية ، وهى لهذه الحضارة عن طريق الملكية بفضل ما لقيته من المسيحية المنظمة من تأييد عاجل ، أن تسعى فى سبيل السلام والعدالة والحق والسعادة والنظام العالمى طوال مدة تقارب الثمانية عشر قرناً . ثم شرعت على حين بغتة

تقريباً في التحول إلى النظام الجمهورى ، مبتدئة بأحد الأقطار ثم مثنية بالآخر . وإذ كان في عونها قوى جديدة من الطباعة والصحافة والتعليم العام المنظم وكانت مستندة إلى الفكر الدينى العالمية التى انعمس فيها العالم أجيالا عدة ، فلما لتبدو الآن كأنما قد عادت من جديد إلى بذل الجهد فى سبيل إقامة دولة جمهورية عالمية ووضع خطة شاملة لكل أرجاء العالم قوامها العدالة والحق الاقتصادى الذى كان الرومان أرادوا أن يفرضوه قبل أوانه والذى فشلوا فيه ذلك الفشل التام اللزيع .

وعندى أننا أخذنا ندرك الآن أن هناك شروطاً معينة لا مندوحة من توافرها لتحقيق مثل هذا الخلق والابتداع ؛ وهى شروط ليس من المعقول أن أى رومانى سابق للمسيحية كان يراها ممكنة . ولعلنا لا نزال نرى الوصول إلى هذه الشروط عملاً يكتنفه الكثير من المتاعب والصعوبات والشكوك . بيد أننا ندرك أن بذل المحاولة واجب حتم ، إذ ليس هناك فى المستقبل بارقة أمل أخرى تبشر بمنحنا حتى مجرد الوعد بالسعادة أو احترام الذات أو حفظ نوعنا البشرى . وأول هذه الشروط هو أنه يجب أن تقوم فى عقول جميع الناس فكرة سياسية واحدة ، وهى الفكرة التى تعد « الدولة » المليك الشخصى لكل فرد على حدة وتعتبرها الحقيقة الأساسية والعمود الفقرى لمنهج واجباته . فى أيام روما الأولى ، عندما كانت دولة مغمورة قليلة الشأن ذرعها عشرون ميلا ، كان فى الإمكان بث هذه الأفكار فى الأطفال فى بيوتهم وتطويرها فى عقولهم بالتلقين وبواسطة ما كانوا يرون ويسمعون من حياة آبائهم السياسية ؛ فأما فى قطر كبير الرقعة كالذى بلغته روما قبل حربها مع بروس ، فكانت هناك حاجة إلى خطة منظمة لتعليم التاريخ والقوانين الرئيسية والنوايا العامة للدولة نحو كل إنسان ، إن كان يراد الإبقاء على هذه الوحدة الأخلاقية . غير أن هذه الحاجة لم تتحقق قط ، ولم تبذل أية محاولة للقيام بأى ضرب من هذا التعليم . إذ لم يكن

ذلك العمل مستطاعاً في ذلك الزمان ، بل ليس معقولاً أن القيام به كان أمراً ميسوراً . فإن المعرفة كانت تعوزهم ، ولم يكن ثمة طبقة يمكن أن يؤخذ منها المعلمون المطلوبون لهذه المهمة ولا كان لدى الناس أية فكرة عن هيئة تتولى مثل تلك التربية النظامية الخلقية الفكرية التي قدمتها على الفور هيئة التعليم عند المسيحية ، بما كان لها من عقائد وتعليم لأصول الدين بالحوار وما احتوته من مواعظ وتلقين وتأكيدات باتباع الصلاح والتقوى .

هذا إلى أننا نعرف اليوم أنه حتى التربية العامة التي من هذا النوع تعد قاصرة ، فهي لا تمهدنا إلا بمجرد الأساس اللازم لإقامة دولة جمهورية سليمة . ويجب أن يلي التربية العمل على نشر أنباء وفيرة سريعة صادقة لما يجري في الدولة ، وتهيئة فرص تجرى فيها مناقشة صريحة حرة لكل ما يعرض للناس من موضوعات الساعة . ولا تتم هذه الخدمات حتى في هذه الأيام إلا على حال من النقص والقبح بواسطة ما لدينا من صحافة وعلى يد من لدينا من الصحفيين والمحررين والسياسيين . وهي وإن كانت سيئة التنفيذ والأداء فحسبنا أن تتم على أي حال ، وحسبك في مجرد القيام بها الآن إشارة إلى إمكان الوصول بها في النهاية إلى مرتبة الحدودة والإتقان . ومهما يكن من شيء فإن أحداً في الدولة الرومانية لم يبدل في هذا السبيل أية محاولة . فكان المواطن الروماني يحصل على الحقائق السياسية من الشائعات أو من خطيب عرضي . وكان يقف في الفوروم كالخشب المسندة ، يستمع في غير استبانة واضحة لصوت خطيب بعيد . والراجح أن أي أحدٍ منهم لم يكن يحسن فهم أي موضوع يؤخذ عليه الرأي .

ولقد أسلفنا إليك القول فيما عليه نظام التصويت الروماني من قصور فظيع .

ليس عجباً أن تتجه الغرائز السياسية في العقل الروماني نحو الملكية بعد أن أعيأها التغلب على تلك العوائق أو إزالتها من السبيل للوصول إلى نظام

حكم شعبي سليم فعال . بيد أنها لم تكن ملكية من الطراز الأوروبي في العصر المتأخر ، ولم تكن الملكية التي أقيمت إذ ذاك في روما وراثية . أجل كان « الأمير الحاكم » في الحقيقة شبيهاً برئيس أمريكي في وقت الحرب ، ولكنه لم يكن مثله منتخباً لمدة أربع سنوات وإنما لمدى الحياة . وكان في مكتبته أن يعيّن أعضاء مجلس السناتو بدل أن يحد من سلطته مجلس سناتو منتخب ، وكان إلى جانبه مجلس شعبي من الفوغاء بدلا من مجلس نواب . وهو أيضاً الحبر الأعظم (Maximus Pontifex) أى كبير كهنة القرابين وهي وظيفة غير معروفة في واشنطن . وقد درج بحكم الممارسة على تعيين خلفه وتدريبه وأن ينتخب لذلك المنصب الرفيع ابناً أو ولداً متبنياً أو ذا رحم وقربى يستطيع أن يثق به . كانت سلطات الأمير هائلة في ذاتها وأعظم من أن توضع في يد رجل واحد دون أن يقوم إزاءها من الضوابط ما يكفل الحد منها ، بيد أن تقاليد عبادة الملك زادت قوة على قوة ، حيث انتشرت عند ذاك من مصر وبسطت ظلها في جميع أرجاء الشرق المهلّن ، وكانت تفد على روما مستكنة في ذهن كل عبس ومهاجر شرقى . ولم تلبث فكرة الإمبراطور الرب حتى أصبحت على درجات ومراحل طبيعية غير محسوسة ، متسلطة على العالم بأسره المصطبغ بالصبغة الرومانية .

ولم يبق إلا شيء واحد يذكر الإمبراطور الرب أنه فان غير متحد ، ذلك هو الجيش . فإن الإمبراطور الإله لم يكن قط بمأمن فوق الأولمبوس القائم على التل الهلاتيني^(١) روما . فهو لا يطمئن إلى سلامته حتى يكون قائداً محبوباً من كتائبه . ونتيجة لهذا فليس بين الأباطرة من دام له الحكم طويلاً إلا المجلدون في أعمالهم الذين دأبوا على تشغيل جنودهم وجعلهم على اتصال وثيق بأنفسهم . فكان السيف مسلطاً أبداً على الإمبراطور يحفزه على النشاط الذى لا يفتر . فلو أنه ترك الأمور لقواده ، لحل أحد

(١) الأولمبوس مثنوى الآلهة ، والتل الهلاتيني أحد التلال السبعة المحيطة بروما ، - فكان الإمبراطور الرب لم يكن بمأمن على الرغم من وبويعته . (المترجم)

— ٦٠٦ —

هؤلاء القواد محله من فوره . وكان ذلك الحافز فيما يحتمل الظاهرة المعوضة التي تكفر عن مساوئ النظام الإمبراطوى الرومانى . على أن الإمبراطورية الصينية ، وهى أكبر حجماً وأشد تماسكاً وأكثر أمانة واطمئناناً ، لم تكن بها نفس الحاجة إلى الكتائب . وبذا لم يلق الملوك الكسالى أو الخليعون أو الأحداث هناك نفس النهايات السريعة التى كانت تحل بأمثالهم فى روما .

الفصل السابع والعشرون

القياصرة بين البحر والسهول العظيمة

- ١ - ثبت موجز بالأباطرة .
- ٢ - المدنية الرومانية في أوجها .
- ٣ - خصائص الفن في ظلال الإمبراطورية الرومانية .
- ٤ - قدر معين من الركود في الخيال الرومانى .
- ٥ - حركة السهول العظيمة .
- ٦ - الإمبراطورية الغربية (الرومانية الحقة) تتصدع .
- ٧ - الإمبراطورية الشرقية (الهلنسية المبتدئة)

١ - ثبت موجز بالأباطرة

يجنح كتاب الغرب متأثرين بما توفّر في نفوسهم من ميول وطنية إلى المبالغة فيما أسدته الملكية المطلقة التي استقرت في روما بعد اعتلاء أوغسطس قيصر العرش من تنظيم وبث للحضارة ونشر للأمن والطمأنينة . فنحن إنما نقتبس عن روما التقاليد السياسية التي نراها بريطانيا وفرنسا وأسبانيا وألمانيا وإيطاليا . وإن هذه الأقطار لتراعى ضخمة في أبصار الكتاب الأوروبيين . على حين يتجاهلون ما دمرته روما في الشرق .

وإذا قيست الدولة الرومانية بمعيار التاريخ العالمى ، لم تعد تبدو بتلك الأهمية الجارفة التي تنسب إليها . فإنها لم تعمر إلا قرابة أربعة قرون فقط قبل أن تتمزق وتتحطم تماماً . ولم تكن الإمبراطورية البيزنطية استمراراً حقيقياً لها ؛ بل كانت استثناءً مشوهاً لإمبراطورية الإسكندر الهلنسية . وكانت تتكلم اليونانية . أجل إن لعاهلها لقباً رومانياً ما في ذلك ريب . ولكن كذلك كان شأن قيصر بلغاريا السابق . وقد تطورت

أرض الجزيرة في معظم أمرها وفقاً لأساليب خاصة بها في أثناء فترة الحكم الروماني . فكل كسب هليئي مستحدث تناولته عبقرية الشعوب الفارسية والبارثية بالتعديل الشامل ، فأما في بلاد الهند والصين ، فإن نفوذ روما كان ضئيلاً ضالّة لا نهاية لها .

ومرت إمبراطورية روما في أثناء عمرها البالغ أربعة قرون في أدوار من الانقسام والفوضى الشاملة . فلو جمعت سنوات الرخاء فيها وحسبت ، لم تصل كلها إلى قرنين من الزمان . ولو قورنت بما كان للإمبراطورية الصينية المعاصرة لها من الأمانة والاتساع الهادئ المتواصل وما قامت به من جهد في بث المدنية أو لو أنها ووزنت بمصر بين ٤٠٠٠ ، ١٠٠٠ ق. م. ، أو بسمر قبل الغزو الساسي ، لنزلت بها هذه المقارنات إلى مجرد حدث ثافه في التاريخ . كذلك بلغت إمبراطورية فورش الفارسية ، التي امتدت من الهلسبون (الدرديل) إلى السند ، شأواً عالياً في الحضارة يعادل في رفعتها شأوها . وظلت أرضها الأصلية بعيدة عن منال الفاتحين وفي حال لا بأس بها من الرخاء مدة تربي على قرنين . وكانت سابقتها الإمبراطورية الميدية قد استدامت نصف قرن من الزمان . وبعد أن غشها الإسكندر الأكبر فترة وجيزة ، نهضت من جديد باسم الإمبراطورية السلوقية التي استمرت بضعة قرون . وانكشفت الأراضي السلوقية آخر الأمر إلى غرب نهر الفرات ، ثم أصبحت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية . ولكن بلاد فارس وقد ابتعها الپارثيون ثانية بوصفها إمبراطورية فارسية جديدة تحت حكم الأرشكيين^(١) (Arsacids) أولاً ، ثم تحت الساسانيين (Sassanids) ثانياً عمرت طويلاً بعد إمبراطورية روما . وأصبحت ملاذ

(١) الأرشكيون : دامت دولتهم بفارس من ٢٥٥ ق. م. إلى ٢٢٦ م. وتنسب إلى ارشك (Arsakes) زعيم الپارثيين وهم جيل محتلط من الإسكديين .

(المترجم)

العلم اليوناني من الاضطهاد الغربي ، وأضحت مهداً دفيناً تكتنّ فيه
الفكرات الدينية .

وقد شن الساسانيون الحرب مراراً في صميم الإمبراطورية البيزنطية ،
واستمسكوا ثابتين بخط دفاع الفرات . وفي (٦١٦ ميلادية) تحت حكم
كسرى الثاني (أبرويز) (Chosroes) كانت في يدهم دمشق وبيت المقدس
ومصر وهددوا الهلسبونت . على أن الساسانيين لم تكن لهم تقاليد تصون
لهم ما أحرزوا من مجد . وقد ازدهرت شهرة روما بسبب ما أصابه ورثتها
من رخاء ونجاح . ولذا فإن تقاليد روما وتراثها تتراعى أعظم بكثير من
حقيقتها . ذلك أنه حدث بين المدينيات الأعرق منها ائتلاف وامتزاج وانتشرت
المدنية غرباً . فاختلط الساميون والآريون في لجات تطور كان يهدر حول
حوض البحر المتوسط دون أن يميز جوا بعضهم ببعض ، وكان نظام الحكم
الروماني أشبه الأشياء بشبكة لا تبرح خيوطها تنقطع ثم تتصل ثانية ، حتى
انتهى أمرها إلى التمزق النهائي في جميع أرجائها .

ويميز التاريخ مجموعات عدة من الأباطرة الرومان الذين كانوا رجالاً
إداريين أكفاء وعلى رأس المجموعة الأولى يأتي : -

أوغسطس قيصر (من ٢٧ ق . م . إلى ١٤ م .) وهو أوكتاقيوس
الذي ورد ذكره في القسم السابق ؛ والذي دأب عملاً في تنظيم حكومات
الولايات وفي الإصلاح المالي . فاستن في حكومته البيروقراطية سنة طيبة
من النزاهة واحترام القانون ، ثم ضيق الخناق على المفسد والظلم المتفشى
بدرجة مخيفة في الدولة بأن أعطى المواطنين في الأقاليم حق اللجوء إلى
قيصر . بيد أنه ثبت الحدود الأوربية للإمبراطورية على امتداد الراين
والدانوب ، وبذا ترك ألمانيا التي هي الدعامة الضرورية والعمود الفقري
الذي يكفل لأوروبا الأمانة والرخاء هباً لهمجية البرابرة ؛ ثم أقام في الشرق
حداً مشابهاً لهذا عند نهر الفرات تاركاً أرمينية مستقلة ، مما ترتب عليه

أن أصبحت مثار نزاع لا يفتر بين الدولة الرومانية وبين الأرشكين والساسانيين . والناس من أمره في ريب وشك فهل تراه كان يعتقد أنه يثبت حدود الإمبراطورية نهائياً على امتداد هذه الخطوط ؟ أم تراه قدر أن من المرغوب فيه أن يوطد أجزاء دولته ويوثق الروابط بينها لبضع سنين ريثما يقوم بمحاولات أخرى للتوسع ؟

كذلك يوصف تيربوس (Tiberius) (١٤ إلى ٣٧ م) بأنه حاكم قدير ، بيد أنه أصبح يلقى من الشعب في روما كراهية شديدة ، ويرى أنه كان منغمساً في رذائل منكرة مستبشرة . على أن انغماسه في هذه الرذائل وطغيانه الشخصي وقساوته في محيطه الخاص لم تحل دون تمتع الإمبراطورية في عهده بالرخاء العام . ومن العسير على الإنسان أن يقضى فيه برأى ؛ لأن كل المصادر التي في متناولنا تكاد تجمع على العداء الصريح له .

وكان كاليغولا (Caligula) (٣٧ إلى ٤١ م) معتوهاً ، غير أن الإمبراطورية واصلت سيرها في طريق التقدم في السنوات الأربع التي قضاه على رأسها في شذوذه وتقلب أهوائه . وأخيراً قتله خدمه في قصره ، ويبدو أن قد بذلت محاولة لاستعادة حكومة طليقة أعضاء السناتو ؛ ولكن سرعان ما قضت كتائب الحرس الإمبراطوري على هذه المحاولة .

أما كلوديوس (Claudius) (٤١ إلى ٥٤ م) وهو عم كاليغولا الذي وقع عليه اختيار الجند ؛ فكان غليظ الطبع ، ولكن يبدو أنه كان مجداً قديراً إلى حد ما في تدبير شئون الحكم . فد التخوم الغربية للإمبراطورية بضم النصف الجنوبي من بريطانيا . ثم قتلته بالسم أجريپينا (Agrippina) ، أم ولده المتبنى نيرون (Nero) ، وهي امرأة أوتيت حظاً عظيماً من الفتنة وقوة الشكيمة .

وتنسب إلى نيرون (٥٤ إلى ٦٨ م) - شأن تيربوس - رذائل

وقساوات بشعة ، بيد أن الإمبراطورية كانت أحرزت من القوة الذاتية الدافعة ما كفل مواصلة التقدم في أثناء حكمه الذي امتد أربعة عشر عاماً وليس من ريب أنه قتل أمه المحبة المخلصة والمكدره لصفوه أيضاً !! كما قتل زوجته ، (قتلها لإظهاراً لشغفه بسيدة أخرى هي پوپايا (Poppaea) التي تزوجته عند ذاك) . على أن ما يكتنف حياة القياصرة المنزلية من تعس واضطراب ومتاعب ليس مما يدخل في نطاق قصتنا هذه . وما على القارئ التواق إلى التفاصيل الإجرامية إلا أن يرجع إلى المرجع القديم وهو المؤرخ سوتونيوس (Suetonius) . ولعل هؤلاء القياصرة وأعقبهم ونساءهم لم يكونوا بالضرورة أسوأ خلقاً من معظم الكائنات الإنسانية الضعيفة الخلق والخاصعة للشهوات ، ولكنهم لم يكونوا على أي دين حقيقى ، إذ كانوا هم أنفسهم آلهة يُعبدون . ولم تتثقف عقولهم بالمعرفة الواسعة يبنون عليها المطامح



خريطة الإمبراطورية الرومانية في عصر تراچان

السامية ، واتصفت نساؤهم بشراسة الطباع وكثيراً ما كنَّ أميات ، ولم يكن يحدُّ من تصرفاتهن أى حدود من القانون أو العرف . وكان يحيط بهن فئة من المخلوقات ديدنها التحفز لاستثارة أهون رغباتهم ووضع أتعنه نزعاتهم موضع التنفيذ . فكل ما قد يدور بخلد الناس من أفكار شيطانية عابرة ودوافع غضب وغيظ كانت لديهم بناء على ذلك أفعالا نافذة لا مرد لها . وقبل أن يحكم أى إنسان منا بإدانة نيرون ويحكم عليه بأنه نوع آخر من الكائنات يختلف عن شخصه ، يجب عليه أن يبدأ بنفسه فيختبر أفكاره الخفية اختبار إمعان وعناية . وقد اشد كره الناس في روما لنيرون ، وإنه لمن الشائق أن نلاحظ أنه لم يصبح مكروهاً لأنه كان يقتل أقاربه الأقربين ويدس لهم السم ، بل لأنه حدث في زمانه عصيان في بريطانيا تحت قيادة ملكة اسمها بواديكي (Boadicea) فأصبحت من جرائه القوات الرومانية بكارثة عظيمة (٦١ م) ، ولأن زلزالاً مدمراً حدث في جنوب إيطاليا . وكان شعب روما المحافظ على الروح الأتروورية المتمشية في عروقه والمتجلية في ضعف عقيدته الدينية وفي اعتقاده الدائم في الخرافات ، لا يبالي أن يتولى أموره قيصر خبيث شرير ، ولكنه يعترض اعتراضاً شديداً على أن يحكمه قيصر يرى فيه الشؤم وسوء الطالع . فثارت الكتائب الأسبانية تحت قيادة قائد مسن بلغ الثالثة والسبعين هو جالبا (Galba) فنادوا به إمبراطوراً . وزحف على روما وهو محمول في محفة . ففضى نيرون على نفسه منتحراً ليأسه من عون الناس له (٦٨ م) .

على أن جالبا لم يكن إلا واحداً من مجموعة من المتطلعين نصب الإمبراطور والساعين إليه . فإن القواد الذين كانوا على إمرة كتائب الراين والقوات المعسكرة على التل البالاتيني والجيش الشرقى ، حاول كل منهم أن يظفر بالسلطان . وشهدت روما أربعة أباطرة في سنة واحدة : جالبا وأوتو (Ottho) وڤيتيلوس (Vitellius) وفسپازيان . وكان الأخير منهم أعنى فسپازيان (٦٩ - ٧٩ م)

وهو من ذوى الإمرة فى الشرق أشدهم قبضة على أزمّة الأمور ،
فقبض على الغنيمة واحتفظ بها . بيد أن سلسلة القياصرة بحق المولد أو التبنى
انتهت بمقتل نيرون فلم يعد اسم قيصر يطلق على أفراد أسرة الأباطرة
الرومان ، بل أصبح لقباً هو قيصر الإله (Divus Caesar) . وتقدمت
الملكية خطوة أخرى فى سبيل اتخاذ الطابع الشرقى بإظهارها المزيد من الإصرار
على عبادة الحاكم . وبذا انتهت أول مجموعة من القياصرة واقصر عهدهم
على خمس وتسعين عاماً فقط .

ويكون فسبازيان (٦٩ - ٧٩ م) وابناه تيتوس (Titus) (٧٩ م)
ودوميتيان (٨١ م) على - حد قولهم - أسرة ثانية هى الفلافية (Flavian) .
ثم جاءت بعد مقتل دوميتيان مجموعة من الأباطرة يتصل أحدهم بالآخر
لا صلة الرحم بل صلة التبنى ، وهم الأباطرة المتبنون . وكان نيرفا (Nerva)
(٩٦ م) أول هذه المجموعة ، وتراجان (Trajan) (٩٨ م) هو الثانى .
وتبعهما هادريان (١١٧ م) الذى لا يكل ، وأنطونينوس پيوس (١٣٨ م)
وماركوس أوريليوس (Marcus Aurelius) (١٦١ - ١٨٠ م) ،
وقد اتسعت حدود الإمبراطورية وخطت إلى الأمام من جديد تحت ظل
كل من الفلافيين والأنطونيين (Antonines) . فضم شمالى بريطانيا (٨٤ م)
إلى أملاك الدولة الرومانية ، وامتدت حدودها وراء زاوية التقاء الراين
بالدانوب ، وجعل ما يسمى الآن باسم ترانسلفانيا ولاية جديدة هى داكيا
(Dacia) . كذلك غزا تراجان پارثيا وضم أرمينية ومملكة أشور وأرض
الجزيرة . ووصلت الإمبراطورية تحت حكمه إلى أقصى اتساعها .

وكان خلفه هادريان حذراً يميل بطبعه إلى الانكماش . فتخلى عن هذه
الفتوحات الشرقية الجديدة التى فتحها الإمبراطور تراجان ، كما تخلى أيضاً
عن شمال بريطانيا . واقتبس الفكرة الصينية القائلة بإقامة سور يصد البرابرة
ويحد من جماهم ، وهى فكرة بدية ما دام ضغط السكان فى الناحية
الامبراطورية من السور أقوى من الضغط الخارجى ، فأما فيما عدا ذلك من

حال فإنه يصبح عديم الحدودى . فبنى سور هادريان عبر بريطانيا^(١) وأقام حاجزاً بين نهري الراين والدانوب . وكان أوج التوسع الرومانى قد فات ، وكانت الحدود الأوربية الشمالية إبان حكم خلفه متخذة خطة الدفاع النشط ضد اعتداء القبائل التيوتونية والسلافية .

وماركوس أوريليوس أنطونينوس هو أحد تلك الشخصيات التاريخية التى يختلف فى أمرها رأى الناس اختلافاً بيناً حاداً . فهو يلوح فى نظر بعض النقاد شخصاً مغروراً صلفاً . كان يشغل نفسه بالأديان والعبادات ، وكان يجد سروراً لا يعد له سرور فى أن يرأس الحفلات الدينية فى ثياب كهنوتية — وهى نزعة لا يرضى عنها عامة الناس — وهم يستنكرون ما يقال عنه من عجز عن وضع حد لشلوذ وجماح زوجته فوستينا (Faustina) وآثامها . على أن الأقايسى التى تدور حول تعاسة حياته المنزلية لا تستند مع ذلك إلى أى أساس قوى ، وإن كانت فظاعة ابنه كومودوس (Commodus) مما لا يتناسب وأبناء البيوت الكريمة . على أنه من الناحية الأخرى كان ولا مرية لإمبراطوراً شديد الكد والإخلاص حافظ على شتات النظام الاجتماعى خلال سلسلة من سنى الكوارث الحافلة بالملمات : من جو سى وفيضان عظيمة ومحاصيل ضئيلة ومجاعات ، فضلاً عن غارات البرابرة وثوراتهم ، ثم أصاب البلاد آخر الأمر وباء عام جائح . وتقول الموسوعة البريطانية نقلاً عن ف. و. فارر (F. W. Farrar) « لقد كان يعد نفسه فى الحقيقة خادماً للجميع . وكان تسجيل المواطنين والقضاء على التشاحن والتناؤ ورفع مستوى الأخلاق العامة والعناية بالقُصَّر والأحداث وتقليل النفقات العامة والحد من حفلات المجالدين واستعراضاتهم والعناية بالطرق ورد امتيازات

(١) السور الرومانى : كان يمتد من مدينة نيه كاسل إلى مدينة كارليل عبر بريطانيا وهو حائط ضخم البناء حفرت الخنادق من أمامه ومن خلفه وأقيمت على طوله المعسكرات الرومانية . (المترجم)

مجلس السناتو إلى سابق عهدها وقصر التعيين في الوظائف العامة على الأكفاء القادرين حقاً ، بل حتى تنظيم حركة المرور في الطرقات ، بالإضافة إلى واجبات أخرى لا عداد لها ، — تستنفد عنايته تمام الاستنفاد إلى حد أنه بالرغم من اعتلال صحته نوعاً ما ، كانت هذه الأعمال تثقل كاهله بالشغل القاسى من الصباح الباكر إلى ما بعد منتصف الليل بكثير . حقاً إن منصبه كان يحتم عليه في الغالب الحضور لمشاهدة الألعاب وحفلاتها . بيد أنه كان في تلك المناسبات يشغل نفسه إما بالمطالعة أو الاستماع إلى قارئ يقرأ له أو بكتابة المذكرات . كان أحد أولئك الذين يرون أنه يجب ألا يتم أى شيء في عجلة وأنه قل أن كانت هناك جريمة أسوأ من إضاعة الوقت .

ولكن قلما ذكره الناس اليوم لهذا العمل المتواصل المضي . بل يذكرونه لأنه كان من أحسن شراح الفلسفة الرواقية . وهو في كتابه « التأملات » التى سطرها في المعسكر والبلاط على السواء ، قد سجل من خطرات إحدى النفوس الإنسانية قدراً كبيراً ينشئ له في كل جيل مجموعة جديدة من الأصدقاء والمعجبين .

وبموت ماركوس أوريليوس انتهى هذا الدور من أدوار الوحدة والحكومة الصالحة نسبياً ، وكان حكم ابنه كومودوس فاتحة عصر من عصور الفوضى . ظلت الإمبراطورية من الناحية العملية في سلام داخلي استمر مئتي سنة . والآآن يجب على دارس تاريخ الرومان ، فيه مثير للسئق . التالية أن يجلو أمام ناظريه الجرائم المتنوعة التى ارتكبها عدد من الأباطرة الضعاف ، على حين كانت الحدود تهاوى وتراجع تحت ضغط البرابرة ، ويبدو أنهم ليس فيهم غير واحد أو اثنين فقط من ذوى المقدرة أمثال سبتيميوس سيفيروس (Septimius Severus) وأوريليان (Aurelian) وپروبوس (Probus) . وكان سبتيميوس سيفيروس قرطاجيا ، ولم تستطع أخته قط أن تتقن اللاتينية . فكانت تدير دارها الرومانية وما يحيط بها

باللغة الهونية (الفينية) ، وهو أمر لا بد أنه جعل عظام كاتو الأسن تتقلب في قبره تمللاً . أما سائر أباطرة ذلك العصر فكانوا في معظم الشأن مغامرين أقل وزناً من أن تسمح لنا الخطة العامة لهذا الكتاب بالالتفات إليهم . وكان يظهر بين الفينة والفينة آحاد من أباطرة كانوا يحكمون في أجزاء مختلفة من الإمبراطورية الممزقة . وليس هناك من هو جدير بالملاحظة من وجهة نظرنا الحالية سوى الإمبراطور ديكْيوس (Decius) الذي هزم وقتل في أثناء غارة القوط العظيمة على تراقيا (٢٥١ م) والإمبراطور فاليريان (Valerian) الذي وقع في قبضة شاه فارس الساساني وسقطت معه مدينة أنطاكية (Antioch) العظيمة عام (٢٦٠ م) ، وما ذلك إلا لأنهما يسجلان ما لحق النظام الروماني جميعه من التقلقل وعدم الأمان ، كما يدلان على طابع الضغط الخارجى عليه . وهكذا أيضاً كان شأن كلوديوس « قاهر القوط » ، لأنه فاز بنصر عظيم على هؤلاء القوم في نيش ببلاد الصرب (٢٦٩ م) ، ولأنه مات بالطاعون كما مات پريكليس به من قبل .

وفى كل هاته القرون كانت الأوبئة المغيبة^(١) تلعب دوراً في إضعاف الشعوب وتغيير الأحوال الاجتماعية : وهو دور لا يزال لازماً على المؤرخين أن يوفوه حقه من الدرس . فقد حدث مثلاً طاعون عم أرجاء الإمبراطورية بين سنتي (١٦٤ ، ١٧٠ م) إبان حكم الإمبراطور ماركوس أوريليوس . والراجح أن قد كان له أثر كبير في إفساد نظام الحياة الاجتماعية ، فهد الطريق للفتن التي عقيبت اعتلاء كومودوس العرش . وهذا الوباء نفسه هو الذى عاث في الصين خراباً ، كما سنبين ذلك في القسم الخامس من هذا الفصل . وأملت بالمنأخ كذلك تقلبات جسيمة في أثناء القرنين الأول والثاني

(١) المنيبة (بضم الميم وكسر الفين) هى التى تجيء دهرًا وتنقطع دهرًا . (المترجم)

توقب عليها شيوع الولايات بين الناس وانتقالهم من مواطنهم ، وهى أمور لا يزال على المؤرخين أن يعدروا آثارها .
على أنه لزام علينا قبل الانتقال إلى الكلام فى غزوات البرابرة ومحاولات أولئك الأباطرة المتأخرين من أمثال دقلديانوس (Diocletian) (٢٨٤ م) وقسطنطين الأكبر (٣٠٦ م) أن يحافظوا على كيان الدولة المترنحة المتناثرة الحائرة فى مهب الرياح ، — أن نخرج على وصف شئ من أحوال حياة الناس فى الإمبراطورية الرومانية فى أثناء قرنى رنجائها .

٢ - المدنية الرومانية فى أوجها

وبما نزع قارئ التاريخ المتعجل أن يعد قرنى النظام والاستقرار (بين ٢٧ ق. م. و ١٨٠ م) من بين ما ضاع على الجنس البشرى من حرص . كان عصر إنفاق لا عصر خلق وابتداع ، عصر عمارة وتجارة ، كان الغنى فيه يزداد غنى ويزداد فيه الفقير فقراً وتنحل فيه روح الإنسان ونفسه . فلو نظرنا إليه نظرة سطحية شاملة كما ينظر إليه محلق بطائرة تملو عن الأرض ألى قدم ، لوجدنا الرخاء فى ازدهار بالغ . ولو أننا فى كل أرجاء الدولة من يورك إلى برقة (Cyrene) ومن لشبونه إلى أنطاكية مدناً كبيرة متينة البناء بها المعابد والمسارح والمدرجات والأسواق وما أشبهها . أجل كنا نجد الآلاف من أمثال هاته المدن مزودة « بسقايات الماء aqueducts » (وهى القنوات المشيدة على قناطر مرتفعة لبحر مياه الشرب) وتربطها طرق عامة ممتازة ، ولا تزال أطلالها ندهشنا بفخامتها وروعها حتى يومنا هذا . ولا بد أن يلاحظ المرء زراعة وفيرة وخيرات كثيرة ، وإن لم يدرك فى تحليله العالى أن هذه الزراعة إنما هى من عمل أرقاء مكروهين حاقدين . وإنه لا بد مبصر فى البحر المتوسط والبحر الأحمر حركة مرور للسفن عظيمة . وقد لا يستطيع الطيار وهو على مثل ذلك

الارتفاع الشاهق أن يتبين عند مرآه سفينتين متجاورتين أن إحدهما سفينة قرصان نهب الأخرى .

بل لو أن المشاهد هبط إلى مسافة دانية تساعده على الفحص وتدقيق النظر لشهدت عيناه قدراً كبيراً آخر من التحسينات جديراً بالملاحظة . إذ لانت الأخلاق كثيراً وتهذبت آداب السلوك بوجه عام منذ أيام يوليوس قيصر . وصحب هذا التحسن والرقى زيادة ملموسة في الشعور الإنساني . وقصارى القول أن روما كانت تصعد إلى مستوى المدنية الذي سبقها إليه بلاد الإغريق وبابل ومصر منذ زمن مديد .

وفي زمان الأنطونينيين ظهرت قوانين لحماية الأرقاء من شطط القساوات المفرطة ، فلم يعد مسموحاً لأحد يبيعهم إلى مدارس المجالدين . ولم يقتصر أمر المدن من حيث هيئتها الظاهرة على تجلى المزيد من الفخامة والأبهة في مبانيها ، بل حدث في داخل منازل الأثرياء رقى عظيم في فن الزخرفة . وداخلت القوم بعض التهذيبات التي خففت من غلوائهم في مآدبهم الضخمة ومتعمهم الحيوانية وتظاهروهم السوق في أيام رفاهة روما الأولى . وأصبحت الثياب أفخر وأرق وأكثر جمالا . وقامت بينهم وبين بلاد الصين القاصية تجارة عظيمة في الحرير ، لأن شجرة التوت ودودة القز لم تكونا بدأتا بعد في الانتقال غرباً . فلذا انتهى الحرير إلى روما بعد رحلته الطويلة بالبر والبحر بات يساوى وزنه ذهباً . ومع ذلك كان إقبال الناس عليه عظيماً وكان فيض المعادن الثمينة الميمم نحو الشرق كبديل له فيضا لا ينقطع له معين .

وأصاب التألق في المأكل والمشرب وأساليب الضيافة وفنون إقامة الولائم قسطاً جسيماً من التقدم والرقى . ويصف پترونيوس (Petronius) وليمة أقامها رجل من الأثرياء أيام حكم القياصرة الأول تتعاقب فيها ألوان الأطعمة تعاقباً رائعاً فيها ما هو لذيد شهى ومنها ما هو ممتع يأخذ

بالألحان وبفوق كل ما تستطيع أن تقدمه حتى أناة نيويورك الحديثة وفخامتها وخيالها ، ويتخلل الولاية عزف الموسيقى وعرض للرقص على الحبل المشدود وألعاب الحواة وإلقاء قطع من هوميروس وما إلى ذلك .

ويتجلى في أرجاء الإمبراطورية كافة قدر كبير مما قد نصفه بأنه « ثقافة الموسرين » . وبانت الكتب أوفر عدداً مما كانت عليه قبل زمان القيصرية . ولكم كان الرجال يفاخرون بمكتباتهم ، حتى عندما شغلهم هموم الثروة ومسئولياتها شغلا لا يسمح لهم بأن يوجهوا إلى كنوزهم الأدبية أكثر من نظرة عابرة . انتشرت المعرفة بالإغريقية شرقاً وانتشرت المعرفة باللاتينية غرباً ، فلئن أعوزت أجد الرجال المبرزين في هذه أو تلك من المدن البريطانية أو الغالية أى ثقافة إغريقية عميقة ، كان في ميسوره دائماً أن يتقلب إلى أحد العبدان — ممن يضمن النخاس له حسن إلمامه بالعلوم — ليمده بما يعوزه .

ومن أعظم المحال أن نعالج أدب روما أو فنها بوصفهما شيئاً مستقلاً بذاته . فإن كلاهما استمرار وحلقة من الثقافة الهلينية الأعظم منه شأنًا والأطول منه عمراً . ذلك بأن الفن الهليني والآداب الهلينية أنبتت فرعاً لاتينياً . وكان الجذع الأصيل موجوداً قبل أن نبت الفرع ، ثم استمر الجذع ينمو بعد أن ذوى الغصن . وكان العقل اللاتيني ينجح من حيث التعبير الأدبي قبل أن يتأثر بالنماذج الإغريقية إلى شكل أدبي هو الساتورا (Satura)^(١) إن صح أن يطلق عليها لفظ شكل أدبي ، وهي أسلوب يشبه في روحه « التمثيلية الاستعراضية » في الوقت الحاضر ، وهي خليط من التنديد والتقليد والموسيقى . وكانت طائفة من الشعراء هم القاتس^(٢) (Vates) تنشده

(١) Satura كلمة لاتينية معناها المجهو والقذح المصوغ في قالب شعر تهليسي .

(المترجم)

(٢) Vates كلمة لاتينية معناها شاعر أو منشد ملهم . (المترجم)

كذلك على مسامع الفلاحين أشعاراً تهكمية هي الأشعار الفسكينينية^(١) . وكانت هناك أيضاً خطب ومراثٍ وانبهالات دينية . وتطورت « الساتورا » مع تقدم الكتابة إلى هيئة كشكولٍ مغلط من الشعر والنثر ، ثم تطورت هذه مرة أخرى إلى قصص نثرى أكثر تسلسلاً . وقد ضاع الكثير من الأدب اللاتينى ؛ إذ كان معظمه لأمر ما ، لا يروق الرهبان المسيحيين ولا يرونه جديراً بالحفظ والاستبقاء ، ولكن لما عمت القراءة وتكاثر إنتاج الكتب ، انتشرت القصص النثرية على الراجح انتشاراً واسعاً جداً ، ولكن لم يبق منها إلا قصاصات وأجزاء قليلة .

ولا مرأ أن الشعب الرومانى فى العهد المتأخر من الجمهورية وصدر عصر الإمبراطورية كان جمهوراً محباً لقراءة القصص الخيالية . فإن كتاب الساتيريكون^(٢) الذى ألفه پترونيوس والذى يرجع إلى زمان نيرون ، من أشد الآثار الأدبية الباقية توضيحاً لهذا رأى . فإنا من أحد مارس فن كتابة القصة قط بمسطيع أن يقرأ تلك القطعة الزاكية دون أن يدرك امتيازها بالصنعة الفنية العالية . ولا بد أن قد كانت توجد مئات من تلك الكتب ، ولا بد أن عشرات من الرجال كانوا يشتغلون بفن الكتابة قبل أن صار إنتاج الساتيريكون فى حيز الإمكان . وثمة منحنى آخر كان فيه الشعر التهكمى (satire) لهوراس وجوفينال مديناً لروح « الساتورا » بالكثير ، وكان أيضاً طرازاً واسع الانتشار من مادة القراءة ؛ بيد أنه منذ القرن الثالث ق. م. وما يليه ، كان النفوذ الإغريقى فرض على العقل اللاتينى الأشكال ، التى كانت استقرت عليها فيما سلف الكوميديا الإغريقية . والكوميديا (الملهاة) اللاتينية توشك أن تكون صورة إغريقية ذات صبغة لاتينية أكثر منها تطوراً

(١) نسبة إلى مدينة فى إتروريا تسمى فسكينا **Fescennina** والشعر الفسكينى هو الشعر الروائى الضائى أو الهجائى الرخيص . (المترجم)

(٢) الساتيريكون قصة تشبه الرواية الهزلية ، فيها خلعة وتدخلها اللذعات من الهجو القارس . (المترجم)

محلياً محتفظاً بطابعه القومى الخاص . وما على القارئ الذى قد يرغب فى أن يرى نموذجاً لما كانت عليه إلا أن يلتقى نظرة إلى مسرحيات بلوتوس (Plautus) وتيرينس (Terence) وهى فى متناول يده فى طبعات حديثة . وكان هناك أيضاً تراث لاتينى مستقل من النثر الواضح البين الذى بذل كاتو الرقيب كثيراً من الجهد فى مناصرته . ومن الشائق الممتع أن يقارن المرء بين كتاب قيصر « عن الحرب الغالية » (De Bello Gallico) وبين مؤلفات ثوسيديدس (Thucydides) . فمن حيث سهولة مدخله وقوة تماسكه ، لو جاز لنا أن نصدم العالم المدقق الميال إلى الجدل والرزازة بتشبيه عصرى ولكنه مناسب ، فإن الأول للثانى أشبه شئء بحقيبة الزينة المجهزة بكامل أدواتها إلى جوار منضدة المزدان (التسريحة) .

كانت منزلة العلوم الإغريقية ذات الطراز الذى تعارف الناس على قبوله وإقراره تعادل فى رفعتها بروما أثناء عصر أنطونينوس بيوس المقام الذى تبوأته فى أكسفورد وكبريدج بانجلترا إبان حكم الملكة فيكتوريا . وكان العالم بالأدب الإغريقى يلتقى من الاحترام المقترن بالغباء والاحتقار العملى نفس المزيج الذى كان يلقاه علماء اليونان القديمة إذ ذاك . وبرز قدر ضخم جداً من الدراسات الإغريقية الضليعة كما ظهر قدر جسيم جداً من مدونات النقد والتعليق . وفى الحق لقد بلغ الإعجاب بالأدب الإغريقية حداً كاد يقضى على الروح الإغريقية قضاء تاماً . وكانت مشاهدات أرسطو المدونة تلتقى من على التقدير ما يُحسب أية محاولة لتقليد ما سنه من نظام لمواولة البحث العلمى . وطاول شيشرون كلا من ديموستينز وسالتوست (Sallust) المؤرخين الإغريقيين . وتعلم كاتولوس من خير النماذج الإغريقية كيف يهتك الستر عن خفايا قلبه . وكما كان لبلاد الإغريق ملاحمها وما إليها من أدب ، أحس الرومان أنهم كذلك يجب أن تكون لديهم ملاحمهم ، وكان عصر أوغسطس عصر زيف باهر . فأخذ فرجيل نفسه - فى تواضع وعزم توجا بالنجح والرشاقة - بمطاوله الأوديسيا والإلياذة بملاحمته الإنيادة . ويتحدى كل

من أوفيد (Ovid) وهوراس خير شعراء الإغريق في الأشعار الغنائية (Lyric) والمرثى . .

على أن فيض الأدب الإغريقي ظل يدارج هذا « العصر الذهبي » للأدب اللاتيني ، متدارك التيار عريضاً زائحاً . حتى إذا انقضى على هبوط قوة الدفع اللاتينية زمان طويل ، كان العالم الإغريقي ما يزال غنياً بالإنتاج . بل لقد واصل مسيره بلا انقطاع حتى تداخل في الأدب المسيحي المبكر . ولقد أسلفنا لك القول عن البدايات الفكرية الزاكية في الإسكندرية وعن تدهور أثينا النسبي . فلئن كانت العلوم في الإسكندرية سرعان ما ماتت وذوت ، فإن الفيض الأدبي لم يكف عن منافسة روما منافسة وسطاً بين بين ، وكان إقبال الناس هائلاً على نسخ الكتب التي لم يكن منزل أى مؤسر يُعد وافياً كاملاً بدونها . واستمر تدوين التاريخ وكتابة التراجم . وقد تحدث بوليبيوس (Polybius) - (حوالي ٢٠٤ - ١٢٢ ق . م) عن غزو روما لبلاد الإغريق . وأنشأ بلوتارك (حوالي ٥٠ - ١٠٠ م) دراساته المقارنة عن عظماء الرجال . وظهر عدد لا يحصى من القصص والمحاورات ، وقد ضاع الآن معظمها مرة ثانية . وكان لوكيان (Lucian) (١٢٠ ؟ - ٢٠٠ م) كاتباً قديراً واسع الخيال مبتكراً وهو لا يزال موضع تقديرنا وإعجابنا . وكانت حركة النقل والترجمة بين الإغريقية واللاتينية عظيمة جسيمة . فلقد كان الأدبان يكتنفهما جو فكري واحد ويكادان يتدانيان شأن الأدبين الإنجليزي والأمريكي اليوم .

كل هاته الثقافة الواسعة الانتشار التي كانت بين يدي السراة من أرباب البيوتات ، تعتبر من حسنات ومفاخر الإمبراطورية الرومانية في صدرها الأول . ويستفيد منها جيون أكبر الفائدة في استعراضه المشرق الرائع لعصر الأنطونيين ، الذي يفتح به كتابه « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها »^(١) وكانت خطته التي اختطها لذلك السفر الجليل تستلزم مقدمة قوامها

الفخامة والسكينة والوقار . ولكنه كان أحصف وأمهر من أن يفوته أن يقيد من استحسانه الظاهر للأحوال التي يصفها ، فيقول إنه « في ظلال الإمبراطورية الرومانية ، كان مجهود شعب مجدّ ذكي منصرفاً بطرق شتى ولكن من غير انقطاع إلى خدمة الموسرين . فقد كان الذين اصطفاهم الحظ وآثرهم بالثراء يضمون في ثيابهم وموائدهم ومنازلهم ورياشهم أشات كل رقى أصابته الكماليات ووسائل الراحة وكل ألوان الرشاقة وكل فنون البذخ وكل شيء من شأنه أن يرضى كبرياءهم أو يشبع شهواتهم . ولقد حمل الأخلاقيون في كل عصر على مثل هذه الكماليات ونعتوها بالترف ذلك الاسم البغيض الشنيع . وربما كان أجدى وأدعى إلى الفضيلة لدى الجنس البشرى وأدنى إلى سعادته أن يمتلك الكل ضروريات الحياة ، ولا يحصل أحد على ما يزيد عن حاجته من الكماليات . ولكن الذي نشهده فيما يكتنف الجماعة الإنسانية اليوم من أحوال يعثرها النقص ، أن الترف وإن كان يصدر عن رذيلة أو سفاهة وحقاقة ، إلا أنه يبدو الوسيلة الوحيدة التي في طوقها أن تصلح من عدم المساواة في توزيع الأملاك . فإن العامل الميكانيكي المجد والفنان الخاذق اللذين لم يحصلوا على نصيبهما من الأرض ، يستوليان من ملاك الأراضي على ضريبة اختيارية . ويحس هؤلاء الأخيرون بدافع المصلحة الذاتية بضرورة الاهتمام بتحسين هاته المزارع حتى يتسنى لهم أن يحصلوا على ملذات إضافية عن طريق منتجاتها . فهذه العملية التي تلمس آثارها الخاصة في كل مجتمع كانت أبعد أثراً وأقوى نشاطاً وأوسع مدى في العالم الروماني منها في أي مجتمع آخر . فلو أن صناع سلع الترف وتجارها ، لم يستردوا بطريقة غير محسوسة إلى الرعايا المجدين المبالغ التي كانت تفرضها عليهم جيوش روما وسلطانها لاستنزفت كل ثروة المقاطعات في وقت قصير » . وعلى هذا الحال استمر جيبون يتكلم في تهكم لاذع يتمشى في ثنايا ذلك الوصف الزاهر .

ولو أننا نظرنا نظرة أوسع من تلك التي تنهياً لطائرة محلقة ، إلى حركة الشعوب على ظهر البسيطة ، أو نظرة أدق مما تستطيع أن تصل بنا إليه مشاهدة ما في الطرقات والمدرجات والولائم ، نظرة تنفذ إلى أرواح الناس وأفكارهم ، فلنا سنجد أن ذلك المظهر الرائع للرخاء المادى إنما هو مجرد ثوب براق لتنظيم سياسى (Polity) قد عميت عيناه عن كل ما فى الخارج والداخل من الأمور كما عميت عن المستقبل . فلو أننا مثلاً وازننا بين قرنى عظمة روما والفرص الطيبة التى سنحت فيهما ، وهما القرنان الأول والثانى الميلاديان ، وبين قرنى الحياة الإغريقية والهلينية المبتهئين قرابة (٤٦٦ ق. م.) بعهد عظمة بريكليس وسيطرته فى أثينا ، لأذهلنا ما نراه مما لا سبيل إلى تسميته نقصاً وانحطاطاً لأنه كان انعداماً تاماً للعلوم . فلن صدوف الرومانى الغنى عن حب الاستطلاع وإعراض الحكام الرومان عن البحث والتنقيب كان ظاهرة تفوق فى ضخامتها كل شئ لديهم حتى فهم المعارى .

وهناك مجال واحد من مجالات العلم والمعرفة ، ربما حق لنا أن نتوقع من الرومان أن يظهرُوا فيه شيئاً من النشاط واليقظة والإقدام بصفة خاصة ، وأعنى به علم الجغرافيا . فإن مصالحهم السياسية كانت تقتضيهم درساً وبحثاً متواصلاً فى الأحوال السائدة فيما وراء حدودهم من أقاليم ، ومع ذلك فإن ذلك الدرس والبحث لم يتم قط . وليس هناك بالفعل أى مصنفات دَوّن الرومان فيها قيامهم برحلات وكشوف وراء حدود الإمبراطورية . وليس هناك أى بيانات شائعة عجيبة كالتى يذكرها هيرودوت عن الإسكيزيين والإفريقيين ومن إليهم . وليس فى اللاتينية شئ يستطيع أن تقارنه بالأوصاف الأولى للهند وسيبيريا مما هو وارد فى اللغة الصينية . ولقد ذهب الكتائب الرومانية يوماً إلى إسكتلندة ، ومع ذلك فلم يخلفوا أى وصف يتجلى فيه الذكاء الحق لقبائل البكت (Picts) أو الإسكتش (Scots)

فضلا عن أى وصف لما وراءهم من بحار . ويبدو أن أمثال تلك
الكشوف التى قام بها هانو أو الفرعون نخاو كانت مما لا يخطر للخيال
الرومانى ببال .

والراجح أنه بعد تدمير قرطاجة هبط عدد السفن التى كانت تخرج
إلى المحيط الأطلسى مارة بمضيق جبل طارق إلى قدر لا يكاد يذكر .
وأكثر من هذا استحالة فى ذلك العالم عالم الثروة السوقية والذكاء المستبعد
والحكم البيروقراطى ، وجود أى مزيد من التطور فى علمى الفلك
والجغرافيا الطبيعية الإسكندرانيين . بل ليس يبدو أن الرومان بحثوا أى
نوع من الرجال كان أولئك الذين ينسجون الحرير ويجهزون التوابل
والأفاويه أو يجمعون الكهرمان أو الآلات التى كانت ترد إلى أسواقهم .
ومع ذلك فإن سبل البحث كانت مفتحة مبسرة . فأما أن السبل العديدة
كانت تمتد فى كل اتجاه مؤدية إلى أنسب «نقط الوثوب» لكل من أراد
استكشافاً ، فأمر لا يعسر على القارئ تصوره .

وكانت أشد أقطار العالم القديم بعداً تهب لكى تمد روما بألوان الأبهة
والمملذات . فغابات إسكنديا تقدم نوعاً من الفراء الثمين . ويوثق بالكهرمان
بطريق البر من شواطئ البلطيق إلى الدانوب ، وكان البرابرة يعجبون
للأسعار التى كانوا يتسلمونها فى مقابل هذه السلعة العديمة الفائدة .
وكان الطلب على الأبسطة البابلية والمصنوعات الشرقية الأخرى جسيماً .
بيد أن أهم فرع للتجارة الأجنبية كان مع بلاد العرب والهند . فى كل سنة
قراية زمن الانقلاب الصيفى ، كان أسطول مكون من مئة وعشرين سفينة
يبحر من ميوس هورموس (Myós Hormos) ، وهى ميناء مصرية على
البحر الأحمر ، ويقطع المحيط بمساعدة الرياح الموسمية الدورية فيما يقرب من
أربعين يوماً . وكان ساحل ما لآبار أو جزيرة سيلان هدف رحلتهم البحرية
فى العادة ، فإذا وصلوا إلى هذه الأسواق وجدوا التجار الوافدين من أقطار

آسيا القصية ينتظرون مقدمهم . وكان موعد عودة الأسطول إلى مصر هو شهر ديسمبر أو يناير ، وما أن تنقل حمولته الثمينة على الجبال من البحر الأحمر إلى نهر النيل ، فتنساب في ذلك النهر إلى الإسكندرية حتى تفيض على الفور إلى عاصمة الإمبراطورية^(١) .

وكانت هناك مستودعات رومانية ومخازن للتجارة في جنوب الهند . وفصيلتان من الجيش الروماني ترابطان في كرانجانور (Cranganore) على ساحل مالابار ، حيث أقيم هناك أيضاً معبد لأوغسطس .

ومع ذلك فإن روما قنعت بأن تأدب المآدب وتحم أداء الأموال وتثرى وتشاهد حفلات مجالديها ، دون أن تبدى أدنى محاولة لتعلم شيئاً عن الهند أو الصين أو فارس أو إسكيزيا أو بوذا أو زرواستر (زرادشت) أو عن الهون أو الزوج وسكان إسكندناوه أو شيئاً من أسرار البحر الغربي .

وإذا نحن أدركنا الجو الاجتماعي الموات الخالي من الإلهام الذي أذن بقيام مثل هذا الجمود وعدم الاهتمام ، استطعنا أن نتعرف الأسباب التي جعلت روما إبان عصر الفرصة السانحة لها تفشل في أن تنهض بأى علم فيزيق أو كياوى ، وأن لا تحصل نتيجة لهذا على زيادة في الهيمنة على المادة والتحكم فيها . وكان غالب الأطباء في روما من الإغريق وكان الكثير منهم عبداناً أرقاء - ذلك أن أثرياء الرومان قد غاب عنهم أن العقل البشرى المشتري بالمال إنما هو عقل اعتراه الفساد . ومع ذلك فإن هذا الحال لم يكن راجعاً إلى أى قصور في النبوغ الطبيعي لدى الشعب الرومانى ؛ بل كان راجعاً في كليته إلى ظروفهم وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية .

وآية ذلك أن إيطاليا أخرجت منذ العصور الوسطى حتى أيامنا هذه عدداً

(١) نقلاً عن جيبون .

كبيراً من رجال العلم الأذكياء اللامعين . وكان من بين أحصاف الكتاب والعلماء وأنفذهم بصيرة ، إيطالي ملهم يدعى لوكريتيوس (Lucretius) — عاش بين زمن ماريوس ويوليوس قيصر — (من قرابة ١٠٠ إلى قرابة ٥٥ ق . م) . وكان هذا الرجل العجيب من طراز ليوناردو دافنشي (وهو إيطالي كذلك) أو من طراز نيوتن الإنجليزي . فكتب عن أساليب الطبيعة وتطورها قصيدة لاتينية عصماء طويلة تسمى « في طبيعة الأشياء » (De Rerum Natura) ، تنبأ فيها ببصيرة مذهشة عن تكوين المادة والتاريخ الأول للجنس البشرى . . . ويقتبس أسبورن في إعجاب عظيم في كتابه « العصر الحجري القديم » فقرات طويلة من كلام لوكريتيوس عن الرجل البدائي ، لا تزال حتى اليوم جيدة ومطابقة للحقيقة . بيد أن هذا كان مظهرًا فردياً ، وكان بذرة لم تثو ثمارها . فكان العلم الروماني يولد ميتاً خامداً في جو خانق من الثراء والاضطهاد العسكري . والشخص الحقيقي الذي يمثل موقف الروماني القديم من العلم ليس هو لوكريتيوس ، وإنما هو ذلك الجندي الروماني الذي قطع أرشميدس إرباً عند فتح سيراكوزة عنوة .

ولذا كانت ضوابط العلوم الفيزيائية والبيولوجية ضويت واضمحلت وماتت وسط الرخاء في تربة روما الحجرية الصلدة ، فإن بلدرو العلوم السياسية والاجتماعية لم تنح لها البتة فرصة تساعد على إنباتها . فكانت المناقشة السياسية تعد خيانة للإمبراطور ، وكان البحث الاجتماعي أو الاقتصادي يعد تهديداً للأثرياء . ولذا فإن روما حتى نزلت بها الكارثة ، لم تتبين قط مبلغ سلامة بنائها الاجتماعي بالفحص والتحريض ولم تبحث البتة في القيمة القصوى لتمسكها بالروح الحكومية الحامدة وتقاليدها المتزمتة . وبناء على هذا فإن واحداً من الناس لم يدرك خطورة فشلها في إقامة صرح أى خيال فكري ترتبط به أجزاء إمبراطوريتها بعضها ببعض ، ولا أى تعليم عام يقوم على أفكار مشتركة تجعل الرجال يقاتلون ويعملون في سبيل الإمبراطورية كما يقاتل الرجال ويكدون من أجل تراث عزيز عليهم . على أن حكام

الإمبراطورية الرومانية لم يكونوا يرغبون في أن يحارب مواطنوهم بأية روح مهما يكن ما يحاربون من أجله . كان الأغنياء قد أكلوا قلب الشعب عامة ، وقنعوا بالوجبة التي طعموها . وكانت الكتائب مليئة بالألمان والبريطان والنوميديين ومن إليهم . وكان أغنياء الرومان يظنون حتى أحاطت بهم النهاية بقضها وقضيضها ، أنهم يستطيعون أن يواصلوا شراء البرابرة ليدفعوا عنهم غائلة العدو في الخارج والفقراء المتمردين في الداخل .

وبحسبك هذا البيان التالي بما أتمه الرومان من التعليم لإظهار كم كان ما أتموه ضئيلاً . إذ يقول مستر هـ . ستيوارت جونز « منح يوليوس قيصر حقوق المواطنة الرومانية للمعلمي الفنون الحرة ، وأسبغ فسبازيان الهبات على وظائف أساتذة الخطابة الإغريقية واللاتينية بروما . وبسط من تلاهما من الأباطرة وعلى الخصوص أنطونينوس بيوس تلك المزايا نفسها إلى الأقاليم والولايات . كذلك وجهت بعض الجهود المحلية وشيء من السخاء بالأموال نحو التعليم . ولنا لنعلم من مراسلات بليني (Pliny) الأصغر أن المدارس العامة أنشئت في بعض المدن بشمال إيطاليا . ومع أن العرفان انتشر انتشاراً كبيراً إبان حكم الإمبراطورية فلم يكن ثمة تقدم فكري حق . حقاً إن أوغسطس جمع من حوله أذكى كتّاب زمانه وألمعهم ، واتفق أن جاء مطلع الملكية الجديدة مع العصر الذهبي للأدب الروماني . بيد أن هذا العصر كان قصير الأجل . وشهدت بواكير الحقبة المسيحية انتصار الروح القديمة (الكلاسيكية) كما شهدت أولى مراحل التدهور الذي ينتظر كل الحركات الأدبية التي تتجه إلى الماضي أكثر منها إلى المستقبل . »

وقد دبح كاتب إغريقي لعله لونجينوس فيلولوچوس (Longinus Philologus) مقالاً عن الأجداد الرفيعة شخص فيه حالة الانحطاط الذهني التي يرسف فيها عصره — وهو يقع في زمن ما من القرن الثاني أو الثالث أو الرابع الميلادي — مبيناً بغاية الوضوح عاملاً واحداً ظاهراً يرجع إليه السقم

العقل في العالم الروماني . وينقل عنه جيبون فيقول : « إن لونيچينوس الرفيع القدر الذي عاش في زمان متأخر بعض الشيء ولى بلاط ملكة سورية (وهى زنوبيا) واحتفظ بروح أثينا القديمة ، استرعى انتباهه وأثار أشجانه انحلال معاصريه ، الذى حط من عواطفهم وأوهن من شجاعتهم وقتاً في عضدهم وضيق الأفق أمام مواهبهم . ثم هو يقول بنفس هذه الطريقة « وعلى هذه الشاكلة نفسها فكما أن بعض الأطفال يظلون على الدوام أقزاماً إذا ضغطت أطرافهم في طفولتها ضغطاً شديداً ، فكذلك عقولنا اللينة حين يغلها ما يملؤها من التحامل والتحيز وما يتعوده الناس وينشأون عليه من عبودية حقبة ، إذ تصبح تلك العقول غير قادرة على بسط نفسها أو الوصول إلى تلك العظمة وذلك التناسق والتناسب الحسن اللذين نكبرهما في القدماء الذين كانوا يكتبون بكامل الحرية التي بها يتصرفون لأنهم يعيشون في ظل حكومة شعبية » .

بيد أن هذا الناقد لم يدرك سوى وجه واحد من أوجه القيود التي كانت تغل النشاط العقلي . فإن أهم الخيوط التي غلّت العقل الروماني وجعلته في حالة مستديمة من الطفولية ، كانت تتضمن استعباداً مزدوجاً ، أحدهما اقتصادي والثاني سياسي . والبيان الذى يدلى به جيبون عن حياة رجل اسمه هيروديس أتيكوس (Herodes Atticus) كان يعيش في زمان هادريان ، بين تماماً كم كان نصيب المواطن العادى من أهمة الزمان الخارجية ضئيلاً لا يذكر . كان هذا الأتيكى من أرباب الثراء الطائل ، وكان رأس ما يتسلى به تقديمه منحاً خيرية ضخمة من المباني لمدينة متنوعة . ففتح أثينا ميداناً للسباق وأقام هناك مسرحاً من خشب الأرض محفوراً حفرأً عجيباً تخليداً لذكرى زوجته . وبنى مسرحاً في كورنثة ، ووهب لدلنى ميداناً للسباق وأنشأ الحمامات بثرموبيلاى وبنى بكانوزيوم (Canusium) سقاية حجرية لحر المياه وهكذا دواليك . وإن لسان المرء لينعقد ذهولاً لرويته عالماً كهذا مكوناً من أرقاء وعامة لا يستشارون ولا يقام لرأيهم وزن يستشرف على رؤوسهم

دون مشاركة من جانبهم ، ذلك الرجل الغنى مستمتعاً بتجلية « مزاجه وذوقه » .
ولا تزال كتابات عديدة في بلاد الإغريق وآسيا تخلد اسم هيروديس الأتيكى
« النصير والمحسن » الذى كان يتجول في أرجاء الإمبراطورية تجول من
يتنزه في حديقته الخاصة فخلد ذكره على الأيام بهذه الزخارف والحليات
التي زين بها المدن . ولم يقتصر على العناية بالمباني الفاخرة . بل كان أيضاً
فيلسوفاً ، وإن لم يبق الزمن لنا من حكمته شيئاً . كانت له فيلا كبيرة بالقرب
من أثينا ، وهناك ينزل الفلاسفة ضيوفاً كراماً ما داموا يستطيعون
إقناع نصيرهم بصحة مدعياتهم كفلاسفة ، وأن يتلقوا حديثه باحترام
ولا يكدره بالخصومة الوقحة .

ومن الجلى أن العالم لم يصب شيئاً من التقدم في أثناء هذين القرنين من
الرخاء الذى بلغته روما . ولكن هل كان العالم سعيداً في ركوده هذا ؟
إن هناك من الدلالات التي لا يتطرق الخطأ إليها ما يشير إلى أن الأغلبية
انظمت من الكائنات البشرية في الإمبراطورية ، وهى كتلة من الناس
يتراوح عددها بين مئة مليون ومئة وخمسين مليوناً ، لم تكن بالسعيدة ، بل
الراجح أنها كانت جد شقية شقاءً حاداً بالغاً يتوارى تحت ستار خارجي
من فخامة الإمبراطورية وعظمتها . حقاً إنه لم تحدث حروب عظيمة ولا
غزوات داخل الإمبراطورية ولم يحل بالجنس البشرى إلا الشيء الطفيف
التافه من المجاعة أو الحريق أو المذابح . ولكن كان هناك من الناحية الأخرى ،
تضييق شديد من جانب الحكومة وتضييق أشد من جانب الملاك للأغنياء
يحدان من حرية نشاط كل إنسان تقريباً . لذا فإن الحياة لدى الغالبية العظمى
التي لم تكن بالغنية ولا الموظفة ، ولا هى من عنصر النساء والطفيليين الذين
يلوذون بالأغنياء والموظفين ، لا بد أن كانت حافلة بالكد المضنى والكدح
الشديد ، يعوزها الأمل والحدوى وتنقصها الحرية إلى حد لا يكاد يتصوره
عقل حديث .

وربما جاز لنا أن نذكر بصفة خاصة ثلاثة أمور تدعم الرأى القائل بأن هذا العصر كان عصر تعاسة وبؤس شامل : أولها جمود السكان وموت إحساسهم العجيب حيال الأحداث السياسية . فلطالما رأوا مدعياً لعرش الإمبراطورية من محدثي النعمة يخلف مدعياً آخر ، دون أن يبدو عليهم أى اهتمام أو مبالاة . إذ ليس يلوح أن مثل هذه الأمور ، ما كانت تعينهم . فقد زال الرجاء من النفوس . فلما أن تدفق البرابرة بُعَيْد ذلك على الإمبراطورية . لم يكن هناك من يواجههم إلا الكتائب . فلم يحدث يوماً أن هب الشعب لمقاتلتهم . وليس من ريب أن عدد البرابرة في كل مكان كان أقل من عدد الرومان لو خف الأهالي لمقاومتهم . بيد أن الأهالي لم يقاوموا ، وواضح أن الدولة الرومانية لم تكن تبدو في نظر كتلة سكانها شيئاً يستحق أن يحارب المرء من أجله . ولعل الرقيق وعامة الشعب كانوا يرون في البرابرة مؤذناً بقدر من الحرية والكرامة الإنسانية أكبر مما كان يمنحهم إياه حكم موظفي الإمبراطورية الفاخر واستخدام الأغنياء لهم ذلك الاستخدام المفضى الطاحن . ولم يكن نهب القصور وإحراقها وحدث مذبحة من وقت إلى آخر مما تنزعج له الطبقة الدنيا الرومانية انزعاج الأغنياء والمثقفين الذين نحن لهم مدينون بكل ما لدينا من أخبار عن تحطم النظام الإمبراطورى . والراجح أن عدداً كبيراً من الأرقاء والعامة انضموا إلى البرابرة الذين لم يكونوا يعرفون إلا القليل من التحزب العنصرى أو الوطنى ، والذين كانت أيديهم مبسوطة للترحيب بكل جندي تنبدى فيه أمارات الاقتدار . ولا ريب أن السكان وجدوا البرابرة أشد وبالا حتى من جامع الضرائب ومن النحاس في كثير من الأحوال . بيد أن هذا الاكتشاف جاء بعد فوات فرصة المقاومة أو استعادة النظام القديم .

وإننا لنجد ظاهرة ثانية تشير إلى نفس هذه النتيجة الذاهبة إلى أن الحياة في أعين الفقراء والعبدان وغالبية الناس أثناء عصر الأنطونيين لم تكن تكون جديدة بأن يحياها الإنسان ، تلك الظاهرة هى التناقص المطرد في عدد سكان

الإمبراطورية . فكان الناس يأبون أن يكون لهم عقب وذرية . وأغلب الظن أنهم كانوا يفعلون ذلك لأن منازلهم لم تكن في أمان من الاضطهاد والظلم ، ولأنه لم يكن هناك في حالة العبدان أى ضمان يضمن ألا يفرق السيد بين الزوج وزوجه ، ولأن الآباء لم يكونوا يعقدون على أولادهم أى أمل أو فخر . وغنى عن البيان أن المسرح الأعظم لإنتاج النسل والأبناء في الدول الحديثة هو على الدوام أرض الريف الزراعية ، حيث يعيش الريفيون في ظلال أمن واطمئنان يتفاوتان قدراً . بيد أنه في ظلال الإمبراطورية الرومانية كان الفلاح والزارع الصغير في ريفه بين مدين قد أرهقه الدين وأقلقه وبين شخص تُضيق عليه شبكة حرجة من القيود تجعل منه مولى أرض (serf) لا روح فيه ، أو كان يطرد طرداً تاماً ويحل محله في العمل والإنتاج عصابات من الأرقاء .

ثم نتكشف لنا أيضاً دلالة ثالثة على أن هذا العصر المزدهر في ظاهره كان عصر تعاسة عميقة ومحنة عقلية لدى جماهير غفيرة ، وتتجلى هذه الدلالة في انتشار حركات دينية جديدة بين جميع السكان . ولقد رأينا كيف أنه أمكن في حالة قطر صغير كبلاد اليهودية ، أن يصاب شعب بأكمله بعدوى الاقتناع بأن الحياة خاطئة غير مرضية ، وأنه لا بد لها من شيء يقوم ما اعوج منها . ومن ثم تبلّرت عقلية اليهود كما نعرف حول فكرة الوعد ، وعد الإله الأحد الحق ومجيء مخلص أو مسيح . وثمة أفكار أخرى تكاد تخالف هذه ، أخذت تنتشر في الإمبراطورية الرومانية . وهى لم تكن غير أجوبة متنوعة على سؤال واحد يتردد على ألسنة الناس عامة : « ماذا يجب علينا أن نفعل للوصول إلى الخلاص ؟ » . فإن النتيجة الطبيعية المألوفة للتبرم بهذا الضرب من الحياة على ما هى عليه تطيح بالخيال إلى حياة بعد حياتنا هذه ، تعوّض على الناس كل ما يلقونه في هذه الحياة الدنيا من التعاسات والمظالم . والاعتقاد بمثل هذا الجزء إنما هو مسكن عظيم للشعور بالتعاسات .

الحاضرة . وكانت الديانة المصرية من قديم الزمان مشبعة بفكرة الخلود ، وقد رأينا كيف أن هذه الفكرة كانت محورية أساسية في نحلة سيرابيس وإيزيس بالإسكندرية . وقد انتعشت الأسرار العتيقة : أسرار عقيدة « ديمتر »^(١) و « أورفيوس » ، وهى الأسرار الخوفى لجنس البحر الأبيض - وكونت بينها وبين هذه العقائد الجديدة ضرباً من التيوكرازيا^(٢) ، « أى اتحاد الآلهة » .

وكانت الحركة الدينية العظيمة الثانية هى الميتراية^(٣) (Mithraism) وهى تطور للزرادشتية (Zoroastrianism) ، وهى ديانة ذات أصل أرى عريق فى القدم ، يمكن تقفى أثرها حتى الشعب الهندوإيراني قبل أن يتفرع إلى فرس وهندوس . ولسنا بمستطيعين أن نفحص هنا أسرارها فى أى تفصيل^(٤) . وكان ميترا رباً للنور ، وشمساً للبر والتقوى ، وكان يُمثَلُ دائماً فى مقاصير ملته وهو يذبح عجلاً مقدساً يسيل دمه فىكون هو بذرة الحياة . وبحسبك أن هذه العقيدة عقيدة عبادة ميترا وصلت إلى الإمبراطورية الرومانية قرابة زمان بومبي العظيم مختلطة بعناصر كثيرة مضافة إليها ، وبدأت تشيع شيوخاً واسعاً جداً . إبان حكم القيصرية ، والأنطونيين . وكانت شأن عقيدة إيزيس تعد الناس بالخلود . وكان أتباعها على الأخص من العبيد والجنود ومن أملت بهم عوادي الزمان . وهى فى طرائق عبادتها وفى إيقاد الشموع أمام المذبح إلى غير ذلك ، تحمل ضرباً معيناً من المشابهة السطحية بالتطورات الأخيرة لطقوس الحركة الدينية الكبرى الثالثة التى ظهرت فى العالم الرومانى وأعنى بها المسيحية .

والمسيحية أيضاً عقيدة خلود وخلص ، وانتشرت فى بادئ الأمر هى الأخرى كذلك بين مصاف الطبقات الدنيا والتعساء . وقد هاجم الكتاب

(١) ديمتر : ربة الزراعة عند قدماء اليونان . (المترجم)

(٢) التيوكرازيا (Theocrasia) هى المزج بين عبادة آلهة مختلفة ، وقد أسميناها أيضاً

بالمزج الإلهى . (المترجم)

(٣) ميترا : إله الإيرانيين والهنود . ومعنى الكلمة عندهم النور أو الضياء أو الحب .

(المترجم)

(٤) راجع كتاب (Forerunners and Rivals of Christianity) لمؤلفه ليجي legge .

(٢٣ - معالم)

الحديثون الديانة المسيحية ووصموها بأنها « ديانة أرقاء » . وكذلك كان حالها فلإنها ضمت الأرقاء والمدوسين بالأقدام المهيضى الجانب ، فنحتهم الأمل وردت إليهم احترام الذات ، حتى أصبحوا يناصرون البر والهدى مناصرة الرجال وواجهوا ألوان الاضطهاد والتنكيل والتعذيب . فأما أصل المسيحية وكنهها ، فإننا سنتكلم عنهما بمزيد من الإسهاب فى فصل تال .

٣ - خصائص الفن فى ظلال الإمبراطورية الرومانية

قلنا آنفاً إن ثقافة روما الفنية والأدبية ليست سوى مجرد فرع من الثقافة الهلينية العظيمة ، ورث كل ما كانت تستطيع بلاد الإغريق وغرب وآسيا وبابل ومصر أن تمنحه إياه . بيد أن هناك اتجاهات بعينها ، نحا فيها الجانب الرومانى وجهات محددة جداً اختص بها وحده ، ولم يكن ذلك إلا فى فن العمارة خاصة . والإمبراطورية الرومانية تؤذن بدور جديد من أدوار التاريخ أى بتغير فى المعيار ، انعكس فيما لمبانيها من الضخامة العظمى والحجم الأكبر . وأهم هبات روما لفن العمارة هى الأسمنت واستعمال العقد (الباكى) بحرية ووفرة . وحيثما ذهبت الكنائس الرومانية ، ظهر العقد وظهر الأسمنت . وبفضل الأسمنت صار فى الإمكان إقامة القباب والأقبية الهائلة الضخمة ، كما أصبح من اليسير تبطينها بالرخام . واقتبس الرومان العمود الكورنثى الغنى بالنقوش ثم غيروه وأتقنوه واستعملوه مع العقود . وإنما الممرات ذات العقود فكرة رومانية أصيلة ؛ وكذلك أيضاً ذلك الميل إلى إقامة المباني المستديرة ، وإلى وضع العقود (البواكى) بعضها فوق بعض فى طوابق المباني المختلفة ، وأينما ذهب الرومان خلفوا المدرجات ، وأقواس النصر والشوارع ذات العقود والسقايات المائية المبنية والقصور الفاخرة . كذلك أنشأوا طرقات ذات تدرج معقول وكبارى بديعة وسقايات متقنة . وما يزال الإيطالى حتى يومنا هذا خير من ينشئ الطرق فى العالم .

ولم يحدث لفن العمارة الرومانى أى تطور منظم كالذى حدث للمصرى والإغريق . وكانت جهوده الأولى تحلو حذو النماذج الإترورية وهى من خشب مكسو بالفخار . ثم ما لبث الحجر أن حل محل الخشب تدريجياً . ولكن بقيام الإمبراطورية انتقل المهندس المعمارى الإغريق إلى روما واستخدم من فوره القرص الحديدية التى أتاحت له والمواد التى وجدها ميسرة فى متناوله . ففن العمارة الرومانى لم يتطور بمقدار ما تفجر فجأة ولكنه إذا تفجر ساد بقوة وعم انتشاره .

وقد صعب نسور الألوية الرومانية فن نحت قوى إغريقى كذلك فى جوهره . وإن مجتمعاً مكوناً من رجال أثرياء كبار ، لمجتمع لا تكاد تكون له مندوحة عن الإنتاج فى فن التصوير ، ثم إن الصورة المحفورة تماثلاً نصفياً والتماثل الكلى اللذين يصوران خصوصية صاحبهما فى ماثلة ذاتية دقيقة ، قد وصلا إلى أعلى منزلة لتطورتهما فى ظلال العصر الأخير من الجمهورية وصدر عصر القياصرة . وبقى التصوير أيضاً مليئاً بالحياة . وهناك حادثة سعيدة هى حادثة تدمير بركان فيزوف لمدينتى بومبيى (Pompeii) وهركولانيوم مع الإبقاء عليهما مطمورتين ، مكنت العالم الحديث أن يقدر ما كان عليه فن التصوير لديهم من الوفرة والتنوع والجمال فى القرن الأول الميلادى . وكانت هاتان المدينتان منتجع الأغنياء ، وإن لم تكونا بأى حال ملتقى أرفع الأغنياء شأنًا ، ويحمل إلينا ما تحتويان من ثروة من الطُرف والمواد الممتعة أبرز معيار لما ضاع علينا من روائع الفنون وبدائعها .

والفسيفساء طراز آخر من الإنتاج الذى بزت فيه الإمبراطورية الرومانية فى عصرها الأول أى دور سابق من أدوار المدنية . كذلك وصلت صناعة الزجاج إلى مستويات عالية فى الجمال على يد عمال من الإغريق والشرقيين على الأخص .

وقد أصيب الفن بحلول النوازل والقوضى التي أطبقت على الإمبراطورية الرومانية الغربية في نهاية القرن الثاني الميلادي ، بتوقف في الكثير من نواحي هذه القوة الإنتاجية الفنية . واستمر فن عمل الصور وانتعش فن العمارة من جديد . بيد أنه بعد القرن الثالث تصلبت الروح الطلقة الفياضة في كثير من النحائت بتأثير المؤثرات الشرقية .

٤ - قدر معين من الركود في الخيال الروماني

أسلفنا إليك بيان الأسباب التي حملتنا على تقرير أن النظام الإمبراطوري الروماني كان في واقع الأمر تطوراً سياسياً جد غير سليم . ومن السخف أن يتناول المرء بالحديث ما كان ينطوى عليه من فن الحكم والتدبير . إذ لم يكن لديه فن حكم ولا تدبير . كانت له في خير أحواله إدارة بيروقراطية أقامت السلام في العالم فترة من الزمان وفشلت فشلاً تاماً في صيانه . فلنسجل هنا أهم العوامل في فشلها .

ومفتاح كل ما أصابها من إخفاق قائم في انعدام كل نشاط عقلي حر وكل تنظيم يؤدي إلى زيادة العلم والمعرفة وتطورهما وتطبيقهما . فكانت تحترم الثراء وتزدري العلم . وكانت تسلم زمام الحكم للأغنياء وتتصور أن الحكماء يمكن أن يشروا بالمال وأن يساوم عليهم في أسواق الرقيق عند ما تدعو الحاجة إليهم . فهي بناء على هذا إمبراطورية جاهلة سقيمة الخيال إلى حد مروع . فلم تكن تنبأ بشيء ولم تتوقع شيئاً .

ولم تكن من الناحية الاستراتيجية على أي حظ من بُعد النظر ، لأنها كانت صفحة بيضاء في جهلها بالجغرافيا وعلم السلالات البشرية (الإنثولوجيا) . فهي لم تعرف شيئاً عن أحوال روسيا ولا آسيا الوسطى والشرق . وقنعت بأن تتخذ من الراين والدانوب حداً لها ، وألا تبذل أي جهد في سبيل صيغ ألمانيا بالصيغة الرومانية . وما علينا إلا أن نلقى نظرة

إلى خريطة أوروبا وآسيا التي تبين الإمبراطورية الرومانية ، لكى ندرك أن ضم ألمانيا برضاها وإدماجها فيها كان ضرورة ماسة تقتضيها حياة أوروبا الغربية وسلامتها . فلما أن أهل ضم ألمانيا أصبحت إسفيناً لم يكن ينقصه لكى يحطم النظام كله بدداً إلا أن تدفعه مطرقة الهون من الخلف .

وفضلاً عن ذلك فإن هذا التراخي عن توسيع الحدود شمالاً حتى البلطيق ، قد جعل منه ومن بحر الشمال منطقة تجارب وتدريب على فنون الملاحة بين أهل الشمال من سكان إسكندنافيا والدانمارك والساحل الفريزي . بيد أن روما ظلت سادرة في طريقها بغاية الغباء غافلة عن نمو قرصنة في الشمال أحدث عهداً وأشد قوة .

وكان هذا الخيال الكليل نفسه مما دفع الرومان إلى إهمال الطرق البحرية في البحر المتوسط دون تطويرها والنهوض بها . فلما تدفق البرابرة بعد ذلك نحو المياه الدفيئة ، فلسنا نقرأ في تاريخهم عن أى نقل سريع للجيش من أسبانيا أو أفريقيا أو آسيا لإنقاذ إيطاليا وسواحل الأدرياتى . وعلى النقيض من ذلك نرى الوندال يصبحون سادة الحوض الغربى للبحر المتوسط دون أن يحدث ما يشبه معركة بحرية .

وقد صد الرومان عند نهر الفرات حشد من الفرسان الرماة وكان من الواضح أن الكتيبة الرومانية — بالطريقة التي نظمت بها ، — غير ذات جدوى في الأراضي الفسيحة الرحبية ، وكان ينبغي أن يتجلى بنفس الدرجة من الوضوح أن الفرسان الرحّل من ألمانيا الشرقية وجنوب روسيا أو بارتيا لم يكن مفر إن عاجلاً أو آجلاً من أن يحاولوا تصفية موقفهم مع الإمبراطورية . بيد أن الرومان بعد زمان قصير بمئتي سنة كانوا ما يزالون يُسيرون في العالم نفس الكتائب المدربة المجلجلة التي لم يداخل نظامها أى تغيير ، وهى التي كان من الميسور الالتفاف حولها ركضاً بالخياد وتمزيقها إرباً . ولم تتعلم الإمبراطورية أى شئ حتى من معركة كاراي .

وإن ما أظهره الاستعمار الرومانى من العجز عن التجديد فى وسائل

المواصلات لأمر يدعو كذلك إلى الدهشة . إذ كان جلياً أن قوة الرومان ووحدهم تعتمدان على سرعة حركة الجنود وإرسال الأمداد من أحد أجزاء الإمبراطورية إلى الجزء الآخر . أجل شيدت الجمهورية الطرق الفاخرة . ولكن لم تدخل الإمبراطورية عليها أى تحسين . وقبل ظهور الأنطونيين بأربعمئة سنة اخترع هيرون (Hero) السكندري أول آلة بخارية . وكانت المدونات الأنيقة التى تسجل مثل هاته البدايات فى العلم من بين الكنوز المهمة التى تضمها مكتبات الأثرياء فى كل أنحاء الممتلكات الإمبراطورية ، مثلها مثل بذور ألقيت فى أرض من الحجر الصلد . وكانت جيوش ماركوس أوريليوس ورسله تكدح فى اختراق الطرق على نفس النسق الذى كانت عليه جيوش سكيپيو الإفريقى قبلهم بثلاثة قرون .

ولم ينفك الكتاب الرومان يندبون على الدوام نخث العصر . فتلك أنشودتهم المحببة . وذلك أنهم أدركوا أن الرجال الأحرار من سكان الغابات والسهوب والصحارى كانوا مقاتلين أشد بأساً وأكثر استبسلا من مواطنهم ، غير أن النتيجة الطبيعية الحتمية التى تترتب على تنمية قوة الصناعة لدى مجموعاتهم الضخمة من السكان بدرجة تكفل إنتاج العتاد اللازم لضمان الموازنة بينهم وبين أعدائهم البرابرة لم تخطر لهم قط على بال . بل تراهم على العكس من ذلك يدخلون البرابرة فى كتابتهم ويعلمونهم فنون الحرب ويسيروهم فى أرجاء الإمبراطورية ثم يعيدونهم إلى شعوبهم بعد أن أتقنوا الدرس الذى تعلموه .

فليس عجيباً وهذا حالهم من الإهمال الواضح المتكرر أن يغفل الرومان إغفالا تاماً ذلك الأمر الأشد دقة وأعنى به روح الإمبراطورية ، فإنهم لم يبدلوا أى جهد لتعليم أو تدريب عامة الناس فيها أو اكتساب قلوبهم حتى يندمجوا فى حياتها اندماج المشاركة الشعورية الواعية . إذ كان مثل هذا التعليم أو التدريب فى الواقع متعارضاً مع كل آراء الأغنياء وموظفى



(١١١٥)

الإمبراطورية . وهم قد اتخذوا من الديانة أداةً ووسيلة . وتركوا العلم والأدب والتعليم في يد الأرقاء الذين كانوا يربون ويدربون ويبيعون كالكلاب والحيل . وكان المغامرون من الرومان في ميادين المال والعقار وهم الذين خلقوا الإمبراطورية ، يسودونها بأقصى مشاعر الأمانة والطمثان ، على حين كانت عاصفة تدميرهم قد أخذت تتجمع خارج الإمبراطورية وداخلها .

وما أن حل القرنان الثاني والثالث الميلاديان ، حتى كانت أداة الحكم في الإمبراطورية المرهقة بالضرائب والمنهكة إلى أقصى حدود الإعياء قد أخذت بالفعل تترنح نحو الهاوية التي تردت فيها آخر الأمر .

٥ - حركة السهول العظيمة

إذا أردنا الآن أن نفهم فهماً واضحاً مركز الإمبراطورية الرومانية الصحيح ، وجب علينا أن نشخص بأبصارنا إلى العالم فيما وراء حدودها الشمالية والشرقية . وهو عالم السهول الذي يمتد امتداداً لا يكاد يكون له انقطاع من هولندية عبر ألمانيا وروسيا حتى جبال آسيا الوسطى ومنغوليا . وأن نغير بعض التفاتنا إلى الإمبراطورية المائلة لهذه في بلاد الصين ، وهي التي كانت آخذة في التماسك والتطور حتى صارت وحدة أخلاقية وفكرية أصلب كثيراً وأبقى عمراً من تلك التي وصلت إليها الإمبراطورية الرومانية في تاريخها كله .

ويقول المستر ا. ه. باركر : « جرت العادة بالناس جميعاً حتى أعلى رجال أوروبا تربية وثقافة أن يرسلوا جملاً طنانة يتشدقون فيها بما يسمونه : « السيادة العالمية وإخضاع كل شعوب الأرض للنفوذ والسلطان » إلى غير ذلك . على حين كان الأمر في الحقيقة مقصوراً على زاوية أو ناحية من البحر المتوسط فقط ، أو القيام ببضع هجمات سريعة الزوال في بلاد الفرس أو بلاد الغال . فإن كلا من قورش والإسكندر ودارا وإجزيسيس وقيصر

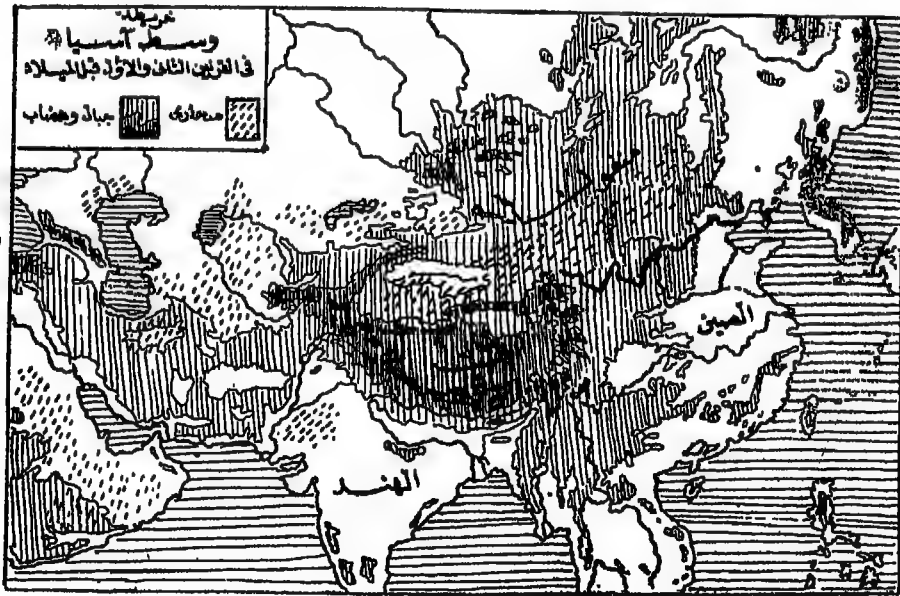
وبومبي ، قد قاموا بحملات شائقة للغاية . ولكن لا شك أنها لم تكن في اتساع نطاقها واحتفالها بالمصالح البشرية الكبرى تفوق البتة تلك الحملات التي كانت تجرى في الطرف الآخر من آسيا . كان في متناول المدنية الغربية من ألوان الفن والعلم شيء كثير مما لم تكن به الصين أبداً ، غير أن الصينيين من الناحية الأخرى أنتجوا أدباً^(١) تاريخياً ونقداً أدبياً وكياسة وأدباً للسلوك وترفاً في الثياب ونظاماً إدارياً ، لو أتيحت لأوروبا لكانت موضع فخارها وزهوها . وموجز القول أن تاريخ الشرق الأقصى لا يقل في أهميته وإمتاعه عن تاريخ الغرب الأقصى . وما نحن إلى شيء بأحوج منا إلى القدرة على قراءته . فإذا نفضنا عن بالنا في شيء من الاحتقار تلك الأحداث الجسام التي مرت على سهول بلاد التتار (Tartary) لكان جديراً بنا ألا نسرف في لوم الصينيين لعدم صرف عنايتهم واهتمامهم في شئون دول كانت تبدو لهم لا وزن لها وتقع متناثرة كالنقط حول البحر المتوسط وبحر قزوين ، وهي التي كانت في ذلك الزمان تمثل كل العالم الذي نعرفه في أوروبا^(٢) .

ولقد أسلفنا إليك اسم « شي هوانج قى » الذي ربط أجزاء إمبراطورية أصغر في الواقع كثيراً من حدود الصين الحاضرة ووطد سلطانه بها ، وهي مع ذلك في غاية من العظم ووفرة السكان ولا تبرح تمتد من وادي الهوانج هو واليانج تسى كيانج . أصبح ملكاً على « تس إن Ts'in » في (٢٤٦ ق.م) ، وأصبح إمبراطوراً ٢٢٠ ق.م . واستمر حكمه حتى ٢١٠ ق.م . فقام خلال حكمه الذي امتد هذا الثلث القرن الذي قضاه في توطيد سلطانه بنفس عملية التماسك التي أتمها أوغسطس قيصر في روما بعد ذلك بقرنين . وحدث على العرش عند وفاته نزاع استمر أربع سنوات ثم ما لبثت أسرة جديدة

(١) يستخدم المؤلف لفظة الأدب هنا كمادته للدلالة على ما ظهر في اللغة الصينية من مؤلفات وكتب في علم التاريخ . (المترجم)

(٢) E.H. Parker: "A Thousand years of the Tartars"

هى أسرة هان أن استوت على عرش الإمبراطورية ٢٠٦ ق . م وحكمت البلاد مدة تسع وعشرين وميتين من السنين . وقد كدر مغتصب للملك صفو ربيع القرن الأول من الحقبة المسيحية . ثم عاد الملك إلى ما يسمى باسم أسرة هان الثانية التى حكمت البلاد قرناً آخر ونصفاً من الزمان حتى ظهر فى الصين فى أوان الأنطونيين وباء دام أحد عشر عاماً ، أهلك الحرث والنسل وقذف البلاد إلى أحضان الفوضى . ولعلنا نلاحظ أيضاً أن نفس هذا الوباء ساعد على انتشار الفوضى فى العالم الغربى مدة قرن (راجع القسم الأول) . على أن الصين الوسطى ظلت حتى حدوث هذا الوباء تستمتع بوجه عام بما يربى على أربعة قرون من السلام وتحظى على الحملة بحكم طيب لا بأس به ، فمرت بذلك فى كثرة من القوة والرخاء ليس ثمة ما يماثلها فى خبرة العالم الغربى وأحداثه .



(١١٦)

ولم ينهج إلا أول ملوك أسرة هان على سياسة «شى هوانج تى» المضادة لرجال العلم والأدب (Literati) . ثم أعاد خلفه الدراسات القديمة

(الكلاسيكية) ، ذلك أنه رأى أن التقاليد القديمة لدعاة الانفصال قد حطمت ؛ وأن توثق عرى الوحدة الصينية يقوم على اتساق العلم ووحدته وانتشاره في جميع أرجاء الإمبراطورية . وعلى حين كان العالم الروماني لا يزال غافلاً عن إدراك الحاجة إلى تنظيم للشئون الفكرية ، كان أباطرة أسرة « هان » يقيمون للتعليم والدرجات الأدبية في كل أرجاء الصين نظاماً متسقاً أبقي حتى العصور الحديثة على التماسك الفعلي لذلك القطر العظيم الذي لم ينقطع يوماً عن الاتساع . وكان موظفو الحكومة المركزية البيروقراطيون بروما قوماً ينتمون إلى أشد الأصول والتقاليد تفاوتاً وتبايناً . على حين كان بيروقراطيو الصين وما يزالون ، مطبوعين بطابع واحد ، وكلهم استقى من تقاليد واحدة . وقد أملت بالصين منذ أيام أسرة هان تقلبات عظيمة في الحظ السياسي ، بيد أنها لم تغير قط من خصائصها الجوهرية . أجل انقسمت على نفسها حيناً ، غير أنها كانت على الدوام تسترجع وحدتها . وكثيراً ما تغلب عليها أعداؤها ، ولكنها كانت على الدوام تمتص عدوها وتمثل قاهرها وتستوعبه . .

وعندى أن أهم ثمرة هيأها تماسك الصين هذا تحت حكم « شى هوانج تى » وأسرة هان — هى ما أحدثته من رد فعل ومقاومة للقبائل غير المستقرة النازلة على حدود الصين الشمالية والغربية . فإن الهون (الهيونج نو Hiung-nu) كانوا طوال القرون المنكوبة بالفوضى قبل زمان « شى هوانج تى » يحتلون منغوليا وأقساماً كبيرة من الصين الشمالية ، وكانوا يغفرون على الصين بلا حرج ويتدخلون بملء حريتهم في الأمور السياسية الصينية . على أن القوة الجديدة التى توفرت على تنظيم الحضارة الصينية شرعت في تغيير هذه الأوضاع تغييراً تاماً ونهائياً .

ولقد سبق أن أشرنا إلى وجود هؤلاء الهون في بياننا الأول عن البدايات الصينية . فمن الضروري الآن أن نفرس في إيجاز من هم وما هم . فنحن حتى

في استعمالنا هذه الكلمة (هون) كمرادف عام لكلمة «هيونج نو» إنما ندخل في حومة الجدل والنقاش . وقد سنحت لنا ونحن بصدد بياننا عن تطور العالم الغربي فرصة لذكر الإسكيديين ، وأن نشرح ما تلقى من الصعوبة في التمييز تمييزاً واضحاً ما بين الكيمترين والسرماطين أو السرامطة والميديين والفرس والبارثيين والقوط وشعوب أخرى تتفاوت في درجة ترحلها وتفاوت في مقدار آريتها ، كانت تنتقل غدواً ورواحاً في قوس عظيم بين الدانوب وآسيا الوسطى . فعلى حين كانت أقسام من الآريين تتجه جنوباً وتحصل على قسط من المدنية وتطورها ، كان هذا الفريق الآخر من الشعوب الآرية أخذاً بأسباب التطور في خفة الحركة والترحل . كانوا يتعلمون حياة الخيمة والعربة والقطيع وكذلك شرعوا يتعلمون أن يستعملوا اللبن أساساً لغذائهم ، وأخذوا فيما يرجح يصبحون أقل عناية بالزراعة وأقل ميلاً حتى إلى نوع المحصولات السريعة مما كانوا عليه من قبل . ومما ساعد على تطورهم هذا تغير بطيء ألب بالمتناخ وأخذ يتبدل السهوب بالمستنقعات والغابات وبأراضي الأحراش الخفيفة في جنوب روسيا وآسيا الوسطى . والسهوب كما هو معلوم أراضي رعى فسيحة تساعد على إنتاج حياة تنقل صحية وتستدعى حركة سنوية بين مراعى الصيف ومراعى الشتاء .

ولم تنتج هذه الشعوب سوى أحط أنواع النظم السياسية . وكانوا ينقسمون فيما بينهم ويختلطون بعضهم ببعض . ولكن تلك الشعوب على تنوعها كان لها عادات اجتماعية متماثلة تماماً . ومن ثم نشأت صعوبة بل استحالة التمييز الحاد الدقيق بينها . فإذا كرر البصر راجعاً إلى الصين رأى حالة الشعوب المغولية في شمال وشمال غربي المدينة الصينية شديدة المماثلة لهذه الحال . إذ يخامرنا إلا القليل من الشك أن الهيونج نو أي الهون ومن جاء في أعقابهم من قوم يسمون بالمغول ، كانوا جميعاً شعباً واحداً ، وأن الترك والتتار ما لبثوا أن تفرعوا من نفس هؤلاء القوم المغول الرُّحَّل . فأما القلموق (Kalmucks) والبوريات (Buriats) فهم تطور متأخر لنفس النبتة . ونحن ها هنا

أميل إلى استعمال كلمة « الهون » بوصفها ضرباً من التسمية العامة لهاته القبائل جميعاً ، مثلما توسعنا في استعمالنا تماماً بحرية كلمة « الإسكيزيين » في الغرب .

وكان تماسك الصين أمراً خطيراً جداً على هذه الشعوب الهونية . فإن الفائض من أفراد السكان لديهم كان حتى آنذاك ينساب نحو الجنوب مغامراً في لحاح فوضى الصين المنقسمة انسياب الماء في شعاب الإسفنج . ثم إذا هم الآن يجدون سوراً مبنياً يقف في وجوههم وحكومة حازمة وجيوشاً نظامية تصدهم عن سهول الكلا . ومع أن السور كان يصدهم عن التقدم ، فإنه لم يصد الصينيين . ذلك أنهم كانوا يزايدون ويتكاثرون خلال قرون السلم هذه ، وكانوا مع زيادتهم وتكاثرهم ينتشرون انتشاراً مستمراً دافعين قدماً بمسكنهم ومحراثهم حيثما سمحت لهم تربة الأرض . فانتشروا غرباً في بلاد التبت وشمالاً وشمالاً بغرب وربما وصلوا إلى حافة صحراء جوبي . ثم انتشروا أيضاً في مواطن الهون المترحلين وفي مراعيهم وأراضى صيدهم ، على نفس النسق بالضبط الذى اتبعه سكان الولايات المتحدة البيض في انتشارهم غرباً في أراضى الصيد التى يقطنها الهنود الحمر . على أنهم بالرغم من الغارات والمذابح ، كانوا والأمريكيين سواء في منعتهم واستحالة قهرهم ، إذ كان في جانبهم ضغط الكثرة العددية ، ومن ورائهم حكومة قوية تقتصص لهم وتأخذ بالتأثر . بل لئن لم يكن معهم حتى العون الأخير ، فإن لمدينة الصين الزراعية قوة هائلة وقدرة على التغلغل والتوسع والامتداد ، وقد انتشرت في بطء واطراد مدى ثلاثة آلاف من السنين . وهى تنتشر اليوم في منشوريا وسيبيريا وترسل جنودها عميقاً حيثما انتشرت .

مدن الصينيون الهون جزئياً وتمثلوا بعض عشائرتهم . فأما الهون الأبعدون شمالاً فقد صدوا ووجهت غرباً طاقاتهم المفرطة القوة . وانغمر الهون الجنوبيون في سكان الإمبراطورية .

ولو أن القارئ تأمل خريطة آسيا الوسطى لرأى أن حواجز جبلية عظيمة جداً تفصل شعوب آسيا الجنوبيين عن الغربيين والشرقيين . (ولكن يجدر به أن يتحرز من تكوين فكراته من خريطة مرسومة على أساس مشروع مركاتور (Mercator)^(١) الذى يبالغ مبالغته هائلة فى مساحات ومسافات آسيا الشمالية وسيبيريا) . ولأنه لو وجد عند كتل الجبال الوسطى أن ثلاث سلاسل جبلية عظيمة تتفرع شرقاً ، فتذهب الهملايا جنوباً بشرق جنوبي بلاد التبت وتذهب جبال الكوين لن شرقاً مارة بشمال التبت ، وتتجه التيان شان شمالاً بشرق لكى تتصل بجبال آلتاى . وبعد ذلك إلى الشمال يوجد السهل العظيم الذى لا يننى جليده يذوب وجفافه يزداد . وبين التيان شان والكوين لن متسع هو حوض التاريم (وهى التركستان الشرقية على وجه التقريب) ، وبه أنهار لا تصل إلى البحر أبداً ، بل تنتهى فى مستنقعات وبحيرات منقطعة وكان هذا الحوض أكثر خصباً فى الماضى منه اليوم . والحاجز الجبلى فى غربى حوض التاريم ذاك مرتفع ، بيد أنه لا يمنع المرور تمام المنع . وهناك طرق كثيرة مسلوكة تنحدر إلى أسفل متجهة إلى التركستان الغربية . ومن الميسور أن يسافر الناس إما على امتداد التلال الفسيحة الشمالية لجبال الكوين لن أو بواسطة وادى التاريم فى الناحية الغربية من الصين إلى قشغر (حيث تلتقى الطرق) ، ومن ثم من فوق الجبال إلى خوقند وسمرقند وبخارى . فهنا إذن مكان الالتقاء الطبيعى فى التاريخ بين الآريين والمغول . وهو التقاء إما أن يتم هنا أو لا يتم إلا بالدوران بحراً .

ولقد ذكرنا من قبل كيف أن الإسكندر الأكبر وصل إلى أحد جوانب ذلك الحاجز الضخم فى عام ٣٢٩ ق. م. وفى أعلى جبال تركستان بحيرة تخلدا سمه . والواقع أن ذكريات غارته العظيمة تخلد اسمه إلى حد أنه

(١) مشروع مركاتور : طريقة لرسم الخرائط تجعل خطوط الطول والعرض خطوطاً مستقيمة فتبدو المناطق القطبية أكبر من حقيقتها . (المترجم)

لا تكاد توجد أية خرابة من الأطلال الحجرية في آسيا الوسطى إلا نسبت حتى اليوم إلى «إسكندر» . وبعد هذه البارقة الخاطفة يعود نور التاريخ فيخبو عن هذا الإقليم مرة ثانية . حتى إذا عاد إليه سطوعه كرة أخرى كانت عودته في الناحية الشرقية لا في الناحية الغربية .

وهناك في أقصى الشرق نهض « شى هوانج تى » لتشتيت سمل الهون وإبقائهم خارج الصين نفسها فيما وراء السور . فبقى من هؤلاء القوم قسم في شمال الصين ، وهى بقية قدر لها أن تندمج في الحياة الصينية في أثناء حكم أسرة هان ، بيد أن قسماً عظيماً منهم اتجه غرباً ثم طاردوا أمامهم (في القرنين الثانى والأول ق . م) شعباً من ذوى قرياهم اسمه يويو تشى « Yueh Chi » دافعين إياه من أقصى شرق الكوين لن إلى أقصى غربها ، ثم عبر الحاجز نفسه إلى إقليم التركستان الغربية الذى كان يوماً ما لإقليماً آرياً . هؤلاء الأقوام من اليويو تشى فتحوا مملكة باكتريا ذات الطابع الهلنى الخفيف واختلطوا بشعبها الآرى هناك . وأصبح هؤلاء اليويو تشى فيما بعد آريين ، أو انغمروا معهم عناصر آرية في شعب يسمى الهندوإسكيزيين انحدروا في ممر خيبر وفتح أقاليم الهند الشمالية حتى وصل بنارس (١٠٠ - ١٥٠ م) جارفاً أمامه آخر أثر للحكم الهلنى في الهند .

والراجع أن هذا الانهمار الكبير للأجناس المغولية نحو الغرب لم يكن أول تلك الحركات ، بل هو أول انهمار لها يسجله التاريخ . وجاء الهون في أعقاب اليويو تشى ، وكانت أسرة هان القوية الصينية في إثر الهون تدفعهم آنذاك إلى الشمال . وما حل زمان ووقى (Wu - Ti) (١٤٠ - ٧٦ ق . م) أعظم ملوك أسرة هان إلا وكان الهون قد طردوا شمالاً خارج التركستان الشرقية بأكملها أو كانوا أخضعوا ، وحتى كان حوض التاريم يموج بالمستقرين الصينيين ، وحتى كانت القوافل تسير غرباً تحمل الحرير وطلاء اللاكيه والكهرمان الأسود لتستبدل بها ذهب أرمينية وروما وفضتهما .

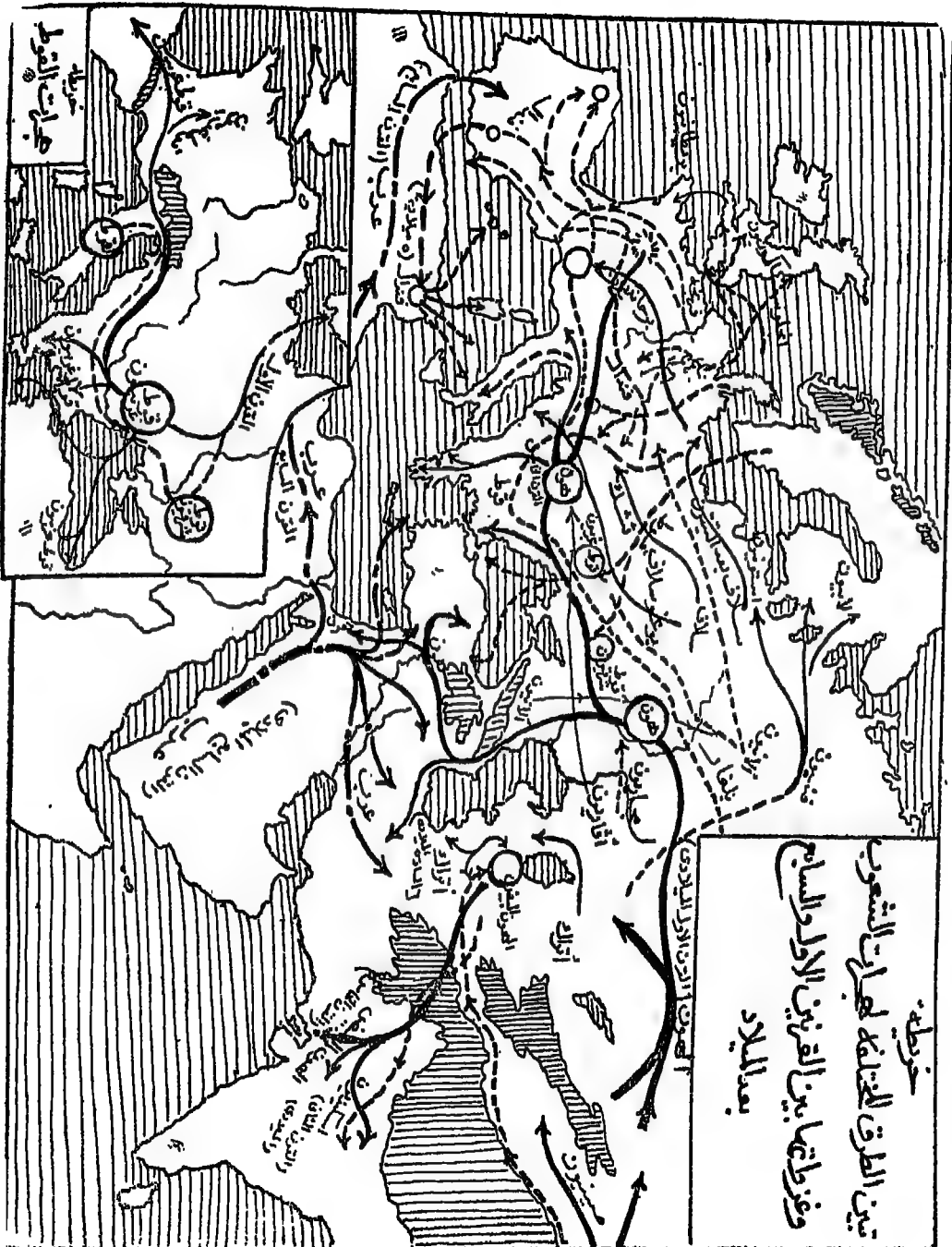
أجل إن حركات « اليويو تشى » وانسيابهم مدونة في صفحات التاريخ ، ولكنه من الواضح إلى حد ما أن الكثير من تحركات شعوب الهون نحو الغرب لم يدون . واستمرت الإمبراطورية الصينية من ٢٠٠ ق . م إلى ٢٠٠ م ، تحافظ على جبهة صلبة قوية التصميم متقدمة إلى الأمام في بلاد الترحل ، وكان فائض المترجلين ينساب على الدوام غرباً . وإذن فلم يكن من ناحية الصينيين أى استقرار وراء حدود نهائية كالذى رأيناه في حالة الرومان على نهري الراين والدانوب . وكانت النتيجة أن انتقال المترجلين قبل هذا الضغط الصيني المتواصل قرناً بعد قرن اتجه في بادئ الأمر جنوباً نحو باكتريا . ولعل دماء البارثيين في القرن الأول ق . م خالطتها عناصر إسكيزية ومغولية . والظاهر أن « السهام الطنانة » التى قضت على جيش كراسوس كان مصدرها في الأصل هو جبال آلئى وتيان شان . وبعد انقضاء القرن الأول ق . م انتقل خط الجاذبية الكبرى والمقاومة الصغرى إلى اتجاه آخر شامى بحر قزوين حيث بقى فترة من الزمان . وقبل أن ينقضى قرن أو ما يقاربه ، أصبح كل القطر المعروف باسم التركستان الغربية مصطبغاً بالصبغة المغولية ولا يزال كذلك حتى يومنا هذا . وابتدأت طعنة كبيرة ثانية أو زحف من الصين قرابة ٧٥ م فزادت من سرعة انتقال المترجلين جهة الغرب . ففي ١٠٢ م كان « بان تشاو Pan Chau » وهو قائد صيني يرسل من معسكره الأمامى على بحر قزوين (أو على الخليج الفارسي كما يقول بعض الثقاة) طلائعه ليتعرف بواسطتهم مبلغ قوة الرومان . بيد أن تقاريرهم حملته على أن يقرر ألا يواصل المسير .

وما وافى القرن الأول الميلادى حتى كانت بعض الشعوب المغولية المترحلة قد ظهرت على حدود أوربا الشرقية مختلطين بالفعل اختلاطاً عظيماً بالنورديين المترجلين وبعناصر نوردية مستأصلة من الإقليم الممتد بين قزوين وپامير . وكانت هناك شعوب هونية مستقرة بين بحر قزوين وجبال

أورال . وإلى الغرب منهم كان الآلان (Alans) وهم كذلك في الراجح شعب مغولى به عناصر نوردية سبق أن قاتلوا بومبي العظيم عند ما كان في أرمينية عام ٦٥ ق.م. فكان هؤلاء حتى ذلك الحين أشد شعوب الزحف المغولى الحديد توغلا في الغرب ، ثم لم يقوموا بعدها بأية حركة أخرى نحو الغرب حتى القرن الرابع الميلادى . وفي الناحية الشمالية الغربية كان الفنلنديون^(١) وهم شعب مغولى استقر من زمان طويل في أرض أوغلت غرباً على بحر البلطيق .

وإلى الغرب من الهون فيما وراء نهر الدون ، نزلت قبائل نوردية خالصة هي القوط . وقد انتشر هؤلاء القوط في اتجاه جنوبي بشرق من بلاد أرومتهم في إسكندناوة . كانوا شعباً تيوتونياً ، وسبق أن لحظناهم وهم يعبرون البلطيق في الخريطة التى قدمناها عن التوزيع الأول للشعوب الناطقة بالآرية . وواصل هؤلاء القوط حركتهم نحو الجنوب الشرقى عبر روسيا ، وهم يستخدمون الأنهار غير ناسين البتة ما تدربوا عليه في بحر البلطيق من فنون الملاحاة . وليس من شك أنهم تمثلوا كثيراً من الإسكيذيين أثناء انتشارهم نحو البحر الأسود جنوباً . وكانوا في القرن الأول الميلادى في قسمين رئيسيين هما القوط الشرقيون (Ostrogoths) ، الذين كانوا بين الدون والدينير ، والقوط الغربيون (Visigoths) في غرب نهر الدينير . وساد السكون السهول العظمى في أثناء القرن الأول ، بيد أن السكان كانوا يتجمعون وكانت القبائل تختمر وتنضج . ويلوح أن القرنين الثانى والثالث شملتهما دورة من فصول ممطرة كثيرة الكلا نسياً . ولكن سرعان ما أصبح الجو في القرنين الرابع والخامس أكثر جفافاً ، وتناقص الكلا وتحرك المترحلون من جديد .

(١) ورد اسم الفنلنديين واللايلنديين في الخريطة رقم ١١٧ : مختصراً إلى لفظى فنين ولابين ولذا لزم التنويه . (المترجم)



على أن من الشائق أن نذكر لك أنه في القرن الأول من الحقبة المسيحية كانت الإمبراطورية الصينية على درجة من القوة مكنتها أن تطرد وأن تدفع عن نفسها فائض هذه الشعوب المرحلة المغولية النازلة إلى الشمال منها ، فما لبث هؤلاء المرحلون حتى غزوا شمال الهند وأصبحوا ذوى قوة ثم اختلطوا بالمرحلين الآريين ، ثم انقضوا آخر الأمر انقضااض الهيار الجليدى على الإمبراطورية الرومانية الضعيفة التماسك المهيضة الجناح .

وقبل أن نواصل الحديث عن الضربات التي أخذت تكال للإمبراطورية الرومانية ، ونعرض لمجهودات عظيم أو عظيمين من الرجال لإيقاف الانهيار ، نرى أن نذكر بضع كلمات عن عادات وكنه هذه الشعوب المغولية المتبربرة المتجهة غرباً ، والتي كانت عند ذاك تتقدم من حدود الصين نحو البحرين الأسود والبلطيق . وما يزال العرف الأوربي جارياً على الانسياق وراء الكتاب الرومان في تصوير هؤلاء الهون وخططهم في صورة قوة هدامة قاسية إلى حد لا يتصوره عقل . بيد أن مثل تلك البيانات التي نستقيها عن الرومان إنما كتبت في عصور يكتنفها الدعر والهلع . وكان في وسع الرومان أن يكذب في حق أعدائه ويفترى عليهم بجرأة وقوة لا بد أن تستثير حسد عملاء الدعاية العصريين أنفسهم .

فلإن الواحد منهم يستطيع أن يتحدث عن « العقيدة الهونية » كمرادف للغدر بينما يرتكب هو ضد قرطاجة أشنع الخيانات وأبشعها . وكان يجعل من اتهاماته التي يعير بها هذا الشعب أو ذاك ويتهمة بالدأب على أعمال القساوة المنظمة ، مقدمة وذريعة في العادة لما يقوم به بعيد ذلك من شنيع المجازر أو الاسترقاق أو السرقات . وكان شديد الولع بتبرير نفسه هو وتسويغ تصرفاته كالعصريين سواء . ولا يذهبن عن بالنا أن تلك البيانات التي تنعت الهون بالوحشية والفظاظة الخفيفة ، صدرت عن شعب كان أهم ما يتسلى به حفلات المجالدن ، وكانت أهم وسيلة لديه للتصرف في أهل

العصيان والفتنة دقهم على الصليب بالمسامير حتى يموتوا . وليس من ريب أن الإمبراطورية الرومانية قتلت منذ بدايتها إلى النهاية مئات من آلاف الرجال على هذه الشاكلة . وكان قسم كبير من سكان هذه الإمبراطورية التي كانت تستطيع أن تتباكى وتنشأكى من بربرية مهاجميها يتكون من عبدان يتعرضون فعلا لكل ما يثور في صدور سادتهم من هوائج الشهوات أو ثوائر النزوات . فمن المستحسن أن نتذكر هذه الحقائق قبل أن نأسى ونحزن على اجتياح البرابرة الإمبراطورية الرومانية ، كأنما كان في ذلك قضاء كل ما هو كالح وقبيح على كل ما هو جميل ورفيع في الحياة .

ويبدو أن الحقيقة هي أن الشعوب الهونية كانت النظير الشرقى للآريين البدائيين ، وأنهم على الرغم مما يفرق بينهم من فروق أساسية في الجنس واللغة ، قد وفقوا بغاية السهولة إلى الاختلاط مع البقايا المترحلة وشبه المترحلة للشعوب الناطقة بالآرية في شمال الدانوب وفارس . وبدلاً من أعمال القتل في الشعوب التي غزوها ، كانوا يضمون تحت لواء جيوشهم أفراد الشعوب التي يقهرونها بل ويتزاجون معهم . وكانت فيهم تلك الموهبة الضرورية لكل شعب قدر له السيادة السياسية - وهي موهبة التمثل المقترن بالتسامح . ولكنهم جاءوا في عصر متأخر نوعاً ما ، وكانت حياتهم الترحلية أكثر تقدماً من حياة الآريين البدائيين . إذ كان الآريون البدائيون شعباً يسكن الغابة ويستخدم العربية التي يجرها الثور ثم استهواهم الحصان فيما بعد . على حين درجت الشعوب الهونية في تطورها مع الحصان . ذلك بأنهم في زمان ما يقارب ١٢٠٠ أو ١٠٠٠ ق.م أخذوا يركبون الحصان . وما الشكيمة^(١) ولا السرج ولا الركاب بأشياء بدائية ، بيد أنها ضرورية إذا كان لا بد للإنسان والحصان أن يسيرا متلازمين في مساحات مترامية . وخلق بنا

(١) الشكيمة : جديدة توضع في حنك الحصان . (المترجم)

أن نتذكر كم ركوب الخيل شيء حديث قريب العهد ! فالإنسان لم يمض عليه وهو على صهوات الخيل أكثر كثيراً من ثلاث آلاف سنة^(١) . ولقد سبق أن لاحظنا في هذا الكتاب كيف ظهر على التدريب المركبة الحربية والرجل الفارس ، كما لاحظنا أخيراً ظهور الخيالة المنظمة . وكان مصدر هذه الأمور أقاليم آسيا المغولية . ولا يزال الرجال في آسيا الوسطى إلى يومنا هذا يستخدمون السرج في ترحالهم أكثر من انتقالهم على أقدامهم . ويقول راتزل (Ratzel)^(٢) : « توجد في أرض السهوب خيول قوية طويلة الأعناق في أعداد هائلة . فليس الركوب عند المغول والتركمان من الترف في شيء . بل إن رعاة المغول يرعون قطعانهم على ظهور الخيل . ويتعلم الأطفال الركوب وهم بعُد أيفاع . وكثيراً ما يتلقى طفل في الثالثة من عمره أول درس له في الركوب في سرج للأطفال أمين ويتقدم تقدماً سريعاً » .

ومحال أن نفترض أن من الممكن أن يختلف الهون والآلان اختلافاً بعيداً في صفاتهم عن مترحلي منطقة السهوب في الزمان الحاضر ، ويكاد كل المراقبين يجمعون على وصف هؤلاء الأخيرين بأنهم قوم صرخاء ظرفاء . فهم أمناء أمانة تامة وهم أحرار الروح . ويقول راتزل « إن خلُق رعاة آسيا الوسطى عندما يكونون خلُصاً غير مدخولين ينطوى على الفصاحة الرصينة وطيب العنصر في خشونة وكبرياء ، ولكن مع شيء من التكاسل وسرعة الانفعال والميل إلى الانتقام . وتم وجوههم عمالهم من نصيب جسيم من الصراحة المشوبة بالسداجة المسلية . وشجاعتهم إنما هي توهج فجائي من الشراسة أكثر منها جرأة طابعها الاتزان والهدوء . وليس لديهم أى تعصب ديني ، والكرم عندهم أمر شائع » . وليست هذه صورة مرذولة أو بغيفية في مجموعها . وهو يقول بعد ذلك إن مظهرهم الشخصي أهدأ سمياً وأكثر

(١) انظر كتاب « الخيل » تأليف روجر بوكوك (Roger Pocock) وهو كتاب شائق

متع على صغر حجمه .

(2) The History of Mankind, book v

وقاراً من أهل المدن فيما وراء ذلك من التركستان وبلاد إيران . أضف إلى ذلك أن حياة الترحل تمنع أى فروق عظيمة من عدم المساواة بين الطبقات ، أو أى تطور كبير فى نظام الاسترقاق .

وبدئى أن هؤلاء الشعوب المنطلقين من آسيا كانوا أميين تمام الأمية لم تتطور نفوسهم من الناحية الفنية . ولكن لا ينبغي لنا أن نزن بناء على هذا أنهم كانوا برابرة بدائيين ، وأن أحوالهم المعيشية كانت على نفس المستوى الذى نشأت منه المدنية الزراعية منذ زمن بعيد . فإنها لم تكن كذلك . ذلك أنهم تطوروا هم أيضاً ، ولكنهم تطوروا على نسق آخر مختلف ، نسق أقل تعقيداً ذهنياً ، وربما كان أكبر حظاً من الكرامة الشخصية ، ولكنه على التحقيق أوثق اتصالاً بالريج والسماء .

٦ - الإمبراطورية الغربية (الرومانية الحقة) تتصدع

ابتدأت فى القرن الثالث أول الغارات الخطيرة للقبائل الجرمانية على الإمبراطورية الرومانية مع انحلال قوتها المركزية . ولن نرج بالقارى هاهنا فى ذلك الموضوع الشائك المعقد من أسماء مختلف القبائل الجرمانية المتنوعة وتباين أو تطابق ذاتيتها وعلاقاتها المتبادلة . فالمورخون يكابدون أعظم العسر فى تمييزها بعضها من بعض . ويزيد فى هذه الصعوبات ما حدث من أنهم هم أنفسهم لم يعنوا إلا قليلاً بأن يظلوا متميزين منفصلين .

فإننا نجد فى ٢٣٦ م شعباً يسمى الفرنجة (Franks) يقطع الحدود على الراين الأدنى . وشعباً آخر هو الألamani (Alamanni) ينثال الى الألزاس . وكانت هجمة القوط جنوباً هجمة أكثر خطورة بكثير . ولقد سبق أن لحظنا وجود هؤلاء القوم فى جنوب روسيا ، وانقسامهم حول الدينير إلى قوط غربيين وشرقيين . وفى البحر الأسود عادوا من جديد شعباً بحرياً . والراجح أن هجرتهم التقليدية من السويد كانت على امتداد الطرق المائية ، إذ أنه ما يزال سهلاً على المرء أن يمشى مجدداً فى قارب من بحر البلطيق عبر روسيا

قدماً حتى البحر الأسود أو بحر قزوين ، ولا يعترض مجدافه إلا مسافات قليلة بين الأنهار يمكن التغلب عليها . ثم انتزع هؤلاء القوط الإمرة في البحار الشرقية من يد روما .

وما لبثوا أن شرعوا يغيرون على شواطئ بلاد الإغريق . كذلك عبروا نهر الدانوب في غزوة برية عظيمة في (٢٤٧ م) وهزموا الإمبراطور ديكْيوس (Decius) وقتلوه فيما يسمى الآن باسم بلاد الصرب . واختفت مقاطعة داكيا (Dacia) من التاريخ الروماني . وفي (٢٧٠ م) هزمهم كلوديوس عند مدينة نيش ببلاد الصرب ، وفي (٢٧٦ م) كانوا يغيرون على بنطش^(١) . ومما يتصل بما جلت عليه الإمبراطورية من طبيعة رخوة واهية ، أن الكتائب المحتلة بلاد الغال وجدت أن أفضل الوسائل في معالجة الفرنجة والألاماني في ذلك الزمان ، هي إقامة إمبراطور منفصل في بلاد الغال على أن يتولوا تنفيذ ذلك بأنفسهم .

وعندئذ صُدَّت جموع البرابرة برهة من الزمان ، وحارب الإمبراطور پروبوس (Probus) (٢٧٦ م) الفرنجة والألاماني حتى أرجعهم وراء الراين . ولكن مما له مغزاه العميق الدال على جو القلق الذي أوجدته تلك الغارات ، أن أوريليان (٢٧٠ — ٢٧٥ م) حصن روما ؛ وكانت مدينة مفتوحة آمنة طوال سني الإمبراطورية الأولى .

وفي (٣٢١ م) هبط القوط من جديد على الدانوب ينهبون ما هو الآن بلاد الصرب وبلغاريا . فدفعهم قسطنطين الأكبر إلى وراء ، وسنزيك عنه بياناً في الفصل التالي . وفي قريب من نهاية عهده (٣٣٧ م) حصل الوندال وهم شعب تربطهم صلات الرحم والقربى بالقوط الذين كانوا يدفعونهم أمامهم — على إذن يعبور الدانوب إلى پانونيا (Pannonia) وهي الآن ذلك القسم الواقع غربي النهر من بلاد المجر .

(١) بنطش كما هو معلوم هي الولاية الواقعة على ساحل البحر الأسود الجنوبية . (المترجم)

بيد أنه عند منتصف القرن الرابع كانت الشعوب الهونية في الشرق قد عادت إلى العدوان من جديد . وكانوا أخضعوا الآلاني من زمن بعيد ، وإذا هم الآن يجعلون القوط الشرقيين من أتباعهم الذين يدفعون لهم الجزية . وحذا القوط الغربيون حذو الوندال ، وأعدوا العدة لعبور الدانوب إلى الأراضي الرومانية . ثم دب بين الطرفين شيء من النزاع على شروط هذه الإقامة ، وثارَت ثائرة القوط الغربيين فعمدوا إلى خطة الهجوم ، وهزموا الإمبراطور فالنس (Valens) عند أدرنة ، وقد قتل في هذه المعركة . فسمح لهم عند ذلك بالاستقرار فيما هو الآن بلغاريا ، وأصبح جيشهم جيشاً رومانياً بالاسم وإن احتفظوا برؤسائهم الذين كان أبرزهم ألاريك (Alaric) . ومما يدلُّ على مبلغ اصطباغ الإمبراطورية الرومانية « بالطابع البربري » اصطباغاً تاماً ، أن أكبر خصم لآلاريك القوطي ، وهو ستيليكو (Stilicho) كان من وندال بانونيا ، وأن الكتائب في بلاد الغال كانت تحت إمرة أحد الفرنجة ، وأن الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (Theodosius) (الذي تولى العرش من ٣٧٩ إلى ٣٩٥ م) كان أسبانياً تناصره بوجه خاص جنود أجنبية حليفة من القوط .

كانت الإمبراطورية آخذة في الانقسام حينذاك نهائياً إلى نصفين شرقي (ناطق بالإغريقية) وغربي (ناطق باللاتينية) . وقد خلف ثيودوسيوس العظيم على العرش ابنه أركاديوس في القسطنطينية وهونوريوس في رافنا (Ravenna) . فاتخذ ألاريك من الملك الشرقي ألعوبة في يده ، واتخذ ستيليكو ألعوبة من الغربي . وعند ذاك يظهر الهون لأول مرة داخل الإمبراطورية بوصفهم جنوداً أجنبية حليفة تحت قيادة ستيليكو . وفي هذا النزاع بين الشرق والغرب انهارت الحدود — إن كان لا يزال في طوقنا أن نتكلم عن وجود حدود بين البربري الذي يقف في الخارج دون تفويض من أحد وبين البربري الذي وكل إليه عمل في الداخل — وزحفت غرباً جماعة جديدة من الوندال وأفواج أخرى من القوط والآلان والسويثي (Suevi) بملء

حريتهم ، وهم يعيشون على حساب البلاد . وحدث في معمران هذه الربكة حدث جلال ، فإن ألابريك القوطى انحدر فى إيطاليا وفتح روما بعد حصار قصير (٤١٠ م) .

وحوالى (٤٢٥ م) كان الوندال (الذين رأيناهم أولاً فى ألمانيا الشرقية) وجزء من الآلاف (الذين ذكرناهم لأول مرة فى جنوب روسيا الشرقى) قد اخترقوا بلاد الغال وجبال البرانس واندجوا بعضهم فى بعض ثم استقروا فى جنوب أسبانيا . وكان هناك هون يسيطرون على پانونيا وقوط فى دالماتيا . وهبط إلى أرض بوهيميا ومورافيا شعب صقلبي (سلافي) واستقر هناك هو التشك (Czechs) (٤٥١ م) . وكان فى بلاد البرتغال وفى شمال الوندال فى أسبانيا قوط غربيون وسويثي . وقسمت بلاد الغال بين القوط الغربية والفرنجة والبرجنديين . وكانت تجتاح بريطانيا قبائل من جرمان السهل المنخفض بألمانيا: (Low German) هم الجوت (Jutes) والأنجل والساكسون ، وكان البريطاني الكلتى فى الجنوب الغربى يفر من أمامهم عبر البحر إلى ما هو اليوم بريتانى بفرنسا . والتاريخ الثابت عادة لهذا الغزو هو (٤٤٩ م) . بيد أنه حدث فيما يرجح فى وقت أبكر من هذا . وحدث نتيجة لمؤامرات دبرت بين اثنين من السياسيين فى الدولة الرومانية أن وندال جنوب أسبانيا تحت إمرة ملكهم جنسريك (Genseric) عبروا البحر على بكرة أبيهم إلى إفريقيا الشمالية (٤٢٩ م) وأصبحوا سادة قرطاجة (٤٣٩ م) ، وحصلوا على السيادة فى البحر وغزوا روما واستولوا عليها ونهبوها (٤٥٥ م) ، ثم عبروا البحر إلى صقلية ، وأقاموا مملكة فى غرب صقلية استمرت هناك مئة سنة حتى (٥٣٤ م) . ومملكة الوندال هذه كانت تضم أيضاً إيبان أقصى اتساع بلغته (٤٧٧ م) كورسيكا وسردينيا وجزائر الباليار ، كما كانت تملك جزءاً كبيراً من شمال إفريقيا .

هذه المملكة الوندالية تؤثر عنها وقائع وأرقام تبين بغاية الوضوح

الطبيعة الحققة لهذه الغزوات البربرية . فإنها لم تكن في الحقيقة فتحاً ولا تبدل شعب أو جنس بآخر . بل إن ما حدث كان شيئاً مغالفاً لذلك تماماً ، إذ كان انقلاباً اجتماعياً ابتداءً ثم تقنع بقناع سطحي من الغزو الأجنبي . مثال ذلك أن كل الأمة الوندالية التي انتقلت من أسبانيا إلى إفريقيا بما حوت من رجال ونساء وأطفال ، لم تكن تزيد في عددها عن ثمانين ألف نسمة . وقد تهيأ لنا العلم بذلك إذ وصلت إلينا تفاصيل نقلهم بحراً . ونبئنا الدكتور شورتز (Schurtz) ^(١) : « لم يظهر السكان أدنى مقاومة جدية . وقد دافع بونيفاس (والى شمال إفريقيا الروماني) عن مدينة هيبو (Hippo) بمعونة المرتزقة من القوط ، على حين لم يعره الأهالي المضليون أى مساعدة تذكر ، وعلى حين أن قبائل الرحل كانت بين متخذ مسلحاً مريباً وبين منتهز الفرصة للاستفادة من الصعوبات التي أخذت تواجهه والى الروماني وذلك بالقيام بهجمات والاشتغال في حملات غايتها النهب . وهذا الانحلال الخلقي إنما نشأ من الأحوال الاجتماعية السائدة ، التي لعلها تطورت في إفريقية تطوراً أسوأ منه في أى جزء من أجزاء الإمبراطورية الرومانية . فإن الفلاحين الأحرار كانوا أصبحوا من زمن بعيد موالى أرض لكبار أصحاب الأراضي ، وكانت منزلتهم لا تفضل بكثير جماهير الأرقاء الذين كنت تلقاهم أينما حلت . كذلك أصبح كبار ملاك الأراضي بدورهم غنيمة هيئة لسياسة الابتزاز التي كان يتبعها ولاية لا ضمير لهم ولا يتورعون عن أية منقصة ، بدرجة متزايدة لم يسبق لها مثيل تزداد نسيباً كلما أمعنت هيئة الإمبراطورية سقوطاً وانهاراً . فلم يكن أحد من الناس يملك شيئاً من المال يخاف عليه الضياع ليقبل حين ذاك أن يكون له مقعد في مجلس سناتو المدن الكبيرة ، وهو شرف كان في يوم ما هدف الطامحين ، ذلك أن أعضاء السناتو كان يطلب إليهم أن يسدوا كل نقص في موارد الدخل . وكان هذا النقص في

تلك الأيام متلاحقاً جسيماً وكانت تقوم في البلاد
فمن دموية متكررة ، ترجع على الدوام في النهاية إلى فادح عبء
الضرائب » .

من هنا يتجلى لك أن الوندال هبطوا تلك البلاد بمثابة إنقاذ إيجابي
من هذا النظام . فأبادوا طبقة الملاك الكبار ، ومحو كل الديون التي
للمرابين ، وألغوا آثار الخدمة العسكرية . فوجد الزراع أنفسهم أيسر
حالا . واحتفظ صغار الموظفين بمراكزهم حتى لم يعد الأمر غزواً بمقدار
ما كان إصلاحاً للأموال وتحريراً للناس مما هم فيه من مأزق لا مخرج منه .

وقد حدث يوم كان الوندال ما يزالون في إفريقيا أن ظهر بين الهون
زعيم عظيم هو أتिला (Attila) . وكانت قصبة حكومته في السهول الواقعة
شرقي نهر الدانوب . فتسلط رداً من الزمان على إمبراطورية ضخمة
من قبائل هونية وجرمانية ، وكان سلطانه يمتد من نهر الراين إلى آسيا
الوسطى . وكان يتفاوض على قدم المساواة مع إمبراطور الصين . وظل
يرهب رافنا والقسطنطينية ويهددهما عشر سنوات . وحدث أن هونوريا
(Honorio) حفيدة ثيودوسيوس الثاني عاهل الإمبراطورية الشرقية وإحدى
أولئك الشابات المفتونات اللواتي يجلبن على العالم الكثير من المتاعب لقيت
بعض التضيق لاتصالها بتشريفاتي في القصر اتصالاً غرامياً ، فأرسلت
خاتمتها إلى أتिला ودعته ليكون زوجها ومنقذها . كذلك استحثه جنسريك
الوندالي أن يهاجم الإمبراطورية الشرقية عنده ما واجهته محالفة بين
الإمبراطورين الشرق والغرب . فأغار بجيشه جنوباً حتى بلغ أسوار
القسطنطينية نفسها مدمراً في زحفه على حد قول جيبون سبعين مدينة
تدميراً تاماً وهو يتقدم إلى الأمام ، وفرض على الإمبراطور صلحاً جائراً ،
لم يكن يحوى فيما يظهر أى بند يقضى بإطلاق سراح هونوريا لتسليمها
لبطلها .

ولسنا بقادرين بعد انقضاء هذا الزمن الطويل على تلك الأمور أن

نُعمل الحدس لتعرف الدوافع التي دعت إلى إغفال ذلك الموضوع . ولكن أتيتا استمر يدعها عروسه الخطوبة ، ولم يبرح يتخذ من تلك الرابطة تكأة للعدوان . وفي المفاوضات التالية رافق شخص معين اسمه بريسكوس (Priscus) بعثة إلى معسكر العاهل الهوني ، والشذرات الباقية من القصة التي كتبها تلقى لمحة من الضوء على المعسكر وتكشف النقاب عن أسلوب حياة ذلك القائد العظيم .

وكانت البعثة في حد ذاتها مكونة تكويناً عجيباً ، فكان على رأسها مكسيمين (Maximin) وهو سياسي شريف ذهب وهو حسن النية ، فلم يكن يعرف البتة كما لم يكن بريسكوس يدرى حيناً من الزمان أن فيجيليوس (Vigilius) مترجم البعثة كان مكلفاً أيضاً بمهمة سرية من لدن بلاط ثيودوسيوس ترمي إلى الوصول بطريق الرشوة إلى اغتيال أتيتا . سارت البعثة الصغيرة بطريق نيش ، فعبرت الدانوب في بعض زوارق السكاو استغفرة من شجرة واحدة ، وكانت تعتمد في غذائها على ما تقدمه إليها القرى التي تمر بها . وسرعان ما استرعى الاختلاف بين ألوان الأطعمة فظهر أعضاء البعثة . فيذكر بريسكوس خمر العسل بدل النبيذ ويذكر الدخن بدل القمح ويذكر شرباً إما أن يكون مستقطراً^(١) أو مخمراً من الشجر . وإن الرحلة خلال بلاد الحجر لتذكر القارئ في كثير من حوادثها برحلات الرسالة في أواسط إفريقية في أثناء العصر الفيكطوري . وقد أبت مكارم الأهالي إلا أن يقدموا لأعضاء البعثة زوجات موثقات .

وكانت عاصمة أتيتا أقرب إلى معسكر فسيح وقرية منها إلى مدينة . لم يكن فيها غير بناء واحد من الحجر ، وهو حمام مبني على الطراز الروماني . وكانت كتلة السكان تقيم في أكواخ وخيام . وكان أتيتا والشخصيات البارزة في قومه يسكنون في قصور من الخشب أقيمت من حولها السياجات ومن حولهم زوجاتهم العديداً وأعوانهم . وكان هناك استعراض هائل

(١) من جيون .

للأسلاب والمغانم ، بيد أن أتيلاً نفسه قد اتخذ بساطة المرحلين ديدنه . فكان يتناول شرابه وطعامه في فناجين وصحاف من الخشب . ولم يكن يحس الخبز قط . وكان يشغل دائماً ويقوم مجلساً علينا أمام بوابة قصره ، وكان في العادة في سريجه على الدوام . وكانت العادة البدائية لدى كل من الآريين والمغول من إقامة ولائم عظيمة في البهو ما تزال مرعية عند القوم يكثر فيها من معاقرة الخمر . ويصف ريسكوس كيف غنى الشعراء أمام أتيل : « فالتوا بين يديه أشعاراً نظموها هم أنفسهم يشيدون فيها ببسالته وانتصاراته . ويسود البهو صمت عميق ، واسترعى التفات الضيفان صوت الرجال وهم يغنون في انسجام صوقي شعراً يشيد بمآثرهم العظيمة ويخلد ذكراها . وينبعث من عيون المقاتلة حية حريسة ، ثم عن مزيد تشوقهم إلى القتال . ودموع الشيوخ تعبر عن يأسهم الكريم من عدم تمكنهم أن يأخذوا بنصيبهم من أخطار الميدان ومجده . ويعقب هذه التسلية التي ربما جاز أن تعد مدرسة تلقن فيها الفضيلة العسكرية : فصل مضحك حط من كرامة الطبيعة الإنسانية ، إذ قام مهرجان أحدهما مغربي والآخر إسكندري على التوالي باستثارة ضحك النظارة الأفظاظ بشكليهما المشوهين وثيابهما المضحكة وحركاتهما الشاذة وأحاديثهما السخيفة وخلطهما الغريب غير المفهوم بين اللغات اللاتينية والقوطية والهونية مما جعل البهو يدوى بضحكات عالية ماحنة . وفي وسط هذا الصخب المفرط ، لم يكن أحد لا تغير أسارير سخنته إلا أتيلاً وحده فإنه ظل محتفظاً بوقاره الثابت الذي لا يتغير » (١) .

ومع أن أتيلاً كان متيقظاً حذراً كما اعترف بذلك من اختيار لتنفيذ المهمة السرية التي كلف بها فيجيليوس ، فإنه سمح لهذه البعثة بأن تعود في سلام إلى القسطنطينية ومعها هدايا مكونة من خيول عابدة وما إليها . ثم

(١) عن جيرون .

أرسل إلى ثيودوسيوس الثاني سفيراً ليبلغ ذلك العاهل رأيه فيه . وقال الرسول « إن ثيودوسيوس ينحدر من والد نبيل محترم ، وإن أتتلا كذلك ينحدر من سلالة نبيلة ، وإنه كان بأعماله معاوناً للكرامة والمهابة التي ورثها عن أبيه مونزوك (Munzuk) . ولكن ثيودوسيوس ضحى بشرف آبائه ، وإذا قبل أن يدفع الجزية فإنه حط بنفسه إلى مرتبة العبيد . فمن العدل إذن أن يوقر الرجل الذي وضعته المقادير والجدارة في مرتبة أسبى منه ؛ بدلا من أن يحاول محاولة عبد أثيم أن يتأمر سراً على سيده » . .



(١١٨)

وقبل هذا التحدى الصريح بخنوع دنيء . وابتهل الإمبراطور طالباً الغفران . ودفع فدية عظيمة .

وفي (٤٥١) أعلن أتتلا الحرب على الإمبراطورية الغربية وغزا بلاد

الغال . ولعمري لقد كانت الأمور تجري على ما يهوى طالما كان اشتباكه في الحروب بقوات الإمبراطورية ، فإنه نهب معظم مدن فرنسا حتى أورليان جنوباً . وعند ذلك اتحد ضده الفرنجة والقوط الغربيون والقوات الإمبراطورية ، وحدثت معركة عظيمة شديدة في ترويس (Troyes) (٤٥١) قتل فيها من الحانين ما يربى على مئة وخمسين ألف رجل ، فأنهت بصدده وأنقذت أوربا من أن يكون لها سيد أعلى مغولى . وما كانت هذه الكارثة لتستنفد بأى حال موارد أتيل . فوجه التفاته جنوباً ، واجتاح شمال إيطاليا . فأحرق أكويليا وبادوا (Padua) ثم نهب ميلانو ، بيد أنه تصالح ما أعدائه تلبية لرجاء البابا ليو الأول ، ومات (٤٥٣) . . . ومنذ ذلك الحين اختفى من التاريخ الهون وأعطى بهم هون أتيل ، من حيث اتصال هذا الاسم بأوربا . فلأنهم ذابوا فيمن أحاط بهم من سكان . ولعل دماءهم كانت مخلطة من قبل تخليطاً كثيراً كما كانوا آرين أكثر منهم مغولا . وهم لم يصبحوا كما قد يظن المرء سكان بلاد المجر ، وإن كانوا على الراجح تركوا هناك أحفاداً كثيرين . وبعد ذلك بنحو مئة سنة ، أتى شعب آخر هونى أو مختلط ، هم الآفار (Avars) قادمين من الشرق إلى بلاد المجر ، بيد أن شلمان دفعهم منها نحو الشرق مرة ثانية (٧٩١ - ٧٩٥ م) . وجاء المجرىون (الماغيار Magyars) وهم الهنغاريون العصريون نحو الغرب بعد ذلك . وكانوا شعباً تركياً فنلندياً (Turko Finnish) . والمجرية لغة تنمى إلى القسم الفنلندى الأجرى (Finno Ugrian) من الألسن الأورال آلتائية . وكان المجرىون على ضفاف الفولجا قرابة (٥٥٠ م) . واستقروا في هنغاريا قرابة (٩٠٠) . . . على أننا نتجاوز الحد في إمعاننا في هذا الحديث . ولا بد لنا من العودة إلى روما^(١) .

في (٤٩٣) أصبح ثيودوريك (Theodoric) وهو من القوط ملكاً على روما ، ولكن مضت حتى آنذاك سبعة عشر عاماً وليس هناك إمبراطور

(١) إن شئت توسعاً في هذا الموضوع انظر المترجم « ميلاد العصور الوسطى » تأليف

موص ، الألف كتاب ومكتبة عالم الكتب . (المترجم)

رومانى . وبذلك انتهت « السيادة العالمية » العظيمة مالكة الرقيق ، سيادة القياصرة الأرباب وأثرياء رجال روما ، ولفظت آخر أنفاسها وهى فى أقصى حالات الانحلال والانهيار الاجتماعى .

٧ - الإمبراطورية الشرقية (الهلينية المبتعثة)

ومع أن النظام الإمبراطورى الرومانى انهار فى كل أنحاء أوربا الغربية وإفريقية الشمالية ، ومع أن الديون اختفت وإنتاج الترف قد توقف وأخفيت الأموال ، ومع أن الدائنين صاروا لا يحصلون على ديونهم وأصبح الأرقاء بلا أسياد ، فإن تقاليد القياصرة كانت لا تزال مرعية فى القسطنطينية . وقد سنحت لنا من قبل الفرصة لذكر اسم دقلديانوس (٢٨٤ م) و قسطنطين الأكبر (٣١٢ م) بوصفهما شخصيتين بارزتين بين القياصرة المتأخرين . وإنما يدين العالم الثانى بفضل إقامة قصبة جديدة للإمبراطورية هى القسطنطينية .

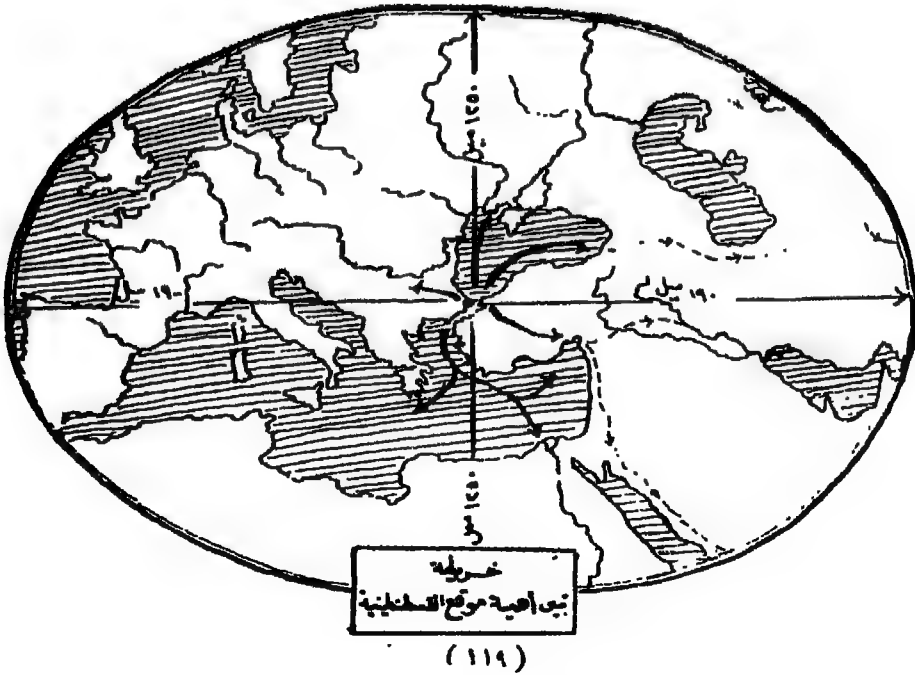
فى وقت مبكر جداً من عصر الإمبراطورية أخذ الناس يدركون عدم ملائمة مركز روما لأن تكون عاصمة عالمية بسبب نكوص الرومان عن استخدام البحر . وقد قضى تدمير قرطاجة وكورنثة على حركة النقل والملاحة التى كانت تحتاز الطرق البحرية الرئيسية بالبحر المتوسط . فإن شعباً لا يستخدم البحر على الوجه الأكمل ، لم يكن هناك من معنى لاتخاذ مقره الإدارى فى روما ، إلا أن تضطر كل كتيبة وكل بعثة من الموظفين وكل أمر يصدر — أن تتجه شمالاً مسافة طولها نصف إيطاليا قبل التحول شرقاً أو غرباً . ومن ثم يكاد كل الأباطرة المقتدرين يقيمون مقر إدارتهم العليا فى مركز من المراكز الثانوية ، يمتاز بموقع أكثر ملائمة . فكانت سيرميوم (Sirmium) (على نهر السييف) وميلانو وليون ونيقوميديا (فى بيشينيا) من بين أمثال تلك العواصم الإضافية . ولبثت دورازو ردهاً

من الزمان هي العاصمة في حكم الإمبراطور دقلديانوس . وكانت رافنا بالقرب من رأس الأدرياتي عاصمة الأباطرة الآخرين من الرومان أيام آلاريك وستيليكو .

وكان قسطنطين الأكبر هو الذى صمم على نقل مركز الساطة الإمبراطورية إلى ضفاف البسفور نقلاً مستديماً . ولقد سبق أن لحظنا وجود مدينة بيزنطة التى اختار قسطنطين أن ينهض بها ويجعل منها عاصمة له ، والتى مثلت دوراً في قصة هسثيايوس المعقدة كما صدت فيليب المقدوني . فلو تأمل القارئ موقعها ، لرأى أنها لو قبض لها سلسلة من الأباطرة المقتدرين ، وكانت مركزاً لشعب له بعض التماسك والروح القوية والفن البحرى ، (وهما أمران لم يتحققا لها قط — لعاشت في عزة ومنعة . فلقد كانت من حسن الموقع بمنزلة عظيمة خارقة للعادة . ولا تنس أن سفنها كانت تستطيع أن تتوغل في الأنهار حتى قلب روسيا ، وبذلك تضرب من الخلف كل تقدم يقوم به البرابرة . لقد كانت تتسلط على الطرق التجارية المؤدية إلى الشرق . وكانت على مسافة دانية ومعقولة تستطيع منها أن توجه ضربة إلى أرض الجزيرة ومصر وبلاد الإغريق وكل جهات العالم الأكثر رخاء والأوفر حظاً من المدنية والثراء في ذلك الزمان . بلغ بها الأمر أنها رغم وقوعها تحت حكم سلسلة من ملوك عاجزين ، وفي ظل ظروف اجتماعية منحلة الأخلاق ، فإن بقايا الإمبراطورية الرومانية التى تركزت في القسطنطينية ، صمدت هناك ما يقارب الألف سنة .

وظهرت من قسطنطين الأكبر النية الواضحة على جعل القسطنطينية مركزاً لإمبراطورية متماسكة غير مجزأة . بيد أننا إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى وسائل السفر والنقل التى كانت في متناول ذلك الزمان ، رأينا أن الظروف الجغرافية لأوروبا وآسيا الغربية لا تشير إلى أى مركز واحد بالذات يصلح قصبة للحكومة . فلئن اتجهت روما صوب الغرب بدلا من الشرق ففاتها بذلك

أن تمد سلطانها إلى ما وراء الفرات ، فإن القسطنطينية من الناحية الأخرى كانت بعيدة عن بلاد الغال بعداً تقطع دونه كل علائق الأمل . إن مدينة البحر المتوسط الموهنة القوى تركت الغرب في الواقع يفلت منها إفلاتاً تاماً بعد أن بذلت بعض الجهد في سبيل الحصول على إيطاليا ، ثم تركت بوجه الخصوص على البقايا المركزية والدعائم الأساسية التي قامت عليها إمبراطورية الإسكندر . واستعادت اللغة الإغريقية سلطانها الذي لم يحدث البتة أن تقوض تقوضاً خطيراً بسبب استعمال اللاتينية رسمياً . ويشير الناس بوجه عام إلى هذه الإمبراطورية « الشرقية » أو البيزنطية ، كأنما كانت استمراراً للتقاليد الرومانية . بينما هي في الحقيقة أقرب كثيراً أن تكون استئنافاً لإمبراطورية الإسكندر .



وما كانت القوة الفكرية تنهض من وراء اللغة اللاتينية ، إذ لم يتوفر لتلك اللغة من الأدب والعلم ما يجعل منها ضرورة لا يستغنى عنها أذكىاء

الرجال فيطوّع لها ذلك استمرار التغلب على الإغريقية . فإن أية لغة مهما بلغ شأن ما يستطيع الحكام أن يفعلوه لها ، لا تستطيع أن تفرض نفسها بصورة تمكنها من منافسة أخرى في إمكانها أن تهب الناس ما لديها من مزايا أدب عظيم أو معلومات موسوعية . فاللغات المعتدية يجب أن تصاحبها مواهبها ومزاياها ، ومواهب الإغريقية أعظم من مواهب اللاتينية عظماً لا يدع سبيلاً للمقارنة . وكانت الإمبراطورية الشرقية منذ بواكير انفصالها ناطقة بالإغريقية ، كما كانت استمراراً للتقاليد الهلنسية ، وإن يكن ذلك الاستمرار مقترناً بالانحلال . ولم يعد مركزها الفكري بعدُ في بلاد الإغريق بل في الإسكندرية . ولم تعد عقليتها بعدُ عقلية مواطنين أحرار الفكر صريحى القول ؛ عقلية أرسطو الاستاجيرى^(١) وأفلاطون الإغريقى . بل كانت عقليتها عقلية المتحذلقين وعقلية رجال عاجزين سياسياً . وكانت فلسفتها تهرباً باهراً من حقائق الأمور وكان حافظها العلمى قد خبا . ومع ذلك فإنها كانت هلنسية على كل حال وما كانت باللاتينية بحال . لقد ظهر الرومان على المسرح هنية ثم توارى عن الأبصار مرة أخرى والواقع أنه اختفى إلى حد كبير جداً من الغرب أيضاً . ولما حل القرن السادس الميلادى ، مست سكان أوروبا وإفريقيا الشمالية رجة عنيفة حركتهم حركة العكارة المترسبة في قعر إناء . وعند ما تبدأ تلك العكارة أن تستقر من جديد في القرنين السابع والثامن ويشرع مختلف السكان في اتخاذ سمة محددة محلية التكوين ، لا يتبقى من الرومان سوى اسمه فقط في المنطقة المحيطة بروما .

فأما لغته اللاتينية فإنها في أجزاء مترامية من إمبراطوريته الغربية قد داخلتها التعديلات وظهرت لها صور متغيرة أو كانت آخذة بأسباب التغير . حدث ذلك في بلاد الغال حيث كان الفرنجة يتعلمون من اللاتينية صيغة

(١) استاجيرا مدينة في مقدونيا ولد فيها أرسطو الفيلسوف فعرف بأرسطو الاستاجير .
(المترجم)

غالية وبذلك يطوِّرون اللغة الفرنسية في ثنايا تلك العملية . وفي إيطاليا حيث تجلّى تأثير المغيرين التبتون ما بين لومبارد وقوط ، أخذت اللاتينية تتحول إلى لهجات إيطالية متنوعة ؛ وفي أسبانية والبرتغال أخذت تتحول إلى الأسبانية والبرتغالية . والجوهر اللاتيني الأساسى فى لغات هذه الأقاليم يساعدنا على إدراك انعدام القيمة العددية لمختلف الغزاة من الفرنجة والوندال والآفار والقوط ومن إليهم من الناطقين بالجرمانية كما يساعد على تبرير ما قلناه من أن ما حدث للإمبراطورية الغربية لم يكن فتحاً وتبدُّل سكان بآخرين قدر ما كان انقلاباً سياسياً واجتماعياً . كذلك احتفظ لإقليم فاليه (Valais) بجنوب سويسرا بلغة لاتينية الأساس ، وهكذا كانت حال كانتون جريسون . وأعجب من هذا وأدعى للإمتاع أن داكيا ومويسيا الدنيا (Moesia Inferior) التى منها أجزاء كبيرة تقع فى شمال الدانوب والى أصبحت دولة رومانيا الحديثة قد احتفظت كذلك باللسان اللاتينى . مع أن هذه الأقاليم لم تلحق بالإمبراطورية إلا مؤخراً ولم تلبث حتى ضاعت من يديها سريعاً .

فأما فى بريطانيا فإن اللاتينية محاهها الفاتحون الأنجلوسكسون محواً تاماً . ومن لهجاتهم المتنوعة نبتت للفرور مادة الاشتقاق الأساسية فى اللغة الإنجليزية :

بيد أنه على حين كان تحطيم البناء السياسى والاجتماعى الرومانى كاملاً كما ترى ، وعلى حين قضت عليه فى الشرق التقاليد الإغريقية الأقدم منه عهداً والأشد قوة ، وعلى حين تمزق فى الغرب إلى أجزاء شرعت تتخذ لنفسها حياة منفصلة بها ، — فلقد كان هناك شىء واحد لم يهلك ، بل ترعرع ونما ، وكان ذلك هو تقاليد إمبراطورية روما العالمية وسيادة القياصرة : فلما قضى على هذه الحقيقة اتسع أمام الأسطورة مجال الامتداد والتوسع . ذلك أن فكرة السيادة الرومانية العالمية المتسمة بالوقار والعظمة عند ما حرمت كل احتمال للتحقيق والخروج إلى حيز

التفيلد ، ريت وازدهرت في خيال الجنس البشرى ولا تزال ممسكة بزمامه إلى يومنا هذا .

لقد ظلت تطيف بالفكر الإنسانى منذ زمان الإسكندر فكرة تبشر بإمكان توحيد الجنس البشرى توحيداً سياسياً . ولطالما دار بخلد كل قوى من أقوياء رؤساء البرابرة وزعمائهم وملوكهم الذين كانوا يغيرون في بحران تلك القوضى الضخمة الناشبة أظفارها في الإمبراطورية المنحلة المتضعضة ، أين في الإمكان وجود ملك ملوك قوى أعظم منهم جميعاً يهب القانون الحقيقي النافذ للناس كافة ، ويقيم في العالم قسطاً مستقيماً ، وكانوا على أتم استعداد للإيمان بأن قيصر قد جاء في الماضى في موضع وزمان ما ، وأنه كان ملك الملوك المنشود ذاك ، وأنه قادر على العودة من فوره لمواصلة حمل صولجان سيادته مرة ثانية . من أجل هذا كانوا يجعلون ذلك اللقب القيصرى ويغارون منه ويضعونه في منزلة تعظم ألقابهم ورتبهم . وما تاريخ أوروبا الدولى منذ ذلك الحين إلى وقتنا هذا إلا تاريخ ملوك ومغامرين يعملون لمنصب القيصرية والإمبراطورية . ونحن محدثوك عن بعض هؤلاء في الحين المناسب . ولقد بلغ من انتشار هذا « التقيصر » وشموله أجزاء العالم أن الحرب العظمى ١٩١٤-١٩١٨ ثلث عروش ما لا يقل عن أربعة من هؤلاء القياصرة ، هم قيصر ألمانيا وقيصر النمسا وقيصر روسيا ثم ذلك الشخص الغريب المضحك قيصر بلغاريا . وكان الإمبراطور الفرنسى نابليون الثالث قد هوى قبل ذلك عن عرشه في ١٨٧١ م . ولم يبق في العالم اليوم أحد تهباً لمواصلة حمل اللقب الإمبراطورى والنهوض بتقاليد قيصر المؤله (Divus Caesar) غير العاهل البريطانى الذى يسمى قيصر الهند (وهى بلاد لم يرها قط قيصر من القياصرة الحقيقيين) . وهو يرث هذا اللقب عن المغولى الأعظم الذى سنتكلم عنه في حينه .

(تم المجلد الثانى ويعقبه الثالث)

حاوياً تاريخ المسيحية والإسلام والعصور الوسطى)

فهرس أجدى الكتاب

٤٠٩، ٤٠١، ٤٠٠، ٣٩٥، ٣٩٤	٤١٥
٦٢١، ٤٥٣، ٤٥١، ٤١٥، ٤١٣	أشركدون ٢٩٧
الأشركدون ٦١٥	أثان والدفع ٥٧٣
أشركدون ٦٢٧، ٥٤٥، ٤٥٦	إبراهيم ٢٩٩، ٢٨٤
أشركدون ٣٦٧	إسمايك ٢٩٧، ٣٤٦
الأشركدون ٦١٨	إسوس ٤٤٨، ٤٤٩
أشركدون ٤٤٩	الأشركدون (نظام) ٣٢١، ٣٢٢
أشركدون (أشركدون - أشركدون) ٣١٣، ٢٨٦	أشركدون ٣٤٣، ٣٥٦
٤٧٢	أشركدون ٤٥٦
أشركدون ٣٦٤	أشركدون (الطريق) ٥٢٣، ٥٨٦
أشركدون ٤٤٧، ٤٢٣	أشركدون ٣٧٣
أشركدون ٤٣٥	إشركدون ٥١٣، ٥١٢، ٤٢٠
أشركدون ٣٧٥	أشركدون ٣٩٦، ٤٠١
أشركدون ٥٢٩، ٥٢٨	أشركدون ٥١٩، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٤
أشركدون ٣٥١، ٢٩٧	٥٣٤، ٥٣٩
أشركدون ٣٩٧	أشركدون ٥٧٧، ٥٧٨، ٤٥٠
إشركدون ٣٨٥، ٣٨١	أشركدون (أشركدون - أشركدون)
إشركدون ٣٧٨، ٣٦٥، ٣٦٤، ٣٣٥، ٣٢٩	أشركدون ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠
إشركدون ٣٩٣	أشركدون ٣٦٤، ٣٦٥
أشركدون (أشركدون - أشركدون)	أشركدون ٣٧٨، ٣٦٥، ٣٦٤، ٣٨٢
أشركدون ٢٨٤	٤٠١، ٤٠٣، ٤١٩، ٤٣٧، ٤٦٣
أشركدون ٣٢٩، ٢٩٨، ٢٨٢	أشركدون ٣٦٦، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢
إشركدون ٢٨٤، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٦	٣٧٣، ٤٠٠، ٤٣٧
٢٩٨	أشركدون ٢٩٣، ٤١٠
أشركدون (أشركدون - أشركدون)	أشركدون ٣٧٧، ٤٠٣، ٦١٩، ٦٢٠
إشركدون ٣٩٥، ٣٩٣، ٣٨١، ٢٨٠	أشركدون ٤٥٦، ٤٦١
٤١٣، ٤٢٢، ٤٢٤، ٤٢٥	أشركدون (أشركدون - أشركدون) ٤٣٦، ٤٤٩
٤٣٢، ٤٣٣، ٤٤٢، ٤٤٥	أشركدون ٣٧٥
٤٥٠، ٤٥١، ٤٨٩، ٦٠٧	أشركدون ٣٧٤، ٣٧٦
٥٧٨، ٥٩١، ٦٤٦	أشركدون ٣٣٤، ٣٣٥، ٥١٦
إشركدون ٤٣٤	أشركدون ٣٦٩
	أشركدون ٣٣٢، ٣٤٤، ٣٩٣

الامير الحاكم ٣٠٥	الإسكندرية ٤٣٣ ، ٤٤٨ ، ٤٥٤ ، ٤٦٤ ، ٤٨٩
آمون ٤٣٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦	الأسكليبيون ٣٩٧ ، ٣٥١ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٤٤٩ ، ٤٤١ ، ٣٦٢ ، ٤٨٧
أناكساجوراس ٣٨٥ ، ٣٩٤ ، ٤١٢ ، ٤١٣	أسوكا ٤٦٥ ، ٤٨٨ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٥٦٣
أنبياء (نبي) ٢٩٧ ، ٣٠١	أشودود ٢٧٩
أنتيجونوس ٤٤٨	آشور ٢٨٧ ، ٢٩٧
أنطوليوس ٥٩٩ ، ٥٩٨	الإغريق (بلاد) ٢٨١ ، ٣١٩ ، ٣٢٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩
أنطونينوس پيوس ٥٩٤ ، ٦١٣ ، ٦٢٨	أفلاطون ٣٧٩ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩٣ ، ٤٠٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٠ ، ٤٥١ ، ٤٩٦ ، ٥٣٣
الانطونيون ٦١٣ ، ٦١٨	أفيسوس ٣٧٣ ، ٤٣٠
أنطيوخوس ٥٥٢ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥	أفليدس ٤٥٦
أنيتوس ٣٩٠	أكتيوم ٥٩٧ ، ٥٩٨
أوتو ٦١٢	الأكاديمية ٣٨٩ ، ٣٩٠
الأوديسيا ٣١٦ ، ٤٠٥	الأكروبول ٣٧٠
أورشليم ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩٦	إكنوموس (معركة) ٥٣٦ ، ٥٣٧
أورليوس ٦٣٣	إكفى ٣٨٥
أوريليان ٦١٥	السييادس ٣٨٩
أوريتوس ٤٢١	الآلة ٣٩٩
الأورينياكيون ٣١٤	الياتيس ٣٤٦
أوزيريس ٤٦٦	الإلياذة ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٤٠٥ ، ٤٢١
أوستيا ٥٧٥	إليريا ٤١٩ ، ٤٢٣ ، ٤٢٧
أوسكولوم (معركة) ٥١٣	الأم العظيمة ٣٤٦
أوغسطوس ٦٠٠ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٢١ ، ٦٢٨	الإمبراطور الرب ٦٠٥
أوثيد ٦٢٢	الإمبراطورية الأثينية ٣٣٩
أوكثافوس ٥٩٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠	الإمبراطورية الآشورية الأخيرة ٢٩٦
الأوليچركيه ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢	الإمبراطورية البابلية الأولى ٢٨٤
أوليمبوس ٣٦٧ ، ٦٠٥	الإمبراطورية البيزنطية ٦٠٧
أوليمبيا ٣٤٣	أمفكتيونات ٣٤٣
أوليمپياس ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨	أمفبوليس ٤١٩
الأيدالة ٥١٧	أمحوتب الثالث ٢٩٤
الأيبرية ٣١٩	منحوتب الرابع ٢٨٥
إيزو قراط ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٤٠١ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٤١ ، ٤٥١	
إيزيس ٤٩٠	
إيسكيلوس ٤٠٧	
إيسوس ٤٣١ ، ٤٣٤	

الطارقة (النبلاء) ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ،	الإنيادة ٥٠٧
٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢١ ، ٥٣٠	أيوب ٣٠١
بطمبوس ٤٢٤ ، ٤٤٨ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ،	الأيولية ٣١٩ ، ٣٢٧
٤٥٧ ، ٥٧٨	الأيونيون ٣٢٧ ، ٣٤٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ،
ببل ٢٨٨ ، ٢٩٨ ، ٤٦٥	٤٠٥
بنفل مردك ٤٣٦	
بكموداروس ٤٢٣	« ب »
بلاثا ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣ ، ٣٧٧ ، ٣٨٥ ،	بابل ٣٠١ ، ٣٠٧ ، ٣٥٧ ، ٣٧٦ ،
البليز (البليان) انظر العامة	٣٣٦ ، ٤٠٢
بلطشاصر ٣٥٧	بارثيا ٦١٤
البلقان ٣٥٩	البارثيون ٣٨٢ ، ٤٤١ ، ٤٤٩ ، ٥٨٧ ،
بلوتارك ٣٤٢ ، ٣٨١ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ،	٦٤٨
٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٤٧ ، ٥٩٢ ،	باركر ٦٤٠
٥٩٤ ، ٦٢٢	پارمينيون ٤٤٤ ، ٤٤٥
بلوتس ٦٢١	ياكتريا والباكتريون ٤٤١ ، ٤٤٩ ،
بلتي ٦٢٨	٦٤٧ ، ٦٤٨
بميس العظيم ٥٨٦ ، ٥٩١ ، ٥٩٣	باكون ٣٩٤
بومبي (مدينة) ٦٣٥	البالية (اللغة) ٤٧٣
الفتاتريك (انظر الأسفار الخمسة - مادة	بان تشاو ٦٤٨
سفر) ٣٩٩	پترونيوس ٦١٨ ، ٦٢٠
البنجاب ٤٨٩	البحر الأحمر ٢٨٦
بندار ٤٠٧ ، ٤٢٧	البراعة ٤٧٣ ، ٥٠٢
بنطس ٥٨٦ ، ٥٨٧	برايتور ٥٦٠
بنيشنم ٥١٣	بريد ٣٥٨
البو (شجرة) ٤٨٠	برجامة ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٥٧٧ ، ٥٨٧
بويندانات باسو ٣٢٢	برسيبوليس ٤٠٢ ، ٤٣٧
بوذا ٤٨١ ، ٤٨٩	بريكليس ٣٣٧ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ،
البوذية (الديانة) ٥٠٠ ، ٥٠٢	٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٤٠٢ ، ٤١٠ ،
پوروس ٤٣٨ ، ٤٩١	٦٢٤ ، ٦١٦
البوريات ٦٤٤	پروپوس ٦١٥
پولبيوس ٦٢٢	بروتس ٥٩٥
پوليكليتوس ٣٨٢	الپوليتارية (الدماء) ٥١٦ ، ٥٢٩
	پريام ٣٦٧

تسمى ٥٨٩
التشكيل (فن) ٤٥٩
الطل البلاتيني ٦١٢
تغلت فلاسر ٢٩٦ ، ٣٥٠
توراة موسى ٢٨٣ ، ٤٥٥
تيتسون (لورد) ٣١٧
تومسون (ج . ا . لك) ٤٠٩
تيربوس ٥٦٨ ، ٥٧٣ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧
٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٦١٠
تيتوس ٦١٣
تيريتس ٦٢١
(معركة) تيلامون ٥٣٨
« ث »
ثرموبيلاي ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠
الثقافة الجندلية ٣١٣
ثوسيديدس ٣٧٨ ، ٦٢١
ثيموستوكليس ٣٤٢ ، ٣٧١
الثيوكرازيا (اتحاد الآلهة) ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٦٣٣
« ج »
جاسان (أرض) ٢٨٤
جاليا ٦١٢
الجرمان ٥٨٢
جلادستون ٣٧٢
جلبرت موراي ٣١٦ ، ٣٤١ ، ٥٦٦
جلبوع ٢٩١
جلوكيا ٥٨٢
جندهارا ٤٨٩
جندركتب ٤٨٣
جنس البحر المتوسط ٣٤٥
جوبيتر ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٥٠٠
جوتاما ٤٧٣ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٥١٥
جورچيا ٢٨٣

البونية (الحروب) ٥٣٢ ، ٥٣٩ ، ٥٥٧ ، ٥٦١
البونية (اللغة) ٦١٦
بوتيا ٣٧٠
الهير ٥٥٧
بيبي ٤٥٤
بشر ٣٥٢
بيشينا ٤٤١ ، ٥٧٩
بروس ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥٣٣
پزستراتوس ٣٣٥ ، ٣٦٤ ، ٣٧٠ ، ٤١٠ ، ٤٥٥
بزنطة ٤٣٢
بيسوس ٤٣٧
الپيلوپونيز (حرب) ٣٧٨ ، ٤٠٩
بيولف ٣٢٥

« ت »

تابوت عهد الرب ٢٨٨ ، ٢٩٢
تاركوين الصلف ٥١٦
التاركوينون ٥١٥
تارنم ٥٤٥
التاريخ الطبيعي ٣٩٤
التاسوع الإلهي ٤٥٥
تالنتات ٣٩٥
التاوية (الديانة) ٤٩٤
تحتس الثالث ٢٩٥ ، ٣٤٨ ، ٤٥٥
الترابنة ٥١٧ ، ٥٢٠ ، ٥٢٤ ، ٥٣٠
تراچان ٦١٣
التراجيديا (المأساة) ٤٠٧
ترازيمبي (معركة) ٥٤٤
تراقيا - التراقيون ٣٢٩ ، ٣٦٢ ، ٤١٩
الترقية ٦٠٤
ترجل (حياة - مترجلون - رجل) ٣١٩
تسالوس ٤٢٣
تساليا ٣٦٧ ، ٣٧٢

الدورية ٣٢٧
دولة مدينة ٣٣٤ ، ٣٤٠ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠
٥٢٣
دولة جمهورية طلمية ٦٠٣
دوميشيان ٦١٣
ديلوس ٣٨١ ، ٣٣٩
ديكيوس ٦١٦
الديمقراطية ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢
ديموشينز ٤٠١ ، ٤١٤ ، ٤٢٤ ، ٥٩٣ ،
٦٢١
ديميتر ٤٢١ ، ٦٣٣
الديناس ٣٦٧
ديونيسيوس ٤٠٧ ، ٤٢١ ، ٥٣٣
« ر »

راما ٥٦٢
الرقيب ٥٢٩
الرق ٥٦٣ ، ٥٦٦
الرقيق ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٤٠١ ، ٦٣٢
رمسيس الثاني ٢٨٤ ، ٢٩٦ ، ٤٥٥
الرواقيون ٣٩٦ ، ٤٠١
روقتيلوس روفوس ٥٨٢
روكسانا ٤٤٧
روما ٥٠٥ ، ٥٠٨ ، ٥١٠ ، ٥١١ ،
٥١٢ ، ٥١٧ ، ٥٢٠
الرومان ٤٥٢
الرومانية (الجمهورية) ٤٥٠ ، ٥٢٣ ،
٥٦٠
الرومانية (الدولة) ٦٠٧
روميولوس ٥٠٩
ريموس ٥٠٩
« ز »
زاما (معركة) ٥٤٦ ، ٥٤٩ ، ٥٥٤
الزرادشتية ٦٣٣

جوفينال ٦٢٥
جيبون ٦٢٢ ، ٥٢٩
جيجيس ٣٤١
الجيش الروماني ٥٥٨

« ح »

الحجر الأعظم ٦٠٥
حجر المعولة ٢٨٨
حزقيا ٢٩٧
حزقيا ٢٩٩ ، ٣٠١
الحصان ٣٢٥
حورابي ٢٨٤ ، ٤٣٦
حورس ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩
الحثيون ٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٣٥٨
حيرام ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥

« خ »

خارميس ٣٨٩
خارون ٥٦٣
الخلود ٤٦٨ ، ٦٣٣
خيل (انظر حصان)
خيريوليا (معركة) ٤٠٧ ، ٤١٠

« د »

دارا ٣٥٨ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ،
٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧
دارون ٤٠٣
داود ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٢٧
الدرايدية (المدنية) ٤٧١
الدرايديون ٣٢٥
الدراما (المسرحية) ٣٩٩
دريپانوم (معركة) ٥٣٧
دقديانوس ٦١٧
دلفي ٣٤٣ ، ٣٥٢ ، ٤١٦
الدورات ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٤٤

سفر الأيام ٢٨٧
سفر تفتية الاشتراع ٢٨٦
سفر التكوين ٢٨٣ ، ٣٠١
سفر راعوث ٢٨٧
سفر صموئيل الأول ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩١
سفر القضاة ٢٨٨
سفر اللاويين ٢٨٦
سفر الملوك الأول ٢٩١
السفطانيون ٣٨٨
سقراط ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٤٩٩
سكيبو (ب . كورنيليوس) ٥٤٤ ،
٥٤٦ ، ٥٤٧ ، (الإفريقي) ٥٤٨ ،
٥٤٩ ، ٥٥٢ ، ٥٥٤ ، ٥٥٨ ،
٥٥٨ ، ٥٧٧ ، ٥٧٢ ، ٥٧٩ ،
٥٨١
سكيبو (لوكيوس) ٥٥٢ ، ٥٥٤
سكيبو ناسيكا ٥٥٥ ، ٥٧٩
سلا ٥٨٣ ، ٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٩٣
سلوقس ٤٤٨ ، ٤٩٢
السلوقية (الإمبراطورية) ٤٥٠ ، ٦٠٨
السلوقيون ٥٥٢
سليمان ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٩
السناتو (مجلس) ٥١٥ ، ٥٢١ ، ٥٢٨ ،
٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٥٩ ،
٥٧٨ ، ٥٩٩
سنحاريب ٢٩٧
سليكا ٥٦٦
سوريا ٢٨٣
سوسا ٣٥١ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٧٠ ،
٤٣٦
سوفوكليس ٤٠٧
سولون ٣٥٥
السوليوتريون ٣٤٨
سيراييس ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٨٩ ،
٦٣٣
سيراييوم ٤٦٧

زينوفون ٣٧٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٤٠١ ،
٤٠٩
زيوس ٤٣٥ ، ٤٦٥
زيوكسيس ٤١٦
« س »
ساتراب ٣٥٨ ، ٤٣٩
ساتورا ٦١٩ ، ٦٢٠
ساتير نينوس ٥٨٢
الساتير يكون ٦٢٠
السايجا ٣١٥
سارديس ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٣ ، ٣٦٣ ،
٢٦٦ ، ٤٣٠
الساسانيون ٦٠٩ ، ٦١٠
سالفو ٤٠٧
سالاميس (معركة) ٣٦٦ ، ٣٧٠ ،
٣٧٢ ، ٣٨٠ ، ٣٨٥
ساليبيكوس ٥٨٤
سالوست ٦٢١
السامرة ٣٠٥
ساموتراقيا ٤٢٠
ساموس ٣٨١
سپارتاكوس ٥٨٥ ، ٥٨٧
سپتيوس سقيروس ٦١٥
سپوديوس كاسيوس ٥١٨
سپوديوس ملبوس ٥١٩
سناتير ٣٥٢
ستون شنج ٣١٣
سرجون الأول ٢٨٣
سرجون الثاني ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٥٠
سردانا بالوس ٢٩٩ ، ٣٤٦
سفر مقدس (أسفار) ٢٨٣
الأسفار الخمسة الأولى (انظر تواره
وبنتاتريك) ٢٩٩
سفر أيوب ٣٠١

العامة ٣٣١ ، ٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ،
٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١

عاموس ٣٠١
المبدان (رقيق)
المبراني (المبرانيون) ٢٨٨ ، ٢٨٤ ،
٣٩٨

للمرب ٣٠١
عشتورث ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٣
العصر الحجري الحديث ٢٨٣ ، ٣١٩ ،
٤٧١

العصر الحجري القديم ٤٦٠
عقرون ٢٨٧
العلم ٤٥٣
الموديون ٢٨٤
العمونيون ٣٠٠
المهد القديم ٢٨١
عيسى ٣٠٤

« غ »

الغال ٤٤٩ ، ٥١٠ ، ٥١٢ ، ٥٣٨
غزة ٤٢٩ ، ٤٣٣
الغلاطيون ٤٤٩

« ف »

فابيوس ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨
الفاتس ٦١٩
فارو ٥٤٤
فاليريان ٦١٦
فاليريوس يوليوس ٥١٨
فرجيل ٥٠٧ ، ٦٢١
الفرس ٢٩٧ ، ٣٤٥
فرساليا (معركة) ٥٩٣
فريجيوس ٢٤

سورفيس ٣٧٣
سيمونيدس ٤٠٧

« ش »

الشامانية (المفيدة) ٥٦٢
شالنج تاولنج ٤٩٤
شاول ٢٩١
شلمناسر ٢٩٧
شمشون ٢٨٨ ، ٢٩٩
شمسي ٢٩٢
شن ثوان ٤٩٥
شني هوانج تي ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٧
شيشرون ٦٢١ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٦
٦٥٥
شيشنيق ٢٩٤

« ص »

صقلية ٥١٣
صموئيل الأول والثاني ٢٨٧ (انظر سفر)
صور وصيدا ٢٨٤ ، ٣٠١ ، ٣٦٤ ،
٤٢٩ ، ٤٣١

« ط »

الطاغية ٣٣٥ ، ٢٣٦
الطباعه ٤٦٠ ، ٥٢٥ ، ٦٠٣
طرق ٣٥٨
طروادة ٣٢٩ ، ٣٥٠ ، ٣٦٦
الطوفان ٢٨٣ ، ٢٩٩
طليه ٣٧٠ ، ٤٢٧

« ع »

عالي ٢٨٨ ، ٢٨٩

٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ،
٤٢٥ ، ٤٤٢ ، ٤٥٤
الفينيقيون ٢٨٤ ، ٣٠١

« ق »

قانون حماية الفرد (هابيلس كورباس)
قبرص ٣٦٤
القبيلة ٣٩٩
قرطاجة ٣٠١ ، ٤٣٢ ، ٥٠٥ ، ٥٠٨ ،
٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥٣١
القرطاجيون ٥٣٧
قزوين ٢٨٣
قسطنطين ٥٦٢ ، ٦٠٢ ، ٦١٧
القصص النثرية ٦٢٥
القلموق ٦٤٤
قمبيز ٣٥٧ ، ٤١٣
القنصل (نائب) ٥٣٠
القنصلان ٥١٥ ، ٥٢٠ ، ٥٢٤ ، ٥٢٩ ،
٥٣٠
قورش ٢٨٢ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٤٤ ،
٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٤١٨
قيصر ٤٥٢

« ك »

الكابيتول ٥١١ ، ٥١٩
كانو (ماركوس پوركيوس) ٥٤١ ،
٥٥٢ ، ٦١٦ ، ٦٢١ ، ٥٦٣ ،
٥٧٥
كاتولوس ٦٢١
كاتيلينا ٥٩٣
كارفاك ٣١٣
كاراي (معركة) ٤٢٣ ، ٥٨٨ ، ٦٣٧
كالينيز ٣٤٥
كاليجولا ٦١٥
كاليماخوس ٤٥٧

الفريجيون ٣٢٩ ، ٣٤٥
فريرو ٥١٥ ، ٥٦٩
فسبازيان ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦٢٨
الفكر ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٢٤١
فلاميا ٥٣٨
فلسطين ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨
الفلسطينيون ٥٠٧
الفلسفة ٤٦٣
الفلاسفة ٣٩٨
الفلافي (الأسرة) ٦١٣
فن ٦١٩ ، ٦٣٤
فن الإغريق ٣٧٧
الفن البوذي ٤٩٥
فن التشكيل ٤٥٩
فن الرسم ٤١١
الفن المعماري ٤١٥ ، ٦٣٥
الفن الموسيقي ٤١١
فن النحت ٤١٥
الفنون الحرة ٦٢٨
الفوارس ٥٢٨
الفوروم ٣٨٣ ، ٥٠٩ ، ٥٢٧ ، ٥٣٠
فوستينا ٦١٤
فوشر ٤٩٥
الفوكيون ٤١٥
فول ٣٩٦
الثولسكانيون ٥١٨
فياي (قلعة) ٥١٠ ، ٥٢٠
فيتيليوس ٦١٢
الثيدا ٣١٥
فيدياس ٣٨٢ ، ٣٨٥
فيديبس ٣٦٥
فيلوتاس ٤٢٤ ، ٤٤٥
فيليب ٣٧٨ ، ٣٩٢ ، ٤٠١ ، ٤١٣ ،
٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ،

كاسار ٣٥١
الكير ويديا ٣٩٢

« ل »

لاكيديون ٣٣٤ ، ٢٦٤ ، ٣٦٥
لاوتسي (لاهوتسي) ٤٩٥ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩
اللاتينية (اللبائل) ، اللاتين ٥٠٦ ، ٥٠٨ ، ٥١٠

لنكولن ٣٨٠
لوكرتيوس ٦٢٧ ، ٥٦١
لوكيان ٦٢٢
لوكلوس ٥٨٦
لوكيوس سيكيبيو ٥٥٤
لوجيئوس فيلولوجوس ٦٢٨
ليايا (الليديون) ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٤١٨

ليبيدوس ٥٩٦ ، ٢٩٧
ليسينيوس ٥٢٠
لوسيمانوس ٤٤٨
الليسينية (القوانين) ٥٢٠ ، ٥٧٧
الليسيوم ٣٩٣
ليشوس دروسوس ٥٨٢
ليليبيوم ٥٣٥ ، ٥٣٧
ليوناردو دافنشي ٦٢٧
ليونيداس ٣٦٨

« م »

ماجنا جرايكيا ٣٢٨ ، ٥١٢
ماجنيزيا ٥٥٢
مارا ٤٧٦
ماراتون ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٨٠
ماردوتوس ٣٧٢
ماركوس أوريليوس ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٦
ماركوس مانفيلوس ٥١٩

كاميلوس ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٧٧ ، ٥٨٢
كافي (مركة) ٥٤٤
كايوس جراكوس ٥٨٠
كبادوكيا ٤٤٩
الكتابة ٣٣٠ ، ٣٧٧ ، ٤٠٥
الكائب ٥٥٩ ، ٥٧٧ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤
كراسوس ٥٤٨ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٩١ ، ٥٩٣ ، ٦٤٨

كرما ٤٨٥
كرويسوس ٣٤٤ ، ٣٥١ ، ٣٥٣
كرتياس ٣٨٩
الكرتيون ٢٨٧
كريستوم ٤٧٠
كسندر ٤٤٨
كسرى الثاني ٦٠٩
الكليون ٣٩٦
الكلدانيون ٢٨٢

كلوديوس ٥٩٣ ، ٦١٠ ، ٦١٦
كليتوس ٤٤٥
كليمان ٤٧٠
كليو بطرة ٤٩٢ ، ٥٩٨
كليون ٢٨٧
الكريون ٣٤٦ ، ٣٥٠ ، ٤٤٠
كوش ٢٩٣
كنمان (أرض) ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧
كنوسوس ٣٢٩ ، ٣٤٥ ، ٣٥٠

الكننة ٣٣٢ ، ٣٣٣
كوان بين (ملكة السماء) ٤٩٠
كورنثة ٣٧٠ ، ٥٥٧
الكوريغوس ٤٠٧
الكوميديا (الملهة) ٣٨٤
كرمودوس ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦
كونفوشيوس ٤٩٥ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥١٠
الكونفوشيوسية (الديانة) ٤٩٥

مسينا ٥٣٣	ماريوس ٥٥٨ ، ٥٨١ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤
المشاهون ٤٥٥	٥٩٣ ، ٥٨٥
مصر ٢٨١ ، ٢٨٦ ، ٣٦٦	المأساة ٤٠٧ ، ٤٠٨
مصر ايم ٢٨٦	الماساي ٣٤٩
المعرفة ٤٥٣ ، ٤٥٥	ماسينيوس ٥٤٩
المغول ٦٤٤	ماكولي ٥١٠
مقدونيا ٣٦٢ ، ٣٧٨	مالورى (توماس) ٣١٧
المقدونيون ٣٢٩	ماهاق ٤٥٧
مكتبة الإسكندرية ٤٥٧	مايرز ٣١٦ ، ٥٨٨
الملثمون ٥٢٨	مايرون ٣٨٢
ملتياوس ٣٦١ ، ٣٨٢	مانليوس ٥٧٩
ملحمة (ملاحم) ٣١٥ ، ٣٢٥	مالجوس ٥٧٩
ملحمة (الأعمال والأيام) ٤٠٦	مايور ٢٦٥
(الثيدانتية) ٤٧٤	متاوروس (معركة) ٥٤٥
الملك الرب ٣٩٩	متحف الإسكندرية ٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٦٣
الملكية ٢٩٣	٥٤٥
نظم ٢٩٦	بثريداتس ٥٨٤ ، ٥٨٦
منج قى ٤٩٢	المجادلون ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦
المنشدون ٣١٤	المجادليون ٣٤٨
منف ٤٥٢	مجلس الأحرار ٣٤٠ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧
مهابط الوصى ٣٣٢ ، ٣٥٢	٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٥٩
المقاييون ٢٨٨ ، ٣٠٠	٥٧٠ ، ٥٩٩
مواطن — مواطنون أحرار ٣٣٣ ، ٣٣٦	مجلس العامة ٣٣٨ ، ٥٢٤
٣٣٨	المجلس القبلى ٥٢٤ ، ٤٢٦ ، ٥٢٧
المواطنة ٥٧٠ ، ٦٠٢	٥٢٨ ، ٥٧٠
موسى ٢٨٤ ، ٢٩٩	المجلس المتوى ٥٢٤ ، ٥٢٩
مولك ٣٩٣	محمد ٣٠٤
ميترا ٥٤٥	المدنيات الأولى ٣١٩
الميراثية ٦٣٣	مديان ٢٨٨
ميجابازوس ٣٦٢ ، ٣٦٣	موراي (جلبرت) ٣٧٩ ، ٣٩٦
الميديون ٢٩٧ ، ٣٤٥ ، ٣٥٠ ، ٣٦٥	مستقرات ٣٣٥
الميعاد (أرض) ٢٨٧	المسرحية ٤٠٧
ميكاى (معركة) ٣٧٣ ، ٣٧٧	مسيم ٢٨٦
ميكيناي ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠	مسيح ٣٠٠
ميلاي (معركة) ٥٣٦	المسيحية ٥٦٢ ، ٦٠٤ ، ٦٣٣

هان ٥٨٩ ، ٥٩١
هانو ٥٣٩ ، ٥٩١ ، ٦٢٥
هانيبال ٥٤٤ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٤٠
٥٥٥ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥
هرقل ٥٩٨
هرقلييا (معركة) ٥١٣
هستيائوس ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٧٤
هسيود ٤٠٦
المسپونث ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٢ ، ٤٠٠
٤١٩
الهلينيون ٣٢٧
الهند ٢٨١
الهندوك ٣٢١
هوراس ٦٢٠ ، ٦٢٢
هوميروس ٣١٦ ، ٣٢٧ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦
٦١٩
الهون ٤٤١ ، ٦٤٣ ، ٦٤٥
هيبارخوس ٤٥٦
هيرودوت ٣٠٤ ، ٣٤٤ ، ٣٥١
٣٥٢ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٨٢
٤٥٣ ، ٥٧٣
هيروديس اتيكوس ٦٢٩
هيروفيلوس ٤٥٦
هيرون ٤٥٦ ، ٥٣٣ ، ٥٣٥ ، ٥٣٨
٥٤٥
هيروليموس ٥٤٥
هيفايستيون ٤٤٦ ، ٥٩٢
هيلاس ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧
الهلوطيون ٣٣٢
هيونج نور افطر الهون
«و»
الوفاق (معبد) ٦٧٧
ولز (ج) ٥١٧

ميليتوس ٣٤١ ، ٣٦٢ ، ٣٧٣ ، ٣٨١
٤٣٠
مينوس ٣٤٧
«ن»
قابوليداس ٢٥٥ ، ٢٩٣ ، ٣٥١ ، ٣٥٧ ، ٤٣٦
نبرخله (ناصر) ٢٨١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧
نبي (انبياء) ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤
٣٥١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٦ ، ٥١٠
نيول (نبلاء) ٣٣١
نحميا ٣٠٠
نخاو الثاني ٢٩٧ ، ٤٥٥ ، ٥٩١ ، ٦٢٥
النرقانا ٤٨٢
النق السياسي ٣٤١
النقد ٥١٧ ، ٥٥٩ ، ٥٧٣ ، ٥٧٥
النهج الآري ٤٨٤ ، ٥١٠
نوس ٣٨٥
نيارخوس ٤٢٤
نيرون ٦١٠ ، ٦١٣
نيرقا ٦١٣
نيقوميديس ٥٧٨
نيثوي ٢٩٩ ، ٣٥١
«ه»
هادريان ٦١٣ ، ٦٢٩
هادو (و. ه. و.) ٤١١
هاربالوس ٤٢٤ ، ٤٣٩
هاري جونستون ٥٧٣
هاريقي ٤٩٠
هاسدروبال ٥٤٠ ، ٥٤٤
هاليكارناسوس ٣٧٤ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢
هاملكار بارقا ٥٣٨ ، ٥٤٠ ، ٥٤٣
٥٤٤

— ٦٨٢ —

٢٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤٥٥ ، ٥٠٢ ،

٦٣٢

يهوذا ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٢

يوتوبيا ٣٩١ ، ٣٩٣

يوجورثا ٥٨١

يوريبطلنيوس ٣٨٤

يوريبيلس ٤٠٧ ، ٤١٦

يوسيفوس ٥٧٨

يوشيا ٢٩٨

يوليوس قيصر ٥٦٠ ، ٥٨٦ ، ٥٩١ ،

٥٩٢ ، ٥٩٨ ، ٦٢٨

يونيخ ٣٩٧ ، ٣٤٨

يوييه ثنى ٦٤٧ ، ٦٩٨

واوق ٦٤٧

ويكلر ٣٨١ ، ٣٨٢

«ى»

يهوه ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ،

٣٠٢ ، ٣٣٣ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧

يسوع ٥٦٦

يشوع ٢٨٧

ييتوب ٢٨٤

اليهود ٢٨١ ، ٢٨٢

اليهودية (بلاز أو أرس) ٢٨١ ، ٢٨٣ ،

التعريف بالمرجم

حياته :

ولد بالقاهرة ، وتخرج في المعلمين العليا الأدبية (١٩٢٩) واشتغل بالتدريس حتى رقى وكيلا للمدرسة مصر الجديدة الثانوية (١٩٥١) فديرأ للمركز الرئيسى للتدريب بمشقة البكرى بوزارة التربية والتعليم (١٩٦٣) - وشغف بالثقافة وآداب العربية والإنجليزية والفرنسية منذ حداثته .

أعماله :

اهتم بالترجمة بنوع خاص فنقل إلى العربية ما يلى من كتب .

١- فى التاريخ : - « معلم تاريخ الإنسانية » وصنوه « موجز تاريخ العالم » لولز .

٢- فى تاريخ الحضارات : - (أ) « حضارة الإسلام » - جرونيانوم . (ب) « الحضارة البيزنطية » - رنسيان . (ح) « الحضارة الهلنستية » - تارن . (د) « ميلاد العصور الوسطى » - موص . (هـ) « إدار العصور الوسطى » هويزنجا .

٣- فى علم النفس والتربية : - (أ) « مدخل إلى علم النفس » - زانجويل . (ب) « ثلاثية آرنولد جزل فى تربية الأطفال وسيكولوجيتهم » ، « الحضان والطفل » - و « الطفل من الخامسة إلى العاشرة » - و « الشباب » .

٤- كتب فى السياسة ومتفرقات : - (أ) « آسيا والسيطرة الغربية » - پانيكار . (ب) « حول منع الحرب » - جون استراتشى .

٥- كتب أخرى تحت الطبع : (أ) « أعلام وأفكار » - هويزنجا . (ب) « كيف يفسرون التاريخ » - ألبان ويدجرى . (ح) « التربية عن طريق الفن » - هربرت ريد . (د) « دراسات إنسانية أصيلة » - ألدوس هكسلى . (هـ) « الطفولة وما بعدها » - سوزان ليزاكس .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨-٤٩/١٩٩٤

I.S.B.N 977-01-3766-9

هذا الكتاب - كما يدل عليه اسمه - موسوعة تاريخية شاملة موجزة للحضارة الإنسانية عبر عصورها ويروى قصتها الأديب الإنجليزي الشهير ج. هـ. ويلز، والطبعة العربية عن هذا الكتاب سوف تصدر في أربعة أجزاء يتناول الجزء الأول منها نشأة الكون والنظريات العلمية المختلفة التي تفسر تطوره ثم ظهور الإنسان والأجناس القديمة المندثرة، ويعرض لفكر الإنسان البدائي ومعتقداته الدينية ونشأة اللغة وتقسيماتها ثم لأقدم الحضارات في مصر والعراق والهند، أما الجزء الثاني فيعرض للحضارة الإغريقية والهلينستية والرومانية، ولمحة عن تاريخ العبرانيين، أما الجزء الثالث فيعنس بحضارات العصر الوسيط والجزء الرابع يتناول التاريخ الحديث.

